

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة -
كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها

العدول ودلالاته في أسلوب الشرط
دراسة أسلوبية في القرآن الكريم

أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي

إعداد الطالب : إشراف الأستاذين:
الأخضر سعداني ● د. لخضر بلخير / جامعة باتنة. الجزائر.
● د. محمد وجيه أوزون أوغلو / جامعة 9
أيلول إزمير. تركيا

أعضاء لجنة المناقشة			
الأستاذ	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أ. د السعيد هادف	أ. التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا ومقررا
أ. د لخضر بلخير	أ. التعليم العالي	جامعة باتنة	مشرفا
أ. د السعيد بن براهيم	أ. التعليم العالي	جامعة باتنة	مناقشا
د. عادل مخلو	أ. محاضر	جامعة الوادي	مناقشا
أ. د عيساني عبد المجيد	أ. التعليم العالي	جامعة ورقلة	مناقشا
د. ليلي كادة	أ. محاضرة	جامعة بسكرة	عضوا

السمة الجامعية: 1436 - 1437 هـ الموافق ل: 2015 - 2016 م.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿رَبِّ اَشْرَحْ لِي
صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي
اَمْرِي، وَاَحْلِلْ عُقْدَةً
مِّنْ لِّسَانِي، يَفْقَهُوا
قَوْلِي﴾ .

طه: 25- 28.

إهداء

إلى روعي أمي و أبي الكريمين. رحمهما

الله!

إلى زوجتي الغالية التي تحملت وصبرت لأجلي

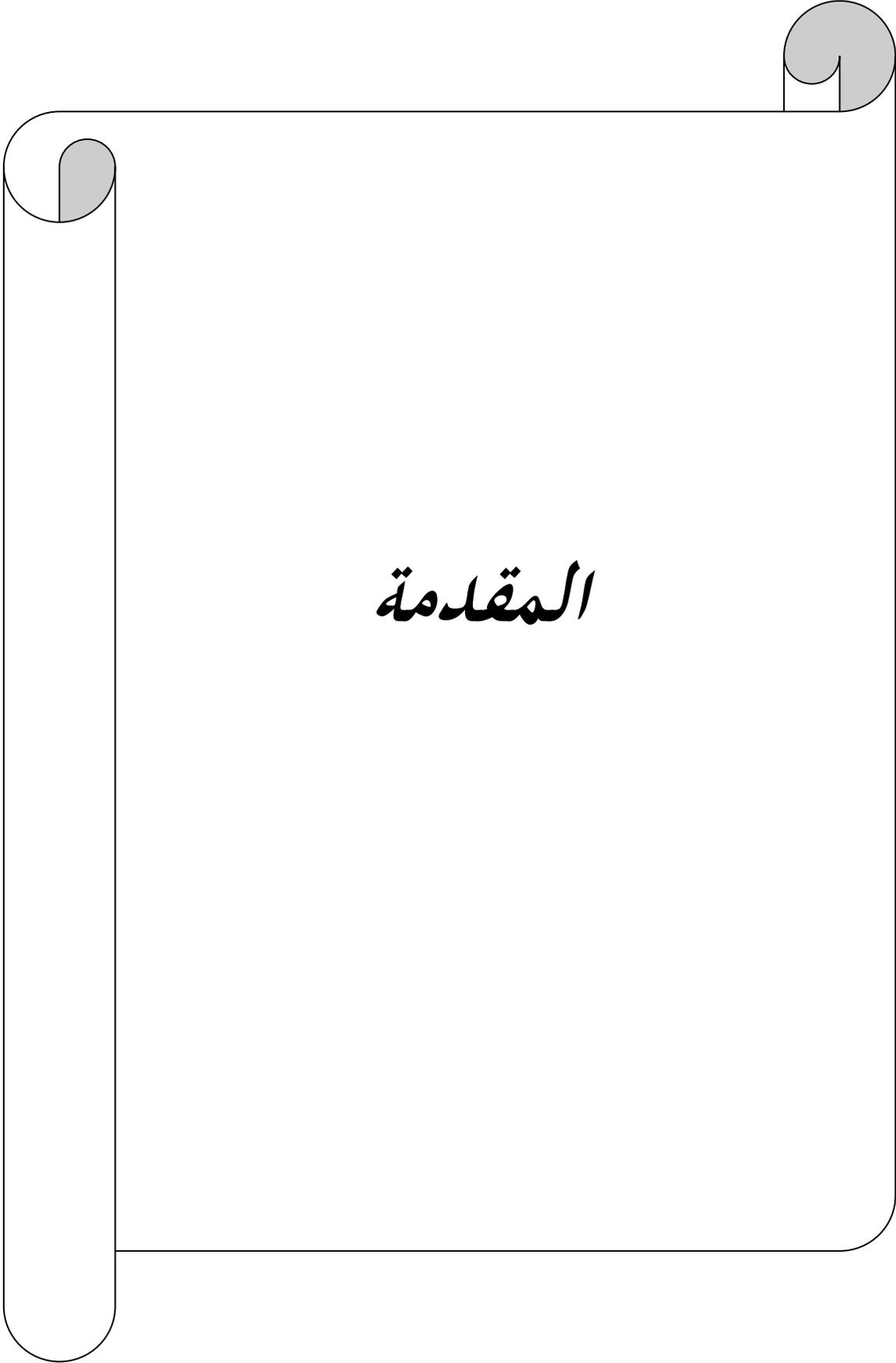
إلى أبنائي وبناتي الأعزاء

إلى أقاربي الأحباء

إلى جميع من ساعدني في هذا العمل من قريب

أو بعيد

...أهدي هذا العمل المتواضع.



المقدمة

الحمد لله أستعينه وأستهديه وأستغفره وأعوذ به من الزلزل، وألوذ برحمته الواسعة من أن ألقاه وأنا معدود من " الأחסرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"، ثم أصلي وأسلم على خير الخلق وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين، وأيده بالذكر الحكيم والبيان المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي سحر بسلطان بيانه أحد أعدائه يوما، فلم يستطع إلا أن يردد: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

حظي موضوع العدول في القرآن الكريم بعناية كبيرة من قبل العلماء والدارسين القدماء والمحدثين. وقد تجلّى لدى القدماء في مباحث علوم القرآن الكريم تحت اسم الالتفات والمجاز وشجاعة العربية ومخالفة مقتضى الظاهر كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي. كما وجد الموضوع نفسه اهتماما عند الدارسين المحدثين مثل دراسة الدكتور حسن طبل الموسومة "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية" ودراسة الدكتور تمام حسان في كتابه "البيان في روائع القرآن".

وأسعى إلى الإدلاء بدلوي في موضوع العدول في القرآن الكريم متتبعا مواطنه ودلالاته في أسلوب لغوي محدد هو التركيب الشرطي، وذلك في إطار دراسة أسلوبية، لعدة دوافع يمكن تلخيص أهمها فيما يلي:

أن العلوم العربية والإسلامية لا تفتأ تتكامل وتتداخل في حياة العربي المسلم، ويظهر تعالقها في الحياة الدينية والفنية، على المستوى اللغوي والنحوي والبلاغي، وفي تفسير القرآن وفي علم الأصول. وكان للباحث رغبة في إظهار مساهمات الجهات العلمية المختلفة في رؤيتها لتفاصيل التركيب الشرطي خصوصا من الناحية الدلالية، وما كان بين هذه الجهات من جهود مشتركة أو متبادلة.

أن التركيب الشرطي - حسب تحرياتي المتواضعة - لم يحظ بدراسة متخصصة في جانب محدد منه هو حصر مواطن العدول فيه، وما ينتج عنها من آثار دلالية وجمالية، مع تقديم ذلك في دراسة مدققة. الإيمان بأن النص القرآني لا يكفي اعتباره نصا منغلقا على نفسه، ثم يعالج من منطلق المستويات اللغوية وحدها، أي بمعزل عن الاعتبارات الخارجة عن السياق اللغوي.

الرغبة في بيان وجه من وجوه التطبيق العملي لعلم النحو النظري، وهو توظيف قواعد النحو في معرفة دلالة النصوص القرآنية على الأحكام. وهو ما اضطلعت به مباحث علم أصول الفقه.

أنّ التركيب الشرطي تركيب يثير مشاكل مبدئية وتطبيقية متنوعة؛ فهو مثل التراكم التلازمية لا يمكن قصر النظر فيه على الوجهة الإعرابية التفكيكية المعروفة بإعراب المفردات، ولكن يحتم على الدارس نظرة تأليفية تتجاوز الأجزاء التكوينية إلى حصيلتها الإجمالية. وكان البحث في أغلب جوانبه يدور حول الحصيلة الإجمالية للتركيب الشرطي، وما يتصل بهذه الحصيلة من قضايا تركيبية ودلالية.

من بين الأغراض المبتغاة ما هو في الأساس الغرض من علم المعاني وهو معرفة الإعجاز القرآني، وإدراك عظمة الكلام الرباني، فمن توصل إلى ذلك عرف قدر كتاب الله وفضله. وقد قيل قديما شرف العلم يتعلق بشرف المعلوم.

كما أردت أن أتوصل إلى معرفة مدى الإسهامات البلاغية والنقدية التي قدمها علماؤنا مما يمكن وضعه في مصاف الدراسات الأسلوبية الحديثة سواء على المستوى النظري أو التطبيقي.

بيان القيمة الإضافية للنحو الأصولي في مجال الدلالة المتعلقة بالتركيب الشرطي، وهي دلالة التخصيص المتصل ممثلة في الشرط.

بيان أن الأسلوبية السياقية هي الأنسب لدراسة الدلالة القرآنية لاهتمامها بكل من الخصائص التركيبية للنص والتأثيرات الخارجية ذات السلطة المتحركة في الدلالة.

اكتشاف الدلالات اللامتناهية والقيم الفنية الكثيرة للعدول في التركيب الشرطي، بوصفه أعقد التراكم.

ومن أجل بلوغ الأهداف المرجوة من البحث، وجب عليّ انتهاج خطة مناسبة أعرض من خلالها مادته، ساعيا إلى بيان النتائج التفصيلية خلال الفصول التي يبنى عليها البحث.

المقدمة، ومن خلالها تم إلقاء الضوء على أسباب اختيار موضوع الأطروحة والإشكالية التي يطرحها ويسعى لتحليلها والإجابة عنها، وعرض لخطة البحث. يليها مدخل يتناول بيان الإطار العلمي والمنهجي الذي ينشط فيه البحث. وعقب على المدخل بمتن البحث الذي قدم من خلال دراستين الأولى نظرية والأخرى تطبيقية، اشتملت الأولى على فصلين، والثانية على ثلاثة فكان مجموع الفصول خمسة:

الفصل الأول: مفهوم "العدول" في الفكر البلاغي والنحوي عند العرب، وفي علم الأسلوب الحديث.

الفصل الثاني: مبادئ نحوية نظرية في التركيب الشرطي تناولت مفهوم الشرط وأدواته وبعض الأحكام المتعلقة بالعناصر المكونة لهذا التركيب، وكذا ما قد يعتري هذه العناصر من ظواهر نحوية تعدل بها عن أصولها.

الفصل الثالث: دلالات العدول بالزيادة في التركيب الشرطي.

الفصل الرابع: دلالات العدول بالحذف.

الفصل الخامس: دلالات العدول في جملة من المباحث المتفرقة وهي في دلالات العدول بالاستبدال، وبالتقديم، وبخروج الشرط والجزاء من باهما.

وبالإضافة إلى المادة النظرية البحتة التي أثبتتها في الشق النظري من البحث، فإني أضفت بعض المقدمات والإيضاحات النظرية في الشق التطبيقي من هذا وذلك لأجل فضل توضيح العناوين الفرعية، ولإحضار بعض المعلومات الضرورية ووضعها قريبة من تحليل النماذج القرآنية المنبئية من شرط وجزاء. ومن الجدير بالإشارة أن الشروح أو مناسبات النزول التي ترد عقب الآيات المختارة للدراسة، توخّيت منها ما كان أوجز، مستعينا بما احتوته مصادر التفسير القديم منها أو الحديث، وربما اعتمد منها ما كان متأخرا في الزمن عن غيره أو كان غيره أوسع منه؛ لأن من جملة أهدافه أن يتضح مضمون النص القرآني الذي هو موضوع دراسة.

الخاتمة: وختمت عملي بطائفة من النتائج المستخلصة من الشق التطبيقي من البحث.

تلاها ملحق بالآيات المدروسة، و ملحق خاص بآيات قرآنية مشتملة على نماذج من التركيب الشرطي الشبيهة بما جرت عليه الدراسة، وفهرس بالمخططات والجداول المستعملة، وفهرس الموضوعات. ومنهج الأسلوبية هو من أهم المناهج النقدية الغربية، وسأحاول تطبيقه على لغة القرآن الكريم. لأن التعبير القرآني ما هو إلا توظيف فردي معجز للغة العربية، وهو في كل حال دراسة للغة عندما تخرج من النظام المجرد المفروض بالقوة إلى الاستعمال الفعلي الذي ينطبع بخصائص أسلوبية متعددة المستويات. وقد اخترت هذا المنهج لما فيه من توافق النظرة الأسلوبية، التي تتسع دراستها للجملة والنص بكامله، مع منهج البلاغة العربية الذي لا يتجاوز بحثه نطاق الجملة أو الجملتين، عدا مبحث الإيجاز والإطناب.

وقد وجدت وفرة في الدراسات التي تتحدث عن "العدول" وأسلوب الشرط، ونفس الأسلوب في القرآن الكريم، وتمثل هذه الدراسات في الرسائل العلمية والدراسات العربية الحديثة التي تناولت التركيب الشرطي بما يعتره من عوارض نحوية، منها الدراسة التي أعدها أحمد اللهيبي في جامعة الأزهر وعنوانها "أساليب الشرط والاستفهام في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر 1976م"، ومنها الدراسة التي أعدها عبد العزيز على الصالح المعيد وعنوانها: "الشرط في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، دار العلوم بجامعة القاهرة 1976م" ومنها أيضاً الدراسة التي أعدها إبراهيم بركات وعنوانها "الجملة الشرطية عند الهدليين.

رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة القاهرة 1977م". ودراسة قدمها الأستاذ صبحي عمر شو بعنوان: "أسلوب الشرط والقسم من خلال القرآن الكريم" صدرت عن دار الفكر سنة 2009 بالمملكة الأردنية. والملاحظ أن هذه الدراسات والرسائل جميعها تفيد من كتب النحو في تحليل النصوص اللغوية وتطبق أحكامها على النصوص المختارة من القرآن الكريم أو الشعر، دون الاهتمام بالبحث في المعاني المستهدفة من وراء الاستعمالات المنزاحة عن المعيار الذي يبنى عليه التركيب الشرطي. ومنها دراسة للدكتور أشرف ماهر محمود، وعنوانها "أنماط الشرط عند طه حسين: دراسة نحوية نصية من خلال الأيام والوعود الحق"، وهي دراسة لسانية وصفية للنماذج المأخوذة من عملين أدبيين للدكتور طه حسين، ولا تكثرث للتمييز على الآثار الدلالية لذلك العدول، وتتوقف عند الوصف النحوي والكمي والنوعي للأساليب. وثمة بعض الدراسات الحديثة المتصلة بهذا التركيب ربطت بين المستوى النحوي والمستوى الدلالي، وتكاد تكون منحصرة في بعض الدراسات التي قد تتخذ من الأدب مدونة لها، ومثالها مقال بعنوان "التركيب الشرطي في مقابسات أبي حيان التوحيدي: وهي دراسة تركيبية دلالية للأستاذ الدكتور سعيد حسن بحيري" ربط فيها بين الأفكار المنطقية والفلسفية التي يراد بيانها وبين أبنية الفروض وهي التراكيب الشرطية التي تدل على معنى "مطلق التعليق" وهو المعنى المستخدم في المقابسات. سعود بن عبد الله الزدجالي بعنوان: "التركيب الشرطي في النحو والأصول: مقارنة في المفهوم والقضايا النحوية والدلالية والأثر الفقهي"، صدر عن دار الفارابي بيروت سنة 2008. ويبحث موضوعه في جوانب الالتقاء والاختلاف في دراسة الشرط بين النحاة والأصوليين، ويكشف عما للنحو من أهمية كبيرة في الدراسات الأصولية والفقهية في التراث الإسلامي، وأثر الخلاف النحوي في الاختلاف الفقهي وتباين الأحكام. ومنها دراسة قدمها الأستاذ كما اشترك كل من الدكتورين عبد السلام المسدي ومحمد الهادي الطرابلسي في دراسة عنوانها: "الشرط في القرآن الكريم على نهج اللسانيات الوصفية" ودرسا في هذا العمل مظاهر بنية التركيب الشرطي انطلاقا من نظرية النحو العربي كما تبلورت عند ابن يعيش في شرح المفصل، وابن هشام في مغني اللبيب، وقدمنا في الشق الثاني من هذا العمل دراسة وظائفية، تستقصى المحال الإعرابية للتركيب الشرطي في السياقات القرآنية المختلفة.

وأهم الكتب التي عولت عليها مصادر ومراجع تراثية وحديثة، تتمثل في كتب اللغة والنحو وعلوم القرآن والأصول والتفسير والنقد والبلاغة والأسلوبية.

فمن كتب النحو واللغة كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد ومعاني القرآن للفراء وشرح المفصل لابن يعيش، ولسان العرب لابن منظور ومغني اللبيب لابن هشام، والنحو الوافي لعباس حسن واللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان وغيرها. ومن كتب علوم القرآن البرهان للزركشي والإتقان للسيوطي ومن كتب الأصول: نفاثات الأصول في شرح المحصول للقرافي، والمستصفي للغزالي، ومن كتب التفسير الكشاف

للزمخشري وتفسير القرطبي وتفسير الطبري وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور. ومن كتب البلاغة والنقد دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ومفتاح العلوم للسكاكي والعمدة لابن رشيق وبديع القرآن لأبي الأصعب ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني وأصول النقد الأدبي أحمد الشايب، ومن كتب الأسلوبية اتجاهات البحث الأسلوبي لشكري محمد عياد، والأسلوبية والأسلوب لعبد السلام المسدي، والأسلوب لأحمد الشايب وكتاب سعد أبو الرضا الموسوم ب: النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية. كما استعن ببعض المجالات النقدية والمواقع الإلكترونية للاستئناس ببعض المقالات.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف بالجزائر الدكتور لخضر بلخير الذي تولى برعايته عملي في كافة مراحل البحث وعبر سنوات طوال، وبرحابة صدره ودائم ابتسامته، وبجميل صبره إلى أن استوى هذا العمل المتواضع. ولا أنسى أبدا متابعة الأستاذ المشرف بالخارج الدكتور محمد وجيه أوزون أوغلو من الجمهورية التركية، وأشكره هو الآخر على حسن استقباله لنا، وفتح مكتبه لنا في كل وقت، ومدته يد العون لنا بترجمة وثائق إدارية وملخصات تهمنا، ومساعدة على نشر مقال في مجلة جامعية تركية محكمة. ويجب عليّ أيضا أن أنوه بالمساعدات الجمّة التي كان الدكتور عادل مخلو يسديها إليّ بدون منّ أو تأخر.

هذا وقد بذلت غاية ما أقدر عليه من الجهد، فما هو من خير وصواب في هذه الرسالة فمن الله تعالى، وما فيها من خطأ أو تقصير فهو مني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المدخل

1. ارتباط مواقع الكلام بمقاصد المتكلمين.
2. العدول عن الأصول إجراء بلاغي وأسلوبى واع.
3. تطبيق المنهج الأسلوبى على النص القرآنى.

ارتأيت أن استعرض جملة من المسائل ذات الصلة المباشرة بالموضوع الرئيسي للبحث الذي هو "العدول ودلالاته في أسلوب الشرط دراسة أسلوبية في القرآن الكريم" من أجل إضاءتها. إنها ضرورية من حيث إنها تمهد لشرعية هذه الدراسة، ولمبرر وجودها.

1. ارتباط مواقع العناصر التكوينية للتراكيب بمقاصد المتكلمين

اهتمت قواعد التركيب اللغوي التي صاغها علماء العرب، بتحديد منازل الكلم في العبارة النحوية، بحيث يقوم المتكلم بعملية تأليف بين أجزاء الكلام، ويركبها تركيباً على وعي أو لا، إلى بعضها البعض حتى يستوي الكلام على الوجه الذي يمكن من تشكيل معنى ذهني يقصد إليه المتكلم، ويهيئ إيصاله إلى المخاطب. يقول السكاكي في تعريف علم النحو والهدف منه: "اعلم أن النحو هو أن تنحو معرفة التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب...¹" ومعرفة كيفية التركيب هي أن يعلم أن بعض الكلم يقدم على بعض، وأنه عليه أن يراعي الهيئات الإعرابية لهذا وذلك، وأن يكون عالماً بنوعية المفردة اشتقاقاً وجموداً وعدداً ومطابقة... الخ. وإلى هنا فإن قصد السكاكي منحصر في غرض معين من التراكيب، وهو التراكيب النحوية والصرفية التي تضمن الصحة وإيصال المعنى الأصلي إلى ذهن المتلقي.

ويؤكد عبد القاهر الجرجاني فكرة احتلال الكلمات لمواقعها بالصفة التي يقضي بها منهج العرب في كلامهم، وأن أجزاء الكلام إذا وضعت في منازلها تجعل التركيب مفيداً ومؤدياً للغرض المراد. قال عبد القاهر: "والألفاظ لا تُفِيد حتى تُؤَلَّف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعَمَد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمّدت إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ فعددت كلماته عدداً كيف جاء واتَّفَق، وأبطلت نضدته ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبسّقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في "قفا تَبْكُ من دِكْرَى حَبِيبٍ ومنزل": "منزل قفا ذكرى من نبيك حبيب"، أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهديان...² إن ضرورة أن تحتل الكلمات مواقعها التي لها، بصورة مخصوصة هو الذي يمنح التركيب خصوصية تجعله مؤدياً لغرض من أغراض المتكلم.

وتراكيب العربية تمنح أحكاماً خاصة لبعض الكلام، فيقال إن من حق هذا أن يسبق هذا، وإن من حق ما هاهنا أن يقع هناك. وذلك ما قيل في حق المبتدأ والمفعول والفاعل، كما أنه وجب في حق جنس من الكلم ألا يقع إلا سابقاً، ووجد في جنس آخر منه ألا يقع إلا وهو مبني على سابق له كالصفة والمستثنى وبعض الأجوبة.

1 - السكاكي (أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983، ص 75.

2 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، 4-5.

والعلاقة بين التركيب والمعنى قضية عريقة في كتب النحو العربي، إذ تفتن كبار علماء العربية مثل سيويه والمبرد و عبد القاهر الجرجاني وغيرهم إلى أن التراكيب المعيارية، وكذا التراكيب التي تطرأ عليها ظواهر تركيبية معينة كلاهما تعبر عن معانٍ وخواطر من قبيل أصل المعنى أو قبيل المعنى الأدبي. يقول سيويه بهذا الصدد إن التقديم في الكلام يكون لأغراض، من بينها الاهتمام بالمتقدم والعناية به، يقول: "... كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهماهم ويعنيانهم." ¹ فالذي يقدمونه في كلامهم يكون مشيراً إلى فضل اهتمامهم ومزيد عنايتهم، كما أن التقديم وهو أحد الظواهر الأسلوبية التي لا تقع في كلامهم اعتباطاً ولكن عن وعي، مقصود بها الإبانة عن غرض ما، يزيد أهمية عن المعنى الأصلي، وهو المعنى البلاغي.

وحول المعاني البلاغية التي تزخر بها بعض التراكيب اللغوية يدور مفهوم النظم الذي ألف فيه عبد القاهر الجرجاني كتابه "دلائل الإعجاز"، وفصل فيه القول بأنه "لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم." ² ونظرية النظم هي نفسها علم المعاني الذي صنفه علماء البلاغة فيما بعد بوصفه أحد علوم البلاغة، وعرفه بعضهم بأنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال." ³ واشتمل هذا العلم على مباحث تعرض التراكيب النحوية في صورتها الصحيحة المطابقة لما هو أكثر شيوعاً في الاستعمال، كما تعرضها وقد طرأت عليها بعض الظواهر السياقية، وترصد المعاني البلاغية التي تنتج عن هذه التراكيب.

ومهما يكن من أمر فإن التراكيب التي عرضوا لها في مباحثهم وحللوها انطلاقاً من نصوص راقية، بينوا فيها مكامن البلاغة والسحر والجمال، بغض النظر عن كونها باقية على الشكل النمطي الموافق لأصل الكلام وبنيتها، أو عدلت عن ذلك قليلاً أو كثيراً. وهذا يعني أنهم كانوا يقارنون التراكيب التي دخلت في حيز الوجود اللغوي الأدبي بالتراكيب الافتراضية السابقة التي تظهر فيها أجزاء الكلام منزلة في منازلها. وإن هذه النظرة المقارنة هي التي يخرج إليها مصطلح الانزياح في الدراسات الأسلوبية المعاصرة.

فالانزياح هو إجراء لغوي يعتري الكلمة أو الكلام، فيتوصل به المتكلم إلى عالم أرحب وأوسع، ملؤه الدلالات الجديدة والجميلة، وهي دلالات قد لا يوفّي بها التعبير بالتركيب اللغوي الأول.

ولهذا فإن أهم مقومات القول الجميل هو أن أنه يكسر نظام الإمكانيات اللغوية التي تهدف إلى نقل المعاني في مستواها العادي، لأجل زيادة عدد الدلالات الممكنة. وعبر الدكتور رجاء عيد عن دور

1 - سيويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 34/1.
2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004، ص 370.
3 - الخطيب القزويني (الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في وجوه البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط 1، ص 37.

العدول وأهميته في التركيب الأدبي، وأنه لولاه ما استطاع الأديب الإفراج عن انفعالاته الداخلية، فقال إنه يمكن القول بأن التعبير الأدبي لا يجد مندوحة عن استثمار خصائص التركيب اللغوي لئيبين عن داخله الانفعالي، فينشئ بذلك بناء لغويا له نسقه الجمالي، وتركيبه اللغوي الخاص.¹

لا يفرج الأديب عن مشاعره إلا باستخدام الأسلوب الأدبي الذي يعتمد على مخالفة المألوف واستثمار ما تتقبله التراكيب من مجاوزات مسموح بها، من شأنها أن تصير التراكيب المألوفة إلى أنساق لغوية ذات دلالة وجمال.

2. العدول عن الأصول إجراء بلاغي وأسلوبى واع:

وتقوم البلاغة العربية بتفسير وتحليل الكلام من أجل رصد الوقائع الأسلوبية التي ميزته، معتمدة على اعتبارات لغوية أصولية، ناظرة في مدى الخروج عنها، باحثة في الدلالات الكامنة، المراد تبليغها إلى المتلقي، مسجلة الآثار الجمالية والقيم الحجاجية فيها، وما صنيع عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" إلا استثمار منه للبلاغة في تحليل النص الأدبي. وتميزت البلاغة العربية في العصور المتأخرة بأنها معيارية بسبب التحجر الذي أصابها على أيدي المتأخرين الذين قرروا قوالب منطقية جافة جعلوها حدودا للبلاغة، من حاد عنها حاد عن البلاغة.

يقول محمد عبد المطلب عن البلاغة العربية القديمة بأنه مما لا شك فيه أن معظم مباحثها قامت "على أساس وصفي من دراسة النماذج الأدبية الراقية للشعراء والنثرين، وقبل هؤلاء وأولئك دراسة النموذج القرآني باعتباره المثل الأعلى في الأداء الفني الذي يبلغ مرتبة الإعجاز، وكان رصد أوجه الحسن في الأداء الفني بكل ألوانه المعروفة هو بداية الدرس البلاغي والنقدي القديم، غير أن هذا المنهج الوصفي لم يستمر طويلا حيث انقلب إلى معيارية خالصة، اعتبر فيها البلاغيون أنفسهم أوصياء على الإبداع الأدبي من خلال توصيات قننوها وجعلوها سيفا مسلطا على رقاب الأدباء." ² فهذا القول يصف طبيعة البداية التي كانت عليها الدراسة البلاغية، حيث كان يغلب على معظمها المنهج الوصفي في تناول النماذج القرآنية والأدبية بالدراسة، وربما ختم بإنتاج عبد القاهر الجرجاني لكنتيه الدلائل والإعجاز، وهو منهج لم يكتب له أن يستمر. وخلف بعدهم جيل حولوا الدرس البلاغي إلى قوانين عقلية جافة بمعياريتها.

وشقت البلاغة العربية عند المتأخرين لنفسها منهجية خاصة في دراسة التركيب اللغوي، ينطلق من تعبيره عن المعنى الأولي، ويشئى عليه بعرض الأداءات المتنوعة لهذا التركيب، ثم شروط مطابقة الكلام لما

1 - ينظر: رجاء عيد، لغة الشعر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985، ص 87.

2 - محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، 1994، ص 258-259.

يقتضيه حال المخاطبين، ويعقب ذلك الأمور التحسينية ذات القيمة الجمالية المحضنة التي لا دخل لها في الزيادة في المعنى الأصلي. وهم في هذه الدراسة البلاغية اتجهوا الأسلوبية إلى تناول الخطاب الفني لا الخطاب العادي. وأدركوا أن الجدير بالدراسة والبحث هو الوسائل التعبيرية البارزة، التي تمثل مركز الثقل في الخطاب الفني.¹ ولكن البلاغة العربية لم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل، كما لم يتسن لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل، وكان ذلك بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية - في مجال الإبداع - كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة التي انحصرت فيها البلاغة العربية.

ولهذا أرى أنه من الأنسب دراسة المدونة القرآنية بناء على الأسلوبية العربية الضاربة جذورها في القرنين الثالث والرابع المحجريين، وذلك قبل أن يصيها التحجر والتقولب في قوالب تقنينية حافة، كما أنها بلاغة تتقاطع في كثير من آلياتها مع الأسلوبية الحديثة، وتتوفر على ما هو خصوصيات تليق بمقام النص القرآني.

وتتجه وظيفة الأسلوبية الغربية إلى دراسة مستويات لغة الكلام الذي يشكل العبارة أو النص أو الرسالة، مستعملة ما تفضلت به اللسانيات في إنتاج أدوات البحث الأسلوبي، وهي أدوات علمية نتيجة لدراسات دقيقة في مباحث متعددة تشمل ما هو صوتي، ودلالي، وتركيب، وصرفي، وتصبو إلى وضع اليد على الوقائع الأسلوبية، أو مظان الإبداع في النص، وهي وقائع تمثل خروجاً عن المألوف والمستعمل، مكثفية بالوصف والموضوعية، مبتعدة عن المعيارية، وتمتد نظرتها إلى ما وراء ذلك مثل رصد المميزات العامة لنوع من الأنواع الأدبية، أو الخصائص العامة لشعر شاعر معين أو الوقوف على السمات العامة لأدب عصر من العصور... الخ

وإذا كان العدول - وهو إجراء بلاغي أو أسلوبي - يستخدمه المنشيء لإكساب التركيب مزايا بلاغية، ولإضفاء الصبغة الشعرية على القول، فإن هذه المنزلة لا تعني أن الكلام لا يكون بليغاً ولا أدباً إلا إذا أجري على الأنساق المعدولة التي تم فيها التحويل عن الأنماط التي ضبطتها قوانين اللغة. ولكن جمال الأسلوب وبلاغتها قد يصادفان إذا وافقت التراكيب الأصل أو خالفته، شريطة عدم مخالفة الفصاحة؛ لأنه لا يكون الكلام بليغاً إلا إذا توفر له شرط الصحة والفصاحة.

والعدول عن القوانين الأصول للغة ليس إجراء اعتباطياً غير مسئول. ولكنه عملية مختارة وواعية لها ما يعللها، وهو الغرض البلاغي المطلوب، والذي يحدده انطلاقاً من استشارة السياق. وإذا كان الكلام غير

معدول به، فهو الآخر قد يتضمن غرضاً بلاغياً وقد لا يتضمن¹، على أنه لا يسأل عن العلة التي كانت وراء انتحاء الأصل؛ فما جاء على الأصل لا يسأل عن علة، غير أنه يعد بليغاً لما فيه من مساواة تنأى به عن الإيجاز والإطناب.

3. تطبيق المنهج الأسلوبي على النص القرآني:

ويرتبط بقضية المدونة القرآنية، والأدب العربي أيضاً قضية إمكانية أو صحة تطبيق الأسلوبية الغربية على النص القرآني. فهل يصح ذلك التطبيق من غير مراعاة ما للقرآن من خصوصية من حيث المرسل، والمتلقي، والرسالة من جهة دلالاتها وطريقة نقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؟

المرسل هو الله الخالق كل شيء، والمرسل إليه عام من الإنس والجن في كل الأزمنة، وبعضهم يتلقاها وبعضهم لا يفعل، بسبب وجود صلة روحية بين المتلقي والرسالة وحسب درجة تلك الصلة، أو انعدامها. والرسالة هي النص القرآني وهو معجز، ثابت الألفاظ متعدد الدلالة، يخاطب جميع المتلقين بالحقيقة المطلقة في كل الأزمنة والأمكنة.² إن هذه المرتكزات الثلاثة المميزة لدائرة التخاطب بين الله والناس، لجديرة برسم تفوق الخطاب الإلهي وإعجاز الرسالة الربانية، وباعثة على أن ننظر إلى انخفاض مستوى تلك المرتكزات في الخطاب البشري. الشيء الذي يدفع إلى اعتبار أن استعمال المقاييس الموحدة لدراسة الخطابين هو نفسه ظلم في حق الخطاب الإلهي.

ويرى الكثير من الدارسين العرب المعاصرين أن الأسلوبية الغربية لها جذور في التراث العربي، في البلاغة والنحو والأدب والنقد والدراسات الإعجازية. يعرف ذلك بالاطلاع على بعض أعمال ابن المقفع والجاحظ وسيبويه والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز والآمدي والقاضي الجرجاني وابن طبا طب العلووي وعبد القاهر الجرجاني وابن حمزة العلووي وابن أبي الأصبغ وابن خلدون والسبكي والتفتازاني وغيرهم.

وقد لاحظ هذه الحقيقة الأسلوبية شكري محمد عياد قائلاً: "إن الأسلوب يكون أكثر تحديداً لدى النقاد المغاربة: حازم القرطاجني (684 هـ) في منهاج البلغاء وابن خلدون 808 هـ³، ولعل أبرز ما ميّز منهج حازم اهتمامه بثلاثية التواصل اللغوي: "الشاعر، والعملية الشعرية، والمتلقي" وهي الأسس التي كان النقاد والبلاغيون ينظرون - في الغالب - إلى واحدٍ من ها دون الآخر، وهو ما جعل منهجه قريباً من

1 - ينظر: إبراهيم بن منصور التركي، البنية التركيبيّة: قراءة في التراث البلاغي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج19، ع40، ربيع الأول 1428 هـ الموافق لـ 2008م، ص591.

2 - حسن منديل حسن العقيلي، مقال: الأسلوبية العربية الإسلامية، <http://www.voiceofarabic.net>.

3- شكري محمد عياد، اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، القاهرة، انترناشيونال برس، 1988، ط 1، ص19.

إنجازات التفكير اللساني والأسلوبي الحديث . كما أن الكثير من القضايا الأسلوبية، ونظرية السياق كان علماء التراث البلاغي قد عرضوا لها بتسميات مختلفة، خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين.¹

ومن أهم التقاطعات بين الموروث البلاغي والنقدي العربي وبين الأسلوبية المعاصرة دراسة العدول عن المعايير اللغوية، وهو الانزياح في اصطلاح المعاصرين، كما أن مقولتي البلاغيين العرب "مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولكل مقام مقال" تشبهان فكرة شارل بالي حول مسألة "علاقة الأشكال اللغوية بالفكر".² بل ويُعدّ جل الدارسين "النظم" الذي جاء به عبد القاهر الجرجاني هو الأسلوب، فعدوه مؤسس الأسلوبية العربية، وقارنوا بينه وبين سوسير وتشومسكي وبالي وغيرهم ليتوصلوا إلى أنه سابق عليهم.³ وهي استنتاجات لا تحيد عن الصواب.

وفي إطار احترام الخصوصية الأسلوبية للنص القرآني، وتفردده عن الأساليب الأدبية للنصوص التابعة للبشر، تندرج الدراسة التي أقوم بها متحريرا التراكيب الشرطية في كتاب الله متتبعا ما يعترضها من أشكال العدول مستنبطا ما تقدمه من دلالات وما توحى به من معان ثانية وقيم فنية.

ويصدق على الدراسة التي أنتهجها أن توصف بالدراسة البلاغية؛ كونها تتحرى مواضع الخروج عن النمط النحوي للتركيب الشرطي لتسجل ما وراء هذا الإجراء الصياغي من معان نحوية أو دلالات ترجع إلى تصرف المتكلم في بناء التركيب الشرطي نفسه، أو تعود إلى تصرف فيه من حيث العطف عليه. وعلى هذا فإن هذه الدراسة تندرج في علم المعاني الذي اتضحت معالمه في كتاب عبد القاهر عبد القاهر الجرجاني الذي ألفه في نظرية النظم، وجعله بعنوان "دلائل الإعجاز في علم المعاني".

كما يصدق عليها دراسة أسلوبية لأنها تركز على بحث اللغة Langue ليس في شكلها كنظام مفترض، ولكن بصفتها كلاما Parole أي حديثا محقق فعلا. وبعبارة أخرى فهي دراسة تبحث في طرق استخدام اللغة وأدائها، وذلك حينما يعمد المتكلم أو الكاتب إلى اللغة فيستخدمها استخداما يقوم على الانتقاء والاختيار، ويركب جملة ويؤلف نصه بالطريقة التي يراها مناسبة، وأكثر تأثيرا.

والدراسة الأسلوبية البنيوية تعمل بمنهج يسعى إلى تخلص النص الأدبي من السياقات الخارجية وشروطه الإبداعية، لتجعل منه المترجم بنفسه عما يتضمنه من أحداث أسلوبية.⁴ وهو منهج لا يضمن استكناه جميع الأبعاد الدلالية التي قد تزخر بها خطابات معينة؛ لأن السياقات الخارجية قد تكون من أهم

1 - أبو علي محمد بركات حمدي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل 2003، ص 7.

2- المرجع السابق، ص 8.

3 - عبد المنعم خفاجي وغيره، الأسلوبية والبيان العربي، ط 1، 1992، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص 5، 27.

4 - موسى رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن، الطبعة 1، 2003، ص 9.

محددات المعنى، وذلك مثل المناسبة التي دفعت إلى إنتاج النص، والأشخاص الذين صدر عنهم النص أو وجه إليهم، وسلوك أسلوب التعريض... الخ وهو ما عملت به الدراسات اللسانية الوظيفية، فقد تجاوزت الوظيفية البنيوية الصورية، التي تعد النسق مغلقاً على نفسه، ولذا لم تتجاوز حدود البنى اللغوية. فللسانيات الوظيفية لم تزد الظروف والملابسات المحيطة بالكلام. وأكدت أن المقام هو الذي يفرض نمطاً معيناً من القول.¹ فتكون الوظيفية بذلك قد احتوت السياق اللغوي و سياق الموقف context of situation وفي تفاعل مستمر بين الداخل والخارج: التركيب أو النص، والموقف، وبين المبنى والمعنى، وبين الشكل والوظيفة.

ومن الأهداف التي تصبو إليها الدراسة الأسلوبية أنها تتحرى مواطن العدول أو الانحراف سواء في داخل حيز الجملة، أو في ما حول الجملة من جاراتها المتقدمة عليها أو المتأخرة عنها. والبحث الحالي - في بعض من مباحثه - يتجاوز التركيب الشرطي لينظر في حيز يكبره، يمتد إلى ما قبله، أو يتجاوزه بأن يكون معطوفاً عليه ما بعده.

وهناك جهتان اعتبرهما معياراً يبنى عليه وجود ظاهرة العدول في النماذج المختارة التي أخضعتها لتحليل اللغوي والأسلوبي، **أولاهما**: اللغة بوصفها نظاماً ممثلاً في القواعد الأصولية، وأما ما يتفرع عن هذا النظام من ظواهر تركيبية أفقية، أو اختيارية عمودية جارية على بعض أركان التركيب الشرطي، فهو إجراءات أسلوبية تهدف إلى تحقيق قيم أو أغراض دلالية وجمالية.

وثانيتهما: اعتبار التركيب الشرطي ذا مدلول مقابل لمدلول المنطوق، وهو ما يعبر عنه في علم أصول الفقه بمفهوم المخالفة أو فحوى الخطاب. ويكون السكوت عنه هو الأصل؛ لأن المفترض في العقل البشري أنه يدرك ذلك المعنى المقابل، ولا يكون في حاجة إلى ذكره. وأما إذا ذكر التركيب الشرطي الآخر الذي يعبر عن المعنى المخالف، إثر التركيب الأساسي الأول، فهو عدول عن الأصل يحمل دلالة بلاغية مخالفة لما وضع التركيب الشرطي للتعبير عنه، وينبغي على الباحث التماسها وتحديدها. وربما كان لبلاغة الإطناب القول الفصل في الكشف عن الدلالة المتوخاة، لأن المتكلم يراعي حال مخاطب خاص في موقف خاص، ويسعى إلى أن يؤثر فيه.

1 - بداش حنيفة، الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان. رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة باتنة، 2008، ص أ.

تمهيد

أقوم في هذا الفصل بجمع ثلاثة مباحث هي العدول بالاستبدال وبالتقديم من تأخير وبالخروج من باب المجازة. وليس هناك جامع بين هذه المباحث غير الرغبة في إقامة التوازن بين الفصول؛ لأن فصلي العدول بالزيادة والعدول بالحذف تطلبا كما كبيرا من الصفحات، وبقي من الدراسة استيفاء العدول بالأنماط الثلاثة المذكورة أعلاه. وهي أنماط بعضها حالته واحدة وإن تعددت أمثلته كالتقديم، وبعضها حالاته قليلة وكذا نماذجه كالخروج من باب المجازة، وبعضها كثير الحالات والنماذج وهو العدول بالاستبدال، غير أنه يمكن اختصاره.

نظرا لهذه الحقائق المتصلة بهذه الأنماط الثلاثة من العدول، رأيت أن يجمعها في فصل واحد، طلبا للتعداد الكمي بين الفصول.

المبحث الأول - العدول بالاستبدال

من الظواهر النحوية التي تطرأ على الحمل والتراكيب أن بعض مفرداتها المكونة لها يقف عندها المنشئ لأجل أن يختار أي المفردات أكثر تأدية للمعاني التي تختلج في صدره، وترجم قصده على أقوى ما يكون التعبير عن المقاصد، وعلى أقوى ما يكون التأثير في المخاطب.

ويشمل استبدال المفردات بعضها ببعض في التركيب الشرطي على مواطن عدة هي: استبدال أداة الشرط بأداة أخرى، واختيار فعل مختلف عن فعل الشرط المباشر، و نياية الجزم وهو رابط صوتي للجواب بالشرط بالفاء، أو نياية إذا الفجائية للفاء في بعض الأحيان، وإيقاع الجملة التي يجوز الابتداء بها موقع الجواب.

وقبل الشروع في تحليل النماذج المجسدة لهذا المبحث، يحسن بنا أن نعيد إلى الأذهان الفروق الفاصلة بين هاته المفاهيم اللغوية الثلاثة وهي الحذف والخروج من باب المجازة والاستبدال.

فالحذف عدم ذكر العنصر التكويني الذي يدخل في بنية التركيب الشرطي، مع تقديره حرصا على تمكين المخاطب من تصور البنية الكاملة لهذا التركيب، ومن ثمّ تقريب دلالاته إلى ذهنه.

والخروج من باب المجازة إجراء يتصل بالجانب الدلالي؛ إذ يلحظ المتلقي النبيه بأن هذا التركيب لا يدل على التعليق الشرطي الأصلي، ولكنه سيق لأغراض دلالية أخرى.

ولا ينفي هذا الإجراء أن تحافظ البنية النحوية على صورتها المعيارية، أو يطرأ عليها تغيير قليل أو كثير. وخروج المعاني العامة عن أبوابها، حقيقة مقررة في علم المعاني؛ فالخبر يخرج عن مقتضى ظاهره إلى الدلالة على الطلب، والطلب بأنواعه يخرج إلى الخبر¹. وهكذا أيضا يخرج التعليق الشرطي ظاهرا إلى معانٍ آخر، يساعد على تعيينها معرفة القرائن والسياقات المصاحبة.

والاستبدال هو أن يَجَلَّ محلّ العنصر التركيبي الأصلي، عنصراً غيره تختلف مواصفاته عن مواصفات وأحكام العنصر الأصلي من حيث المعنى، أو المعنى الوظيفي. وإذّاك قد يبقى التركيبي الشرطي محافظاً على معنى التعليق الشرطي، وقد يخرج عن باب الدلالة على المجازة.

والعناصر التكوينية للتركيب الشرطي التي يتناولها الاستبدال هي الأداة وفعل الشرط والرباط والجواب.

وفيما يأتي تحليل آيات يتم فيها الاستبدال على مستوى الأداة، ومن غير التفات إلى بقية العناصر:

1. استبدال الأداة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: 2-3. أي إنه من يقف عند حدود الله فلا يقربها ولا يتعداها، يجعل الله له طريقاً ميسوراً ينجيه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة.

استبدل في هذه الآية "إِنْ" الشرطية وهي أم هذا الباب بـ"مَنْ" التي وضعت في الأصل للدلالة على العاقل غالباً، وتضمنت معناها. كما أنّها لا تدل في الغالب على الزمن.

علقت الأداة "مَنْ" جَعَلَ المَخْرَجَ من العسر والحرّج، على تقوى الله. وجعلت الشرط سبباً والجزاء مسبباً مترتباً عليه. كما جعلت علاقة المضمونين ببعضهما مقصورة على عموم أولي العلم، ومن غير تحديد زمني. وهذا النوع من الارتباط يناسب وصف الله بالكرم غير المنقطع وفضله الدائم على أهل التقوى.

1 - ينظر على سبيل المثال: السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 56، وما بعدها.

وقال عز وعلا: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن: 11.

نابت أداة الشرط "من" عن "إن" فأضافت إلى معناها الوظيفي الدلالة على عموم العقلاء من الملائكة والثقلين. وهي مثل "إن" من حيث دلالتها على مطلق الزمان. ولو أن الخطاب بالإيمان كان موجهاً إلى عقلاء معينين للزم تحديدهم بالنداء أو الضمير، وبذلك يضيق نطاق الذين يغرون بالإيمان لأجل أن يهدي الله قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿ أَئِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء: 78.

جاء التعبير القرآني بـ"أينما" وهي ظرف زيدت إليه "ما" لتفيده فضل توكيد وتعميم، فهي من صيغ العموم، تفيد عموم الأمكنة مثل حيث لكنها أعم منها.

إن الموت مصير يلقي الحى في أي مكان من الأرض، وليس له مكان مخصوص يلقيه فيه، كما أنه ليس له حال معين يأتيه فيه وهو عليه. وإدراك الموت للحى يختلف عن استقبال القبلة من أي مكان؛ لأن مكان الصلاة مخصوص بالطهارة وإن كان يوجد في أي بقعة في الأرض. ولذا يعبر تعالى عن عموم الأمكنة المخصوصة بالصلاة باستعمال "حيثما" لا "أينما" فقال: ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ البقرة: 144.

ومن المناسب في هذا الموضع الإشارة إلى أن "لو" الشرطية هي بديل لفظي ودلالي للأداة "إن" لأنها لا تفيد أن شرطها لم يقع، بل محتمل الوقوع، وفي حال وقوعه يكون الجواب محققاً، أي إن تكونوا في بروج محصنة يدرككم الموت ولا تحصنكم منه.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة: 116.

ضمير النصب في "قلته" عائد إلى الكلام المتقدم ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهَيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

فعل الشرط (وهو القول) تعين مضيه، وتعلق به الجواب "فقد علمته"، فصار تعليقا لأمر مضى بآخر مثله في المضى. وبالتالي تخرج "إن" عن وظيفتها النحوية الأصلية إلى تأدية وظيفة تشبه وظيفة

حرف الشرط الامتناعي "لو"، من حيث أنّ التعليق بها يكون في الماضي. ويجمع بين شرط إن وجوابها مطلق التعليق، أو التعليق الشرطي الناقص.

وقال عز وجل: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ البقرة: 145.

في هذه الآية استخدمت "إن" نائبة عن "لو"، إذ أن شرطها لم يقع في الماضي، وقد علقت استمرار أهل الكتاب المتعنتين على عدم إتباع قبلة محمد صلى الله عليه وسلم على أي حال كان من محمد، أي سواء في ذلك لو هو أتاهم بما طلبوه من إثباتات أو لم يأت. كما أن "لو" هذه هي في معنى "لو" غير الامتناعية، وهي التي تدل على أن جوابها متحقق في حال اعتبار الشرط المذكور موجودا، وأن جوابها يكون متحققا من جهة أولى إذا كان عكس أو خلاف شرطها هو الموجود.

وربما استعملت "إن" نائبة عن "لو" في هذا الموضع؛ لأن الموقف اقتضى فضل توكيد بالقسم، ولم يتيسر للباحث أن عرف في لغة القرآن الكريم إدخال القسم على "لو" ومدخوليتها، وإن كان ذلك جاريا في لغة الاستعمال.

المطلب 2- استبدال فعل الشرط المضارع بالماضي:

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ النمل: 89.

الأصل في فعل الشرط الذي دخل عليه الجازم أنه يجزم، ويكون الجزم في سياق الشرط دليلا على عدم التحقق ودخولا في الفرض والشك. "وكلما كان معنى الشرط أقرب إلى التحقيق منه إلى الشك والإبهام كان استخدام الماضي أولى من استعمال المضارع"¹.

ورد فعل الشرط ماضي الصيغة ليناسب دلالة الثبوت والتحقق، ولم يرد مضارعا لما في هذه الصيغة من مناسبة لمعنى الشك ومجرد الإمكان. إن صيغة الماضي تتلاءم وكون المحسن يأتي بحسناته يوم الحساب ليجازى خيرا منها، وذلك مما ليس فيه شك. فكل البشر سيبعثون ويجازون عن أعمالهم إن خيرا وإن شرا.

المطلب 3- استبدال فعل الشرط، وجوابه:

1 - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الحنفي)، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 1987، ص 241.

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** آل عمران:160.

فعلا الشرط في "إِنْ يَنْصُرْكُمُ" - وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ " مستعملان استعمال الفعل في معنى إرادة الفعل، كقوله تعالى: **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** النحل: 98. أي: إذا أردت القراءة، وكقوله: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** المائدة: 6. أي: إذا أردتم القيام. فيكون المعنى فيهما "إن يرد الله لكم النصر- كما أراده يوم بدر-، وإن يرد الله لكم الخذلان - كما أراده لكم يوم أحد"؛ ووجب تقدير الإرادة لأنه لو لم نقل بقصدها، ما استقام جواب الشرط الأول وهو "فلا غالب لكم"؛ «إذ لا فائدة في ترتيب عدم العَلْبِ على حصول النصر بالفعل، ولا سيّما مع نفي الجنس في قوله "فلا غالب لكم"، لأنه يصير من الإخبار بالمعلوم كما تقول: "إن قمت فأنت لست بقاعد". وأما فعل الشرط الثاني وهو "وإن يخذلكم" فيقدر كذلك حملا على نظيره. وإن كان يستقيم المعنى بدون تأويل فيه¹، أي على معنى: وإن يخذلكم الله فلا ناصر لكم.

وأعتبر أنّ حمل محمد الطاهر بن عاشور الفعلين على معنى إرادتهما ليس مفيدا لم عن ذي بال لأن فعل الله وإرادة فعله سواء، إنه "إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

فعلا الشرط في "إِنْ يَنْصُرْكُمُ" - وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ " يحتمل أنهما مستعملان في معنى سببيهما، أي إن يمددكم الله بأسباب النصر، من إعانة لكم، ومنع عدوكم عنكم كما فعل يوم بدر، فإنه يترتب على ذلك أن لا يكون لكم غالب على الإطلاق. وإن يعدمكم معونته كما فعل يوم أحد، فإن جزاء ذلك أن ينتفي نصركم.

1) جعل الجواب جملة اسمية "فلا غالب لكم"، اسمها اسم "لا" النافية للجنس، دون أن يقول: "لا تُغلبوا". وفائدة هذا العدول من الجملة الفعلية إلى الاسمية تتمثل في التنصيص على التعميم في الجواب؛ لأن عموم ترتيب الجزاء على الشرط أعلي. فأريد بإفادة التعميم دفع التوهم الذي هو بعض المغالبيين، وبعبارة أخرى حتى لا يحتل الجزاء معنى "لا تغلبوا من بعض المغالبيين".

2) ومما يجب الإشارة إليه أنّ جواب الشرط في الأول، جاء صريح النفي ولم يجرى في الثاني كذلك، والنكته في هذا العدول التلطف بالمؤمنين؛ حيث صرح لهم بأنه لا غالب لهم، ولم يصرح بأنه لا

1 - ينظر : محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 153/4.

ناصر لهم، وإن كان الكلام مفيداً له¹. وهذا النموذج يظهر لنا أن تحديد المعيار في الكلام يمكن أن يكون النسق التعبيري الذي سار عليه الكلام من ذي قبل، وبينما كان المتلقي يتوقع تكرار النسق وإذا بالمتكلم أو المنشئ يراوغ توقعه بقصد تحقيق قيم دلالية وجمالية، تستأثر بلب المتلقي وتستحوذ على مشاعره.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران:20.

1) من الخروج عن الأصل أنه عبر بصيغة الماضي المصحوب بـ"قد" الدالة على التحقيق، مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى، والخروج من الظلمة إلى النور.

2) وأما الجزء المذكور للشرط "تولوا" فهو قوله: "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ"، وليس هو بالجواب المباشر، وإنما هو قائم مقام الجواب، لما بينهما من علاقة العلية؛ حيث يكون تبليغه لرسالة ربه على أحسن وجه، علة لعدم إضرارهم له. ويكون تقدير الجواب على سبيل المثال: "لم يضررك، فإنك رسول منبئ عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى."²

ويُحتمل أن يكون جواب الشرط المباشر جواباً آخر مفهوماً من سياق الشرط والجزاء السابقين، المعطوف عليهما، أي: فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فقد ضلوا، وإنما عليك البلاغ.

وفي قوله: "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ" الواقع موقع جواب الشرط، والذي هو في المعنى علة الجواب إيجازاً بديع، وسبيل إلى فسح المجال أمام قوة التخيل لدى السامع ليتصور المحذوف، ثم تأتي كل التقديرات التي يضعها مقبولة، متناسبة مع علة الجواب التي ذكرها الله جل وعلا. وهذه ميزة في أسلوب القرآن حيث يُمكنُ الحذف من تصور الكثير من الدلالات المختلفة في ذاتها، المنتظمة في سياق منطقي اجتماعي واحد. وبيان ذلك أن علة جواب الشرط المذكورة تنضوي تحتها مجموعة من المعلولات منها: فقد ضلوا، ولم يضررك، ولا تحزن فإنما عليك البلاغ.

1 - ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ج4/108.

2 - الكشف، الزمخشري، 440/1.

قال جل جلاله على لسان هايبيل المقتول في مخاطبة أخيه قابيل القاتل: لَنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ المائدة: 28.

1) في الآية عدول إلى اسمية جملة الجواب. والجملة الاسمية تحمل ثبوت نسبة المسند إلى المسند إليه، فإذا كانت الجملة الاسمية سلبية كما هو الحال في هذه الآية أفادت -بمعونة المقام- دوام انتفاء بسط اليد للقتل إلى المتكلم.

2) جاء الشرط بلفظ الفعل، وبديل الجزاء بلفظ اسم الفاعل، وهما قوله: لَنْ بَسَطْتُ - مَا أَنَا بِبَاسِطٍ. وذلك ليفيد أنه: ... لا يفعل (في أي وقت من الأوقات) ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع (وهو القتل)، ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي. «¹ ولم يقل: وما أنا بقاتل بل قال: بباسط، للتبرؤ عن مقدمات القتل فضلاً عنه.

وقدم الجار والمجرور المتعلق ب"بسطت" على المفعول به "يد"، وهي يد المبتدئ بالفعل (قابيل)، فقال: "لن بسطت لي يدك"، بينما أُخِّرَ الجار والمجرور المتعلق ب"باسط" على المفعول به "يد"، وهي يد المظلوم (هايبيل)، فقال: "ما أنا بباسط يدي إليك". ولعل فائدة ذلك التقديم هي تعجيل تذكير قابيل بالأخوة المانعة عن القتل، ليكون تقدير الكلام: لن بسطت إلى أخيك يدك لتقتله، ما هو بباسط يده إليك ليقتلك...

المطلب 4- استبدال الفاء بـ"إذا" الفجائية:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾
النور: 48.

أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه صلى الله عليه و سلم لا يحكم إلا بالحق. والجملة الشرطية شرح للتولي ومبالغة فيه حيث أفادت مفاجأتهم الإعراض عقب الدعوة دون الحكم عليهم مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاء من الدلالة على الثبوت والاستمرار على ما هو المشهور والتعبير بلفظ "بينهم" دون "عليهم" لأن المتعارف قول أحد المتخاصمين للآخر: اذهب معي إلى فلان ليحكم بيننا لا عليك وهو الطريق المنصف وقيل:

1 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1981، 11 / 212.

هذا الإعراض إذا اشتبه عليهم الأمر ولذا قال سبحانه : بينهم لا عليهم وفي ذلك زيادة في المبالغة في ذمهم.

وإن يكن لهم الحق أي لا عليهم كما يؤذن به تقديم الخبر يأتوا إليه أي إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.¹

ولما كان الشرط والجزاء متصلين بطبع المحدث عنهم وهو اليهود والمنافقون، فإنه يفهم من الأسلوب الشرطي معنى التكرار، فتكون بمنزلة "كلما".

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ الزخرف: 47.

أي فاجأهم الضحك منها أي استهزأوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.²

و"إذا" حرف مفاجأة نابت مناب الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب أي يدل على أن ما بعده حصل من غير ترقب فتفتتح به الجملة التي يفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة.

ووقعت الجملة التي فيها "إذا" جوابا لحرف "لما" وهي جملة اسمية و"لما" تقتضي أن يكون جوابها جملة فعلية لأن ما في "إذا" من معنى المفاجأة يقوم مقام الجملة الفعلية. ولذا قدرت جملة الجواب بـ "فاجأهم الضحك منها".³

قال جل جلاله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ التوبة: 58.

1) جاء رابط الجملة الجوابية بـ"إذا" الفجائية، لا بالفاء. ودلت على أن سخطهم أمر يفاجئ العاقل حين يشهده لأنه يكون في غير مظنة سخط، وشأن الأمور المفاجئة أن تكون غريبة في بابها.

1. روح المعاني، 8/195.

2. روح المعاني 18/369.

3. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 25/225.

(2) وجاء جواب الشرط الثاني مضارعاً مجزوماً (فإن لم يعطوا)، ولا يلزم منه أن يقارن الجواب الشرط أو يتعقبه، بل قد يجوز أن يتأخر نحو: إن أسلمت دخلت الجنة، فإنما يقتضي مطلق الترتب.¹ وكان يتوقع أن يأتي الشرط الثاني "سخطوا"؛ مراعاة لمجيء جواب الشرط الأول "رضوا"، لكنه جاء إذا الفجائية، فأفاد إذا لم يعطوا فاجأً سُخِطُهم، ولم يمكن تأخُّره، لما جبلوا عليه من حب الدنيا والشره في تحصيلها. والظاهرة العدولية الملحوظة في التركيب الشرطي الثاني دالة على أنه يمكن أن نعد سياق المقال معياراً للعدول.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن لِّتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن وَلَّيْن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: 7.

يقضي ظاهر السياق القبلي، أن يجيء جواب القسم الثاني "لأعذبنكم عذاباً شديداً" مراعاة لقوله في الجواب الأول "لأزيدنكم"، ولكنه عدل إلى قوله "إن عذابي لشديد" واستغنى به عنه. وفي هذا العدول فوائد:

- 1) أنه أعمّ وأوجز، والمعنى: إن عذابي لشديد لمن كفر فأنتم إذن منهم.
- 2) أنّ إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس.²
- 3) مجيء التركيب على ما عهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخير أسند إليه تعالى. وإذا ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال: لأزيدنكم، فنسب الزيادة إليه، وقال: إن عذابي لشديد، ولم يأت التعبير "لأعذبنكم".

قال عز وجل: ﴿يَخْلُقُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة: 96.

1 - ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 57/5.

2 - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 13/194.

1) ورد الجزء جملة اسمية مؤكدة بـ"إِنَّ"، تبيّن وتؤكدك منها أن الله لا يرضى عن المنافقين، وفي ذلك كناية عن لوم وتحذير للمسلمين؛ إذ قد علموا أن ما لا يرضى الله، لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

2) وقد عدل عن الإتيان بالضمير "هم" إلى التعبير بصفتهم وهي "الْفَاسِقِينَ". أي لم يقل: فَإِنَّ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ، وذلك العدول لأجل الدلالة على ذمهم بالفسق صراحة من جهة، وتعليل عدم الرضى عنهم من جهة أخرى. فالكلام المشكّل للجزء مشتمل على خبر وعلى دليله فأفاد مفاد كلامين لأنه بالتحليل يصير إلى: فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.¹

ويقتضي لوم الله للمسلمين وتحذيرهم من الرضى عن المنافقين النهي عن الرضى عنهم والاعتزاز بمعاديرهم.

المطلب 5- استبدال فعل الجواب:

قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ آل عمران: 111.

جملة الجزء ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن انهزام اليهود إذا قاتلوا المسلمين. وقد اختار التعبير القرآني بالكناية عادلا عن التصريح بفعل الجواب لما في التكنية من أداء معنى الفعل مع إقامة الشاهد الملموس عليه، وهي صورة تولية الأدبار التي يحكها محرك داخلي يجري في نفوس المنهزمين هو الهزيمة والخوف.

والمعطوف: "ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ"، فعل مضارع مرفوع، معدول به عن حكم الجزء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. ولذا جاء مرفوعا لا مجزوما. كما أنه ليس مرفوعا على تأويله جملة خبرية لمبتدأ تقديره "هم"، لئلا تكون جملة المبتدأ والخبر في محل جزم معطوفة على الجزء المجزوم "يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ".

1 - ينظر: المصدر نفسه، 10/11.

قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ. سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الزخرف: 81_82.

تقدم عن هاتين الآيتين ذكر الذين ظلموا بادعاء بنوة الملائكة ، وما توعدهم الله به من العذاب. وفي هاته الآية الواحدة والثمانين، أمر الله نبيه أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، وفيها ردّ على المشركين الذين عبدوا الملائكة، وكذا الذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى.

بعض المفسرين لا يرون في هذه القضية الشرطية أي خروج عن أصل الدلالة في الشرط والجزاء، ومنهم الفخر الرازي. فعنده أن القضية الشرطية لا تفيد إلا معنى الاستلزام، أي كون الشرط مستلزماً للجزاء، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً أو بكون الجزاء حقاً أو باطلاً، وبناء عليه يكون قوله تعالى: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل؛ لأن قولنا "كان للرحمن ولد باطل"، وقولنا "أنا أول العابدين لذلك الولد" باطل أيضاً، ومعنى "حقة" أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً، وإن كان كل واحد منهما باطلاً. ومثاله قولنا "إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين". فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، كما أن السلطان إذا كان له ولد وجب على عبده أن يخدمه وكذلك يجب عليه أن يخدم ولده. وسيق هذا التركيب على سبيل الإفحام والتبكيث.¹

والظاهر أن الفخر الرازي ينطلق من مسلمة أن الشرط باطل ليبنى عليه الجواب الباطل.

لكن الذي يراد من نبينا الكريم أن ينتقل من مقام تهديد الخصوم ووعيدهم، إلى مقام محاجتهم، واستدراجهم إلى نبد فكرة أن الله الولد بالدليل والإقناع العقلي.

ورأى البعض أن نظم هذا التركيب يعني: أنه لو يعلم رسول الله أن الله أبناء لكان أول من يعبدهم، أي أحق منهم بأن يعبدهم، لأنه ليس أقل فهما منهم من أن يعلم شيئاً ابنا لله ولا يعترف لذلك بالإلهية؛ لأن ابن الله يكون منسلاً من ذات إلهية فلا يكون إلا إلهاً، و هو يحلم أن الإله يستحق العبادة. فالدليل مركب من ملازمة شرطية والشرط فرضي يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلانه.

1 _ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 1981، 27 / 231.

والنكتة في العدول عن الأداة الصريحة في الامتناع هنا إيهامهم في بادئ الأمر أن فرض الولد لله محل نظر، وليتأتى أن يكون نظم الكلام موجها حتى إذا تأملوه وحدوه ينفى أن يكون لله ولد بطريق المذهب الكلامي. ويدل لهذا ما روي في الكشاف أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله، فنزل قوله تعالى قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين. فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني، فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة.¹

كان في نظم الآية على هذا النحو إيجاز بديع، وإطماع للخصوم بما إن تأملوه استبان وجه الحق، فإن أعرضوا بعد ذلك عُدَّ إعراضهم نكوصا، مما يدل على تصديقه في قلوبهم ولكنهم يعاندون.

قال عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ الملك:28.

جواب الشرط المباشر اللازم لدعائهم هو " لا تنتفعوا ولا تستريحوا بموت المؤمنين"، لأنهم كانوا يظنون أن هلكة محمد والذين معه تسبب لهم نفعاً وراحة، ودواماً لعقيدتهم وعزتهم اللتين يرونها مهددتين بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم. إلا أن هذا الجواب عدل عنه إلى عبارة الاستفهام الإنكاري الموضوع موضعاً، وهي: فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟ أي إنه لا نفع ولا راحة لكم في ذلك، وإن العذاب الأليم غير منفكين منه، وأنه لازم لكم لثبوت موجه فيكم وهو علة الكفر.

والعبارة الجزائية الحالة محل الجزاء الأصلي انتظمت بأسلوب تشع منه بعض الدلالات الخفية، مثل الدعوة إلى نبذ الأصنام عبادة، واعتقاداً في نفعها، وفي إحارة عبدتها من عذاب الله، والدعوة إلى ترك الخوف من كبراء القوم واتباعهم في أمرهم. ومن ثم الدعوة إلى التفكير بجد في ما هو مُخْلِصٌ ومنقذ لهم من العذاب، ألا وهو توبتهم إلى الله، وإعمار قلوبهم بعقيدة التوحيد وبالإيمان بمحمد نبياً مرسلًا، وبالبعث يوم القيامة. وأن الدعاء على محمد صلى الله عليه وسلم أو على المؤمنين بالهلاك هو نفسه كفر، كما أن حبهم والدعاء لهم هو نفسه إيمان.

1 _ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 264/25، 265.

وعلى الإجمال، فقد اشتملت هذه الجملة الشرطية على خصائص تركيبية جعلتها حافلة بالمعاني الضمنية الكثيرة في الوعد والوعيد والأحكام. وذلك بلفظ يسير.

قال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَدِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: 178.

وقوله: " فمن عفي له من أخيه شيء " أي ترك له دمه، ورضي منه بالدية " فاتباع بالمعروف " أي فعلى صاحب الدم إتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أي من غير مباطلة وتأخير عن الوقت " ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " أي أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم .

قال النحاس: " فمن عفي له " شرط، والجواب " فاتباع " . وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه إتباع بالمعروف.

ويجوز في غير القرآن " فاتباعا "، و " أداء " يجعلهما مصدرين¹.

وقوله: " فمن عفي له من أخيه شيء " أي ترك له دمه، في أحد التأويلات، ورضي منه بالدية " فاتباع بالمعروف " أي فعلى صاحب الدم إتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أي من غير مباطلة وتأخير عن الوقت " ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " أي أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم قال النحاس: " فمن عفي له " شرط والجواب، " فاتباع " وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه إتباع بالمعروف.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: 97

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 2/255.

الاستبدال واقع في التعبير بمن المنصرف إلى اليهود، وفيها احتمال للإطلاق.

كيف استقام قوله : " فإنه نزله " جزاء للشرط؟ فيه وجهان : أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصداقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم. والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصداقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقتهم لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له.¹

وقوله " من كان عدوا لجبريل " شرط عام مراد به خاص وهم اليهود. قصد الإتيان بالشمول ليعلموا أن الله لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادي جبريل إن كان له معاد آخر وقد عرف اليهود في المدينة بأنهم أعداء جبريل ففي البخاري عن أنس بن مالك قال سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله وهو في أرض يخترق فأتى النبي فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي " فما أول أشرار الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال رسول الله أخبرني بهن جبريل أنفا قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة فإنهم أبغضوه لأنه يجيء بما فيه شدة وبالأمر بالقتال الحديث وفي سفر دانيال من كتبهم في الإصحاحين الثامن والتاسع ذكروا أن جبريل عبر لدانيال رؤيا وأنها وأنذره بخراب اورشليم. وذكر المفسرون أسبابا أخرى لبغضهم جبريل. ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله، ويبغضونه وهذا من أخط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة. ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام.

وقوله " فإنه نزله على قلبك بإذن الله . " والضمير المنصوب ب " نزله " عائد للقرآن إما لأنه تقدم في قوله " وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله " وإما لأن الفعل لا يصلح إلا له هنا على حد " حتى توارت بالحجاب " . و " فلولا إذا بلغت الحلقوم " .

وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط؛ لظهور أن المراد أن لا موجب لعداوته لأنه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن فهم بمعاداته إنما يعادون الله تعالى فالتقدير من كان عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاد الله تعالى. وهذا الوجه أحسن مما ذكره وأسعد بقوله تعالى بإذن الله وأظهر ارتباطا بقوله بعد من كان عدوا لله وملائكته كما ستعرفونه ويجوز أن يكون التقدير فإنه قد نزله عليك سواء أحبوه أم عادوه. ويجوز أن يكون المراد فإنه نزل به من عند الله مصداقا لكتابهم وفيه هدى وبشرى وهذه حالة تقتضي محبة من

1. الزمخشري، الكشاف، 302/2.

جاء به فمن حمقهم ومكابرتهم عداوتهم لمن جاء به فالتقدير فقد خلع ريقه العقل أو حلية الإنصاف. والإتيان بحرف التوكيد في قوله " فإنه نزله " لأهم منكرون ذلك.

" فإنه نزله " : ليس هذا جواب الشرط لما تقرر في علم العربية أن اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه، فلو قلت : من يكرمني؟ فزيد قائم، لم يجز.

وقوله : " فإنه نزله على قلبك "، ليس فيه ضمير يعود على من.

وقد صرح بأنه جزاء للشرط الزمخشري، إلا أنه لما كان لا يعود ضمير من جملة الجواب على اسم الشرط، ولمضي فعل التنزيل، فلا يصح أن تكون الجملة جزاء، وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه، التقدير: فعداوته لا وجه لها، أو ما أشبه هذا التقدير.

والضمير في فإنه عائد على جبريل، والضمير في نزله عائد على القرآن لدلالة المعنى عليه.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة 54

قوله تعالى: ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ شرط وجوابه " فسوف... " .

وهذا من إعجاز القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم: إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيباً، فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته صلى الله عليه وسلم.¹

وجملة " فسوف يأتي الله بقوم " . الخ، جواب الشرط وقد حذف منها العائد على الشرط الاسمي. وهو وعد بأن هذا الدين لا يعدم أتباعاً برة مخلصين. ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين وقلة الاكثراث بهم كقوله تعالى " لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 219/6.

خبالا " وتطمين الرسول والمؤمنين الحق بأن الله يعوضهم بالمرتدين خيرا منهم. فذلك هو المقصود من جواب الشرط فاستغني عنه بذكر ما يتضمنه حتى كان للشرط جوابان.¹

علق النص الكريم عزم الله على الإتيان بقوم يجهم ويجبونه على ارتداد المحاطبين عن دينهم، وجعل المضمون الأول بمثابة السبب المقتضي لتحقيق المضمون الثاني. والأداة التي تم بها الربط الوظيفي الحالي هي "من" المتضمنة معنى "إن" وبذلك انحصر التعليق في نطاق العقلاء، مع احتمال الإطلاق الزمني، أي إن هذا التعليق لا يرتبط بزمن دون آخر.

وإجراء الاستبدال في هذا النموذج تناول عنصريين من التركيب هما الأداة والجواب.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة: 63.

" ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم " هذه الجملة تنزل من جملة " والله ورسوله أحق أن يرضوه " منزلة التعليل لأن العاقل لا يرضى لنفسه عملا يؤول به إلى مثل هذا العذاب فلا يقدم على ذلك إلا من لا يعلم أن من يحادد الله ورسوله يصير إلى هذا المصير السيئ.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتشيع لأن عدم علمهم بذلك محقق بضرورة أنهم كافرون بالرسول، ولكن لما كان عدم علمهم بذلك غريبا لوجود الدلائل المقتضية أنه مما يحق أن يعلموه كان حال عدم العلم به حالا منكرا. وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهم كقوله في هذه السورة " ألم يعلموا أن الله . والضمير المنصوب ب " أنه " ضمير الشأن وفسر الضمير بجملة " من يحادد الله " إلى آخرها.

والمعنى : ألم يعلموا شأننا عظيما هو من يحادد الله ورسوله له نار جهنم.

1 . محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 236/6

والفاء في "فأن له نار جهنم" لربط جواب شرط "من" وجيء بها لضعف الارتباط بين طرفي التركيب.

وأعيدت "أن" في الجواب لتوكيد "أن" المذكورة قبل الشرط توكيدا لفظيا فإنها لما دخلت على ضمير الشأن وكانت جملة الشرط وجوابه تفسيراً لضمير الشأن كان حكم "أن" سارياً في الجملتين بحيث لو لم تذكر في الجواب لعلم أن فيه معناها فلما ذكرت كان ذكرها توكيداً لها. ولا ضمير في الفصل بين التأكيد والمؤكد بجملة الشرط والفصل بين فاء الجواب ومدخولها بحرف إذ لا مانع من ذلك.

﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ ﴾ آل عمران: 167

الاستبدال في قوله نعلم بدل نقدر على...

في معركة أحد رجع عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه معه وهم ثلث الناس، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يجرسونهم على الإياب والقتال والمساعدة، فتعللوا قائلين: "لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ" قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً.

ثم قال: "يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: "لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ" فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة.

أو يكون المعنى أنهم أرادوا إننا لا نحسن القتال ولا نقدر عليه لأن العلم بالفعل الاختياري من لوازم القدرة عليه فعبّر بنفيه عن نفيها، ويحتمل أنهم جعلوا نفي علم القتال كناية عن أن ما هم فيه ليس قتالاً بناءً على نفي العلم بنفي المعلوم لأن القتال يستدعي التكافؤ من الجانبين مع رجاء مدافعة أو مغالبة ومتى لم يتحقق ذلك كان إلقاء الأنفس إلى التهلكة وقد كان رأي عبد الله بن سلول الإقامة في بالمدينة، وما كان يستصوب الخروج.

ومن الناس من جوز أن يكون المراد لو نعلم قتالاً في سبيل الله لاتبعناكم أو لو نعلم قتالاً معنا لاتبعناكم لكن ليس للمخالف معنا مضادة، ولا قصد له إلا معكم .

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التوبة: 39.

استبدل أسلوب الإيجاب بأسلوب السلب، تقوية لمعنى التهديد، ولم يقل: إن تنفروا يحسن الله إليكم.

في هذه الجملة القرآنية شرط تهديدي، يختلج القلوب من الصدور بناه على أداة الشرط "إن" الداخلة على الفعل المنفي "لا تنفروا". وأبرز لهم عاقبة الرغبة في عدم التفار: "إن لا تنفروا" حتى يتبين لهم ما إذا كانوا قادرين على تلقي ذلك الجزء المرعب الذي صرح لهم به: يعذبكم عذاباً أليماً... والنفي هنا على سبيل التنزيل، أي تنزيل المخاطب منزلة من يحسب أنه بثاقله ضارٌ دين الله عز وجل، وذلك إذا ما قلنا إن النفي لا يرد إلا على ما يصح إثباته فعلاً أو عقلاً، فلا يقال: لا تطلع الشمس ليلاً مثلاً لأنَّ طلوعها ليلاً غير محتمل تحققه فعلاً ولا عقلاً.¹

فالتصريح بما تترتب عليه المضرة أقوى في البعث من التصريح بما تترتب عليه المسرة حين تكون النفوس آنسة بما هو حبيب إليها من الدعة ولا سيما أنها قد أُعْرِيت بما هو العليُّ فلم تستقم، فأنت مفتقر إلى أن تنزعها منه إلى نقيضه المرعب، لا أن تنقلها مما هي فيه إلى ما هو أعلى منه من جنسه ولو تَوَهَّمُ أنها من جنسه، فإنها لم تستجب من قبل إلى ذلك الإغراء، فلا يبقى إلا التهديد بما يرهب ويرعب.

من أخلد إلى راحة دنية لا تنزعه منها بالإغراء إلى راحة سنية بل تنزعه منها بالتهديد والوعيد

1 - محمود توفيق محمد سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، شبين الكوم، الطبعة الأولى، 1422، ص 55.

ذلك وجه من وجوه الإتيان بأسلوب الشرط على هذا النهج : أدخل الأداة على الفعل المنفي "إن لاتنفروا" ولم يقل " إن تنفروا يدخلكم جنات...".

وهو لم يذكر لهم ما ينفرون إليه ؛لأن السياق قد قام بتعيينه، وهو النَّفَار إلى الجهاد في سبيل الله، والنفار عن أرضهم وديارهم التي أحللت إليها نفوسهم الأمانة بالسوء.

والعذاب الذي هو المنع مما ينفع أو يمتع ليس مقصوداً وقوعه في الآخرة، وإن كان هذا كائناً في أعلى صور تحققه، ولكنه متحققة بعض صورته في الدنيا، فهو عذاب ممتد في الحياة الدنيا والآخرة.

في الآية معنى عظيم من التهديد الذي لا يطيقه من علم عظيم الإنعام عليه بصحبة سيد الخلائق أجمعين . صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، وكأنّ فيه من النكال فوق ما في قوله " يعذبكم عذاباً أليماً " فهو من تصعيد التهديد الآخذ بالنفوس، وهو. أي الاستبدال. من بابة التعذيب أيضاً؛ فإن منعهم من صحبته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هو من التعذيب الأليم.

وصيغة " يستفعل: يستبدل " غير دالة على الطلب، بل على تحقيق وقوع الفعل على كماله، فهذا من مسالك التوكيد لوقوع الجزاء إذا وقع الشرط، وهذا مما يزيد التهديد والوعيد تحقيقاً وإرهاها وإرعاباً.

والنفي هنا على سبيل التنزيل، أي تنزيل المخاطب منزلة من يحسب أنّه بتثاقله ضارّ دين الله عز وجلّ، وذلك إذا ما قلنا إن النفي لا يرد إلا على ما يصح إثباته فعلاً أو عقلاً .

ويمكن أن يقال : إن الضمير راجع إلى مضاف محذوف، فيكون تقدير الكلام: ولا تضروا دين الله شيئاً.

وجاء قوله : "والله على كلّ شيء قدير " تقريراً لتحقيق الجزاء المرتب على انتفاء نفارهم، وإذا ما كان الله تعالى على كلّ شيء قدير، فإِنَّه على ما توعد به وهدد أيضاً جدُّ قدير.

المطلب 6- الاستبدال في عناصر التركيب الشرطي الثلاثة:

قال عز من قائل: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ العنكبوت: 5

هذا الكلام مسوق للمؤمنين خاصة لأنهم الذين يرجون لقاء الله، ولذا جاء التعبير القرآني بـ "من" بدل "إن" التي تفيد العموم والإطلاق.

ولقاء الله: الحشر للجزاء.

وأجل الله: الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب. والمقصود الاهتمام بالتحريض على الاستعداد للقاء الله.

وجعل فعل الشرط فعل الكون للدلالة على تمكن هذا الرجاء من فاعل فعل الشرط، 1 ولذا لم يقل: من يرجو لقاء الله، لعدم دلالة ببساطته على معنى تمكن الفعل من قلوب الفاعلين. ويصبح هذا الإجراء استبدالاً لفعل الرجاء بفعل الكينونة الممكنة لمعنى الفعل في قلوب المؤمنين.

ولهذا كان قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ جواباً لقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ باعتبار دلالة على الجواب المقدر، أي فليستعد إلى لقاء أجل الله، فأجل الله آت. وبهذا التقدير يلتزم الربط بين مدلول جملة الشرط ومدلول جملة الجزاء. ولولا ذلك لاختل الربط بين الشرط والجزاء إذ يفضي إلى معنى من لم يكن يرجو لقاء الله فإن أجل الله غير آت. وهذا لا يستقيم في مجاري الكلام فلزم تقدير شيء من باب دلالة الاقتضاء وهو القول بالحث على الاستعداد للقاء الله.

ومختصر الاستبدالات هي كما يلي:

1. الأداة "من" في عوض "إن" لحصر الشرط في عقلاء مخصوصين.
2. فعل الشرط وهو الرجاء مستبدل بفعل الكينونة قصد تعميق وتمكين فعل الشرط.
3. والربط للجواب بالشرط حرف الفاء، لعدم مجيء لفظ الجزاء فعلاً.
4. وجواب الشرط المذكور هو العلة التي عوضت المعلول المتمثل في ما تقتضيه الدلالة.

قال عزّ وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة:24.

1) فعل الشرط والذي تلاه " لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا " كنايةتان عن التحدي الذي وجهه الله إلى الكافرين، وقد تقدم التحدي قبل هذه الآية عند قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ البقرة: 23 والكناية أخصر من أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله. كما أنها تنأى بالكلام عن عيب التكرار.

2) ولما كان امتناع معارضتهم القرآن سابقا في علم الله _ وهو سبحانه وتعالى اللطيف الخبير، كان المناسب في ذلك استعمال أداة اليقين "إذا"، لكنه خرج عن مقتضى الظاهر إلى "إن" لمناسبة حال المخاطبين العُصاة المصيرين على العناد. ومسائرهم لأجل أن يستدرجهم إلى حال العجز الموجب للتصديق والتسليم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري: إنه ساق ذلك على حسب نيتهم وقصدهم، وأنهم كانوا يزعمون أنهم يقدرّون على معارضة القرآن، لانتكاهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام. وأضاف الزمخشري فائدة بلاغية أخرى لهذا الخروج، هي فهم معنى التهكم بهم، كقول الفارس التحرير لمن دونه: « إن غلبتك في كذا...»

وقوله: " ولن تفعلوا" جملة اعتراضية خبرية تقدم إعلاما غيبيا بعجز الإنس والجن عجزا مؤبدا عن معارضة القرآن.

3) وجواب الشرط مكثي عنه بقوله: "فاتقوا النار"، لما في صريحه من ذكر سلسلة طويلة من الأفعال المتتالية والمتعامدة، والتي يلزم من آخر عباراتها عبارة "فاتقوا النار"، وجميعها معلوم قد دل عليه السياق، وسلسلة الأفعال هي كما يلي: "فقد بُيِّنَ لكم العجز عن المعارضة، وضح عندكم صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم تنقادوا ولم تشايعوا، ولزمت العناد فقد استوجبتم العقاب بالنار، فاتركوا العناد. فوضع "فاتقوا النار" في موضع "فاتركوا العناد"؛ لأن اتقاء النار لصيقه ولازمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته: الإيجاز، الذي هو حلية القرآن، وتهويل شأن العناد، بإنبابة اتقاء النار منابه، وإبرازه في صورته.¹

ويمكننا تمثيل البنية النحوية لهذه الآية بالجدول التالي:

1 _ ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري، 1/ 223-224.

		اتجاه الجدول	
	←	أداة الشرط الظاهرة	الأداة
	إِنْ	أداة الشرط المقتضاة	
	إذا	لم تفعلوا (+ لن تفعلوا)	الشرط
	لم تاتوا بسورة من مثله	الشرط المقدر	
	"فَاتَّقُوا النَّارَ..."	الجواب الظاهر	المجاز
	"فقد بُيِّنَ لكم العجز عن المعارضة، وصح عندكم صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم تنقادوا ولم تشايعوا، ولزمتهم العناد فقد استوجبتم العقاب بالنار، "فاتركوا العناد".	الجواب المقدر	
	"فاتركوا العناد".	ملزوم الجواب المقدر	
	"فَاتَّقُوا النَّارَ".	لازمه وضميمه	

الجدول 11: مواقع الاستبدال في آية 24 من سورة البقرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ آل عمران: 28.

أي: من يرتكب ما نهى الله عنه في هذا فقد برئ من الله كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى أن قال: " وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ الممتحنة : 1، وقال تعالى - بعد ذكر موالات المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال : 73.

وقوله: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً" أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ".

"وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ" أي ذلك الاتخاذ. وجاء التعبير عنه بالفعل كما قال شيخ الإسلام للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره، و"مَنْ" شرطية بديلة من "إِنْ" تفيد عموم العقلاء المخصوصين وهم المؤمنون. و"يَفْعَلْ" فعل الشرط، وجوابه. "فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ" والكلام على حذف مضاف أي من ولايته، أو من دينه، والظرف، وتنوين "شيء" للتحقير أي ليس في شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية أو الدين لأن موالاة المتضادين مما لا تكاد تدخل خيمة الوقوع.¹

وكلما كان الاستبدال في الرابط فهو في نفس الوقت في فعل الجواب، ويكون الرابط الفاء كما يكون الجواب واحدة من الجمل التي يصح الابتداء بها؛ لأن الفاء عوض عن صوت الجزم الذي وظيفته النحوية الربط بين جملي الجواب والشرط.

قال تبارك و تعالی: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
آل عمران: 94.

"فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ" أي اخترع ذلك بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأمهم قبل نزول التوراة. ف"مَنْ" عبارة عن أولئك اليهود، ويحتمل أن تكون عامة ويدخلون حينئذٍ دخولاً أولياً، و"مَنْ" يجوز أن تكون شرطية وأن تكون موصولة وقد روعي لفظها ومعناها.

"مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" أي أمرهم بما ذكر وما يترتب عليه من قيام الحجّة وظهور البينة.

"فَأُولَئِكَ" أي المفترون المبعدون عن عز القرب "هُمُ الظَّالِمُونَ" لأنفسهم بفعل ما أوجب العقاب عليهم، وقيل: هم الظالمون لأنفسهم بذلك ولأشياءهم بإضلالهم لهم بسبب إصرارهم على الباطل وعدم تصديقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما قيد بالبعدية مع أنه يستحق الوعيد بالكذب على الله تعالى في كل وقت وفي كل حال للدلالة على كمال القبح، وقيل: لبيان أنه إنما

1. تفسير ابن كثير، 2 / 30. وتفسير الألوسي، 2 / 478.

يؤاخذ به بعد إقامة الحجة عليه ومن كذب فيما ليس بمحجوج فيه فهو بمنزلة الصبي الذي لا يستحق الوعيد بكذبه.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي في أن الأكل إنفاق مما يجب لكن على نفسه وإلى ذلك أشار علي بن عيسى، وقيل: إنه لما تقدم محاجتهم في ملة إبراهيم عليه السلام وكان مما أنكروا على نبينا صلى الله عليه وسلم أكل لحوم الإبل وادعوا أنه خلاف ملة إبراهيم ناسب أن يذكر رد دعواهم ذلك عقيب تلك المحاجة.

قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: 76.

سبق حرف الجواب "بلى" الجملة الشرطية. ليكون الرد على أهل الكتاب بإيجاب وإثبات ما نفوه كذبا على الله لما قالوا: ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران: 76. ثم تأتي الجملة الشرطية مستأنفة مقررة للجملة التي سدد مسددا حرف الجواب "بلى" ¹

من: ظاهر النص يصرف دلالتها إلى عقلاء مخصوصين هم أهل الكتاب، ويحتمل النص أن تعم دلالتها فتشمل كل إنسان.

الشرط: هو مجموع معنى الفعلين "أوفى و اتقى" أي أوفى بعهده بالإيمان بمحمد ﷺ و نصره، واتقى محارم الله، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله. والعدول بالعطف على فعل الشرك بفعل لآخر يأزره في المعنى، يؤدي إلى تعقيد الشرط، ويجعل الجزاء مستحقا بتحقيق الفعلين معا بدون تخلف أي منهما، ويضيق من احتمال وقوع الجزاء. الشيء الذي يدل على أن الجواب عزيز التحقق، ولا يناله إلا من كان مؤمنا أوفى للعهد، واتقى محارم الله.

1 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 47/2.

و جزم الشرط على المحل لأنه ماض، أما معناه النحوي فهو الزمن المطلق. لأن النص موجه في عمومه إلى الإنسان منذ أن أبرم العقد مع الله على الإيمان بمحمد ﷺ ونصرة دينه، ليجازى بحب الله إياه.

الرابط: الفاء وهي قرينة لفظية للمجازة بما لا يصلح أن يكون شرطاً، و يصح الابتداء به.

وقد قطعت الفاء قدرة اسم الشرط على التأثير زمنياً في الجزاء. وأصبح من الضروري استخلاص الزمن من خواص جملة الجزاء نفسها. وجاء الجزاء جملة اسمية، فأفادت ثبوت معنى المسند أي محبة المتقين، إلى المسند إليه أي الله " وهو الفاعل في المعنى " .

وعموم المتقين قام مقام رجوع الضمير.

ومن بلاغة هذه الآية دلالتها على معنى آخر يستدل عليه بمفهوم المخالفة وهو نفي محبة الله عن ضد المذكور "غير جنس الموصوف بالتقوى"، ومن ثم لا يسع العاقل إلا المسارعة إلى ما يجلب محبة الله له.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفرقان: 68 – 70

من: يراد به الفاعلون للآثام.

" ومن يفعل ذلك " يظهر أن إشارة إلى المجموع من ادعاء إله وقتل النفس بغير حق والزنا، فيكون التضعيف مرتباً على مجموع هذه المعاصي، ولا يلزم ذلك التضعيف على كل واحد منها.

ولا شك أن عذاب الكفار يتفاوت بحسب جرائمهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ " آل عمران: 28.

الاستبدال في من.

وفي الجواب الذي ورد جملة اسمية منسوخة بليس.

نهى الله المؤمنين بعد ما بين لهم بغى المخالفين وإعراضهم أن يتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين ؛ لأن اتخاذهم أولياء بعد أن سفه الآخرون دينهم وسفهاوا أحلامهم في اتباعه يعد ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.

وقد يكون المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدين : مثل المراد من قوله " ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب " فلذلك كله قيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وكان من أفاضل المهاجرين وخلص المؤمنين إلا أنه تأول فكتب كتابا إلى قريش يعلمهم بتجهز النبي صلى الله عليه و سلم لفتح مكة. وقيل : نزلت في أسماء ابنة أبي بكر لما استفتت رسول الله صلى الله عليه و سلم في بر والدتها وصلتها أي قبل أن تجيء أمها إلى المدينة رغبة ؛ فإنه ثبتت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لها : صلي أملك. وقوله " من دون المؤمنين " من " لتأكيد الظرفية.¹

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ آل عمران: 19.

وهذا تهديد، وفيه وجهان : الأول : المعنى فإنه سيصير إلى الله تعالى سريعا فيحاسبه أي يجزيه على كفره . والثاني : أن الله تعالى سيعلمه بأعماله ومعاصيه وأنواع كفره بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال.²

من : اسم شرط للعاقل . والشرط : يكفر، وتقيد بالجار والمجرور، وفي التقيد تحديد لجهة الفعل . وصرفه الشرط إلى الاستقبال . والربط : فاء الجواب .

الجزاء : هو الجملة الاسمية " إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " وهي قائمة مقام الجواب، وعلته له وليست الجواب المباشر للشرط، أي ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب...، وإظهار لفظ الجلالة لزيادة المهابة وإدخال الروعة.³ وغرض الخبر هو التهديد.

1 . محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 1 / 739.

2 - تفسير الرازي، 4 / 148.

3 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 2 / 16.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ آل عمران: 144.

الواو: عاطفة أو استئنافية. أداة الشرط هي من، ووظيفتها النحوية التعليق والربط الشرطيين.
فعل الشرط: مضارع مبني للمعلوم مجزوم اقتضاء لمن. ويشكل مع متعلقه كناية عن الارتداد، وهو الرجوع إلى الكفر.

الرباط : فاء الجواب، و الجواب مصدر بالنفي ب " لن " ، التي تتولى تعيين الجهة الزمنية للجواب وهو الاستقبال.

الجواب: و هو نفي الإضرار بالله شيئاً من الضر ولو قليلاً.

و المقصود من الآية التحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد وقعت الردة فعلاً بعد وفاته، و لكن الله هدى المرتدين بعد ذلك. والآية فيها إنباء بالمستقبل.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ التوبة: 40.

جملة شرط بنيت على "إن" التي هي أم أدوات الشرط.

فهذه الأداة "إن" دخلت على فعل منفي، فأدغمت " النون " في "لام" "لا" النافية، ومجيء النفي ب"لا".

وجواب الشرط محذوف تقديره إلا تنصروه فسينصره الله تعالى جدُّه . وأقيم مقام الجواب المحذوف دليله " فقد نصره الله. "

ولما أقام " قد نصره الله " مقام "سينصره" دلَّ ذلك على كمال تحقق نصر الله تعالى له، فكان فيه جمع من الدلائل على تحقق نصر الله تعالى له : " قد " و الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة " الله " فإسناد الفعل إليه تعالى جدُّه يحمل إلى قلب المسلم فيضاً من اليقين بتحقيق ما أسند إلى اسمه جلَّ جلاله.

وفي هذا عظيم إيناس لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعصمة قلبه من أن ينشغل بتصرفات أحد من الخلق، فلا يتطلع إلى إقبال أحد أو انصرافه إلا بمقدار إشفاقه عليه لا خوفه على دين الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 97.

" وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " يحتتمل أن يراد بمن كفر من لم يحج. وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه. قال صلى الله عليه وسلم: " من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حالة شاء يهودياً أو نصرانياً ".

و " من " تحتتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر وأن تكون موصولة، وعلى الاحتمالين استغنى فيما بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمرة إذ الأصل فإن الله غني عنهم. ويجوز أن يبقى الجمع على عمومه ويكتفى عن الضمير الرابط بدخول المذكورين فيه دخولاً أولياً والاستغناء في هذا المقام كناية عن السخط على ما قيل، ولهذا صح جعله جزءاً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران: 92.

كلمة الشرط هي "ما" وهي اسم موضوع لغير العاقل. وقد تضمن معنى "إن" فعلق مجازة الله تعالى على الأعمال متساوياً مع نوعية وكمية العمل الذي قدمه المخاطبون.

وجاء الجواب على وجهين :

الأول: أن فيه معنى الجزاء تقديره: وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه، فجعل كونه عالماً بذلك الإنفاق كناية عن إعطاء الثواب، والتعريض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح.

والثاني: أن الله تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه هو الإخلاص أو الرياء، ويعلم أنهم ينفقون الأحب الأجود، أم الأخص الأزدل. «¹ وأما تقديم الجارّ والمجرور على متعلقه " به عَلِيمٌ " فلرعاية الفواصل. و ينصرف الغرض الأدبي لهذا الأسلوب إلى الترغيب في إنفاق الجيد والتحذير من إنفاق الرديء، مع إخلاص النوايا في الإنفاق.

قال الله تعالى: ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ النساء : 78.

أي : أينما تكونوا في السفر أو في الحضر يدرككم الموت لأن الأجل مقدر فلا يمنع عنه عدم الخروج إلى القتال، وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم لشدة تباعدهم عن أسباب الموت وقرب وقت حلوله إليهم بمر الأنفاس والآفات كأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم لا يفتر نفساً واحداً في التوجه إليهم.

وقرئ " يُدْرِكُكُمْ " بالرفع، واختلف في تخريجه فقيل : إنه على حذف الفاء كما في قوله على ما أنشده سيبويه :

من يفعل الحسنات الله يشكرها... والشر بالشر عند الله (مثلان)

وظاهر كلام «الكشاف» الاكتفاء بتقدير الفاء، وقدر بعضهم مبتدأ معها أي فأنتم يدرككم.

وقيل : هو مؤخر من تقديم، وجواب الشرط محذوف أي يدرككم الموت أينما تكونوا.

ويمتنع أن يكون ما في الآية جزءاً لما ذكر سيبويه أن النية في المرفوع التقديم ويكون إذ ذاك دليلاً على الجواب لا نفس الجواب.²

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:

.115

1- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت : 289/8.

2- روح المعاني، 3/ 128.

" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ " أي الناحيتان المعلومتان المجاورتان لنقطة تطلع منها الشمس وتغرب، وكفى بمالكيتهما عن مالكية كل الأرض، وقال بعضهم: إذا كانت الأرض كروية يكون كل مشرق مغرباً بالنسبة للأرض كلها.

" فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا " أي ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة، فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ " أي فهناك جهته سبحانه التي أمرتم بها، فإذا مكان التولية لا يختص بمسجد دون مسجد ولا مكان دون آخر " فَأَيُّنَمَا " ظرف لازم الظرفية متضمن لمعنى الشرط. والتولية بمعنى الصرف منزل منزلة اللازم، و " ثم " اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبني على الفتح وهو خبر مقدم، وما بعده مبتدأ مؤخر، والجمله جواب الشرط والوجه الجهة كالوزن والزنة. والوجه بمعنى الذات مثله في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ القصص: 88، أو بمعنى الجاه، ويؤول إلى الجلال والعظمة، والجمله الشرطية على هذا اعتراض لتسليية قلوب المؤمنين بحل الذكر والصلاة في جميع الأرض لا في المساجد خاصة.¹

والأداة الشرطية في الآية قامت بمجرد التعبير عن التلازم بين تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب ووجود وجه الله في كل مكان.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ البقرة: 103.

" لَمَثُوبَةٌ " الثواب، وهي جواب " ولو أنهم آمنوا " عند قوم.

وقال الأخفش سعيد: ليس ل " لو " هنا جواب في اللفظ ولكن في المعنى، والمعنى لأتبيوا.

وموضع " أن " من قوله: " ولو أنهم " موضع رفع، أي لو وقع إيمانهم، لان " لو " لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدله من جواب، و " أن " يليه فعل.

قال محمد بن يزيد: وإنما لم يجاز ب " لو " لان سبيل حروف المجازة كلها أن تقلب الماضي إلى معنى المستقبل، فلما لم يكن هذا في " لو " لم يجز أن يجازى بها.

النص الكريم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ فَادُّوهُوَ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ "آل عمران. 106"

المعنى الإجمالي المتقدم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

حرف الشرط: أما، وقال سيبويه في تفسر معناه « مهما يكن شيء » فيقوم مقام اسم الشرط
وفعل الشرط المحذوف. كما ترافقه الدلالة على التفصيل و التوكيد.

الشرط: محذوف مقدر.

الرابط: الفاء، وقد زحلققت إلى ما بعد الاسم الموالي لحرف الشرط "أما" لئلا يلتقي حرفان.
غير أنها حذفت.

الجزء: لا بد ل أما من الفاء في جوابها، ولما كان جوابها القول الذي سقط، سقطت معه الفاء،
والمعنى فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم،¹ وإنما حسن الحذف للدلالة
الكلام عليه وهو الاستفهام.

وغرض الكلام الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر، ببيان مصير الكافرين.

قوله تعالى: "فأما الذين اسودت وجوههم" في الكلام حذف، أي فيقال لهم "أكفرتم بعد
إيمانكم" ويقال: هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا
به.

ويقال هذا للمنافقين: أكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية.

وأجمع أهل العربية على أنه لا بد من الفاء في جواب "أما" لان المعنى في قولك: "أما زيد
فمنطلق، مهما يكن من شيء فزيد منطلق".

وقوله تعالى: "وأما الذين ابيضت وجوههم" هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده...

1 - الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، 3، 1980: 228 / 2.

" فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ " تفصيل لأحوال الفريقين وابتدأ بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته " وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ " وليكون الابتداء والاختتام بما يسر الطبع ويشرح الصدر.

" أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ " على إرادة القول المقرون بالفاء أي فيقال لهم ذلك، وحذف القول واستتباع الفاء له في الحذف أكثر من أن يحصى، وإنما الممنوع حذفها وحدها في جواب أما، والاستفهام للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والكلام حكاية لما يقال لهم...

فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ الفجر:

.15

فأما: تفسير معناها مهما يكن من شيء.

قوله: " فَأَمَّا الْإِنْسَانُ " : مبتدأ، وخبره: الجملة من قوله: " فيقول "، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ البقرة: 26، والظرف حينئذٍ منصوب بالخبر؛ لأنه في نية التأخير، ولا يمنع الفاء من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ ﴾ الواقعة: 88-93.

حدث استبدال أداة الشرط. واستبدال جواب الشرط.

ذكر الله طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم.

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما أن يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: " فَأَمَّا إِنْ كَانَ " أي: المحتضر، " مِنَ الْمُقَرَّبِينَ " وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، " فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ " أي: فلهم روح

وريجان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت . وجواب "إن" عند المبرد محذوف، والتقدير مهما يكن من شيء "فسلام لك من أصحاب اليمين" إن كان من أصحاب اليمين "فسلام لك من أصحاب اليمين" فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت، لدلالة ما تقدم عليه.

ومذهب الأحفش أن الفاء جواب "أما" و "إن"، ومعنى ذلك أن الفاء جواب "أما" وقد سدت مسد جواب "إن" على التقدير المتقدم، والفاء جواب لهما على هذا الحد.¹

"فَرَوْحٌ" أي فله روح على أنه مبتدأ خبره محذوف مقدم عليه لأنه نكرة، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أي فجزاؤه روح أي استراحة، والفاء واقعة في جواب أما، وتقدير هذا الكلام مهما يكن من شيء فروح... الخ إن كان من المقربين فحذف مهما يكن من شيء، وأقيم "أما" مقامه ولم يحسن أن يلي الفاء "أما"، فأوقع الفصل بين أما والفاء بقوله سبحانه: "إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ" لتحسين اللفظ، والفاء في "فَرَوْحٌ" وأخويه جواب "أما" دون "إن"، فاستغنى بجواب "أما" عن جوابها.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ:39.

وما أنفقتم من شيء يحتمل أن تكون ما شرطية في موضع نصب بـ"أنفقتم"، وقوله تعالى "فهو يخلفه" جواب الشرط، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي في موضع رفع بالابتداء والجملة بعد خبره، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ومن شيء تبين على الاحتمالين ومعنى يخلفه يعطي بدله وما يقوم مقامه عوضا عنه وذلك إما في الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى كما قيل وإما في الآخرة.

وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط ويجعل جملة الجواب اسمية وتقدم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله "فهو يخلفه" ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه.

1. القرطبي، تفسير القرطبي، 232/17.

قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْنُوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: 20.

أي كلما ظهر لهم دليل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وظهرت لهم علاماته مالوا إليه، وإذا أظلم عليهم، أي إذا أصاب المسلمين محنة، كما أصابتهم يوم أحد قاموا، أي ثبتوا على كفرهم.

أفادت "كلما" عموم واستغراق حالات الإضاءة، كما تفيد أن مضمون الجواب يتكرر حدوثه بتكرر فعل الشرط.

وهي تفيد التكرار الزمني كما صرح به الأصوليون وذهب إليه بعض النحاة واللغويين ، بناء على ما في لفظ "كل" من معنى العموم والاستغراق، وما في لفظ "ما" من معنى الظرفية الزمانية .

واستفادت " إذا " معنى التكرار من عطفها على "كلما". ويصير المعنى: وكلما أظلم عليهم قاموا. وبهذا تكون "إذا" قد ضمنت معنى "كلما" بتوجيه من السياق. أي أنّ تكرار الإضاءة يَسْتَلْزِمُ تَكَرُّرَ الْإِظْلَامِ فكان تنويع الكلام أعذب. ولم يختار التعبير القرآني "إن" في مكان "إذا" لما في الأخيرة من معنى التحقق واليقين والظرفية الزمنية الذي تحمله "كلما" أيضا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود: 74.

أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوف، وجاءته البشرى بإسحاق ويعقوب، "يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" فيه إضمار، أي: أخذ وظلّ يجادلنا. وبناء على اعتبار الجواب قد أضمر فيه فعل الشروع "أخذ أو ظل، فإن التركيب الشرطي المصدر بـ"لما" يكون قد جرى على ما هو غالب فيه من تطلب "لما" جملتين فعليتين فعلهما ماض لفظا ومعنى.

وقيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربه عز وجل إنما يسأله ويطلب إليه.

وقال عامة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرايتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أهلكوهم؟ قالوا: لا قال: أو أربعون؟ قالوا: لا قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا حتى بلغ خمسة، قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أهلكونها؟ قالوا: لا قال

إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.¹

قد يكون "مجادلنا" جواب لما، وكان الظاهر "جادلنا" إلا أنه عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية واستحضار صورتها. نحو استعمال المضارع في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ فاطر:9.

وقيل: هذه الجملة في موضع الحال من فاعله أي "مجادلا لنا"، وجواب "لما" محذوف تقديره: "قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا."

والعلاقة بين الجواب والشرط علاقة زمنية، تفيد أن جوابها وجب عند وجوب شرطها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف:55.

الاستبدال قائم في "لما" التي بمعنى "إن" على سبيل التعليق السببي، وليس على سبيل التعليق الشرطي الذي هو مناط بالاستقبال.

في قوله " فلما آسفونا " إيجاز لأن كونهم مؤسفين لم يتقدم له ذكر حتى يبنى أنه كان سببا للانتقام منهم فدل إناطة أداة التوقيت به على أنه قد حصل والتقدير: فآسفونا فلما آسفونا انتقمنا منهم.

ولما كانت "لما" ظرفا رابطا لجملتين على سبيل وجود وتحقيق مضمون الثانية لوجود وتحقيق مضمون الأولى، كان مفهوم المخالفة لا معنى له، لأن الكلام عما لم يتحقق بسبب عدم تحقق أسبابه لغو.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ الأعراف:135.

1 . أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة، 1417 هـ / 1997 م، 4/190.

والآية التي قبلها: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: 134.

فالآية 135 دالة على أن موسى دعا الله برفع الطاعون عن بني إسرائيل فارتفع.

وقوله " إلى أجل هم بالغوه " متعلق بـ " كشفنا " باعتبار كون كشف الرجز إزالة للموت الذي سببه الطاعون، وجملة " إذا هم ينكتون " جواب " لما " .

" وإذا " رابطة للجواب لوقوع جواب الشرط جملة اسمية فلما كان " إذا " حرفاً يدل على معنى المفاجأة كان فيه معنى الفعل كأنه قيل فاجأوا بالنكت أي : بادروا به ولم يؤخروه. وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكت لليمين.

في الكلام حذف دل عليه المعنى وهو فدعا موسى فكشف عنهم الرجز وأسند تعالى الكشف إليه لأنه هو الكاشف حقيقة فلما كان من قولهم أسندوه إلى موسى وهو إسناد مجازي ولما كان إخباراً من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسناد حقيقي ولما كان الرجز من جملة أخرى غير مقولة لهم حسن إظهاره دون ضميره وكان جائزاً أن يكون التركيب في غير القرآن " فلما كشفناه عنهم " ومعنى " إلى أجل هم بالغوه " إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فيعذبون فيه.¹

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ الإسراء: 97.

تقتضي "كُلَّمَا" التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها. كلما خبت أي أرادت أن تخبو، " زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا "، أي : وقوداً، أو أن المراد من قوله: " كُلَّمَا خَبَتْ " : نضجت جلودهم واحتترقت أعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه وزيد في تسعير النار لتحرقهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: 67.

1. أبو حيان، تفسير البحر المحيط، 374/4.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ أي: وإن لم تفعل التبليغ، فحذف المفعول به ولم يقل: "وإن لم تبلغ فما بلغت" لأن الجواب لا بد أن يكون مغايراً للشرط لتحصل الفائدة، ومتى اتَّحدا اختلَّ الكلام.

فعل الشرط جاء في موضع فعل آخر معلوم من السياق هو قوله: "بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ". وطلبنا للاختصار وتجنباً للتكرار، واجتناباً للأسلوب العنيف والقادح في مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل "الفعل" الذي هو كناية عنه.

ثم يصير ظاهر قوله تعالى: { وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ } آثلاً إلى اتحاد الشرط والجزاء، والمعنى يُؤوّل ظاهراً إلى: "وإن لم تفعل لم تفعل".¹ وقد قدم الأستاذ أبو القاسم الزمخشري جوابين في تفسير هذا التركيب الشرطي:

أحدهما: أنه إذا لم يمثل أمر الله في تبليغ الرسالة وقام بكتّمها كلّها يكون كأنه لم يُبْعَث رسولاً، وذلك أمر شنيع لا خفاء في شناعته، وقيل: إن لم تبلغ أدنى شيء وإن كلمة واحدة. كنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلّها، كما عَظَّم قَتْلَ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ المائدة:32.

والثاني: أن يُراد: وإن لم تفعل ذلك، فَلَكَ ما يُوجِبُ كتمانَ الوحي كلّهُ من العقاب فوضع السبب موضع المسبّب، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: "فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالتي عَذَّبْتُكَ".²

وعلى القول الذي جاء في الجواب الثاني للزمخشري يكون جواب الشرط بديلاً من الجزاء المباشر وهو "يعاقبك ربك" إلا أنه وضع السبب وهو "ما بلغت رسالته" موضع المسبب للتلازم الذي بينهما، ولأجل ألا يكلم الله رسوله الكريم بلغة الوعيد التي لا تليق بمقام الرسول صلى الله عليه وسلم.

1. السمين الحلبي، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 4/350، 349.

2. الزمخشري، الكشاف، 2/270، 269.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
النور:33.

المخاطب بهذه الآية هو المسلمون، سواء أكانت قصة الأمتين معاذة ومسيكة حدثت بعد أن أظهر سيدهما عبد الله بن أبي الإسلام أم قبل أن يظهره. وعلى الأول يكون عبد الله بن أبي هو سبب النزول فيشملة العموم لا محالة، ويكون بذلك من جملة المسلمين. وعلى الآخر يكون هو سبب النزول ولا يشمله الحكم لأنه لم يكن من المسلمين يومئذ، وإنما كان تدمر أمته منه داعيا لنهي المسلمين عن إكراه فتياتهم على البغاء.¹

وقد أثر التعبير القرآني استعمال "إن" على "إذا"، وفي ذلك مطابقة بين اللفظ والمعنى الذي هو الشذوذ والندرة، وارتباط بالبيئة التي نزلت الآية فيها، وهي أن الزانيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن هذه الفاحشة كانت تقع منهن بكثرة. وأن ما وُجِدَ من معاذة ومسيكة المسلمتين وهما جاريتان لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، هو من خبر الشاذ النادر. وكان يُكْرَهُ جواريه على البغاء ليكسب بهنّ، فاشتكت الاثنتان المذكورتان لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية.²

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النور:33.

وقوله " فإن الله غفور رحيم " ليس جواب الشرط المباشر، ولكنه دليل الجواب، إذ حذَفَ الجواب إيجازا، واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشمله وغيره. والتقدير : فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة. وفي هذا الإجراء إيجاز يتبين فيه اللفظ القليل الموحى بفضل المعنى المسترسل بسهولة من ذهن كل عاقل.

وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك التقدير في تقدير جواب الشرط قلنا: ... يَأْتُمُّ وَحْدَهُ، وَلَا إِثْمَ عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة.³

والفاء رابطة الجواب. وهي مع جواب الشرط في محل جزم.

1. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 227/18.

2. أبو حيان، البحر المحيط، 416/6.

3. قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ البقرة:173.

المبحث الثاني - العدول بتقديم الجواب.

يدخل التقديم والتأخير فيما أسماه ابن جني شجاعة العربية، حيث أرجعها إلى عدة أمور هي الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى والتحريف.¹

وهذا يعني أنه نمط من أنماط العدول عن الأصل في الترتيب الذي تنظم عليه مفردات الكلام، ويكون هذا التحويل عن القاعدة دليلاً على ما للعربية من خواص تجعلها قادرة على المغامرة التركيبية بما يزيد في جمال هذه اللغة ويوسع من دائرة استعمالها، وذلك من شجاعتها التي وصفها بها ابن جني.

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني " أن هذا الباب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد أن سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان...".²

يري الجرجاني أنّ التقديم باب مشروع على الإبداع وحسن المعنى، ويمنح المبدع التصرف والاتساع في الكلام بما ينتج عنه لفتات أسلوبية جمّة تنضح لطفًا وجمالًا.

ويضيف بأنه لا يكفي أن يقال في ما قدم إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهمّ، من غير أن نذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهمّ.³

لا يقبل الجرجاني بتلك العبارات الجاهزة التي يرددها النقاد والمحللون للأساليب بأن ما قدّم إنما فعل به ذلك للعناية والاهتمام، وهي العبارة الموروثة عن سيبويه، ولكن عليهم أن يبحثوا في خصوصية تلك العناية والغرض الذي تجسد فيه الاهتمام.

وإذا تقدمت عبارة الجواب عن الأداة والشرط، عدّها نحاة البصرة دليلاً على الجواب، أو في معنى الجواب، وليست جواباً للشرط؛ لأن الجواب لا بد أن يكون تالياً للشرط في الواقع، ولأن الأداة

1 - ابن جني، الخصائص، 2/ 362.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

3 - نفس المصدر والصفحة.

تعمل في الشرط والجزاء معا إعرابا وتعليقا. وهو الأمر الذي لا يراه كذلك المراد ونحاة الكوفة والأصوليون، بل يرون أن تقديم الجواب جائز، لأن التعليق باق، وهو المهم.

وأرى الأخذ بغير مذهب النحويين البصريين استكمالا لأنواع العدول التي من بينها التقديم من تأخير. وأمثلة التقديم في القرآن كثيرة جدا.

منها قول الله تعالى على لسان السحرة لفرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ الشعراء: 41.

أرادوا: إن لنا لثوابا عظيما؟ ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى عليه السلام، فقالوا: "إن كنا نحن الغالبين". قال فرعون: "نعم، لكم ذلك الأجر والجعل عندي مع زيادة عليه وهي كونكم من المقربين لدي".

إن تقديم الجواب دل على أن ظن السحرة بقوة سحرهم كان متمكنا فيهم، حتى أنهم أكدوا عبارة الجزاء على أنها أمر مفروغ من تحققه، ثم بدا لهم أن يقيدوا ذلك الجزاء بعبارة الشرط كما لو أنهم أرادوا بها أن يتباهوا بغلبتهم، وأن يُذكروا بها.

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هود: 34.

إن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ يتعين بالمعنى أن يكون هو الجزاء للشرط في قوله: ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾. وقد تقدم الجزاء لأن الكلام منعقد على نفي نصح الرسول صلى الله عليه وسلم لهم إذا كان الله قد شاء إغواءهم. فالجزاء مقدم اهتماما به، وأوتي بالشرط المذكور قيده، وهو الشرط المقصود بالتعليق عليه، وأما قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ فهو تعليق على التعليق.

وقوله عز وجل: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: 42.

" لولا " حرف امتناع لوجود، أي امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها، والجواب هنا مقدم عن أداة الشرط عليه وهو ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾.

وفائدة نسج الكلام على هذا المنوال دون أن يؤتي بأداة الشرط ابتداء متلوة بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداء بأنه حاصل. ثم يؤتى بالشرط بعده تقييدا لإطلاق الخبر. فالصناعة النحوية عند لبعض تعتبر المقدم دليل الجواب والجواب محذوفاً لأن نظر النحوي لإقامة أصل التركيب؛ فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه.

ولذا قال في الكشاف: " لولا " في مثل هذا الكلام جار مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى لا من حيث الصنعة. فهذا شأن الشروط الواقعة بعد كل كلام مقصود لذاته.¹ فتأخير الشرط في هذه المواضع يُظهر أنه قيد للفعل الذي هو الجواب في المعنى، وكذا ما قدم فيه على الشرط ما حقه أن يكون جواباً للشرط تقديماً لقصد الاهتمام بالجواب.

المبحث الثالث- خروج الشرط والجواب من باب المجازة.

قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء: 47.

أي وإن تكن المعصية مثقال حبة من خردل جئنا بها وحاسبنا عليها. إن عمل الشر مهما تنهى في الصغر وغاب عن الناس وصاحبه، فإن الله يأتي به لسعة علمه وإحاطته بأفعال الناس وبملكوته.

إذا حكمنا بحكم الظاهر على التركيب الشرطي في هذه الآية، عددنا أن وجود معصية في مثقال حبة من خردل هو شرط في مجيء الله به ومجازاته عنه. كما يعلم من طريق مفهوم الآية أن المعصية التي تكون أكبر هي أولى بإتيان الله بها. ولكن ما ينبغي أن نلاحظه أن المقصود ليس أن وجود المعصية يكون سبباً في إظهار قدرة الله على مجيء الله بها، وكأن غياب وجود المعصية يتسبب في عدم ظهور القدرة الإلهية.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 34 / 19.

بالتأمل في الآية نجد أن المعنى المراد إثباته هو أن الله قادر قدرة مطلقة على استقصاء وعرض جميع أعمال العباد والجزاء عليها. وبهذا المعنى يكون الشرط مسوقاً لأجل تأكيد وإثبات قدرة الله في الإحاطة بحسنات العبد أو سيئاته. وليس مسوقاً لبناء الجواب عليه، وإن كان معنى الملازمة حاضراً في التركيب.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الزمر:4.

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أن المشركين كاذبون وكافرون في اتخاذهم أولياء من دون الله.

أي: " لو أراد الله أن يتخذ ولدا " كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. " لاصطفى مما يخلق ما يشاء " أي : لاصطفى من مخلوقاته (كالملائكة مثلاً) ، الذي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ صاحبه. وقوله " سبحانه " إشارة إلى استحالة اصطفاؤه شيئاً لأجل اتخاذ الولد. وقوله " هو الله الواحد القهار " إشارة إلى البرهان على استحالة ذلك.

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد تجهيل المتكلم أو دحض حجته.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران:20.

إذا فُسر جواب الشرط "فقد اهتدوا" على المعنى الأصلي له، حصل من ذلك اتحاد الشرط والجزاء، لأن الإسلام هو عين الاهتداء. ولذا مُنع ظاهر الاهتداء وفسر باللازم له وهو النفع أي " فقد نفعوا أنفسهم"¹. ونفعهم لها هو الفوز والنجاة في الآخرة.

ويكون التركيب الشرطي قد بني على معنى أن الجواب يمثل أسمى وأؤكد ما قد يبلغه الشرط من درجات الكمال.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ المائدة: 116. ضمير النصب في "قلته" عائد إلى الكلام المتقدم ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

إن: معدول بها عن التعليق الشرطي الحقيقي وهو الذي يكون مستقبلا، إلى مجرد التعليق الذي هو الربط بين متلازمين؛ لأن فعل الشرط في هذه الآية جاء مركبا من كان يتلوها الفعل الماضي. وبما أن "كان" قوية في الدلالة على الماضي - كما يصفها المبرد - فإن فعل الشرط (وهو القول) تعيّن مضيّه ، وتعلق به الجواب "فقد علمته" ، فصار تعليقا لأمر مضى بآخر مثله في الماضي. والماضي حدث معلوم بسبب مضيّه وحصوله. ولا تحوّل "إن" دلالاته إلى الشك والاستقبال.

وبذلك يكون هذا التركيب الشرطي منصرفا إلى غير التعليق الدال على السببية إلى الاستدلال به على انتفاء أن يقول عيسى عليه السلام ذلك الكلام بدليل أن الله يعلم أنه لم يقله.

ونحو احتجاج الرسل بعلم الله في القرآن الكريم قوله تعالى على السنة الرسل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يس: 16-17. فلما كان متحققا من براءة نفسه أحال ذلك على علم الله تعالى. وهكذا يكون قد استدل بمضمون الجزاء على مضمون الشرط ، كما هو الشأن في مدخولي "لو" الامتناعية عند قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: 22.

إن فعل الشرط المركب، الماضي لفظا ومعنى (كنت قلته) يمنع من اعتبار "إن" حرفا للتعليق به مستقبلا، وبالتالي تخرج "إن" عن وظيفتها النحوية الأصلية إلى تأدية وظيفة تشبه وظيفة حرف الشرط الامتناعي "لو"، من حيث التعليق بها يكون في الماضي. واستدل بها على الشرط بالجزاء، أي أن انتفاء قوله له ثابت بعلم الله ذلك.

كما أن ما هو في ظاهره جواب لـ"إن" ليس كذلك؛ لأن مضمونه ليس مترتبا على معنى الشرط المتمكن في الماضي. أي إن كون الله عالما وشاهدا على انتفاء ذلك القول عن عيسى عليه

السلام، ليس مسبباً عن كون عيسى لم يقله، لكنّ هذا الجواب الظاهر دليلٌ على براءته عليه السلام. وقد قال الله ذلك تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً.

وفي قوله: "فقد عَلِمْتَهُ" أسند عيسى عليه السلام العلم إلى الله تعالى. وفيه غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إليه.

وهذا التركيب الشرطي برمته، مع ما صاحبه من جمل قبله وبعده، إجابة عن سؤال الله لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وكانت الإجابة كما يلي: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تَعَدَّيْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة: 116-118. وهذه الإجابة المطولة بما فيها الجملة الشرطية، عدول عن الإجابة المباشرة التي هي: "لم أقله" مثلاً. لكنه خرج بالإجابة إلى الجملة الشرطية لما فيها من إمكانات وطاقات تعبيرية لا تتأتى بجملة بسيطة مثل "لم أقله".

وفي إطالة الجواب بالجملة الشرطية وما معها، فائدة أراد نبي الله تحصيلها وهي التلذذ بكرامة الكلام مع الله، وهذا على غرار جواب موسى عليه السلام عن سؤال العصا: وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينَكَ يَا مُوسَى طه: 17، فلم يكتف بالجواب: "هي عصاي"، ولكنه عليه السلام أضاف ذكر الوجوه الأخرى؛ لأنه كان يجب المكاملة مع ربه والاستزادة من كرامة الحوار معه، فجعل ذلك الجواب الطويل الوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض. وكانت إجابته كما حكاها الله على لسانه عليه السلام: قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى طه: 18.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران: 185.

الفوز: هو حصول الريح ونفي الخسارة. والفاء في قوله "فمن زحرح" للتفريع على "توفون أجوركم" ومعنى "زحرح" أبعاد. وحقيقة فعل زحرح أنها جذب بسرعة وهو مضاعف زحه عن المكان إذ جذبه بعجلة.

وإنما جمع بين " زحزح عن النار و أدخل الجنة " مع أن في الثاني غن يقي عن الأول للدلالة على أن دخول الجنة يشمل على نعمتين عظيمتين : النجاة من النار ونعيم الجنة

ومعنى " فقد فاز " نال مبتغاه من الخير ؛ لأن ترتب الفوز على دخول الجنة والزحزحة عن النار معلوم، فلا فائدة في ذكر الشرط إلا لهذا. والعرب تعتمد في هذا على القرائن فقد يكون الجواب عين الشرط لبيان التحقيق نحو قول القائل : من عرفني فقد عرفني وقد يكون عينه بزيادة قيد نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ الفرقان:72. وقد يكون معنى بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط كما في هذه الآية ، وفي قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ آل عمران:192، وقول العرب " من أدرك مرعى الصّمان فقد أدرك " ¹

وقد يكون معنى بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط. فمن زحزح " أي: أخرج، " عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار و لم يدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أمودج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿ وَإِنَّمَا تُؤَقِّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ آل عمران:185، أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْآخِرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ السجدة:21.

وفي الآية تخصيص الحكم الوارد به جواب الشرط، فالفوز حكم متحقق بضرورة اجتماع الشرطين وهما الزحزحة عن النار ودخول الجنة

فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز : علق الفوز وهو نيل الحظ من الخير والنجاة من الشرّ على التنحية من النار ودخول الجنة، لأن من لم ينح عن النار بل أدخلها، وإن كان سيدخل الجنة لم يفز كمن يدخلها من أهل الكبائر.

1. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 1 / 869.

ومن نعي عنها ولم يدخل الجنة كأصحاب الأعراف، لم يفز أيضاً.

وروي في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من سره أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويأتي إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه، قيل: فاز معناه نجا »

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا بَلَغَ رِئْتَهُ لَ الْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ الأعراف: 143.

نفى الله أن يراه عيسى عليه السلام في قوله: "لن تراني". وأكد هذا النفي باستعمال أسلوب الشرط، بحيث علق الله تعالى رؤيته باستقرار الجبل، ثم جعله دكاً، ونبه بذلك على أن رؤيته لن تقع، لتعليقه إياها بأمر ووجد ضده وهو الدك المقابل للاستقرار.

وهذا أسلوب مشهور في مذاهب العرب، حيث يؤكدون نفي الشيء بما يُعلم أنه لا يقع، ويستعملون لذلك التركيب الشرطي أو غيره.¹

وفي تأكيد انتفاء رؤية موسى عليه السلام لذات الله تعالى، تسكين لقلبه ولطف به وبالناس؛ إذ أراه حال الجبل الصلب الذي أصبح مذكوكا بإرادته تعالى.

قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنْ حِفْظُهُمْ إِلَّا تُفْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ. فَإِنْ حِفْظُهُمْ إِلَّا تَعَدَّلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ النساء: 3.

بسبب فقدان دلالة المفهوم يبدو لأول وهلة أن هذا التركيب الشرطي عبثي؛ لأنه لا تظهر أية مناسبة أو ملازمة بين الشرط وجوابه، أي بين الأمر بنكاح النساء وعددهن في جواب شرط الخوف من عدم الإقساط في اليتامى.

1- ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ الأعراف: 30.

وقول الشاعر:

وصار الفار كاللبن الحليب.

إذا شاب الغراب أتيت أهلي

أما إذا علمنا من حديث عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم بأن اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بمن أعلى سنتهن في الصداق، أو يطلبوا نكاح ما طاب لهم من النساء غيرهن. أقول إذا ما علمنا هذا من حديث عائشة رضي الله عنها، ظهرت المناسبة بين الشرط والجزاء. وذلك يعني أن لفظ "اليتامى" الذي تسبب إطلاقه في حمل أسلوب الشرط والجزاء على غير معنى الملاءمة بينهما، لمّا قيد بحديث عائشة رضي الله عنها، صار محصور الدلالة، ومقصودا به اليتامى من النساء اللواتي بلغن سن الزواج وكنّ تحت وصاية أوليائهنّ. كما أن تقييد هذا الإطلاق قد فهمه بعض المفسرين من قوله في الجواب: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء" أي نساء غيرهنّ، لا يدخلن في فئة اليتامى، فكانت الملازمة بين طرفي الجملة الشرطية واضحة عندهم.

ويظهر وجه الملازمة بين الشرط والجزاء أيضا بربطهما بالمناسبة التي قدمها عكرمة على أنها سبب نزول لهذه الآية. قال: نزلت في قريش، كان الرجل يتزوج العشر فأكثر فإذا ضاق ماله أخذ مال يتيمة فتزوج منه، فنزلت الآية لتسد ذريعة أكل أموال اليتامى؛ إذ حَدَّدَتْ عددا من النساء أقل مما كان يطلبه الرجل، وفي ذلك مَظَنَّة ألا تمتد يده إلى أموال أوصيائه.¹

وجاء جواب الشرط "فانكحوا" بصيغة الأمر المحمول على الندب الذي هو ضد الكراهة، وأما الحال المتعلق به وهو "مثنى وثلاث ورباع" فينتجه بالأمر إلى الإباحة.

ولو حُمِلت عبارتا الجملة الشرطية على الظاهر لكان معنى الآية أنه لا يباح النكاح مثنى وثلاث ورباع إلا لمن خاف الجور في اليتامى، لأجل تعليقه عليه، أما مَنْ لم يخف فمفهوم الشرط يدل على أنه لا يجوز له ذلك، والإجماع على خلاف ما دلّ عليه الظاهر من اختصاص الإباحة بمن خاف الجور. حيث أجمع المسلمون على أنّ مَنْ لم يخف الجور في أموال اليتامى يجوز له أيضا أن ينكح ذلك العدد كمن خاف. فدلّ إجماع الأمة على أن الآية جواب لمن خاف ذلك، وحكمها أعم.² وهذا يعني أن الاقتصار على المعنيين الظاهر والمفهوم لعباري الشرط والجزاء، يقف بنا دون الفهم الصحيح. وأن الأمر يتطلب تأويلا أو اعتبار مناسبة ما تتلاءم دلاليا والجملة الشرطية.

1 _ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 222/3، 223.

2 _ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 171/3.

وثمة مناسبات أخرى ذكرتها كتب التفسير مُفهممة بأن هذا التركيب الشرطي معدول به عن أصل دلالاته الوظيفية العامة، ويتعلق هذا العدول بوظيفة "إن" التي صارت بمعنى "كما" التي تستعمل في الربط بين جملتين لأجل التسوية بين مضمونيهما حكما، بإلحاق الثانية بحكم الأولى، مثل قولنا: كما علّمت زيدا فأكرم عمرو، لملاحظة أن الفاعل واحد، والعلة في تعليم زيد هي الإحسان إلى الغير، وهي موجودة في الإكرام أيضا، فوجب على المخاطب إكرام عمرو.

ومن السياقات المتصلة بهذه الآية ما جاء في تفسير البحر المحيط أنّ ابن عباس وابن جبير وقتادة والسدي قالوا: "كانت العرب تتحرج في أموال اليتامى، ولا تتحرج في العدل بين النساء. يتزوجون العشر فأكثر، فنزلت في ذلك، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في أموال اليتامى، فكذلك فتخرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعُد الجور عنه."

وقال مجاهد: "إنما الآية تحذير من الزنا، وَزَجَّرَ عَنْهُ، أي كما تتحرجون في أموال اليتامى، فكذلك فتخرجوا من الزنا، وانكحوا ما حُدَّ لكم."¹

وعلى القولين يكون لفظ "اليتامى" غير مختص بالذكر ولا بالإناث.

واستنادا إلى هاتين الروايتين تكون الجملة الشرطية خارجة عما يقتضيه وجود شرطها من وجود جوابها إلى جريانها مجرى قضية منطقية، أي أنهما خرجا إلى الدلالة على أن الشرط تضمن مسألة وحكمها وعلته، وذلك هو تخرجهم من مدّ أيديهم إلى أموال اليتامى لما فيه من علة القبح. ومسألة مدّ الأيدي إلى أموال اليتامى ظلما هي الطرف المقيس عليه. وأنه يجب حَمْلُ حُكْمِ مسألة الجواب على حكم أختها في الشرط، لجامع علة الحكم بين المسألتين، والعلة الثابتة في الثانية هي قبح الاعتداء على الغير في أموالهم أو أعراضهم. فيكون الطرف المقيس وحكمه: وجوب التحرج من الاستكثار اللامحدود من الزوجات مع عدم العدل بينهن، وكذا التحرج من الزنا، ثم الالتزام بالعدد المحدد من طبيبات النساء والعدل بينهن، أو الاكتفاء بواحدة.

وحسب هذين السياقين فإن فعل الشرط الماضي صيغة يقبل احتمال أن يكون ماضيا معنى أيضا، كما يحتمل أن يكون ماضيا لفظا ومعنى. وأما الأمر الذي صدرت به عبارة الجزاء فمستقبل على ما يجيء عليه الأصل.

1 - ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 3/ 503.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس: 94.

إذا اغتبرَ المخاطبُ سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، كان الشرط المراد، على تقدير: إن كنت في شكٍّ ما يسيرٍ مما أنزلنا إليك... وورد الشرط في الآية بالأداة "إن" الموضوعه للغرض والإمكان، بينما لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام الشك لانكشاف الغطاء له، فيكون الغرض من الشرط تهييج الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادة تثبيته، وليس الغرض إمكان وقوع الشك له عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ولذلك قال حين جاءته الآية: «لا أشك ولا أسأل».¹

وهذا يعني أن شخصية المخاطب قد تكون السبب في العدول بالجملة الشرطية المفيدة لترتيب أمر على أمر مشكوك فيه، إلى إفادة التهييج والحث على زيادة التثبيت.

وإذا اعتبرنا أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام، والمراد به أمته أو كلُّ سامع، يكون تقدير الشرط على الأصل أي: إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك فاسأل. ويكون في الآية تنبيه وتوجيه إلى أن من خالجه شبهة في الدين ينبغي له الإسراع في مراجعة من يزيلها من أهل العلم وذلك حسب ما تدل عليه الفاء الجزائية من معنى التعقيب.

وهذا يعني أن الخطاب الخاص برسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام إذا صحَّ تعميمه، وإسناده إلى سائر المؤمنين وغيرهم صحَّ جريانه على الأصل، وبالتالي يدل الشرط على الأمر المعلق عليه أمر غيره في المستقبل تعليق إمكان.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ التوبة: 40.

جملة شرطية بنيت على "إن" التي هي أم أدوات الشرط، وإذا ما كان علماء البيان يقولون: إنَّ "إن" الأصل فيها أن تكون فيما لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه من فعل الشرط، وذلك في لسان العربية، فاتقا إذا ما جرى للنظر في موقعها في بيان الله تعالى جده، فما يكون لنا أن نقول إن الله تعالى جده لا يجزم بوقوعه أو عدمه وقوعه كما نقول في بيان الناس. ولكننا نقول إن الله تعالى جده إذ يأتي

1 _ الألويسي، روح المعاني، 11/189_190.

في بيانه هو غير محكي عن أحد من خلقه يفهم من ذلك الإتيان بـ"إن" حثه من يخاطبه على أن يفعل ما يغريه به، أو يحثه على أن يكف عما لا يليق به، ويحمل هذا الحث معه معنى التحذير والتهديد بما تنخلع له أفئدة العارفين لطائف البيان الإلهي الحكيم، فهو دال على أن نصره ليس بالمتوقف على مناصرتهم له، فإنه المستغنى عن ذلك فشواهد الحال قائمة بين أعينهم وفي آذانهم لم تمسها يد العفاء فتنسى فهو كما يقول " الطبري " في تفسيره :

"هذا إعلام من الله تعالى أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم أنه المتوكل بنصر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة؟

فهذه الأداة "إن" دخلت على فعل منفي، فأدغمت " النون " في "لام" "لا" النافية، ومجيء النفي بـ" لا" من دون " لن " أو " لم " يظهر فيه أمران :

الأول : استحضار الشرط في كل زمان يقع فيه النفي أي أن هذا الحكم المترتب على تحقق عدم نصركم له ليس خاصاً بهذه الواقعة : غزوة العسرة بل هو ممتد، فـ" الألف " في "لا" تشعر بهذا الامتداد، وفي هذا إيناس عظيم لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

الآخر : الإيحاء بعدم الجرم بأن عدم النصر واقع منهم، فلا يفهم أحد أن ذلك الترك مقطوع بوقوعه منهم فيتعلل بالقدر

فاجتمع الإغراء بالإقدام على المناصرة من رافدين " إن " من دون "إذا" و"لا" من دون "لن" أو "لم".

وجواب الشرط محذوف تقديره إلا تنصروه فسينصره الله تعالى جدُّه وأقيم مقام الجواب المحذوف دليله " فقد نصره الله "، وهذا من بدیع الإيجاز ولو قيل في غير القرآن الكريم: إلا تنصروه فسينصره الله فقد نصره إذ أخرجه لما فهم منه أن " السين " التي في " سينصره " حاملة ما تحمله : قد " في " قد نصره " من التحقيق لكنه لما أقام " قد نصره الله " مقام "سينصره" دل ذلك على كمال تحقق نصر الله تعالى له، فكان فيه جمع من الدلائل على تحقق نصر الله تعالى له : " قد " و الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة " الله " فإسناد الفعل إليه تعالى جدُّه يحمل إلى قلب المسلم فيضاً من اليقين بتحقيق ما أسند إلى اسمه جلَّ جلاله.

ويفهم من إقامة "فقد نصره الله" مقام "سينصره" أن نصره حينئذٍ أي حين ترغبون عن نصره سيكون من بابة نصره إذ أخرجه الذين كفروا، وهم يعلمون كيفية نصره حينذاك فقد كان من قبيل المعجزة المدهشة التي تقف أمامها العقول في غاية من الإبلاس والحيرة.

وهذا يحمل تهديدًا لمن تناقل ورغب عن النفار في سبيل الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي . وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ الكهف: 109.

قل لو كان البحر أي جنس البحر مدادا وهو ما تمد به الدواة من الحبر لكلمات ربي لتحرير كلمات علمه وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الإشراك لنفد البحر مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه قبل أن تنفد كلمات ربي لعدم تناهيهها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى الله عليه و سلم في الموضوعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى وإظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مدادا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة بمثله مدادا عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه...¹

وإن لو في هذا الاستعمال تدل على أن جواها قار وثابت سواء أكان الشرط المتقدم ما ذكر أو خلافه، فهي على نحو لو في المثال المشهور: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران: 154، لأن سبب بروزهم إلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع، وليس سببه كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية، وإلى غير ذلك من الآيات. وهذا فرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية.

1 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 562/3.

قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ آل عمران: 154.

يجري هذا التركيب على الأصل في دلالة لو على امتناع جوابها للامتناع شرطها، اعتباراً بأنه يعبر عن عقيدة المنافقين والكافرين.

وأما على اعتبار عقيدة الإيمان فان هذا الشرط فاسد لأن القتل من عدمه حين الخروج إلى الجهاد أمر يرد إلى ما قضى فيه الله، ولا يكون متسبباً عن سداد رأي صادر من هذا أو ذاك.

ويمكن القول بأن هذا الشرط مسوق على سبيل بيان سفاهة أحلام المنافقين، وذلك في تأسيسهم قتل البعض منهم على سببية عدم إشراك خاصتهم في الأمر والمشورة.

وهو وإن كان ظاهره صورة العتاب عن ترك مشورتهم فنيتهم منه تحطئة النبي في خروجه بالمسلمين إلى أخذ وأنهم أسد رأياً منه.¹

وهو المعنى التداولي الذي أرادوا إثباته في حق الرسول، كيما يثبوا الشك في قلوب أتباعه رغبة في أن يرتدوا عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ آل عمران: 167.

التركيبة التي جاء فعل الطلب فيها (الأمر) تعالوا: ... ليست من قبيل الطلب وجوابه؛ لأن الأمر هنا بمعنى أقبلوا، أو هلموا، والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما نقول: "تعال نفكر في هذه المسألة".
وثرک العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصودَ بهما واحد وهو الثاني، وذکرُ الأول توطئةً له وترغيباً فيه.²

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 4/137.

2 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 2/110.

وأما إذا كان الأمر بالفعل : تعال... يقصد به الإقبال و المجيء المحسوسين، فذلك طلب وجوابه.

وأقصد أن الأمر وجوابه هما من التراكيب الشبيهة بالتركيب الشرطي. ولكن قد يكون التركيب في ظاهره النحوي كأنه الطلب وجوابه، وأما دلالاته فلا تكون مركبة، وإنما بسيطة لا تتعدى الأمر الواحد المدعوم بالتمهيد له بلفظ: "تعال".

يقول عز من قائل: ﴿ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال: 65-66.

أي: أيها النبي حث متبعيك ومصدقك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين، فإن يكن منكم عشرون رجلا صابرين عند لقاء العدو، ويحتسبوا أنفسهم ويثبتوا لعدوهم، يغلبوا مائتين من عدوهم ويقهروهم؛ بسبب أنهم قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم، وكثر عددهم. ودلت هذه الآية على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، وتقديره إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم¹.

وإذا كان ذكر النَّاسِخِ مُقَارِنًا لِلْمَنْسُوخِ لَا يَجُوزُ في علم الناسخ والمنسوخ، فإنَّ العبرة فيهما بالنزول دون التلاوة. والنزول كثيرا ما يرتبط بالوقائع، ولذا أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة في زمن كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم. وتغير الحكم في القتال إلى ما أصبح عليه المسلمون وهم كثر، إلى أن يصبح الجهاد فرض عين في حق كل مسلم، وذلك إذا ما داهم العدو قرية المسلمين.

إن الشرط والجزاء الواردة بهما الآية الخامسة والستون، هما على صورة التركيب الشرطي النمطي، وهما من حيث الدلالة يدلان على تعليق غلبة المائتين من الكافرين على قتل العشرين من

1 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 15/504.

المؤمنين الصابرين لهم. وهذا المعنى مرتبط بفترة وحالة ووضعية معينة مما كان عليه المؤمنون، وذلك حين غزوة بدر لما كان المؤمنون قلة وضعفاء أمام القوة المادية لقريش. ثم تغير هذا الحكم بالتخفيف مع وقوع كثرة المؤمنين.

ولهذا يمكن القول بأن هذا التركيب الشرطي قد نسخ وبالتالي خرج من بابه إلى مجال الدلالة على مجرد حكم خاص بفترة مضت، ولا يعمل به كنص في بقية الفترات اللاحقة. وهذه الفترات يصح لها العمل بالحكم المتضمن في الآيه 66، وغيره من النصوص كخبر أنه إذا داهم عدو قرية مسلمة، فإن الجهاد يصبح عينيا. والله أعلم.

تمهيد

أسعى في هذا الفصل الأول المعنون بـ "العدول في الفكر البلاغي والنحوي عند العرب، وفي علم الأسلوب الحديث"، إلى إلقاء الضوء على ما في الموروث الفكري (البلاغي والنقدي والفلسفي) العربي من إمكانات الكشف عن مفهوم العدول في الكلام، وكيفية تحقيقه، وإلى ما يؤدي إليه هذا الإجراء من تفجير للإمكانات اللغوية في التعبير عن المقاصد والتأثير في المخاطب، والسر الذي يكمن وراء ولوع النفس البشرية بكل ما هو خارق للمألوف من اللغة المستعملة. كما أميل إلى تبيين المساهمة العربية في تناول هذا المفهوم أمام ما عرف بالانزياح أو الانحراف في علم الأسلوب الحديث في الثقافة الغربية.

المبحث 1- العدول في الفكر البلاغي والنحوي عند العرب

يقتضي البحث عن مدلول أيّ مصطلح علمي أو فني أن نظرق أبواب المعاجم لكي نحيط بالمنطقات اللغوية الأساسية له، ذلك أنها تهدينا إلى وجه من وجوه الارتباط بين المدلولين اللغوي والاصطلاحي.

المطلب 1- "العدول" في اللغة والاصطلاح

تبتعنا دلالات كلمة "العدول" في القواميس العربية نستنتج أن المادة اللغوية (ع د ل) محصورة بين دالتين، الأولى: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور. عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلا، وهو عادل من قوم عدول وعدل. والعدالة والمعدولة والمعدلة، كُله العدل¹.

والثانية: الميل والجور، وهي الدلالة التي تعيننا في هذا البحث. جاء في لسان العرب: "عدل عن الشيء يعدل عدلا وعدولا: حاد، وعن الطريق: جار. وعدل إليه عدولا: رجع. وما له معدل ولا معدول، أي مصرف، وعدل الطريق: مال... ومنه قول أبي خراش² الهذلي:

1 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، 430/11-431. والقاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز ابلدي، مكتبة النوري، دمشق، د.ط، د.ت، ص13.

2 - أبو خراش اسمه حويلد بن مرة من هذيل من مضر. شاعر فحل من شعراء هذيل المذكورين الفصحاء مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، وعاش بعد النبي مدة ومات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن نكثته أفعى سنة 15هـ. وكان ممن يعدو فيسبق الخيل في غارات قومه وحروبهم.

ينظر: السكري (أبو سعيد الحسن بن الحسين)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة، د.ط، د.ت، 1189/3.

على أنني إذا ذكرتُ فراقهم

تضيقُ عليّ الأرض ذاتُ المعادل.¹

أراد ذات السَّعة، يُعدَّل فيها يمينا وشمالا من سعتها. والعدُّلُ أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلتُ فلانا عن طريقه، وعدلتُ الدابة إلى موضع كذا... فإذا أراد الاعوجاج نفسه قيل: هو ينعدل أي يعوج.²

وللتأمل في الدلالة اللغوية الثانية للفظ العدول، نلمس العلاقة الوثيقة بين المفهوم الفني لمصطلح العدول وبين دلالاته اللغوية من منطلق مفهوم عدل عن الطريق: جار أي مال، ومن مفهوم كلمة المعادل: أي ذات السعة التي يمكن فيها الميل ذات اليمين وذات الشمال.

وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين إعطاء تعريف اصطلاحي للعدول يكون جامعا مانعا يتميز به القول الأدبي من غيره، فعرف العدول قائلا بأنه: "مجازة السَّنن المؤلف بين الناس في محاوراتهم، وضروب معاملاتهم، لتحقيق سمة جمالية في القول تُمتع القارئ، وتطرب السامع، وبها يصير النص أدبيا".³

ويختص بحثنا بمعالجة العدول ضمن التركيب الشرطي، فيتبع صورته المتجاوزة لبنيتها التركيبية النمطية ودلالاتها الوضعية، ويسجل ما وراء ذلك من سمات أسلوبية أو نكت بلاغية تُمليها السياقات وظروف القول المختلفة. وعليه فإن مجال هذا البحث منحصرٌ في حدود نوع من أنواع الجملة المركبة، ولا يتجاوز نصّها إلى أنواع النصوص الأخرى.

المطلب 2- العدول تغيير في الصياغة:

يفهم من التعريف الاصطلاحي السابق أن العدول بوصفه ممارسة لغوية هو إجراء يلحق الصياغة لأغراض فنية عامة.

وكان العلماء العرب الأولون ينبهون إلى أصول التراكيب المعدول عنها، غير أنهم لم يكونوا يهتمون بالإشارة إلى مواطن الجمال فيها. هذا ما ندرکه مما لاحظته بعض المفسرين في طبيعة صياغة الآية التالية:

1 - البيت غير وارد ضمن أشعار أبي خراش في كتاب شرح أشعار الهذليين، ويقتصر وجوده - بهذه النسبة - على بعض المعاجم، نحو لسان العرب لابن منظور، والمحيط الأعظم لابن سيده، وتاج العروس للزبيدي.

2 - ابن منظور، لسان العرب، 11/434-435.

3 - رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي، عبد الموجود متولي بمنسي، ص 05، عن: العدول في البنية التركيبية: قراءة في التراث البلاغي، إبراهيم بن منصور التركي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، 1428هـ، ع 40، ج 19، ص 548.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا...﴾
فاطر:1، " كأنك قلت: أولي أجنحة اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة... ولكن الذي ينبغي أن نعرفه أن أبا عمرو ابن العلاء¹ لم يصرح باصطلاح العدل ولا اصطلاح الصرف، وما أظنه هو وعيسى بن عمر² وابن أبي إسحاق³ من قبله قد عرفوا هذين الاصطلاحين بمعناهما الفني، وإن كانوا يعرفون ذلك استعمالاً⁴.

ويظهر هذا العمل الإجمالي أيضاً في المفهوم الذي أعطاه النقاد المعاصرون لمصطلح "العدول"، ذلك أن هناك شبه اتفاق بينهم على أن العدل هو ميل من صياغة إلى صياغة أخرى تتحقق بها أسلوبية الكلام. غير أنهم لا يتفقون حول مصطلح واحد له، فهناك عدة مصطلحات تستعمل للتعبير عن هذا الميل من صياغة إلى أخرى، عدّ منها الباحث اللغوي عبد السلام المسدي اثني عشر مصطلحاً⁵.

المطلب 3- الألفاظ الرديفة للعدل في التراث العربي:

فيما يلي محاولة نرصد من خلالها بعض المصطلحات المؤدية لمفهوم "العدول" انطلاقاً من مؤلفات العلماء العرب البلاغية والنقدية واللغوية. وهذه المصطلحات تقدمها على سبيل التمثيل لا الحصر والاستقصاء؛ لأن غرضنا هو تجلية التقارب الدلالي بين هذه الألفاظ ومصطلح "العدول" من ناحية، ولتبرير اختيارنا لهذا المصطلح في هذا البحث من ناحية أخرى.

1. التغيير:

1. أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني البصري. أحد القراء السبعة، كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو عن ألف مسألة، فأجابني فيها بألف حجة. وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر. وقال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فلم أسمعته يحتج ببيت إسلامي.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، 466/3.

2. عيسى بن عمر: هو أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري (ت149هـ). كان صاحب تعبير في كلامه واستعمال للغريب فيه وفي قراءته، وكانت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء صفة، ولهما مسائل ومجالس. وروى القراءات عنه الأصمعي والخليل بن أحمد وغيرهما، وأخذ سيبويه عنه النحو، وله كتابان في النحو: "الجامع" و"الإكمال".
المصدر السابق. (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، 468/3.

3. عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ): من الأئمة العظام المشار إليه في علومهم. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيلى ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. وكان في زمان عبد الله بن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء. وكان عبد الله كثيراً ما يأخذ على الفرزدق الغلط في شعره.
المصدر السابق. (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، 391/6 -- 392.

4- عوض حمد القوزي، لمصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1981، ص71.

5 - الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط3، ص100-101.

ورد مصطلح التغيير كثيراً عند الشراح العرب لكتب أرسطو¹، وعلى الخصوص ابن سينا² (428هـ) وابن رشد³ (595هـ). ويقصدان بالتغيير خروج الكلام من دائرة الاستعمال العادي المألوف طلباً للطفية أسلوبية ما.

ويقول ابن سينا: "واعلم أن القول يرشق بالتغيير. والتغيير هو أن ألا يُستعمل كما يوجبه المعنى فقط، بل أن يستعير ويبدل ويشبه"⁴. ويضيف أن التغيير يتحقق أيضاً بما يُطلق عليه التعريض⁵، فيقول: "فيقول: "ومن التغييرات الحسنة أن يُتحدث عن أمر، بحيث ظاهره لا يكون حجة على القائل، ويعتقد في الضمير أنه إنما يعني به معنى ما بلا شك فيه، من غير أن يكون أقرّ به. ومن ذلك عكسه: وهو أن يقول

1. أرسطو (384 - 322 ق.م) عالم وفيلسوف يوناني قديم. تتلمذ على يد أفلاطون، وشغل منصب معلم للأمبر الصغير الذي أصبح فيما بعد القائد الأشهر الإسكندر الأكبر. كَوْن مدرسة ومكتبة نموذجيتين في أثينا. وبعد موت الإسكندر غادر أثينا متجهاً إلى خالكيس حيث مات تحت وطأة المرض. تعد مؤلفاته بالملفات في أغلب المجالات. ومنها مجال الأدب والنقد، حيث ألف فيهما كتابين خلداً اسم هذا الفيلسوف وكان لهما أثراً كبيراً في الفكر العالمي والعربي، وهما كتابا "فن الشعر، والخطابة". أما الأول فقد وضع فيه القواعد والقوانين الأولية للنقد الأدبي بوصفه علماً. وأما الثاني، فقدم فيه تحليلاً عن الوسائل التي يصبح بها الكلام مقنعاً كطرق الجدول وكيفية إثارة العواطف، كما يعالج موضوع الأسلوب واللغة.

ينظر: أحمد عثمان، الأدب الإغريقي تراثاً انساباً وعالمياً، دار المعارف، القاهرة، 2، ص 401-406.

2. ابن سينا (370هـ - 428هـ). هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس، كما عرف بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي. كان فيلسوفاً وطبيباً، رياضياً، وفلكياً. ولد قرب بخارى، وتوفي في همدان. تجاوزت مؤلفات ابن سينا المائتين ما بين كتب ورسائل، ومن أشهرها: كتاب "القانون" وهو من أهم مؤلفات ابن سينا وأنفسها، وإليه ترجع شهرته في الطب. وكتاب "الشفاء"، وهو موسوعة فلسفية تضم حصيلة المعارف التي توصل إليها ابن سينا في المنطق، والطبيعات، والفلسفة. وكتاب "الإشارات والتنبيهات" الذي يشتمل على دراسات في الطبيعات، والإلهيات، والتصوف، والأخلاق.

المصدر السابق. (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، 157/2 - 162.

3. هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (520 - 595هـ). عاصر دولتي المرابطين والموحدين. تعلم ابن رشد الفقه والطب، وعلم الطبيعة، والرياضيات، والفلسفة، ويقال إنه تتلمذ على يد ابن باجه وابن طفيل الفيلسوفين. وباتنها حياته انتهت الفلسفة نحائياً في بلاد الأندلس، لأن السلطان أبا يوسف يعقوب المنصور عندما نفاه أمر بإحراق جميع كتبه وكل كتب الفلسفة، بل حظر الاشتغال بالفلسفة. ترك ابن رشد تراثاً ضخماً في الفلسفة والطب والفقه واللغة. وأما مؤلفاته الأرسطية فهي عبارة عن شروح كبرى ووسطى وملخصات أو جوامع لمؤلفات أرسطو. وقد اعتمد عليها الغرب اعتماداً كلياً في فهمهم أرسطو.

ينظر: الصاوي الصاوي محمد، الفلسفة الإسلامية، دار النصر للتوزيع والنشر، القاهرة، 1998، ص 100-101.

4. ابن سينا، الخطابة من كتاب الشفاء، تحقيق: محمد سليم سالم، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، 1954، ص 202.

5. نذكر على سبيل المثال، تعريف ابن الأثير للتعريض حيث قال: "هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي".

ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار تحضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، د.ت، د.ط، ص 56.

أي أن المدلول التعريضي المفهوم من العبارة يختلف عن المدلول الوضعي المباشر للدوال، لأن المدلول التعريضي يتحقق بتجاوز البنية السطحية للصياغة. ويختلف التعريض عن المجاز، لأن الدلالة التعريضية لا تنتج من نقل الدوال أو تغيير مدلولاتها، وإنما هي دلالة إضافية يضيفها السياق إلى التركيب.

القائل بقوله على ظاهره ، وكأنه يقرّ بأن غرضه ذلك المعنى، لكن الأحوال تدل على أن ما أريد به غير ظاهر¹. وربما كان السبب فيه اتفاق الاسم، بل أكثر ذلك اتفاق الاسم.²

ويربط ابن رشد القول الشعري بما هو تغيير للكلام يتمثل في مجاوزة المؤلف والخروج عن التعابير المتعارف عليها. يقول: " والقول [الشعري] إنما يكون مختلفاً، أي مغيراً عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة في الموازنة والمقدار، وبالأسماء الغريبة، وبغير ذلك من أنواع التغيير. وقد يستدل على أن القول الشعري هو المغيّر أنه إذا غيّر القول الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً، ووُجِدَ له فعل الشعر. مثال ذلك قول كثير عزة:³

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو مسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطي الأباطح ⁴

إنما صار شعراً من قبل أنه استعمل قوله: " أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وسالت بأعناق المطي الأباطح ، بدل قوله تحدّثنا ومشئنا. وكذلك قوله: بعيدة مهوى القرط، إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله: طويلة العنق."⁵

والتغيير كما يشرحه ابن رشد هو: "... أن يكون المقصود يدل عليه لفظ ما، فيستعمل لذلك اللفظ لفظ آخر. وهذا التغيير يكون على ضربين: أحدهما، أن يستعمل لفظ شبيه الشيء مع لفظ الشيء نفسه، ويضاف إليه الحرف الدال في ذلك اللسان على التشبيه، وهذا الضرب من التغيير يسمى " التمثيل " والتشبيه"، وهو خاص جداً بالشعر. والنوع الثاني من التغيير يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ الشبيه بـه، أو

1. مثال الأول، أن يقول الشاب الراغب في الزواج لوالديه: ابنة عمّي صارت ناضجة ومناسبة لمن يخطبها، تعريضاً بأنه يريد أن يتزوج ولا مانع لديه من خطبتها له. ومثال الثاني ما يأتي من أمثلة التورية كقول القائل:

وقيل: هل أبصرت منه يدا	تشكرها ؟ قلت: ولا راحة.
------------------------	-------------------------

فكلمة "راحة" لها معنيان معنى قريب وهو راحة اليد، وهو المعنى الذي تقتضيه عبارة " يدا تشكرها"، والآخر المعنى البعيد، وهو راحة الجسم من التعب، وهو المعنى المقصود.

2. ابن سينا، الخطابة، 230، 231.

3. كُتِبَ بن عبد الرحمن بن الأسود (ت105هـ)، من خزاعة، ويكنى أبا صخر، وهو كثير عزة . كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام لا يقدمون عليه أحداً وكان يتشيع ويظهر الميل إلى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجا عبد الله بن الزبير لما كان بينه وبين بني هاشم. وتوفي كثير بالمدينة في ولاية يزيد بن عبد الملك.

المرباني(أبو عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، تحقيق: ف. كرككو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1982، ص350.

4. لا ينسب البيتان إلى قائل بعينه في غالب المصادر، وينسبان إلى كثير في نحو خزاعة الأدب لأبي بكر علي بن عبد الله الحموي. تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزاري ، خزاعة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق : عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1987، 424/1.

5. ابن رشد(أبو الوليد)، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تح: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1972، ص149-150.

بلفظ المتصل به، من غير أن يؤتى معه بلفظ الشيء نفسه. وهذا النوع في هذه الصناعة يسمى "الإبدال" وهو الذي يسميه أهل زماننا بالاستعارة والبديع.¹

يتحقق التغيير بطرق أساليب التشبيه والمجاز بالاستعارة والمجاز المرسل، وهي أساليب تخيلية يوظفها المتكلم ليأتي بالمعنى في صياغة لفظية مختلفة عن الصورة المعتادة التي ارتضاها الوضع اللغوي. كما أن تلك الأساليب هي في اللغة الشعرية أكثر رواجاً منها في اللغة النثرية.

2. الانحراف:

استعمل ابن جني² مشتق لفظ "الانحراف" إلى جانب لفظ العدول في "باب قوة اللفظ لقوة المعنى" حيث قال: "ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله. وذلك فَعَالٌ في معنى فَعِيلٌ نحو طَوَّلَ فهو أبلغ معنى من طَوَّلَ، وعُرَّضَ فإنه أبلغ معنى من عَرِيضٌ... فلَمَّا كانت فَعِيلٌ هي الباب المطَّرد وأريدت المبالغة عُذِلت إلى فُعَالٍ. فصارعت فُعَالٌ بذلك فُعَالًا. والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله. أما فُعَالٌ فبالزيادة وأما فُعَالٌ فبالانحراف به عن فَعِيلٍ. وبعد، فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به. وكذلك إن انْحَرَفَ به عن سَمْتِهِ وَهَدْيَتِهِ كان ذلك دليلاً على حادث متجدد له."³

في قول ابن جني دلالة واضحة على أن مجاوزة الصيغة المعتادة أو المطردة للفظ، واستعمال اللفظ المعدول به عنها، أو استعمال الصيغة المزيدة، في كل ذلك زيادة جديدة حادثة على معنى الصيغة الأصلية.

3. الإبداع، والاختراع:

وهما مصطلحان متقاربان دلالة، والإبداع في اللغة أن يجيء بالبديع، وهو الشيء الذي يكون أولاً.⁴ ويقضي هذا التعريف أن يكون البديع اصطلاحاً مشتملاً على معنى الجدة، وعدم السبق بغيره.

1. ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويتية ودار القلم، بيروت، د.ط، د.ت ص254.
2 - هُوَ الْقَطْبُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَإِلَيْهِ انْتَهَتْ الرِّيَاسَةُ فِي الْأَدَبِ وَصَحَبَ أَبَا الطَّيِّبِ دَهْرًا طَوِيلًا وَشَرَحَ شِعْرَهُ وَنَبَهَ عَلَى مَعَانِيهِ وَإِعْرَازِهِ ، وَكَانَ الشُّعْرَ أَقْلَ خِلَالِهِ لِعَظَمِ قَدْرِهِ وَارْتِفَاعِ خَالِهِ . ولما مات شيخه أبو علي الفارسي تصدر ابن جني مكانه ببغداد. من آثاره الخصائص، وسر الصناعة، وشرح مستغلق الحماسة، شرحان على ديوان المتنبي، محاسن العربية، والمحتسب في إعراب الشواذ وغير ذلك 392هـ
3 - ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، 267/3 - 268.
ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، الطبعة 2، 1979، دار الفكر، بيروت، 2/132.
والثعالبي أبو منصور (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، يثمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قمحية، الطبعة: الأولى، 1403هـ/1983م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 137.
4 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ب. د. ع)، 06/1.

وكان ابن رشيق¹ (456هـ) قد استعمل التسميتين الإبداع والاختراع جنباً إلى جنب، والتمس فرقا بينهما فقال: "إنّ الاختراع: خلق المعاني التي لم يُسبَقْ إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر²، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ؛ فإذا تمّ للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق."³

ومثال المخترع قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها	سمو حباب الماء حالاً على حال
-----------------------------	------------------------------

فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره، وسلم الشعراء إليه، فلم ينازعه أحد إياه، وقوله:

كأن قلوب الطير رطباً وبابساً	لدى وكرها العناب والحشف البالي
------------------------------	--------------------------------

وله اختراعات كثيرة ... وهو أول الناس اختراعاً في الشعر، وأكثرهم توليداً. والتوليد (وهو من الناحية الدلالية مثل الإبداع): أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه، أو يزيد فيه زيادة؛ فلذلك يسمى التوليد، وليس باختراع؛ لما فيه من الاقتداء بغيره، مثال ذلك قول عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة⁴:

فاسقُطْ علينا كسقوط الندى	ليلة لا ناهٍ ولا زاجر ⁵
---------------------------	------------------------------------

1 - هو أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني (390 - 456 هـ)؛ أحد رجال البلاغة والأدب، له تصانيف أشهرها كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعبوبه، وكتاب الأمودج والرسائل الفائقة والنظم الجيد. قيل: ولد بالمسيلة، وبالمحمدية كانت صناعة أبيه وهي حرفة الصباغة، فعلمه أبوه صنعته، وقرأ الأدب بالمحمدية، وقال الشعر، وتاقت نفسه إلى التزيد منه وملافة أهل الأدب، فرحل إلى القيروان واشتهر بها.

ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 85/2.

2 . البديع ضروب كثيرة، وأنواع مختلفة. وعبد الله بن المعتز (296هـ) هو أول من جمع البديع، وألف فيه كتاباً. ولم يعده إلا خمسة أبواب: الاستعارة وأولها، ثم التجنيس، ثم المطابقة، ثم رد الأعجاز على الصدور، ثم المذهب الكلامي، وعدّ ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن الكلام. عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس إغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، د.ب، د.ط، د.ت، ص: 3، 25، 26، 37، 53.

3 . ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين بن عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 5، 1981، 265/1.

4 . عمر بن أبي ربيعة المخزومي (23هـ - 93هـ) الشاعر المشهور؛ لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والمخالعة، وله في ذلك حكايات مشهورة. وكانت ولادته في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وغزا في البحر فأحرقوا السفينة فاحترق وعمره مقدار سبعين سنة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 436/3.

5 . هناك تردد في نسبة هذا البيت بين عمر بن أبي ربيعة، ووضاح اليمن (90هـ)، وقد أشار إلى ذلك المبرد في هذه الصفحة ذاتها (263/1)، كما جاء في الأغاني منسوباً إلى وضاح اليمن.

ينظر أيضاً: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تح: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، 229/6.

بالقياس إلى بيت امرئ القيس الأول، فولد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه في شيء من لفظه، أو ينحو نحوه إلا في المحصول، وهو لطف الوصول إلى حاجته في خفية¹. وهذا أبلغ أيضاً، لأن سقوط الندى أخفى من سمو حباب الماء، لأن لسمو حباب الماء صوتاً خفياً، ليس ذلك لسقوط الندى.

حاول ابن رشيق الفصل بين مصطلحين متقاربين من حيث أنه جعل الاختراع للإتيان بالمعنى على غير مثال سابق، وأن الإبداع للمعنى الذي فيه وجه ظرف يُستملح لأجله، مصوغاً في عبارة غير معهودة. ولذا كان الشاعر الرائد - في نظره - هو من قدر على اختراع المعاني وإبداع الصور التعبيرية المولدة لمعان تضاف إلى المعاني السابقة.

وروى الحاتمي² في الرسالة الموضحة قولاً عن المتنبي يجعل الاختراع والإبداع شيئاً واحداً هو مجاوزة القديم والإتيان بغير المسبوق، وهذا مالا يقدر عليه إلا المُبرِّزون من الشعراء. قال المتنبي³: "إنما أجري على سبيل الشعراء المبرزين في الإحسان واختراع المعاني، فإذا استبهمت مسالك الإبداع، جريث على وتيرة من تقدمني في اقتفاء الأثر والملاحظة والنظر."⁴

إذا لم يقدر المتنبي على الإحسان وابتكار المعاني، فإنه يجتهد في توليد المستظرف منها اقتداءً بالمتقدمين اقتداءً غير حرفي، ولكن فيه اجتهاد ونظر، كيما لا يكون بعض شعره في عداد السرقات.

1 - المصدر السابق، 263/1.

2 - أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، الكاتب اللغوي البغدادي المعروف بالحاتم ي؛ أحد الأعلام المشاهير المطلعين الكثيرين، أخذ الأدب عن أبي عمر الزاهد، وروى عنه أخباراً، وروى عن غيره أيضاً، وله الرسالة الحاقية أو "الرسالة الموضحة" التي شرح فيها ما جرى بينه وبين أبي الطيب المتنبي من إظهار سرقاته وإبانة عيوب شعره. ولقد دلت على غزارة مادته وتوفر اطلاعه. وله كتاب "حلية المحاضرة" في مجلدين، وفيه أدب كثير أيضاً. وتوفي الحاتمي سنة 388هـ. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 362/4.

3 - أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور. هو من أهل الكوفة، وقدم الشام في صباه وجمال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من الكثيرين ممن نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والشر.

وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة. والتحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان في سنة 337هـ ثم فارقه ودخل مصر سنة 346هـ، ومدح كافوراً الإخشيد، ولما لم يرضه هجاه وفارقه. قتل سنة سنة 354هـ.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، 120/1 - 125.

4 - الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسين)، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط1، 1965، ص107.

وجاء تعريف الاختراع في كتاب الفوائد المشوق لابن القيم الجوزية¹ (751هـ) حيث قال: "الاختراع هو أن يذكر المؤلف معنى لم يسبق إليه... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنفِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾² ولم يسمع بمثل هذا التمثيل البديع لأحد قبل نزول القرآن... وهو مثل ضربه الله لأصنام أهل مكة لبيان أنها تعجز حتى عن استرداد ما أخذه منها الذباب الضعيف. فالطالب الضعيف هو المعبود من دون الله، والمطلوب الضعيف هو الذباب.³

ومما تقدم من تعريفات للاختراع والابتكار يتضح أن أصحابها أطلقوها على المعاني الجديدة كل الجدة، وأن الإبداع هو ابتكار جزئي ينحصر في بعض المعاني المولدة عن المعنى المخترع من ذي قبل، كما أن الاختراع لا يقدر عليه إلا العظماء الموهوبون في فن القول، وأما الإبداع فسيبيله أيسر، ومع ذلك فهو يتطلب المقدرة والنظر واستعمال الألفاظ والأساليب الخاصة ليبراً صاحبها من التقليد أو وصمة السرقة.

4. اللحن:

جاء في لسان العرب لابن منظور أن... للحن ستة معان، هي: الخطأ في الإعراب، واللغة، والغناء، والفظنة، والتعريض، والمعنى⁴...

ومن بين هذه المعاني، يعيننا " التعريض " لأنه به يكون اللحن من المصطلحات القريبة من العدول. جاء في اللسان أن " ...لَحْنٌ لَهُ يَلْحَنُ لِحْنًا قَالَ لَهُ قَوْلًا يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَخْفَى عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يُمِيلُهُ بِالتَّوْرِيَةِ عَنِ الْوَاضِحِ الْمَفْهُومِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لِحْنُ الرَّجُلِ فَهُوَ لِحْنٌ، إِذَا فَهَمَ وَقَطِنَ لِمَا لَا يَقْطِنُ لَهُ غَيْرُهُ... قال الشاعر:

وَأَدَّتْ إِليَّ الْقَوْلِ عَنْهُنَّ زَوْلَةً تُلَاحِنُ أَوْ تَرْتُو لِقَوْلِ الْمَلَاحِنِ⁵

1. ابن قيم الجوزية هو شمس الدين أبو عبد الله محمد، عاش ابن القيم في الفترة ما بين عام (691هـ-751هـ) قضى معظم حياته بالشام، وقد ارتحل عنها للحج مرات كثيرة، وجاور بمكة فترة من الزمن، كما انتقل إلى القاهرة في بعض الأحيان. وقد كانت الشام في ذلك العصر المعروف بعصر السلاطين والمماليك. كان ابن القيم باحثاً قوياً الشخصية لا يتأثر بغيره، بل كان حراً يعمل فكره، ولا يلتزم برأي غيره -ولو كان شيخه- ابن تيمية. تبحر في دراسة العلوم الشرعية، والعربية، وعلم الكلام، والتصوف. فمما ألف في الفقه وأصوله كتاب "إعلام الموقعين"، وفي التصوف كتاب "مدارج السالكين"، و"نزهة المشتاقين"، وفي علم الكلام كتاب "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" و"الصواعق المرسله على الجهمية والمعتزلة".

ينظر: طاهر سليمان حمودة، ابن القيم جهوده في الدرس اللغوي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، د ط، د.ت، ص 32، 35، 42. الحج:73.

3 - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، طبع على نفقة محمد أمين الخانجي، مصر، ط1، 1327هـ، ص156.

4- لسان العرب، ابن منظور، 381/13.

5 - المرأة الظريفة، والفظنة الداهية.

"أي تكلّم بمعنى كلام لا يُفطّر له ويخفى على الناس غيري".¹

وإنه لمن بلاغة الكلام ورفعته في مدارج البيان أن يصاغ دلاليا على مقاس المتكلم والمخاطب وحدهما، فيستقلان بدورة الإفهام والفهم ولو في ملاء من السامعين الحاضرين. كما أن اللحن بوصفه اختيارا للتعميق والتورية وميلا عن جهة الصواب والوضوح القياسيين، هو نفسه مسلك الانزياح الأسلوبي الذي يحقق للنص قيمته الفنية.

5. الغرابة:

استعمل عبد القاهر الجرجاني مصطلح "الغرابة" وبناه الاشتقاقية، وهو مصطلح وصف به شعرية الشعر، وجعله ميزة للقول الشعري، كما أنه مصطلح يقابل مصطلح "الغموض" في النقد الحديث . واستعمل الجرجاني، أحيانا مصطلحات أخرى تصف أسلوبية القول وشعريته مثل: اللطف ، والملاحة ، والغموض، والمبالغة، والإغراق،² والخفاء، والإحالة³.

وكلها تصف ظاهرة الخروج باللغة عن المألوف العادي إلى اللامألوف واللاعادي، ولذلك ترتفع هذه اللغة عن اللغة العادية لما يكمن فيها من تأثير وفاعلية، وحاجة إلى التدبر والتأويل. والغرابة عند الجرجاني هي ذات فاعلية فنية على مستويي المبدع والمتلقي على حد سواء ؛ لما تحقّقه من فائدة جلييلة وفضيلة عظيمة. ويفطن الجرجاني إلى ما هناك من تعارض بينها وبين التعمية والتلبيس والتعقيد؛ لخلو هذه الإجراءات من أي فاعلية أدبية، ولإسهامها في تشويش ذهن المتلقي وجبره على الوصول إلى المعنى بطرق الحيلة.⁴

ويقف الجرجاني موقف الرفض للابتدال، استيفاء لحبه للغرابة ورفضه للتعقيد والغموض؛ لأن الابتدال سقوط وسداجة تخاطب الحقيقة بالمحافظة على المطابقة بين الدال والمدلول. يقول عن التشبيه الذي يشغف به الناس ويحظى بالعرّ دهرًا ثم يبتدل، "فإنك تعلم أن قولنا: "لا يشق له غبار" الآن في الابتدال كقولنا "لا يلحق ولا يدرك" إلا أننا نعرف أنه لم يكن على هذا الابتدال، وإنما أتاه بعد أن قضى زمنًا بطراءة الشباب وبعزة المنيع".⁵

المصدر نفسه، 379/13.

1 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 62 ، 78 ، 82 ، 125.

3 - عبد القاهر الجرجاني، الأسرار: 313، 167.

4 - أسرار البلاغة، نفس المصدر، 135 ، ودلائل الإعجاز، نفس المصدر، 210.

5 - أسرار البلاغة، نفس المصدر، 174.

والغربة لا تبرز إلا بوجود متلق يستحضر نقيضها، والنقيض هنا هو الوضوح والألفة. الشيء الذي يتطلب أن يكون المتلقي من مصاف النقاد البارعين حتى يستطيع إدراك العملية الشعرية العامرة بالأحداث الغريبة التي تصنع جوهر هذه العملية.¹ يقول الجرجاني في التنويه بهذا المتلقي: " وهذا موضع لا يتبن سره إلا من كان ملهب الطبع حاد القريحة." ² وقال في أثناء حديثه عن التشبيه البعيد المأخذ: " ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ".³ إن الغربة تحتاج إلى المتلقي العارف، الخبير، المدرب، حاد الذهن، رفيع النظر، ليتمكن من محاوره الغربة والوقوف على ما تمنحه من فرص التأويل والقراءة المتأنية.

المطلب 4- العدول في التراث العربي، إجراءاته وجمالياته:

في مرحلة مبكرة من تاريخ البلاغة كان يشار إلى العدول بمصطلحات أخرى مثل " المجاز " . وذلك هو المصطلح الذي استخدمه أبو عبيدة⁴ (ت 210هـ) في كتابه " مجاز القرآن " للتعبير عن ألوان هذه الظاهرة، يقول: " ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد الذي له جماع منه ووقع معنى هذا الواحد على الجميع، قال: ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ غافر: 225، في موضع: (أطفالاً)...ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تُرُكَّتْ وَحُوِّلتْ مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، قال الله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ يونس: 22، أي بكم... ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد، قال: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾ القيامة: 22-23.⁵

ولفظ المجاز عند أبي عبيدة واسع المدلول يتجاوز مدلول المجاز المقابل للحقيقة والذي اقترن بها فيما بعد؛ فالجازات عنده تتناول معاني الألفاظ والعبارات، وأوجه الصياغة أو الطرائق التي سلكها القرآن في تعبيراته من أجل الوصول إلى المعنى.

1 - موسى رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة 1، 2003، 75، 76.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 451.

3 - أسرار البلاغة، 94.

4 - هو معمر بن المثنى التيمي: ولد سنة 114هـ، أجمع سائر الرواة لعلوم العرب وأخبارهم وأنسابهم. كان في البصرة، ويفد على الخلفاء في بغداد، التي انتقل إليها سنة 188هـ هجرية. وأخذ عنه جماعة منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو عثمان المازني، وأبو حاتم السجستاني. وكان كثير الاشتغال بالتأليف، فذكر له صاحب الفهرست ما يربو على المائة مؤلف في التاريخ وعلوم القرآن واللغة والأمثال والأنساب وأيام العرب... عمّر طويلاً، وتوفي في سنة 210هـ.

ينظر: ابن النديم (محمد بن إسحاق أبو الفرج)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص79.

5 - أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق الدكتور محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي القاهرة، د.ط، د.ت، 9/1-11.

ولم تكن الغاية التي لأجلها تتبع أبو عبيدة المجازات في لغة القرآن الكريم أن يكشف عن دورها في تشكيل المعنى وتكثيف الدلالة، وإنما انصب همه على تقديم الأدلة على أن البيان القرآني المعجز لم يخرج في معجمه وأساليبه عن سنن العرب في كلامهم، وفي هذا قال: " ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني،... ومجاز ما حذف،... ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما نُخِّبَ عن اثنين أو أكثر من ذلك، فجعل الخبر للأول منهما،... ومجاز المقدم والمؤخر،... وكل هذا جائز قد تكلموا به." ¹

وتناول أبو زكريا الفراء ² (207هـ) كذلك بعض ألوان تلك الظاهرة، والفرق بينه وبين أبي عبيدة أنه لم يقدم مصطلحا شاملا يجمع صور التحول الأسلوبية، وإنما كان يقول في قوله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَجْمٍ ﴾ الحج:19 " لم يقل اختصما لأنهما جمعان ليسا برجلين، ولو قيل اختصموا كان صوابا. ومثله ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الحجرات: 09 يذهب إلى الجمع. ولو قيل اقتتلنا لجاز، يذهب إلى الطائفتين. ويقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الحج:25 رُدَّ يَفْعَلُونَ عَلَى فَعَلُوا لَأَنَّ مَعْنَاهُمَا كَالوَاحِدِ... ولو قيل: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا لَمْ يَكُن فِيهَا مَا يُسْأَلُ عَنْهُ... وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الصَّدَّ مِنْهُمْ كَالدَائِمِ فَاخْتِيرْ لَهُمْ يَفْعَلُونَ كَأَنَّكَ قُلْتَ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمِنْ شَأْنِهِمُ الصَّدَّ... ومثله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ وفي قراءة عبد الله ﴿ وَقَاتَلُوا الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ ﴾ آل عمران:21... فلا بأس أن تُرَدَّ فَعَلَ عَلَى يَفْعَلُ كَمَا قَالَ ﴿ وَقَاتَلُوا الَّذِينَ يَأْمُرُونَ ﴾، وَأَنْ تُرَدَّ يَفْعَلُ عَلَى فَعَلَ، كَمَا قَالَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. ³

ووقفات الفراء إزاء هذه الأساليب كانت تميل إلى بيان أن المغايرة الماثلة فيها هي مسالك تعبيرية شائعة في لغة القرآن الكريم، كما أن مقابلاتها النمطية شائعة أيضا؛ فالاستعمال القرآني عدل عن صيغة التشبية إلى صيغة الجمع في قوله اقتتلوا " لان المقصود بالخصمين جمعان ولو قال " اقتتلنا " لكان سائغا لجرىانه على الأصل. ولم يعن الفراء بالبحث عن المزية الأسلوبية أو الجمال الفني الكامن وراء اختيار العدول عن الأصل إلا قليلا وفي إشارات عابرة، كما في قوله السابق: " ...وإن شئت قلت: الصدد منهم كالدائم فاختر لهم يَفْعَلُونَ كأنك قلت: إن الذين كفروا ومن شأنهم الصدد " ، وبعبارة أخرى كان همه بيان الصحة

1 - المصدر نفسه، 18/1-19.

2 - أبو زكريا الفراء (144 - 207 هـ) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الكوفي المعروف بالفراء. كان أربع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. ومولد الفراء بالكوفة. وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها، وكان شديد طلب المعاش لا يستريح في بيته. وله من التصانيف " الحدود " و " المعاني " وكتاب " اللغات " ، وكتاب " المصادر في القرآن " ، وكتاب " الجمع والتشبية في القرآن " ، وكتاب " الوقف والابتداء " ، وكتاب " المفاسر " وكتاب " آلة الكاتب " ، وكتاب " النوادر " ، وكتاب " الواو " وغير ذلك من الكتب.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6/176 - 181.

3 - الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد)، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983، ج2/ ص 220، 221.

النحوية واللغوية فقط وهذا ما يفسر ذبوع عبارات معينة في كلامه مثل كان صوابا _ لجاز _ لم يكن فيها ما يسأل عنه _ لا بأس. ولو أنه التمس جمالية هذا العدول لقال مثلا ما قاله الشيخ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي (ت 1270هـ) في تفسيره "روح المعاني": "...والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة فقد روعي في الطائفتين معناهما أولاً

ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير..."¹

ويسير ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتاب "تأويل مشكل القرآن" على نهج أبي عبيدة، ويطلق على صور العدول المختلفة مصطلح "المجاز" أيضاً، قائلاً في صدر كتابه: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول وماآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع مخاطبة الاثنين...مع أشياء كثيرة سترها في أبواب المجاز...وبكل هذه المذاهب نزل القرآن..."²

وعلى نهج الفراء تقريباً يعالج أبو العباس محمد بن يزيد المبرد³ (285هـ) ظاهرة العدول، مكتفياً بسوق الشواهد عليها لتأكيد أنها من عادة العرب في كلامهم؛ فهو حينما يعلق على بيت للأعشى⁴ يمدح فيه ملك اليمن هُوَذَةَ بنَ عليّ، والذي قال فيه:

وأمتعني على العشا بوليدة	فلُتُّ بِبِحَيْرٍ مِنْكَ يَا هُوَذَةَ حَامِداً
--------------------------	--

1 - الألويسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمود شكري الألويسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ج 26/ 149-150.

2 - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 2، 1973، ص 20-21.

3 - المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري المشهور بأبي العباس المبرد. إمام العربية ببغداد في زمانه، أخذ عن المازني وأبي حاتم السجستاني. كان فصيحاً بليغاً مفوهاً ثقة في الرواية. له من التصانيف: معاني القرآن، الكامل، المقتضب، القوافي، طبقات النحاة، وغير ذلك. قال السيرافي: كان مولده سنة 210هـ، ومات سنة 285هـ ببغداد.

ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ط 2، 1979، 1/269.

4 - الأعشى الأكبر: هو أبو بصير ميمون بن قيس البكري، شاعر عاش في الجاهلية، ونشأ على أخلاقها، ضرب في البلاد متكسباً بشعره. قيل عنه: "إنه ما مدح أحداً في الجاهلية إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه". توفي في عهد الهجرة النبوية على جاهليته سنة 8هـ. ترك ديوان شعر زاخر بالأغراض التقليدية، وأحسن ما فيه معلقته اللامية، ومطلعها:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَجِلٌ	وهل تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرِّجْلُ
---	---

حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص 244.

قال: " فإنه كان يتحدث عنه، ثم أقبل عليه يخاطبه، وترك تلك المخاطبة.

والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب. قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجْرَيْنَ مِنْهُمِ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ يونس: 22 ، كانت المخاطبة للأمة، ثم صرفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إخباراً عنهم. وقال عنتر بن شداد¹:

شَطَّطَ مَرَارَ الْعَاشِقِينَ فَأَصْبَحْتُ	عَسِرًا عَلِي طَلَابُكِ ابْنَةَ مَحْزَمٍ ²
--	---

فكان يحدث عنها ثم خاطبها... وهذا كثير جداً.³

إنَّ التحول الأسلوبي الذي ينبه إليه المبرد في النماذج الأدبية التي عاجلها، يكتفي فيه بما يماثله من أساليب واردة في القرآن الكريم وكلام العرب من المنظوم. وأما غرضه ف يقف عند تبرير الظاهرة ولا يتعداها إلى محاولة الكشف عن أسرارها الفنية وطاقاتها الإيحائية.

ويقول ابن جني⁴ (ت 392هـ) في كتاب الخصائص في باب " في فرق ما بين الحقيقة والمجاز ": " وإنما يقع المجاز ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة ".⁵ فاستعمل ابن جني مشتق العدول، وذكر الأغراض الفنية العامة التي لأجلها يسعى المتكلم حين يترك الحقيقة ويطلق سبل التعبير عن مقاصده بالأساليب المجازية، فإذا لم يرتبط قصده ببعض هذه الأغراض الثلاثة كان عليه ألا يعدل عن الاستعمال الأصلي أو الحقيقة، وأن يلتزم بالأساليب المباشرة.

وعرض ابن جني للالتفات في كتابه " المحتسب " . بفتح السين .⁶ وحاول تجلية بعض أسرارها من خلال قراءة الحسن⁷ للآتي: 281 من البقرة: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا يُّحْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ بياء مضمومة، فقال: "

1 . عنتر العبيسي: عنتر بن شداد العبيسي، شاعر جاهلي، ولد في نجد نحو سنة 525 ميلادية ونشا فيها. وهو أحد فرسان العرب وأغريتها وشعرائها المشهورين. له معلقة تحوي قسمين رئيسيين غنائي وجدائي، وقصصي ملحمي. قتل نحو سنة 615 ميلادية.
الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتر، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993، ص7-9.
2 . الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتر، ص151.
3 - الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت، 910/2.
4 . ابن جني(330هـ 392هـ): هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور. كان إماما في علم العربية قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي، وله من التصانيف في النحو كتاب الخصائص وسر الصناعة، والمذكر والمؤنث. والتمام في شرح شعر الهذليين وغير ذلك.
ابن خلكان، وفيات الأعيان ، 247. 246/3.
5 - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، 422/2.
6 . سماه المحتسب، لأنه رمى بتأليفه القريب إلى الله عز وجل، وابتغاء المثوبة منه.
7 - الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي المكي المقرئ الإمام بالمسجد الحرام. وصاحب شبل بن عباد. ابن خلكان 128/1.

"إنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَئِنَ بِهِمْ بَرِيحٌ طَبِيبَةٌ﴾¹ يونس:22، وكأنه -والله أعلم- إنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، فقال "يُرجعون" وفقاً من الله سبحانه بصالحه عباده المطيعين لأمره... فصار كأنه قال: فاتقوا أنتم يا مطيعون يوماً يعذب فيه العاصون.¹

وليس الانتقال من خطاب إلى خطاب ضرباً من الاتساع في اللغة كما شاع قول أصحاب البلاغة في ذلك، وإنما يكون توسعاً "إذا عُرِيَ الموضوع من غرض متعمد، وسرّ على مثله تنعقد اليد."²

وهذا الكلام صريح في أنّ الغاية من الالتفات ليست مجرد الحركة من الغيبة إلى الخطاب، ولكن الذي يهّم - عند ابن جني - هو ما وراء الالتفات من غايات معنوية تكشف في مظانها وتحدد بسياقاتها.

وضمّن أحمد بن فارس³ (ت 395هـ) كتابه "الصاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها" بحثاً في أساليب العرب في مخاطبتهم، وفي الحقيقة والحجاز، وجاء هذا البحث في شكل أبواب عقدها لصنوف الأساليب التي تخالف مقتضى الظاهر، مثل: باب إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل له في الحقيقة، باب مخاطبة الواحد خطاب الجمع إذا أريد بالخطاب هو ومنّ معه، باب تحويل الخطاب من الغائب إلى الشاهد، باب نسبة الفعل إلى أحد اثنين وهو لهما، باب الفعل يأتي بلفظ الماضي وهو راهنّ أو مستقبل، ولفظ المستقبل وهو ماضٍ، باب المفعول يأتي بلفظ الفاعل...⁴

وبوصفه لغويًا، اكتفى ابن فارس - عند عرضه لهذه الأبواب - بدور المقرر والمستشهد على وجود هذه الأساليب في لغة العرب، وأنها من سنن العربية في تنوع طرق كلامها، وقدم لها أمثلة من كلام العرب ومن القرآن الكريم، مما يؤكد أن العدول في الكلام طبيعة جارية في فصيح وبلغ الكلام العربي، وأن كلامهم

1 - المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: علي بن جدي ناصف ورفيقه، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386هـ، 145/1.

2 - المصدر نفسه، 145/1.

3 . أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي (395هـ): أصله من قزوين، وأخذ على أبي بكر، أحمد بن الحسن الخطيب، راوية ثعلب، وأبي عبيد وغيرهما. وكان ابن فارس قد حمل إلى الري بأجرة، ليقراً عليه مجد الدولة، أبو طالب بن فخر الدولة، صاحب الري، فأقام بها قاطناً. وكان الصاحب بن عباد يكرمه، ويتلمذ له. وكان فقيهاً شافعياً، فصار مالكيًا، وقال: دخلتني الحمية لهذا البلد، يعني الري، كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل؟ وله من التصانيف: كتاب المجلد، وكتاب متخير الألفاظ، كتاب فقه اللغة، الإتياع والمزاوجة، مقاييس اللغة، كتاب غريب إعراب القرآن، كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكتاب الصاحب، صنفه لخزانة الصاحب.

ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ط 2، 1979، 352/1. وكارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحلیم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، 256/2.

4 - الصاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تح: أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1997، ص163-168.

والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شكٌّ، أو ظنٌّ أن راداً يردّ قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدمه، فإما أن يؤكد، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه، ومثاله قول المعطل الهذلي:

تَبِينُ صَلَاةَ الْحَرْبِ مَنَّا وَمِنْهُمْ إِذَا مَا التَّقِينَا، وَالْمَسَالِمُ بَادِنُ

فقوله: والمسالم بادن رجوع من المعنى الذي قدّمه، حتى بيّن أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن، والمحارب ضامر... ومن الالتفات قول الرّمّاح بن ميادة¹:

فَلَا صرْمُهُ يَبْدُو، وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ وَلَا وُدُّهُ يَصِفُو لَنَا فَنَكَارُمُهُ

فكأنه لما قال: وفي اليأس راحة، التفت إلى المعنى السابق، لتقديره أن معارضاً يقول له: وما تصنع بصرّمه؟ فقال: لأنه يؤدّي إلى اليأس، وفي اليأس راحة.²

تحقق الإجراء العدولي في هذه الأبيات، وبالتالي مفاجأة المتلقي، بالعودة إلى المعنى الأول الذي ظن المتلقي أن الشاعر قد فرغ منه، ليسلك مسلكاً آخر في الكلام. وإذا بالشاعر يعود إلى ذلك المعنى ليوضحه أو ليؤكد ويرره تلبية لما ظن المتكلم أنه إتمام واستكمال وتمتين لما تقدم من المعنى. ولا شك أن الإقبال على هذا الإجراء دليل على حرص المتكلم على أن يكون قوله بديعاً ومقنعاً، يؤدي إلى الظفر برضا المتلقي وإعجابه.

وأما المنهج التحليلي الذي عني بتحليل النماذج العدولية لأجل الكشف عن قيمها التعبيرية وطاقتها الإيحائية، فإنه بدأ واضحاً على يدي عبد القاهر الجرجاني³ (ت 471هـ) ضمن نظرية النظم التي حلل فيها فيها المعاني في علاقاتها بالقضايا التركيبية المختلفة. ويتجلى هذا المنهج التحليلي من خلال الفقرة التالية:

1 - وهو الرماح بن أبرد بن ثريان، المعروف بان ميادة، لقب بالرمّاح لطول رجله، فكأنهما رمان.

شاعر إسلامي محسن متأخر، وعاش في الدولتين. شعره مبعوث في كتب الأدب.

ينظر: معجم الشعراء، المرزباني، ص 124.

2 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق محمد أمين الخانجي، مطبعة محمود بك بالآستانة، ط 1، 1320هـ، ص 310-312.

3 - هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (471هـ)، فارسي الأصل، عالم بالنحو والبلاغة، ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي. قرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء، وصنف التصانيف الجليلة، ومنها "المقتصد" في شرح "الإيضاح"، وله شرح كتاب "العوامل" سماه "الجمل"، وله "إعجاز القرآن" و"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".

القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 1986، 2/188-189.

استخدم عبد القاهر الجرجاني مصطلح العدول، قاصداً به ترك نوع من الصياغة إلى نوع آخر، لأنه أدلّ على المعنى وأحسن في التعبير عنه، وذلك في معرض حديثه عن حذف المفعول بعد فعل المشيئة الواقع بعد أداة الشرط "لو"، كقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ الأنعام: 35، والتقدير في ذلك لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، والبلاغة فيه أن يُجاء به محذوفاً لأن المحذوف يفسره ما بعده، ووجه الجمال في هذا الحذف أنه يؤتى بالمعنى مبهماً فيحرك الذهن وتصبو النفس لبيانها فإذا فسر المحذوف بعد ذلك كان في الكلام بهذه الصيغة لطف ونبيل لا يكون فيه إذا لم يتقدم ما يحرك. وقد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن، وذلك نحو قول شاعر:

ولو شئت أن أبكي دماً لَبَكَيْتُهُ	عليه، ولكن ساحة الصبر أوسع ¹
-----------------------------------	---

فقياس هذا لو كان على حد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أن يقول "لو شئت بكيت دماً" ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنها أحسن في هذا الكلام خصوصاً، وسبب حسنه أنه كأنه بدع (غير مألوف) عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به... وهكذا الأمر كلما كان مفعول المشيئة أمراً عظيماً أو بديعاً غريباً... فإذا لم يكن مما يُكبره السامع فالحذف، كقولك: لو شئت خرجت، ولو شئت قمت، ولو شئت أنصفت، ولو شئت لقلت. وفي التنزيل: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الأنفال: 31.²

يحمل هذا النص إلى بعض الآليات المساعدة على إنتاج خطاب أدبي مفاجئ، يحمل عنصر التفرد والخروج عن الشيعوع. ويدلنا على أن اللطف والمزية في الكلام كما يتحققان بالحذف، يتحققان بالذكر أيضاً، طالما أن كلاً من الذكر والحذف أسلوبان يميلان إلى دهشة المتلقي.

ويُعدّ الزمخشري³ (ت 538هـ) - رحمه الله - في تفسيره للقرآن الكريم، أول متفهم لمنهج عبد القاهر الجرجاني في تحليل التراكيب، والغوص على ما تزخر به أحوالها المعدولة عن الأصل من لطائف

1 - البيت للخرمي (212هـ) أحد الشعراء العباسيين المولدين، وهو إسحق بن حسان السغددي، يرثي عثمان بن عامر بن عمارة بن خريم الديباني، أحد قوّاد الرشيد.

ينظر: المبرد، الكامل 1/1362.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 164-165.

3 - أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (476 - 538هـ)، إمام كبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان. كان إمام عصره من غير مدافع. صنف التصانيف البديعة: منها "الكشاف" في تفسير القرآن العزيز، لم يصنف قبله. و"الفاثق" في تفسير الحديث، و"أساس البلاغة" في اللغة، و"متشابه أسامي الرواة" و"النصائح الكبار" في علم الفرائض. و"المفصل" و"الأنموذج"، و"المفرد والمؤلف" و"شرح أبيات كتاب سيبويه" في النحو، وغيرها في أمثال العرب وفي العروض. وكان قد سافر إلى مكة، وجاور بها زماناً، فصار يقال له "جار الله" لذلك. وكان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به.

المعاني ودقائقها. قال في بداية تفسير سورة الفاتحة: " فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى بلالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم ... " ثم قدّم شاهداً على الالتفات المتعدد الصور بأبيات امرئ القيس التالية:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمِ دِ	وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَتَوَقَّدْ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ	كَأَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَا جَاءَنِي	وَحُبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ ¹

في البيت الأول انتقل الشاعر من التكلم . الذي يقتضي الظاهر أنه يفتتح به . إلى الخطاب (ليلك . ترقد)، وفي الثاني تحول إلى الغيبة (باتت له)، وفي الثالث إلى التكلم (جاءني . خبرته).

وقال في الفوائد المراد بلوغها بهذا الانتقا ل الأسلوبي، بأنه يستعمل للتفنن في الكلام، ويأتي تطبيقية (تحرّيكاً) لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضوع: أنه لما ذكر اسم الله الحقيقي بالحمد، ونسب إليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمّات، فحوطب ذلك المعلوم، المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخصّ بالعبادة والاستعانة ... ليكون الخطاب أدلّ على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به...²

وفي موضع آخر من تفسير قول هر عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ بَرْيَحٌ طَبِيبَةٌ ﴾ يونس: 22، قال: " فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليُعْجَبَهُمْ منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح." ³

وفي كل موضع فيه انحراف عن الأصل يحرص الزمخشري على ذكر الأصل، ومن ثم بيان الفوائد المعنوية التي جلبها العدول عنه، راداً ذلك إلى ما يقتضيه حال الخطاب من تصرف في القول.

ويستعمل الزمخشري في كتاب " المفصل في صنعة الإعراب " مشتق " الإزالة " للتعبير به عن التحول الذي يلحق البنى المشتملة على تمييز الذات وتمييز الجملة، راداً هذه البنى إلى أصولها أي تركيبها العميقة الأصلية، ثم يذكر الغرض المعنوي الذي لأجله أعادوا توزيع عناصر الجملة لتؤول إلى الشكل

1 - امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة 5، 2004، ص53.

2 - الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، 119/1 - 120 .

3 - نفس المصدر، 3/126.

الظاهر، الجاري استعماله. وهذا الغرض هو المبالغة والتأكيد. يقول في باب " أصل التمييز " : " واعلم أن هذه المميّزات عن آخرها أشياء مُزالة عن أصلها. ألا تراها - إذا رَجَعْتَ إلى المعنى - متصنفةً بما هي منتصبة عنه، ومنادية على أن الأصل (عندي زيت رطل)، ... (ودراهم عشرون)، (وعسل ملء الإناء)، ... (وسحاب موضع كف). وكذلك الأصل في (وصف النفس بالطيب)، (والعرق بالتصبب)، (والشيب بالاشتعال)، أن يقال: طابت نفسه، وتصبب عرقه، واشتعل شيب رأسي. لأن الفعل في الحقيقة وصف في الفاعل. والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد. " ¹

ويوضح موفق الدين بن يعيش النحوي(ت 643هـ) مَعْنَى المبالغة والتأكيد المطلوبين من وراء إزالة الكلام عن بنيته الأصلية، بأن معنى المبالغة حاصل من أن الفعل في البنية الأصلية للجملة وهي: طابت نفس زيد - كان مسندا إلى سبب من الفاعل، أي كلمة " نفس " ، وهو جزء منه، فصار الفعل - بعد التحويل - في قولنا: " طاب زيد نفسا " مسندا إلى الجميع وهو " زيد " ، وذلك أبلغ في المعنى.

وأما معنى التأكيد، فإنه لما كان الإسناد في المعنى إلى ما هو منتصب، ثم أسند في اللفظ إلى " زيد " ، تمكّن المعنى. ثم لما احتمل أشياء كثيرة وهو أن تطيب نفسه بأن تنبسط ولا تنقبض، وأن يطيب لسانه بأن يعذب كلامه، وأن يطيب قلبه بأن يصفو انجلاؤه، تبين المراد من ذلك بالنكرة التي هي فاعل في المعنى ، فقليل طاب زيد نفسا... ²

وانطلاقاً من كتابي الزمخشري المفصل والكشاف يمكن القول إنه كان حريصاً على الكشف عن خفايا المعاني والأغراض البلاغية التي تزخر بها الأساليب المزالة عن أصولها، وأنه قد يتتبع مراحل تحويلها، معيّن الدلالات التي تشي بها هذه البنيات التركيبية المتجددة. وفي ذلك يسجل ما لأسالي ب العربية من مرونة وقدرة على التلون حسب الأحوال والمواقف، لتكون موفية بأداء المقاصد إلى المرسل إليه، مؤثرة فيه.

وتابع البلاغيون المتأخرون الزمخشريّ في منهجه التحليلي. ومن بينهم: ضياء الدين بن الأثير و بدر الدين الزركشي ويحيى بن حمزة العلوي والسكاكي والسيوطي وغيرهم ³.

1 - الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله) ، المفصل في صناعة الإعراب، تحقيق: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993، ص 95.

2 - ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي)، شرح مفصل الزمخشري، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة مصر، د.ط، د.ت، 75/2.

3 - ابن الأثير: (558 - 637هـ) هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير. سعى في تحصيل العلوم في الموصل، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي في مصر، وعمل في الديوان الذي كان رئيسه القاضي الفاضل. وكتب لعدد من الملوك الأيوبيين. وكانت وفاته ببغداد. له عدة تصانيف، أشهرها: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، و"الوشى المرقوم في حل المنظوم"، و"المرصع في الأدبيات". وفيات الأعيان، ابن خلكان، 38/5-39.

وللدكتور محمد العمري¹ بحث عن "الدلالة الفنية في مفتاح العلوم للسكاكي" (626هـ) جاء فيه أن المستوى الثاني للغة - وهو المستوى الفني- يتجلى في الخروج عن مقتضى الظاهر، الشيء الذي يتيح صيغا تعبيرية إضافية بديلة، مفتوحة المجال أمام المتكلمين. وهذا ما يبدو جليا من الفرق بين الدلالة الوضعية (أو دلالة المطابقة) والدلالة الاستلزامية عند السكاكي، حيث يقول: "فتارة تقتضي (الحال) ما لا يُفتقر في تأديته إلى مزيد من دلالات وضعية، وألفاظ كيف كانت، ونظم لها مجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق، وهو الذي سميناه في علم النحو أصل المعنى ونزلناه ههنا منزلة أصوات الحيوانات. وأخرى ما نفتقر في تأديته إلى مزيد"². وما نفتقر في تأديته إلى مزيد من تأدية أصل المعنى هو المستوى البلاغي أي موضع الدلالة على المقاصد بتشكيلات تعبيرية مختلفة وبرتب متفاوتة، وهذه الدلالة هي مناط العدول، ويسمئها السكاكي الدلالات العقلية، ويربطها بعلم المعاني والمجاز والكناية.³

يحي بن حمزة العلوي: هو الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي الزيدي اليمني (669هـ - 749هـ)، أمير المؤمنين ببلاد اليمن من سنة 729هـ إلى سنة 749هـ، وهي السنة التي توفي فيها. من مؤلفاته كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. قال صاحبه إنه اختاره من أربعة كتب: المثل السائر لابن الأثير، والتبيان لعبد الواحد بن عبد الكريم الزمكاني، والنهاية لابن الخطيب الرازي، والمصباح لبدر الدين بن مالك.

ينظر: يحيى بن حمزة العلوي، الطراز، دار الكتب الخديوية، القاهرة مصر، د.ط، 1332هـ، مقدمة الناشر، 1/ 32.

السكاكي هو يوسف بن أبي بكر السكاكي، صاحب كتاب "مفتاح العلوم" إمام كبير عالم، بارع، متبحر في النحو والتصريف، وعلم المعاني والبيان والعروض والشعر. توفي سنة 626هـ.

السيوطي (849 - 911هـ): هو عبد الرحمان جلال الدين بن الإمام كمال الدين الخضيرى السيوطي. ولد بالقاهرة ونشأ تيمما وحفظ القرآن وهو دون الثامنة، واخذ العلم عن واحد وخمسين عالما من علماء وقته، وزار جميع البلاد العربية، وابتدأ التصنيف وهو في السابعة عشرة. وقد نبغ في علوم كثيرة. وترك من بعده نحو خمس مئة مصنف في التفسير والفقه والحديث واللغة. ومنها: تاريخ الخلفاء، والمزهر في اللغة، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

ينظر: ابن العماد دمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، دار ابنكثير، بيروت، 7/ 215، 10/ 74 - 79.

بدر الدين الزركشي: هو محمد بن بحداد بن عبد الله التركي الأصل، الشيخ بدر الدين الزركشي ولد سنة 745، وعني بالاشتغال من صغره فحفظ كتابا. وعني الزركشي بالفقه والأصول والحديث. وكان رحل إلى دمشق فأخذ عن ابن كثير في الحديث. ثم توجه إلى حلب فأخذ عن الأزرعي. وجمع في الأصول كتابا سماه البحر في ثلاثة أسفار وشرح علوم الحديث. ومات في سنة 794 بالقاهرة. صنف كتابا كثيرة في الأصول والفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن. ومن آثاره المشهورة: البرهان في علوم القرآن.

الزركشي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - (ج 1 / ص 479) ابن حجر العسقلاني.

1 - محمد العمري من مواليد سكورة جنوب المغرب سنة 1945، حصل على دبلوم الدراسات العليا سنة 1981، ثم على دكتوراه الدولة في الآداب سنة 1989 من جامعة محمد الخامس بالرباط، ويعمل فيها حاليا أستاذا للبلاغة والنقد والأدبي.

موقعه على الإنترنت: WWW.medelomari.com

2 - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي)، مفتاح العلوم، ص163.

3 - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، 1999، ص495.

ويدرج السكاكي الالتفات في علم المعاني باعتباره أمراً متعلقاً بالتركيب، ويحصره في الانتقال فيما بين الطرق الثلاثة: الغيبة والتكلم والخطاب، كل واحد منها إلى الآخر.¹ والغرض من هذا التلوين الأسلوبي تنشيط السامع وإبعاد الملل عنه، يقول: "... ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه. وهم أحرىء بذلك ..."²

وقد لا ينتهي الغرض من أسلوب الالتفات عند إيقاظ حواس المخاطب وتنشيطها، وإنما تكون له مواقع ذات معانٍ لطيفة. قليل هم أهل الفن الذين يفتنون إليها، وهي مواقع تضيف إلى الغرض السابق المزيد من رونق الكلام، وتحريك همة السامع وجعله أكثر احتفاءً بما يتلقى من معاني الكلام.

يقول السكاكي في ذلك: " وهذا النوع قد يختص بمواقعه بلطائف معانٍ ، قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إن كان ممن يسمع ويعقل..."³

ولقي منهج بعض المتقدمين في تحليل نماذج الالتفات انتقاداً من ضياء الدين بن الأثير، وهو انتقاد ليس فيه تحقُّق ، ولا يخلو من التحامل فقال: " اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها. وهذا القول هو عكاز العُميان، كما يقال. ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله."⁴

ويوضح ابن الأثير وجهة نظره في الغاية من العدول الذي يتمثل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب فيقول: " والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تُضبط بضابطٍ لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها... "⁵

1 - المصدر السابق، ص199.

2 - مفتاح العلوم، السكاكي، ص199.

3 - نفس المصدر، ص201.

4 - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، ج2/168.

5 - المصدر نفسه، ج2/169.

فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب ليس هو الغاية في حد ذاته، وليس مجرد تطرية نفس المتلقي، ولكنه - عند ابن الأثير - لأجل فوائد جمّة، قد تدق معانيها أو تخفى إلا على ذي بصيرة، وهي لا تخضع لضوابط علمية مطردة بقدر ما تتحكم فيها قوة الملاحظة والاستنباط لدى الناقد.

والدليل على عدم جريان فوائد الالتفات على سمت واحد أن المعنى الواحد لا يجري على وتيرة واحدة من الكلام؛ فالانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل بغرض تعظيم شأن المخاطب، ثم ورد التعظيم بعينه وقد استعمل له الانتقال من الخطاب إلى الغيبة وهو ضد الأول.

ثم وضع ابن الأثير فكرة المعنى الواحد الذي قد يستخدم لأجله الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ثم الرجوع من الخطاب إلى الغيبة بقوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *﴾ الفاتحة: 2-7، فقال: " هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وبما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله: " إياك نعبد وإياك نستعين " بعد قوله: " الحمد لله رب العالمين " فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأن الحمد دون العبادة ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبد؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ " الحمد " لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال " الحمد لله " ولم يقل " الحمد لك " ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال " إياك نعبد " فخاطب بالعبادة إصراحاً بها، وتقرباً منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها. وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال " صراط الذين أنعمت عليهم " فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: " غير المغضوب عليهم " عطفاً على الأول، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً. فانظر إلى هذا الموضوع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قريها صافحة عنها.

وقد انتقل في أول هذه السورة من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضاً، لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه.

فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه في مواضعها على

اشتباهها. ¹

إن سبر الأساليب الجارية على الالتفات يسفر عن استنباط جماليا ت شتى. لكن الناقد ينبغي أن يكون بصيرا بالدقائق المتشابهة ، خبيرا بما تقضي بها لأحوال من كلام مطابق حتى يظفر بالغايات الفنية والدلالية التي تكتنف الأساليب العدولية. كما أن بلاغة الالتفات ليست محصورة فيما روي عنها من أنها مجرد بعث الحواس وتنشيط السامع.

وفي القرن الثامن الهجري عني الخطيب القزويني (ت 739هـ) بتلخيص وشرح وإيضاح كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، كما عني بهذا العمل علماء متأخرون شرحوا عمل الخطيب القزويني وجمعت أعمالهم في كتاب واحد سمي " شروح التلخيص " ¹. وما يُهمّ في ذلك أنّ سعد الدين التفتازاني وابن يعقوب المغربي يؤكدان على فكرة " مفاجأة المتلقي " ويشترطانها في صنع أسلوب الكلام الأدبي. وهي شرط في كل انزياح كما هو معلوم في الأسلوبية الحديث. فعلى سبيل المثال جاء في شرح التفتازاني للالتفات أنه: "...التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة... بعد التعبير عنه بآخر، أي عن ذلك المعنى بآخر منها، بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع. ولا بد من هذا القيد؛ ليخرج مثل قولنا : أنا زيد وأنت عمرو، نحن اللذون صبحوا الصباحا، وقوله تعالى: ﴿... وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وَاهْدِنَا ، وَأَنْعَمْتَ ﴾ فَإِنَّ الالتفات هو في إياك نعبد، والباقي جارٍ على أسلوبه" ².

ويعلق الدكتور أحمد محمد ويس ³ على ما اشترطه وأكد عليه التفتازاني وابن يعقوب المغربي، بأن ذلك يلفتنا إلى ما هو معروف في الدراسات الأسلوبية من اعتماد السياق اللغوي Context معيارا من المعايير التي تسهم في تحديد الانزياح، وهو ما تحدث عنه ريفاتير في كتابه " معايير تحليل الأسلوب " وأنّ في كلامهما إلماحا إلى أمر آخر مهم، وهو الإشارة إلى ما يمكن أن يكون في الالتفات من مفاجأة المتلقي أو من "خيبة" كما هي عبارة ريفاتير. ⁴

1 - الخطيب القزويني (666هـ 739هـ): جلال الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني، اشتغل بالفقه والقضاء في دمشق ومصر . أتقن الأصول العربية والبيان وتولى الخطابة بجامع دمشق. من مؤلفاته: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان ، والبدیع، وهو من اجل مختصراته.وقد كثر شرح هذا التلخيص .ومن أشهرها شروح ثلاثة مجموعة في كتاب واحد وهي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي(773هـ). والمختصر على تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني (792هـ) ، ومواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي(1110هـ).

أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة العربية والتعريف برجالها، ص: 134، 144، 151، 190.

2 . التفتازاني ، المختصر ، ومواهب الفتح لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، 465/1.

3 . هو من مواليد حلب سنة 1968. حامل لشهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، ويعمل حاليا مدرسا للنقد ونظرية الأدب في جامعة حلب بسوريا.

معلومات التعريف بالكاتب مأخوذة من الصفحة الخيرة من غلاف كتاب "الانزياح في التراث النقدي والبلاغي" للدكتور أحمد محمد ويس.

4 - أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، مطبعة اتحاد الكتاب العرب:دمشق - سوريا، 2002، ص185.

وتلخيصا لما تقدم نقول: عالج ظاهرة العدول الأسلوبي علماء اللغة والبلاغة والتفسير القدماء أمثال الأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زكريا الفراء، وابن قتيبة، وأبي العباس المبرد، وأحمد بن فارس، وابن جني، وأبي هلال العسكري والزمخشري، والسكاكي، وابن الأثير والخطيب القزويني وشرّاح تلخيص المفتاح وغيرهم، وذلك تحت أسماء كثيرة مثل الالتفات والمجاز والعدول والإزالة الخ... كما أن المنهج الذي سلكه هؤلاء في معالجتهم لهذه الظاهرة كان - عند الأولين - يغلب عليه تسجيل صور الخروج عن مقتضى الظاهر، والسعي إلى تبرير وجودها في القرآن عن طريق دعمها بالشواهد من اللغة الإبداعية للعرب. ولكنّ تخطيطهم لهذا المستوى من المعالجة كان محتشما، لا نكاد نعتز على إشارات منه إلا نادرا كما هو الشأن في معاني القرآن للفراء. وأما أغلب المتأخرين فإنهم أخذوا يفحصون التراكمات بحثا عن الأغراض والفوائد المعنوية المختصة بكل موضع فيه خروج عما يقتضيه ظاهر السياق المقامي أو اللغوي. وهم في هذا الصنيع لا يختلفون عن علماء الأسلوب الذين يدرسون الكلام الأدبي راصدين ما في طياته من ألوان الانزياح المحدث للمفاجأة التي تترك الأثر المرغوب في نفس المتلقي.

1. أهمية العدول عن المؤلف:

أدرك علماء البلاغة ورجال الأدب العرب منذ عهد مبكر أنه في العدول عن المؤلف والخروج عن المعتاد علامات على التميز والشرف في جميع الصناعات، وأنه من الدلالة على نباهة الصانع وقوة الإلهام الذي حُبي به. كما أن تجاوز المأنوس وطلب البعيد، كَمِمّا تشغف به عامة النفوس، ونراه مجسدا في سلوك البشر وصناعاتهم.

جاء في الخصائص نص للأصمعي قال فيه: إنَّ " الشيء إذا فاق في جنسه قيل له: خارجي " وعلل ابن جني ذلك بلُبه "لمّا خرج عن معهود حاله أُخرج أيضا عن معهود لفظه" ¹

إنّ صفة التفوّق والانفراد التي يكون عليها الشيء، والتي حصلت له بتجاوز معهود حاله، والرتابة التي عليها جنسه، هي التي منحتة صفة الخارجي².

وينبغي أن نقول إن القرآن قد أحدث في العرب مفاجأة من نوع خاص، وقفت بإزائها حائرة في وصف هذا الكلام: هل هو شعر أم سحر أم قول كاهن؟ وما القرآن بشي ء من ذلك الذي عرفوه، ولكنهم أقروا بخروج القرآن عن مألوف كلامهم، وتأكد لهم ذلك بعجزهم عن معارضته. قال

1 - ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت لبنان، ط2، ج46/3.

2 - قال ابن منظور ((وقيل الخارجي كل ما فاق جنسه ونظائره)).

ابن منظور، لسان العرب، ص1125.

الباقلاني¹ (403هـ): "ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، أو عرضوا عليه من كلام فصحاءهم وبلغائهم ما يعارضه، فلما لم يشتغلوا بذلك، عُلم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظامهم، وزالت أطماعهم عنه."²

وربما كان الجاحظ من السابقين إلى تسجيل الأثر النفسي البالغ الإيجابية الذي ينتجه الخروج عن المعتاد، حيث نقل كلاما لسهل بن هارون ينصّ فيه على أنه لو اتفق أنّ رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا. وكان أحدهما يظهر عليه الجمع للفضل والشرف، وكان لا يظهر ذلك على الآخر. وكانا في مقدار واحد من البلاغة والصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للآخر على الأول؛ "لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعده، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبون، وظهر منه خلاف ما قدره، تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم."³

وسهل بن هارون يرى أن السبب في تقدم عامتهم للآخر، يعود إلى مفاجأته لهم بكلامه حين خرج عن الطوق الذي قدره له، وباغتهم بما لم يحتسبوه منه. وكان من ذلك أن ارتفع قدر كلام هري قلوبهم وعيونهم أضعافا.

ويدعم سهل فكرته بحقيقة نفسية لدى الإنسان، وهي أنّ "الناس مُؤكّلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد..."⁴ وتظهر ثمرة هذه الحقيقة في "زهة الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم. وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعمُّ نفعاً، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤونة، وأكثر فائدة، ولذلك قدم بعض الناس الخارجي* على العريق، والطارف على التليد."⁵

1. الباقلاني: هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، المعروف بالباقلاني البصري الأشعري المتكلم المشهور. صنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، ومنها: "إعجاز القرآن". وكان في علمه أوحده زمانه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه. وتوفي سنة 403 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/269.

2 - الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، د.ط، د.ت، ص437.

3 - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 7، 1998، 89/1.

4 - نفس المصدر، 1/90.

* الخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه، من غير أن يكون له قلم. انظر هامش ص90، من نفس المصدر.

5. نفس المصدر والصفحة.

ويلفتنا هذا النص إلى بيان قيمة العدول، حيث تكمن في ما يحدثه من الطرافة والدهشة والعجب. وأن هذه القيمة تبقى ثابتة له، لأنّ العدول عن المألوف مطلب نفسي، مركز في الناس على نحو ما تركز الطباع.

ويتكلم حازم القرطاجني¹ (ت 684هـ) عن دور الخروج في إحداث المباغته المنتجة للذة النص الأدبي، في عدة مواضع من كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء". ومن ذلك أنه لما فرغ من المقارنة بين قسمين من المحاكاة (التشبيه): قسم متداول بين الناس، وقسم آخر يقال بأنه مُخْتَرَع، قال عن الثاني: "وهذا أشد تحريكا للنفوس إذا قدرنا تساوي قوة التخييل في المعنيين، لأنها أنست بالمعتاد فرمما قلّ تأثرها له. وغير المعتاد يفجؤها بما لم يكن به لها استئناس قطّ، فيزعجها (يدفعها) إلى الانفعال بديها بالميل إلى الشيء والانقياد إليه، أو النفرة عنه والاستعصاء عليه... وإنما الفضل في المعنى المخترع راجع إلى المخترع له، وعائد عليه، ومبين عن ذكاء ذهنه وحدة خاطره."²

فحازم يدرك أن غير المأنوس يحدث المفاجأة، وهي عبارة عن توتر وانفعال يحدثان في نفوس المتلقين، وأنه على إثرهما يُقْبَل المتلقي على المعنى المخترع ويعجب به، أو ينفر منه ويرفضه.

ويلفت حازم أنظارنا إلى أن ما في التشبيه المخترع من جدة وطرافة يعدّ فضلا راجعا إلى المخترع، وعلامة على ذكائه وقوة مخيلته.

ومما يقوي فكرة أن النفس البشرية تملّ المعتاد المكرّر، وأنها تطلب التغيير والتجديد، إجابة أبي علي مسكويه (ت 421هـ) عن سؤال أبي حيان التوحّيدي: ما سبب استئصال النفس لإعادة الحديث عليها، وليس فيه في الحال الثانية إلا ما فيه في الحالة الأولى؟ فكان جواب: مسكويه - رحمه الله أن: "النفس تأخذ من الأخبار المستطرفة والأحاديث الغريبة عندها شبيهاً بما يأخذه البدن من أقواته. وما حصلته

1. حازم القرطاجني (أبو الحسن)، ولد بالأندلس سنة 608هـ. كان فقيها مالكيا، نحويا بصريا، حافظا للحديث، راوية للأخبار والأدب، شاعرا، دارسا للمنطق والخطابة والشعر. وإثر سقوط الدولة الأموية في الأندلس انتقل إلى مراكش قاعدة الخلافة الموحدية ثم إلى تونس حيث وجد في ظل الدولة الحفصية وسطا يرضي ميوله الفكرية. توفي سنة 684هـ. من آثاره: منهاج البلغاء وسراج الأدباء في علمي البلاغة والبيان، والقصيدة الميمية في النحو.

أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1981، 52. 71 بتصرف.

2 - المصدر السابق، ص96.

النفس من المعارف والعلوم، فإعادته عليها بمنزلة الغذاء من الجسم الذي اكتفى منه، فإذا أعيد عليه غذاء هو الأول ثقل عليه، واستعفى منه، فكذلك حال النفس في المعارف.¹

فالنفس مولعة بالتجديد، كلفة به، شديدة النقرة من الجمود والثبات، حتى أنها في بعض الأحيان، تمل وتضجر من النعيم إذا هو دام وتكرر. وهذه الحقيقة المركوزة في النفس البشرية تقوي قيمة العدول عن الثابت المتكرر، وتؤكد قيمة ما يؤديه هذا العدول في الحياة وفن القول.

ويمكننا القول بأن أهمية الانحراف (أو العدول) تظهر في خلق إمكانيات جديدة للتعبير، والكشف عن علاقات لغوية جديدة تصطدم مع ما تربى عليه الذوق، وما تأسس في معرفة الإنسان الأولية. وإن الجديد والغريب الذي تعكسه ظاهرة الانحراف ما هو إلا ترسيخ للشعرية التي تحدث أثرا كبيرا في نفس المتلقي من خلال دلالاتها الكامنة والمشحونة. وقد التفت القدماء إلى أهمية ما هو عجيب وغريب في القول وغيره.

2. الأصل والفرع عند علماء النحو والبلاغة:

أ) العدول ضمن إطار الجملة عند النحاة العرب:

يجمع النحاة على أن أكبر قاعدة أصل على الإطلاق، هي قاعدة الإفادة، التي يعبرون عنها بقولهم: "الأصل في الكلام أن يوضع للفائدة" أو قولهم: "الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع"، أو قولهم: "ولا بد في الكلام من أمرين معا: التركيب من كلمتين أو أكثر، والإفادة المستقلة".²

وذلك هو أصل الوضع في الجملة سواء أكانت اسمية أم فعلية. ولا يمكن العدول عن هذا الأصل مهما كان³، لأن العدول عنه يعني الخروج إلى اللبس المؤدي إلى التعارض مع الغرض الأساسي للغة وهو التفاهم فيما بين بني الإنسان.

وأما القاعدة التي تلي قاعدة أصل الوضع فهي القاعدة الأصلية أو قاعدة الأصل. وبعبارة أخرى هي الصورة النمطية للجملة الاسمية أو الجملة الفعلية، حيث تكونان مؤلفتين من ركنين أساسيين هما المسند إليه والمسند، وقد يضاف إلى هذين الركنين عناصر أخرى مكملة لهما يسميها النحويون "الفضلات". ويمكن معرفة القواعد الأصلية بالعودة إلى تعريفات الأبواب النحوية، قبل أن تتبعها التفريعات والاستثناءات. إن جملا على نحو: زيد قائم، وقام زيد، وأكرم زيد ضيفه، وأقبل زيد ضاحكا... الخ، هي جمل جاءت على ما

1 - الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 1، 1951، ص314.

2 - ينظر على سبيل المثال: عبد الله الفوزان، دليل السالك شرح ألفية ابن مالك، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص23.

3 - تمام حسان، الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 2000، ص130.

يقتضيه أصل الوضع؛ لإفادتها. كما أن عناصرها انتظمت على الهيئة التركيبية النمطية للجملة المفيدة، ولذا تنطبق على جميع عناصرها أحكام القاعدة الأصلية أو تعريفات الأبواب. وبيان هذه الأحكام أن تلك الجمل إضافة إلى تأسيسها على الركنين الأساسيين، توفرت على الأصول التالية:

1. الذكر: فإذا عدل عنه إلى الحذف وجب تقدير المحذوف مسندا إليه أو مسندا.
2. الإظهار: فإذا عدل عنه إلى الإضمار، وجب تفسير المضمرة منهما.
3. الوصل: وقد يعدل عنه إلى الفصل بين المتلازمين.
4. الترتيب بين عناصر الجملة: وقد يعدل عنه إلى التقديم والتأخير.
5. الإفادة: فإذا لم تتحقق الإفادة فقد التركيب كونه جملة وكلاما. وتتحقق هذه الإفادة بالقرائن مع أمن اللبس.

ب) شروط العدول عن هذه الأصول:

ولا يجوز العدول عن أي أصل من هذه الأصول إلا إذا توفر شرط أمن اللبس، استبقاء لفائدة الجملة. ويؤمن اللبس بما يلي:

1. وجود الدليل مع الحذف.
 2. أن يفسر المضمرة.
 3. ألا يكون الفصل بأجنبي.
 4. ألا يكون التقديم والتأخير إلا مع وضوح المعنى، وألا تكون الرتبة محفوظة.
- ولما رأى النحاة أن قواعد الأصل التي جردوها من المسموع، وهياؤها لأن تكون الطرف الأصل الذي يقاس عليه غيره من الكلام، رأوا أنها قواعد تتعرض للاستثناءات، فكان عليهم أن ينصوا على "أن القاعدة هي كذا إلا في حالة كذا"، "والقاعدة كذا يجوز فيها كذا"، "ويمتنع كذا إلا إذا أفاد...". وفرقوا بين القاعدة والاستثناء بقولهم في الأولى: "القاعدة الأصلية أو قاعدة الأصل أو أصل القاعدة"، وقالوا في الأخرى: "القاعدة الفرعية"¹.

ومتن ألفية ابن مالك زاخر بأمثلة من هذا القبيل، يقول في باب الفاعل:

والأصل في الفاعل أن يتصلا	والأصل في المفعول أن ينفصلا
وقد يجاء بخلاف الأصل	وقد يجي المفعول قبل الفاعل ²

1. نفس المرجع، ص 107، 121.

2. بهاء الدين عبد الله بن عقيل المصري، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ص 96/2، 1985.

وقال في باب الابتداء:

والأصل في الأخبار أن تؤخرا	وجوزوا التقديم إذ لا ضررا
ولا يجوز الابتدا بالنكرة	ما لم تفد كعند زيد نمره
وهل فتى فيكم فما خل لنا	ورجل من الكرام عندنا
ورغبة في الخير خير وعمل	بر يزين وليقس ما لم يقل ¹

ج) طبيعة القواعد الأصلية والفرعية:

ما يطبع القواعد الأصلية أنها مطردة في السماع الذي أخذت منه . وقد أراد لها النحاة أن تكون مطردة في القياس أيضا، فيقاس عليها غير المسموع. غير أن الواقع اللغوي خالفهم، وثبت في الاستعمال العدول عن هذه القواعد الأصلية، وكان مع ذلك من الفصيح. فسموه الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه بسبب شذوذه*.

وأما إذا كان العدول عنها مطردا . وهو ما تعبر عنه القواعد الفرعية فإن اطردها يؤهله لأن يقاس عليه. ومن ثم إن المطرد سواء أكان مستصحباً للأصل أو معدولا به عنه ، فإنه يكون مناطا للقياس . وبعبارة أخرى فإن القواعد الأصلية، وكذا الفرعية هي قواعد قياسية².

د) أسباب العدول عن الأصل إلى الفرع:

يرجع الدكتور تمام حسان أسباب عزوف النظام اللغوي عن الأصل، وتفضيل العدول عنه إلى الفرع إلى أحد الأمور التالية:

1. طلب أمن اللبس: إذ قد يكمن اللبس في استصحاب الأصل، فيعدل عنه إلى الفرع لإزالة اللبس. وهذا المبدأ اختصره ابن مالك في قوله: "وإن بشكل خيف لبس يجتنب"، ومثال ذلك أن القاعدة الأصلية في رتبة المبتدأ والخبر تقدم المبتدأ وتأخر الخبر عليه. إلا أنه قد يجيء المبتدأ مضافا إلى ضمير يعود على بعض الخبر. فإذا استصحبت القاعدة الأصلية وجب أن يعود هذا الضمير على

1. نفس المرجع، 215/1، 216.

* مثل قوله تعالى: "استحوذ عليهم الشيطان" فالاستعمال استحوذ، والقياس استحاذ. ومن ذلك تقدم الحال في بعض الآي، نحو قوله تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ هود:42. أي ناداه وهي تجري بهم.

2. ينظر: تمام حسان، الأصول، ص134.135.

- متأخر لفظاً ورتبة،¹ الأمر الذي يتعارض مع قاعدة أصولية أخرى. ولذا وجب العدول إلى القاعدة الفرعية وهي قاعدة تقديم الخبر.
- ومثال ذلك أيضاً أن الأصل في المبتدأ أن يأتي معرفة، ومن شأن الخبر أن يأتي نكرة، ليعين هذا الاختلاف على تحديد ركني الجملة فيؤدي ذلك إلى أمن اللبس². ولكن إذا كان اللبس مأموناً حتى مع مجيء المبتدأ نكرة، فإنه يجوز الابتداء به، وذلك ما تقول به القاعدة الفرعية³.
2. وقد يعود سبب العدول عن أصل القاعدة إلى فرعها، إلى التعارض بين أصليين في التركيب نفسه، وبيان ذلك أن تقديم المبتدأ عن الخبر أصل، وأسماء الاستفهام لها حق الصدارة أصلاً. فإذا جاء الخبر اسم استفهام حصل التعارض بين الأصليين متمثلاً في رتبة الخبر الوارد استفهاماً. وهنا تصبح رتبة الاستفهام أولى من رتبة المبتدأ؛ لأن الكلمات التركيبية (كأسماء الاستفهام) أكثر أصالة في حقل الرتبة والافتقار والبناء من الكلمات الاشتقاقية*.
3. قد يكون للذوق العربي في أثناء الأداء اللغوي للكلام (النطق) دخل في العدول عن القاعدة النحوية الأصلية. فالأصل في نحو الجملة النطق بحركات الإعراب، ولكن يعدل عن النطق بها إلى سكون الوقف أو حركة المناسبة؛⁴ استخفافاً أو تمكيناً للنطق أو للإشعار بفواصل الكلام أو بتمامه.

1. نحو قولنا: "للكتاب أسلوبه" ففيه تقدم الخبر على المبتدأ. ولو التزمنا في ترتيبهما بقاعدة الأصل لقولنا: أسلوبه للكتاب، فيقع اللبس نتيجة الجهل بما يعود عليه الضمير.

2. قال ابن السراج: "يكون المبتدأ معرفة والخبر نكرة، نحو "عمرو منطلق". وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه الكلام." وشرح المحقق ذلك بان الأصل في الخبر أن يأتي نكرة مشتقة فيكون فيه معنى الوصف المحتمل ضميراً يعود إلى المبتدأ. ولا يحتمله إذا رفع الظاهر نحو: عمرو منطلق أخواه.

ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل)، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996، 65/1.

3. قال ابن السراج: "وقد يجوز لك أن تقول: رجل قائم، إذا سألك سائل فقال: أرجل قائم أم امرأة؟ فتجيبه فتقول: رجل قائم. وجملة هذا أنه إنما ينظر إلى ما فيه فائدة، فمتى كانت فائدة بوجه من الوجوه فهو جائز. وإلا فلا." والفائدة المتحققة هنا هي الابتداء بالنكرة الواقعة بعد أداة الاستفهام، فهي كالابتداء بكلمات الاستفهام، نحو من عندك؟ المصدر نفسه، 59/1.

* يقسم الدكتور تمام حسان الكلمة إلى قسمين: اشتقاقية وتركيبية. وتتميز الاشتقاقية منها بأنها ذات معنى عند إفرادها عن السياق. وتكتسب هذا المعنى من مادتها اللغوية (المعنى المعجمي)، ومن صيغتها (أي معناها الصرفي الوظيفي). وتشمل هذه الكلمات الأسماء والأفعال والصفات. وتتميز بأنها ذات طبيعة لاصحوية. وأنها قابلة للنقص والزيادة بالإبطال والارتجال.

وأما الكلمات التركيبية فلا تفرّد، وإنما لها وظيفة في التركيب (كالضمائر والموصولات والإشارات والظروف الجامدة والحروف... الخ). ومن طبيعتها أنها محصورة العدد، وغير قابلة للزيادة والنقصان.

الأصول، تمام حسان، ص135، 136.

4. تمام حسان، الأصول، المرجع السابق، ص136.

تشهد القواعد النحوية على أن ترك تطبيق القاعدة الأصل إلى أعمال القاعدة الفرعية تتحكم فيه القاعدة الأصولية العليا التي هي أن الأصل في الكلام أنه يوضع لفائدة، ولا يكون ذلك متحققا ما لم يكن مأمون اللبس. فإذا أمن اللبس جاز تطبيق القاعدة الفرعية لأنها في الواقع تؤمن قاعدة أصولية أخرى مثل "عدم عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة"، وأن أسماء الاستفهام لها حق الصدارة حتى لو كانت وظيفتها في الكلام وظيفة المتأخر فيه، ومثل الوقف على حركات الإعراب في آخر الكلام طلبا للخفة، وهي من الاقتصاد اللغوي، الذي يسعى المتكلمون إلى تحقيقه إلى جوار تحقيق الفائدة في تواصلهم مع بعض.

هـ) المعيار لدى النقاد والبلاغيين العرب:

يبدو أن علماء الأدب والنقد والبلاغة العرب القدماء، اهتموا بالبحث عن الجهة التي تحدد من منظورها الانحرافات التي تميز اللغة الشعرية، تلك اللغة المتغيرة المشحونة بالأبعاد الجمالية المفجرة للطاقة الانفعالية لدى المتلقي. تلك اللغة كانت المحفز لهم على البحث عما يعرف بالمعيار عند المحدثين. فجعلوا له أسماء تشير إليه مثل: حد الاستعمال، والعادة؛ قال القاضي الجرجاني¹: "وقد كان بعض أصحابنا يجازيبي أبياتا أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة، وخرج عن حد الاستعمال والعادة، فكان مما عدده منها قوله:

تجمعت في فؤاده همم	ملء فؤاد الزمان إحداها ²
--------------------	-------------------------------------

فجعل... للزمان فؤاداً. وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد؛ وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة، وطُرف من الشبه والمقاربة.³

ومن البين أن حد الاستعمال والعادة مفهوم معادل لما عرف في البحث الأسلوبي المعاصر باسم المعيار الذي تتجاوزه اللغة الشعرية.

ولإيمانهم بأن كل خروج في اللغة يفترض له وجود أصل يقاس إليه، فقد تواترت عنهم مقولات مثل "أصل اللغة". يقول أبو هلال العسكري في تعريف الاستعارة بأنها: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل

1 - القاضي الجرجاني (290-366هـ)، اشتهر بالفقه والأدب والنقد والتاريخ وتفسير القرآن. وتقلد قضاء جرجان في أخريات حياته. ومن أبرز ما عرف به في الأدب كتاب "الوساطة بين المتنبئ وخصومه"، وفيه بسك الكلام عن خصوم المتنبئ وعلى رأسهم الصحابي بن عباد مؤلف رسالة "الكشف عن مساوئ المتنبئ"، وكلام المناصرين له المدافعين عن مقداره وعلى رأسهم أبو الفتح عثمان بن جني. وفي هذه الحيلة ألف القاضي الجرجاني كتابه.

ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 278/3.

2 - عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبئ، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 414/4.

3 - القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبئ وخصومه، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، المكتب العصرية، الطبعة 1، بيروت، 2006، ص 357.

اللغة إلى غيره لغرض.¹ واستعمل النقاد والبلاغيون أيضا مقولة "المعنى الأصلي" مثل عبد القاهر الجرجاني حيث قال: "ألا ترى أن ليست المزية التي تجدها لقولك: كأن زيدا الأسد على قولك: زيد كالأسد بشيء خارج عن التشبيه الذي هو أصل المعنى وإنما هو زيادة فيه..."² كما استعملوا مسميات أخرى مثل "أصل الوضع والأصل"، "والحقيقة". قال ابن الأثير في فصل الحقيقة والمجاز متحدثا عن لفظ "الغائط": "وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع، فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلا الحقيقة لا غير. ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم، وأريد بها قضاء الحاجة قرنت بألفاظ تدل على ذلك كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ المائدة: 43. فإن قوله دليل على أنه أراد قضاء الحاجة، دون المطمئن من الأرض. فالكلام في هذا وأمثاله إنما هو علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجاز..."³ وقال ابن جني في حد الحقيقة: "ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة."⁴ وقال القاضي الجرجاني في تحديد الاستعارة: "وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل."⁵ وعرف السكاكي الحقيقة بأنها: "الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع..."⁶ ولا شك أن هذه التسميات الحاملة لمعنى المعيار، كانت تعنى وجود افتراضات أكيدة بنى عليها النقاد والبلاغيون العرب ما توهموه من وجود معيار يقاس إليه كل خروج عن اللغة العادية. وكثر استعمالهم لهذه التسميات في مناقشاتهم لقضايا الاستعارة والمجاز بشكل خاص.

ولم يكن اهتمامهم بالبحث عن الأصل والعادي وعن الخروج عنه إلا للمقارنة بينهما، ومن ثم تبين أوجه التعبير ذي التأثير والأبعاد الجمالية التي اكتسبتها العبارات المنزاحة أو المعدولة عن أصولها.

ويمكننا استجلاء هذه الحقيقة التحليلية والنقدية من خلال التحليلات التي قدمها علي بن عيسى الرماني في جملة من الاستعارات، فقال: "وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة، وهي أصل الدلالة في اللغة، كقول امرئ القيس في صفة الفرس "قيد الأوباد" والحقيقة فيه: مانع الأوباد، وقيد الأوباد أبلغ وأحسن... وقال عز وجل: "إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية" حقيقته: علا، والاستعارة أبلغ لأن طغى علا قاهرا، وهو مبالغة في عظم الحال..."⁷

1 - كتاب الصناعتين، العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986، ص 6.

2 - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 266.

3 - ابن الأثير، المثل السائر، 1/ 86، 87.

4 - ابن جني، الخصائص، 2/ 442.

5 - القاضي الجرجاني، الوساطة، ص 428.

6 - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 358.

7 - الرماني، النكت في إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة 3، ص 86-87.

ويتبين من المقارنات التي تتم بين أصل الوضع والانزياح عنه، أن قول العلماء العرب "المعنى الأصلي" وغيره من المرادفات كانوا يستعملونه في مقابل مفاهيم الاتساع والانحراف والعدول والخروج وغير ذلك من أشكال الانتهاك اللغوي التي تمنح المتكلم إمكانيات عديدة للاستخدام اللغوي.

وقد توصل بعضهم إلى صياغات تنم عن إدراك نظري للصعوبات التي تقوم في وجه تقنين الظواهر الأسلوبية ودراسة الأدب من جهة بنيتها اللغوية، وتشهد أنهم لمسوا أدق المشكلات التي اعترضت الأبحاث الأسلوبية المعاصرة، وما مفهوم "الدرجة الصفر" Le degré zéro لرولان بارت Roland Bart في القرن العشرين إلا أحد أركان الأسلوبية الذي حدده البلاغيون العرب بدقة مثيرة للإعجاب.¹

ويقدم الباحث حمادي صمود دليلاً بقول السكاكي في باب الإيجاز والإطناب: "أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق، والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيساً عليه، ونُسَمِّه: متعارف الأوساط، وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم. فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات "متعارف الأوساط"... والإطناب هو أداءه بأكثر من عبارته م، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل."²

ومن القضايا التي ارتبطت بالانحراف ما عرف "بالانحراف المطلق"، بمعنى هل يستمر الانحراف انحرافاً على مرور الزمن؟ يبدو أن بعض الألفاظ والتراكيب قد أدى استعمالها بصفة متكررة إلى أن ابتذلت وزال وهجها الشعري. إن العدول قد يصبح في يوم ما استعمالاً عادياً.

ولم تفت هذه القضية الأسلوبية الموروثة البلاغي عند العرب، حيث تعرض لقضية الحقيقة والعدول عنها إلى المجاز، حينما يتحول المجاز مع مرور الوقت إلى حقيقة، ويتحول الكلام من الحقيقة إلى المجاز. وذلك هو رأي يحيى بن حمزة العلوي في هذه القضية، يقول: "الحقيقة إذا قل استعمالها صارت مجازاً عرفياً، ومثاله إطلاق لفظ الدابة على الدودة والنملة، فإنه الماتعروف في إطلاقه على ذوات الأربع حتى صار حقيقة فيه، فصار إطلاقه على النملة مجازاً، بالإضافة إلى الحقيقة العرفية. وقد كان حقيقة في أول وضعه على كل ما يدب من الحيوانات. وإنما صيرورة المجاز حقيقة فلأن المجاز إذا كثرت استعماله صار حقيقة عرفية، ومثاله قولنا الغائط، فإنه يكون مجازاً في قضاء الحاجة، وحقيقته المكان المظلم من الأرض، ثم تعورف هذا المجاز وكثر حتى صار حقيقة سابقة إلى الفهم."³

غير إن احتباساً لا بد من تسجيله، وهو أنه ليس كل انحراف يعزز شعرية النص، ويسمو به فوق ما هو عادي ومألوف، فهناك انحرافات ليس لها قيمة فنية تكشف عن قدرة على الإبداع والخلق. وما هي إلا

1- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 402.

2- السكاكي، مفتاح العلوم، ص 276-277.

3- العلوي (أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم البني)، الطراز المنظم لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 100-99/1.

أحاديث لا دور لها في الشعرية. إذن ليس كل انحراف عن القاعدة الأصلية ينبثق منه إبداع وفن.¹ ومن الانحراف الذي لا ينتج عنه ناتج في يرفعه إلى رتبة القول الشعري، الكثير من مواضع المتقدم من تأخير الذي يلجأ إليه الشعراء لأجل الاستجابة لضرورات الوزن والقافية.

المبحث 2- الانزياح والمعيار في الأسلوبية...

المطلب 1- مفهوم الأسلوب:

رأينا أن نفتح الكلام عن مفهوم "الأسلوب" بما لاحظته وعرضه الدكتور أحمد الشايب عن هذه الكلمة من استعمالات تتم عن اضطراب واختلاف مختلف الأوساط في مدلولات الكلمة عند توظيفها لها. الشيء الذي يستلزم التريث في تحديد هذا المفهوم. فقد يفهم الناس من كلمة "أسلوب" العنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات، وربما قصره على الأدب دون غيره من ألوان العلوم والفنون، وهو فهم ينقصه الشمول، كما ينقصه إدراك أن تلك الصورة اللفظية ليست مستقلة عن نظام لغوي تألف وانتظم في نفس الكاتب أو المتكلم، الأمر الذي يمكن معه القول بأن الأسلوب هو عبارة عن معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة ينطق بها اللسان أو يجري بها القلم. وشيء آخر هو أن كلمة "الأسلوب" صارت مستعملة في بيئات مختلفة، فالعلماء يستعملونها للدلالة على منهج من مناهج البحث العلمي، والأدباء يستعملونها للدلالة بها على الفنون الأدبية، كما يطلقونها على العنصر اللفظي سهلا أو معقدا. كما أطلقوها على إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة. وأطلقها الموسيقيون على طرق التلحين وتأليف الأنغام... الخ حتى أصبحت كلمة "الأسلوب" ترادف كلمة "الشخصية" في المعنى.²

فما هو "الأسلوب" بالتحديد في اللغة والاصطلاح؟

الأصل اللغوي: اشتقت هذه الكلمة في اللغات الأوربية من الأصل اللاتيني Stylus، وهو يعني الريشة، ثم انتقل عن طريق المجاز للتعبير عن مفاهيم تدور حول طريقة الكتابة، ثم أطلق على التعبيرات اللغوية الأدبية. وأما الآن فكلمة Style تنصرف إلى الخواص البلاغية المتعلقة بالكلام المنطوق، بينما يشير مفهوم "الأسلوب" في الأعمال الأدبية إلى بعض الخواص الكلامية فيها؛ لأن هذه الأعمال تختلف أساسا

1 - موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها، ص 57.

2 - أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة 12، 2003، ص 41-42.

عن الكلام المنطوق والخطابة.¹ إن التعبيرات المجازية للكلمة تذهب كلها إلى وصف الأدب بما فيه من ميزات بلاغية سواء أكان مكتوباً أم منطوقاً.

وأما في اللغة العربية فالأسلوب كما هو في لسان العرب: "يقال للسطر من النخيل أسلوب...، وكل طريق ممدود فهو أسلوب، فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب. يقال: أنتم في أسلوب سوء... ويجمع على أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه، والأسلوب الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي في أفانين منه..."² فالأسلوب في العربية هو الطريق أو الوجه أو المذهب، وبعبارة أخرى هو بمعنى الطريقة المتفردة التي يأخذ الإنسان فيها.

وأما من حيث المفهوم الاصطلاحي في التراث النقدي العربي، فهو عند ابن خلدون: "إنه عبارة عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي ترصّ فيه. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفته الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب الذي هو وظيفة العروض... وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها باعتبار انطباقها على تركيب خاص..."³ الأسلوب هو عبارة عن الصورة الذهنية المستخلصة من عدة تراكيب مفيدة لمعنى من المعاني مثل معنى سؤال الطلول في الشعر العربي، فقد يكون على أساليب عدة نحو خطاب الطلول، أو باستدعاء الصبح للوقوف والسؤال، أو باستيقاف الصبح واستبكائهم... الخ⁴ ونكتفي بابن خلدون في النقد الأدبي عند العرب لتأخره ولقوة بصيرته في النقد.

المطلب 2- تعدد مفهوم الأسلوب:

وفي العصر الحديث حدد علماء الأسلوب الغربيين مفهوم الأسلوب بناء على تحديد أطراف العملية الإبداعية، وبالتالي تتعدد مفهوماته:

1- بالنظر إلى المرسل أو المخاطب: عرفه "بوفون" أن الأسلوب هو الرجل نفسه، وهو يعتبر الكاشف عن الخواص المبرزة للطابع الشخصي للكتاب، ويبين الملامح التعبيرية المميزة لهم. وهكذا يدل الأسلوب على اختيارات المرسل اللغوية التي تشي بشخصيته.

1 - صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة 1، 1998، ص 92.

2 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 473/1.

3 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادى، بيت الفنون والعلوم والآداب، الاسكندرية، 279/3.

4 - أحمد الشايب، الأسلوب، 42.

2- بالنظر إلى النص ذاته أو الرسالة: ركزت تعريفاتهم على الخواص النوعية المتمثلة في النص. وتعتبر الأسلوب انحرافاً عن القواعد الجارية المستوى العادي أو المألوف في الكلام. وتشكل السمات الأسلوبية من مجموع الملامح والخواص والانحرافات.

3- بالنظر إلى المتلقي أو المرسل إليه: وتربط بعض التعريفات الأسلوب بالطرفين السابقين. غير أنها ترد الخواص الأسلوبية إلى ردود أفعال المتلقي. وبهذا فإن الملامح الأسلوبية للنص تتحدد من خلال إخضاع نتائج استجابات المتلقي للتحليل والتفسير. إن هذه التعريفات تعتبر المتلقي الطريق إلى معرفة الملامح الأسلوبية، وبعبارة أخرى فإن هذه التعريفات تعتمد على القارئ النموذجي عند "ريفاتير"، وتعتبر الخطاب عامل إثارة يحرك نوازع المتلقي.¹

وتنطلق هذه المفاهيم الأسلوبية من منطلق أطراف العملية الإبداعية، ولكنها تشترك في كون بحثها ينطلق من النص.

المطلب 3- دعائم الأسلوب:

يعرف جاكوبسون الأسلوبية بأنها البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانياً. ويحيلنا هذا التعريف على اعتبار الأسلوبية منهج عمل يستعمله الباحث في الأدب ليحدد مواطن تميز الكلام الفني عما سواه من مستويات التعبير عند الإنسان. كما يدلنا على أن دائرة النص أو الرسالة هي المقصود دون بقية دوائر الإبداع الأدبي. وهي الموضع الذي يحتضن الوقائع الأسلوبية التي يزخر بها النص. ولذا فإن الأسلوب هو الانزياح أو الانحراف نفسه.

والأسلوب هو المفهوم الذي يبرز إلى الأذهان عند حضور مصطلح المعيار؛ ذلك أن مصطلح الأسلوب في الأسلوبيات الحديثة يحيل إلى مجموعة من المفاهيم لا ينفك بعضها من بعض، وتتعاقد دلالاتها وإجراءاتها لتحقيق مقابل المعيار. ويمكن توضيح هذه المفاهيم فيما يلي:

إن كل حدث أسلوبى لا بد أن تصنعه مجموعة من المقولات أو العناصر الهامة بدونها لا يعد حدثاً أسلوبياً، وهذه العناصر هي:

1 - سعد أبو الرضا، النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية، ص 111-113.

2 - المرجع السابق (سعد أبو الرضا، النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية)، ص 110، 111.

1. الإضافة: الأسلوب هو عبارة عن إضافة أو زيادة Addition، أي هو شيء يضاف على اللغة. بما يعني أن التعبير غير الأسلوبي هو تعبير محايد، والتعبير الأسلوبي تعبير غير محايد أو غير متأسلب.

وقد أشار إنكفست Enkvist إلى أن الإضافة تضيف على التعبير تصورا مؤثرا وعناصر وجدانية وجدة تشكيل في¹.

وإن التسليم بأن الأسلوب إضافة يستدعي وجود قارئ أو ناقد يتعامل مع الإضافات ويقدر فاعليتها وتشكلها ومقدار تأثيرها في المتلقي.

وإذا سلمنا أيضا بأن الأسلوب إضافة فهو يعني أيضا وجود التحسين والزخرفة التي تطرأ على التعبيرات المحايدة البريئة، ولهذا فإن من العلماء من عدّ البلاغة كلها زخرفا وتزيينا، أو بديعا. وهذا التزيين داخل في قصد المؤلف لأنه يساهم في تشكيل رؤية قادرة على استنفار وعي المتلقي.²

فقد كان أسلوب أبي تمام (228هـ) ملفتا لانتباه النقاد مثل عبد الله بن المعتز (296هـ) والآمدي (370هـ). وما ذلك إلا لأن الشاعر كان يكثر من الإضافات والتزيينات والزخارف، لو جرّد منها شعره لأصبح تعبيره محايدا، ولأصبح عاجزا عن تأدية الوظيفة المزروجة التي كانت له، لأنه ضيّع تأسلبه، وما ذلك إلا لأن التأنق في التعبير صادر عن قصدية وليس بريئا محايدا.

إذا تعامل القارئ مع الإضافات التي في الكلام تعامل معها على أنها حقيقة أسلوبية منتهية، لا يجوز المساس بها، وكل ما يسعه فعله أن يؤولها ويعللها. إن القارئ لا يستطيع أن مجرد قول الهدلي الآتي من وقائع الأسلوبية ولكنه يمكنه تأويلها، وملاحظة ما فيها من ملاحظة وإفراط وتأثير. قال الهدلي:

تَكَادُ يَدِي تَنْدِي إِذَا مَا لَمَسْتُهَا	وَتَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ التُّصْرُ ³
---	--

وإذا كان الأسلوب إضافة، فإن هذا يعني أن من التعبير ما قد يكون أسلوبيا، ومنه ما لا يكون كذلك. وهذا ما أدركه شارل بالي (1865-1947) مؤسس علم الأسلوب: فإن اللغة الأدبية هي التي تحمل في ثناياها البعد التأثيري والوجداني، وهذا البعد يمثل عنصرا لا غنى عنه في تحقيق عملية الجذب للنص والاندھاش به.

إن الإجراء الأسلوبي لم يعد ينظر إليه على أنه مجرد زخرفة أو زينة غير ذات وظيفة، أي لم تعد الزيادات الأسلوبية صيغا يؤتى بها من أجل التزيين، وإنما هي صيغ جوهرية تبنى عليها المادة

1 - مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت لبنان، ص 86.

2 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها تجلياتها، ص 22.

3 - البيت لأبي صخر الهدلي، ينظر: أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، شرح شعر الهدليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 2/ 975.

الإنشائية، فليس الأسلوب معانيا ثانوية طارئة على المعاني الأول، ولكنه إجراء تتحقق به المادة الإنشائية.¹

والإشكالية التي يجب الانتباه إليها أن التركيز على الأبعاد المجازية في النص الأدبي، واعتبارها هي الأساس الذي يعتمد عليه تحليل النص دون الالتفات إلى كليته وعناصره الأخرى، إن هذا الأمر مما يجب الحذر منه، فلا يقع فيه الدارس الأسلوبي.

وليست عملية الدارس الأسلوبي قائمة على مجرد تعرية العمل الأدبي من الزخرفة الحادثة عليه؛ لأن ذلك يعني أن الأسلوب هو عبارة عن الزينة والزخرفة قط، وهو غير ذلك؛ إذ للإضافة وظيفة جمالية وتعبيرية ووجدانية ينبغي أن يلتفت إليها.

إن العبارة المتأسلبة هي نقطة البداية في عمل الدارس، وعليه أن يقوم بعزل السمات الأسلوبية عنها ليصل إلى العبارة غير المتأسلبة التي يفترض أنها نقطة البداية للمنشئ.²

ومن ثمّ يمكن القول إن الأسلوبية التعبيرية تسعى إلى دراسة الاستعمال اللغوي المشحون بالعواطف والانفعالات التي تتجسد من خلال الإضافة المتمثلة في التزيين والزخرف.

2. الأسلوب اختيار: مما اشتهر من تعريفات الأسلوب أن الأسلوب اختيار **choice**، فالمنشئ

يستطيع أن يختار من إمكانيات اللغة الشيء الكثير. وهو يختار منها ما يراه أقدر على خدمة رؤيته وموقفه، وما يمكن أن يكون قادرا على خلق استجابة ما في المتلقي.³

إن الاختيار في الأسلوب يمكن أن يؤدي بطرق متعددة، وذلك إذا كان المنشئ ذا ثروة لغوية ومعرفة واسعة بميئات النظم الذي تختص به اللغة التي ينشئ بها، وهكذا يصبح قادرا على

الاختيار من بين الاحتمالات المتعددة التي تمنحها إمكانيات اللغة، ويقدر على أداء المعنى الواحد أو الخبر الواحد بطرق مختلفة ومعقدة، الشيء الذي يعجز عنه الإنسان العادي، في حين يقدر

عليه الإنسان المبدع. إلا أنه ليس معنى ذلك أن كل الكلام قابل لإمكانية الاختيار والاستبدال بغيره كأسماء الأماك ن في مستهل معلقة امرئ القيس، وإن كان الاختيار ممكنا في غيرها من

الكلمات. وقد تكلم عبد القاهر الجرجاني عن هذا الأمر في إطار نظرية النظم، حيث قال:
"أفلا ترى لو أنك فرضت في قوله:

قفا نبك قفا من ذكرى حبيب ومنزل

أن لا يكون "نبك" جوابا للأمر، ولا يكون معدى ب"من" إلى "ذكرى"، ولا يكون "ذكرى" مضافة إلى "حبيب"، ولا يكون "منزل" معطوفا بالواو على "حبيب"، لخرج ما ترى فيه من التقديم والتأخير

1 - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص26، 25. وعبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص157.

2 - محمد بنيس، الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، 1979، ص 163.

3 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها تجلياتها، ص26.

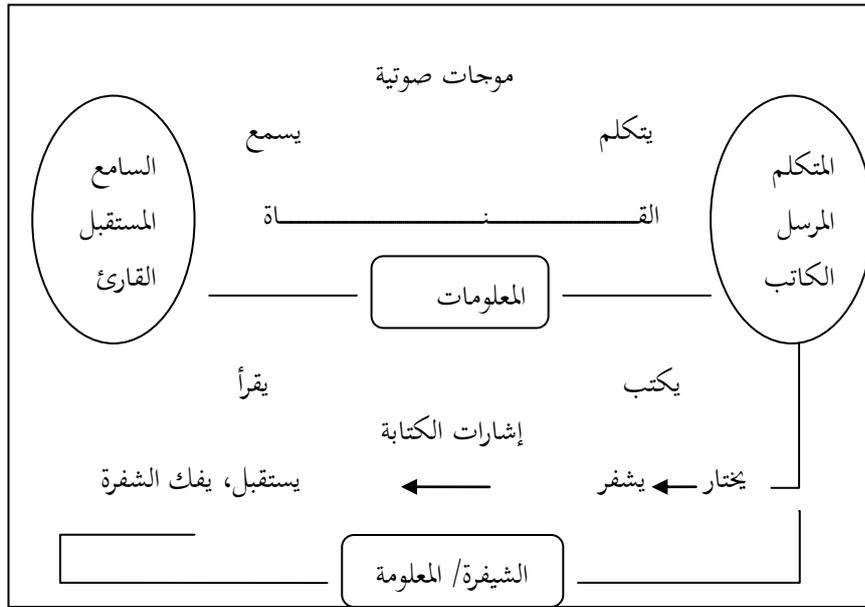
عن أن يكون نسقا؟ ذلك لأنه إنما يكون تقديم الشيء على الشيء نسقا وترتيبا، إذا كان ذلك التقديم قد كان لموجب أو يجب أن يقدم هذا ويؤخر ذال، فأما أن يكون مع عدم الموجب نسقا فمحال، لأنه لو كان يكون تقديم اللفظ على من غير أن يكون له موجب "نسقا"، لكان ينبغي أن يكون توالي الألفاظ في النطق على أي وجه كان "نسقا"، حتى إنك لو قلت: "ن بك قفا حبيب ذكرى من، لم تكن قد أعدمته النسق والنظم، وإنما أعدمته الوزن فقط."¹

إن الاختيار عملية واعية ومقصودة، كما أنه ليس عملية متصلة بالمفردات المعجمية فقط ولكنه متصل بالتركيب وتشكيل النسق والسياق، فالاختيار منه ما يكون من المعجم ومنه ما يتصل بالتركيب. والمتلقي موكول بأن يصل إلى ما يريد المنشئ من وراء اختياراته، إبلاغا وإثارة لدهشته. وبعبارة أخرى يكون على المتلقي إدراك الغاية الجمالية من الاختيارات التي يقوم بها المنشئ، فيتساءل لماذا اختار الشاعر هذه المفردة ولماذا اختار هذا التركيب؟ وقد وضع الدارس الأسلوبى برند شبلنر محاولة لتحديد الاختيارات التي تتم بها الأسلبة، فجعلها على هذا النحو:

1. اختيار الغرض من الكلام: على المتكلم أن يحدد الهدف الذي لأجله ينظم كلامه، والأغراض متعددة كالإبلاغ والدعوة، والإقناع، اكتساب معلومات، التأثير في سلوك المخاطب... وكما قد يأتي الهدف نفعيا، قد يأتي فنيا خالصا كالمهدف في النصوص الأدبية فهو ذو سمات جمالية.
2. اختيار موضوع الكلام: وهنا يكون المتكلم أمام اختيار الموضوع غير اللغوي أو أشياء معينة تكون موضوعا لحديثه، وبناء على اختيار الموضوع تتحدد الحقول اللغوية التي يستعملها، فإذا كان الموضوع الإخبار والوصف المتعلقين بفرس، فإنه في هذه الحال يمكنه أن يختار بين حصان وجواد وفرس، وفي حال وصفه يختار من حقول الدلالة المتصلة بالسرعة وعلامات الأصالة واللون والعمر... الخ
3. اختيار الرمز اللغوي: إذا كان المتكلم يعرف عدة لغات أو لهجات فإنه يختار منها واحدة. ويعتبر هذا الاختيار هاما جدا في النصوص الأدبية؛ لأن التعبير الأدبي في هذه الحال قد يحفل بإضافات من طراز خاص لأنها مستوردة من لغات أو لهجات أجنبية.
4. الاختيار النحوي: ويشمل الاختيار التراكيب النحوي، وهي تراكيب خاضعة من حيث صياغتها لقواعد اللغة ولا يمكن أن تكسرهما أو تخرج عنها، كما يشمل هذا الاختيار استعمال المنشئ للجمل الطلبية أو الخبرية مثلا.

5. الاختيار الأسلوبي: ويكون في قدرة المنشئ الاختيار الأسلوبي فيأخذ من بين الإمكانيات التي تنطوي عليها اللغة، ويستعمل واحدة من الاختيارات المتساوية أو المترادفة دلاليا.¹ وما من شك في أن الأسلوب إذا عرّف بأنه اختيار فإنه يستدعي مراعاة كونه ينشأ من إمكانيات متشابهة، وأن ما تم اختياره يقع في علاقة تقابل مع ما لم يقع عليه الاختيار. وأن ما تم اختياره وما لم يتم يعدّ من الترادف، وهو ترادف لا يتعلق بالمفردات فقط ولكن يتناول اختيار التعبير أيضا.

ولقد تعاملت الدراسات اللغوية الحديثة مع عملية الاختيار على أنها نظرية في الاتصال، حسب ما تقدم به بولر Buhler وموريس وياكوبسن. ويمكن توضيح عملية الاختيار في نظرية الاتصال بالرسم التالي:²



المخطط 1: عملية الاختيار في دائرة الاتصال.

يعبر هذا الرسم عن عملية الاتصال، فهي تقوم على عملية الاختيار من جانب المرسل، والاستقبال من جانب المستقبل. وهذا كما ينطبق على اللغة الشعرية ينطبق على اللغة العادية. غير أن العناية في اللغة

1 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها تجلياتها، ص30.

2 - الرسم مأخوذ من كتاب Willy Sander، ينظر المرجع السابق، ص 33.

الشعرية تتركز على شحن الخطاب بطاقة شعرية تحقّق له الوظيفة الشعرية، المتمثلة في إحداث عملية الانحراف التي تخرج باللغة عن المؤلف والعادي المستهلك.

يكون محور الاختيار مسرحاً للانتقاء بين الكلمات التي يمكن أن تقدمها اللغة، بينما يكون محور التركيب فضاء لبناء السياق الأفقي، ويعيد إلى ما قاله ياكوبسون من أن أي تعبير لغوي لا بد أن يتحقق من خلاله إسقاط محور الاختيار على محور التركيب.

ولا بد من الإشارة إلى أنه ليس للمنشئ الحرية الكاملة في اختياراته، لأن اختيار تعبير دون آخر تتحكم فيه دوافع الاختيار، وفاعليته وتأثيره، أو في السياق الذي يرد فيه. وهي محكمة بأصول وضوابط وبخاصة من جواب النحو، وكذا من جانب الحقائق المرتبطة بأسماء الناس والأماكن والزمان وغير ذلك.¹

المطلب 4- التوافق بين مفهوم "العدول" العربي ومفهوم "الانزياح" الغربي

يذهب جل النقاد الأسلوبيين إلى أن كشف ملامح الاختلاف بين الأسالي ب ينطلق من منطلق انحراف الكتاب عن النمط المؤلف، والظفوس المتداولة في الكتابة في سياق نصوصهم الإبداعية، ويتقدم معنى الأسلوب في الكتابة بمدى تقدم مستوى ذلك الانحراف. يقول الناقد الفرنسي جون كوهين - وهو أحد د النقاد الأسلوبيين - : "الأسلوب هو كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار المؤلف... إنه انزياح بالنسبة لمعيار، أي إنه خطأ مقصود ومحمود تنزع النفس إليه مادام يحمل جمالا فنيا"²

فالأسلوبيون يعتبرون الانزياح قدرة يمتلكها المبدع ويستخدمها في انتهاك ما هو متناول، واختراق ما هو مألوف. وقد يتصل هذا الانحراف أو الانتهاك بالجانب الصوتي للغة أو ببقية الجوانب الصرفية أو النحوية أو المعجمية أو الدلالية. وبتحقيق هذا الانحراف أو الانتهاك يتحقق انزياح النص بالنظر إلى معيار ما تمّ التواضع عليه من ذي قبل. واللغة الإبداعية هي اللغة التي تمّ تحويلها من مستوى اللغة النفعية الإبداعية إلى لغة فنية جمالية.

إن تحويل اللغة من المستوى النفعي إلى المستوى الفني ضرورة مفروضة من حيث أنه من غير المعقول حصر الكلام في جمل محددة جاهزة، نكرها كلما احتجنا إليها لموافقها أغراضنا. إن كل واحد منا

1 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها تجلياتها، 33، 34.

2 - جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء، دار توبقال، 1986، ص 15. (سلسلة المعرفة الأدبية).

يستعمل اللغة للتعبير عن فكرة خاصة في لحظة معينة. وهذا الواقع يستلزم حرية في الكلام، واستقلالية الحوض فيه في رحاب لغة أدبية فنية، غايتها تحقيق الجمال والتأثير.¹

إن جمالية الانزياح تكمن في ما تنتجه اللغة الإبداعية من عوالم رحبة تجدها لها كيانا على هامش اللغة المعجمية المنطلقة منها أساسا. وبهذه اللغة يتأتى للمتلقى الإقبال على الأعمال الفنية يتذوقها ويتدارسها ويحاورها وتحاوره بشغف كبير. ووجود هذه العلاقة بين النص والمتلقي دليل على بلوغ النص غايته: الجمال والتأثير.

المطلب 5- المعيار:

ينظر الدارسون الأسلوبيون إلى الانزياح (أو الانحراف) على أنه عملية خرق وانتهاك للاستخدام العادي للغة، وهو بذلك يفتح آفاقا رحبة للاستخدامات غير المألوفة، وهي الاستخدامات الفنية للغة.

وإذا كان تجاوز الاستعمالات المألوفة للغة هو مؤشر اللغة الأدبية، فإن ثمة إشكالا أساسيا يتمثل في تحديد طبيعة المعيار الذي يحدث عنه الانحراف؛ ذلك أن الانحراف يقتضي أن يكون هناك معيار مسبق تمّ تحديد الانحراف على أساسه. واختلف الباحثون في تسمية المنطلق الذي يحدث عنه الانحراف، فسموه: القاعدة، والمعيار، واللغة العادية، والأسلوب المستعمل، واللغة النثرية، وغير ذلك...²

ولم يكن تحديد المعيار أمرا سهلا؛ إذ وجدوا معايير تقوم خارج النص، وهي تتطلب أن يكون القارئ ملما بجميع هذه المعايير، لأنه من دون هذا الإمام لا يمكنه أن يتبين مظان الانحرافات ولا أن يحدد مدى درجاتها وحدتها.

ومن هذه المعايير الخارجية معيار يحدده الاستعمال الفعلي للغة، فيقضي بأن يكون نظام اللغة الموجود بالقوة هو المعيار الذي يُحدّد الانحراف على ضوئه. ويتطلب هذا المعيار معرفة عميقة بالنظام اللغوي، يمتلكها القارئ أو المتلقي، حتى يتسنى له اكتشاف الانحراف، وتحديد مداه وحدته.

وإن اتخذ النظام اللغوي معيارا للانحراف، ينشأ عنه القول بوجود لغة غير منحرفة ولغة منحرفة، وكلاهما لغة يستعملها المتكلم، ويبقى السؤال قائما: أي اللغتين المعيار، وأيهما تمثل اللغة الأسلوبية؟

وإذا ما التمسنا المعيار والانحراف فيما بين اللغة اليومية واللغة الشعرية وجدنا أنه لا يوجد مانع من استخدام الانحرافات في كل منهما، غير أن ثمة فرقا بينهما في الدرجة والحدة والقصد؛ فبينما تكون

1 - نفس المرجع، ص 101.

2 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها تجلياتها، دار الكندي، الأردن، الطبعة 1، 2003، ص 51-52.

الانحرافات في اللغة اليومية غير مرتبطة بقصد، تكون في اللغة الشعرية مقصودا بها التأثير الفني والإيحاءات الجمالية. وبهذا التمايز يمكن أن تكون اللغة الشعرية منحرفة عن معيارِ هو اللغة العادية أو اليومية.

وميز بعض الدارسين بين اللغة المعيارية واللغة الشعرية من منطلق فوارق تتحدد بها اللغة الشعرية أهمها الانحرافات عن اللغة المعيارية، وذلك كما فعل اللغوي الروسي موكاروفسكي في تفريقه بين اللغتين الشعرية والمعيارية.¹

ويتواصل اختلاف الرؤى في تحديد المعيار بأن رأى بعضهم أنه يكمن في التفریق بين اللغة الشعرية واللغة النثرية. وقد تجلت هذه الرؤية عند جون كوهن (Jean Cohen) في قوله: "وبما أن النثر هو المستوى اللغوي السائد، فإننا يمكن أن نتخذ منه المستوى العادي، ونجعل الشعر - مجاوزة - تقاس درجته إلى هذا المعيار".²

وهذا الرأي لا يكون موفقا إلا لو كان النثر الذي يقابل به الشعر نثرا عاديا، ولكن اللغة النثرية التي يقصدها هي اللغة الأدبية التي تظهر في لغة الأجناس الأدبية كالقصة والرواية، وهي لغة يمكن أن يظهر فيها الانحراف كما يظهر في لغة الشعر، متمثلا في الاستعارة والمجازة والكناية والتخييل. وبهذا يظهر أن الحد الفاصل بين لغة النثر ولغة الشعر غير مستقر، ولا يمكن الاعتماد عليه في تحديد المعيار بشكل مطمئن.³

ويبقى الإشكال قائما في تحديد المعيار، هل هو اللغة بصفتها نظاما وكيانا موجود بالقوة، أم هو اللغة اليومية العادية، أم هو اللغة النثرية، أم هو لغة البحث العلمي، أم هو لغة الصحافة؟

ومن الواضح أن تحديد المعيار قد شكل معضلة واجهت مصطلح الانحراف، ولم يتوصل الباحثون إلى الرأي الفاصل فيه.

إن معضلة تحديد المعيار حدثت بعالم اللغة ريفاتير ميكل Rifatterre M. إلى أن يعتمد على

السياق الداخلي للنص، وهو "السياق الأسلوبي"، ليكون المعيار السليم والأقل كلفة وتخبطا. وعرف "السياق الأسلوبي" بأنه: "نسق لغوي يقطعه عنصر غير متوقع"، أي أن السياق الأسلوبي يتكون من نموذج لغوي يكسره بغتة عنصر لا يُتنبأ به. ويرتبط مفهوم الأسلوب عنده بعنصر المفاجأة التي تصدم المستقبل، فكلما كان السياق متضمنا للمفاجأة كان يحدث خلخلة وهزة في إدراك القارئ ووعيه. وقد قدم ريفاتير مثالا هو قول كورني: "عتمة مضيئة تسقط نجوما" فجمع العتمة إلى الضوء، فكان التقابل بينهما منبها

1 - بان موكاروفسكي، اللغة المعيارية واللغة الشعرية، ترجمة ألت كمال الروبي، مجلة فصول (الأسلوبية)، مج 5، ع10، 1985، ص38.

2 - جون كوهن، بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1990، ص23.

3 - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها، ص53.

أسلوبيا لا بد له من أن يحدث استجابة لدى القارئ. وهكذا فكل واقعة أسلوبية تنشأ من سياق ومن تعارض، ومن هنا كان على المستقبل أن يعطي التعارض عناية وقيمة.¹

المطلب 6- المعيار المعمول به في البحث:

بعد هذا العرض لمجموعة من آراء الأسلوبيين الغربيين المختلفة في رؤية حقيقة المعيار، ورؤية النقاد والبلاغيين العرب في نفس الأمر، وبعد تمييز هذه الرؤى يمكن تسجيل النتائج التالية:

1. إن المعيار الذي يُخضِرُ السياق النظري للغة بإزاء السياق التطبيقي لها، هو المعيار الخارجي الذي يعدّ اللغة-بالمفهوم السوسيري- قواعد أصولية، لا يميل عنها المتكلم إلا لأغراض يعيها، ونكت بلاغية هامة يود تحقيقها، وقدر من الجمال الأسلوبي يريد إضفاءه على كلامه، وشيء من التأثير يمارسه على المتلقي. وبعبارة أخرى إنما ينتهك قوانين اللغة إلا لأجل أن يفجر طاقات اللغة، لتعبر عما لا تعبر عنه الطرق الاعتيادية. وإن ما اشترطه علماء البلاغة والأصول والتفسير من معرفة عميقة وشاملة بلغة العرب ونحوها وصرفها كخطوة أولى لولوج الدراسات القرآنية للدليل على ما في معرفة المعايير-المتماثلة في معرفة الأصول والفروع في علم العربية- من ضرورة لا محيص عنها لمعرفة الكلام الصحيح الفصيح، الذي تغذيه العبقرية والموهبة فيصير فنا وأدبا، أو ينطق به المولى تبارك وتعالى فيصير قرآنا معجزا.

2. إذا كان النظام اللغوي معيارا للانحراف، وإذا كان ينجر عن ذلك وجود لغة منحرفة يستعملها المتكلم في حياته العادية، وأخرى غير منحرفة يستعملها العلماء ورجال الصحافة فإن اللغة التي يستعملها الكتاب والشعراء لغة منحرفة بشكل مختلف عن انحراف اللغة العادية. ويتم التقابل بين هذه اللغة الشعرية المزاحة، والنظام اللغوي المعيار نفسه. وفي تراث العربية تأتي لغة النثر العادي أو العلمي غير المنزاحة في مقابل اللغة الشعرية ممثلة في النثر الأدبي والشعر. ويتموقع الأسلوب القرآني بروعة بيانه وما بما تضمنه من إبداعات أسلوبية متعددة في الجهة المقابلة لنظام اللغة.

3. وأما اعتبار اللغة اليومية لغة منزاحة واتخاذها معيارا للغة الشعرية، لمجرد أن الأولى تجري على غير قصد إلى التأثير الفني- وأن الثانية يقصد بها - لما فيها من انزياحات - التأثير الفني وتحريك الحس الجمالي لدى المتلقي، فإن هذا الاعتبار قد يليق بفن الأدب، ولا ينطبق على

1 - ريفاتير ميكل، معايير التحليل الأسلوبي، ضمن كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، شكري محمد عياد، دار العلوم، الرياض، 1985، ص148، وما بعدها.

أسلوب القرآن؛ لأن الأسلوب القرآني مخالف لأعراف الأدب العربي الفصيح. ومعدول عن نظام اللغة في كثير من مواقعه الأسلوبية، وبديع في كثير من حالات موافقته لنظامها. إن لغة القرآن مرت بسلسلة من التطور والرقى حتى انتهت إلى الصورة التي أنزل بها الكتاب الله، وهي لغة قريش التي أخذت من اللهجات العربية أحسن ما فيها. وأخذت اللهجات الأخرى تتقرب من لغة قريش في محافلها ومواسمها، وتركت خصوصياتها اللهجية في نطاق محلي تتعامل به قبائلها.

ومن بعد نزول القرآن الكريم بلغة قريش وهي اللغة الفصحى أو لغة البيان، استقرت واستمرت على مستوى الاستعمال الرسمي والأدبي، محكمة بقوانين وضعتها علماء اللغة والنحو والصرف، ودعم علومها علماء البلاغة والأصول. إن لغة القرآن إذاً ليست معدولة عن اللغة العامية بأي حال من الأحوال، وإن كان ذلك يصح في حق لغة الإبداع الأدبي، إذا ما قصد بالأدب الأدب الشعبي. إن لغة القرآن الكريم هي في مجملها منزاحة عما جرت عليه لغة العرب الأولى. وهي لغة قريش - باعتبار أنها كلام الله الذي حير جهابذة الفصاحة والبيان، الذين أقروا له بذلك طوعاً أو كرهاً، وما كانوا على عهد بقوة بيانها وسحرها وحكمتها. وقد استقرت قوانين اللغة العربية الفصحى انطلاقاً من أفصح لهجات العرب الست ومن كتاب الله والحديث النبوي. وهي قوانين تمثل اللغة المعيارية ممثلة في صورتها التجريدية، ومسجلة للقواعد الأصلية والفرعية. علماً أنّ القواعد الفرعية المعبرة عن العدول المطرد، أهلها اطرادها لأن يقاس عليه ا. ومن ثمّ فإنّ المطرد سواء أكان مستصحباً للأصل أو معدولاً به عنه، فإنّ القواعد المتضمنة له تعتبر جميعاً قواعد قياسية. وبعبارة أخرى أصولية. وهو ما رآه الدكتور تمام حسان¹.

ومنذ استقرت أصول العربية ونزل بها كتاب الله حافظت على بناها الإفرادية والتركيبية على صعيد اللغة العلمية أو العادية، وكذا الأدبية. كما خضعت العربية لسنن التطور ولكن من غير مساس بتلك البنى، ولبست حلل العصور التي مرت بها واتسمت بما تميزت به المجتمعات العربية في تلك العصور والبلاد. ولم تنحرف عن أصولها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. وإذا كانت خصلة المحافظة هذه ظاهرة في الأدب العربي، فإنها أظهر في القرآن الكريم الذي كتب لهذه اللغة السمو والخلود.

1 . ينظر: تمام حسان، الأصول، ص 134. 135.

وإذا كانت ظاهرة العدول موجودة في تراكيب القرآن الكريم فإن المعدول عنه هو أصل الوضع في تلك التركيب، ومنها التركيب الشرطي. فالقوانين اللغة التي قررها علماء النحو واللغة، ثم استصحبها علماء البلاغة، واعتبروا ما مال عن المقررات عدولا يقصده المتكلم الفطن الفصيح الخبير بحال المخاطب، ولا بد أن يكون ذلك العدول مشتملا على زيادة أو نكتة في المعنى تناسب الموقف وتتلاءم مع السياق، وتكون أكثر إثارة للمتلقي وأقوى في توجيه انفعالاته وسلوكاته.

4. وإذا تفحصنا رؤية جون كوهن للمعيار وجدناه يراه في اللغة الأدبية النثرية في مقابل اللغة الشعرية، وهي التي تسلك مسلك الانحراف عن لغة النثر الأدبية. وهذه الرؤية لا يمكنها أن تفضي بنا إلى تحديد معيار يليق بلغة القرآن الكريم؛ لأنه ما بقول خطيب ولا بقول شاعر، ولا بقول إنس ولا جن.

5. وأما رؤية ميشال ريفاتير التي تُموِّع المعيار انطلاقا من داخل النص تحت اسم "السياق الأسلوبي"، والذي يعني النسق اللغوي الذي يقطعه عنصر غير متوقع، فهي رؤية تعول كثيرا على المتلقي كسائر الرؤى، وتطالبه بحضور الذهن ورهافة الحس أثناء تلقي الكلام ليحدث فيه مفاجأة وهزة، تشغله وتفرض عليه اكتشاف الغرض منها. والقول برؤية ريفاتير يسلمنا إلى القول بالتناقض الذي يفرضه السياق الأسلوبي؛ لأن النسق اللغوي الذي يكون سائدا قد يجري على أصول اللغوية ثم يقطعه عنصر المفاجأة المتمثل في مخالفة النسق المتقدم، وربما كان النسق السائد جاريا على ما يخالف أصول اللغة ثم يعترضه نسق مخالف، وهو جار على أصول اللغة، فيحكم المتلقي على الأصول بأنها انحراف وخروج. إن المدار في الحكم على الكلام بأنه أسلوبي- في نظر ريفاتير- هو وجود عنصر المفاجأة فيه، وأما النسق اللغوي الذي يعد ممهدا للتالي المخالف له فيستويان.

6. وإن قضية الأصل والخروج عنه في اللغة الإبداعية قضية بحثها علماء التراث العربي بين لغويين ونقاد وفلاسفة. وتنم هذه العناية بالقضية عن إدراك عميق بها، وعن قدرة تحليلية فائقة لديهم، مكنتهم من لمس زوايا القضية من مثل ضرورة أن يكون لكل عدول أصل يقاس عليه ويقارن به للكشف عن درجة الصفر للمعنى، ولتُعَلِّمَ القيمة الأسلوبية المضافة إليه، والجوانب الجمالية والتأثيرية له، ومن هذه الزوايا أن الواقعة الأسلوبية إذا تكرر استقرت على أنها حقيقة عرفية، وخفت وهجها الأسلوبي.

وأعول على هذه الطريقة المستمدة من منهج النقاد العرب وعلماء البلاغة والمفسرين الذين يبنون أحكامهم من منطلق استحضار الأبنية الأصلية ويقيسون عليها الأبنية التي تتميز بالعدول من أجل رصد الدلالات التي تنم عنها مخالفة الأصول، والميل عن البنية المعيارية.

وأدعم منهجيتي هذه بما ارتآه بعض الدارسين الأسلوبيين من العرب المحدثين؛ فقد رأوا أن اللغة الشعرية لا بد أن تقارن بنموذج نظري للاتصال مثل التمييز بين اللغة العلمية واللغة الغنائية، وقالوا: "إن القول الشعري يتميز عن العلمي بامتزاج الدلالة فيه بالرمز، وباستحالة ترجمته أو تلخيصه، أو تقديم معادل له مهما كان."¹

وقد قارب شكري عياد هذه القضية بأن اللغة المعيارية في كل دراسة أسلوبية قد لا تكون لغة الحديث، ولكن صورة ذهنية مجردة، تكون خالية من آثار اللهجات والأعراف اللغوية المختلفة، ويمكن لمسها في اللغة " التي يتكلمها شخصان متعلمان من قطرين عربيين متباعدين إذا التقيا أول مرة."

1- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة (164)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 64.

الفصل الثاني:
الشرط، أدواته،
أحكامه، وقضاياه
الدلالية

تمهيد

أبسط في هذا الفصل مفهوم الشرط في مختلف الاستعمالات ليخلص إلى الشرط بمفهوم نحوي، يبنى عليه تركيب خاص يعرف بالتركيب الشرطي، وهو التركيب الذي أُجري عليه دراسة أسلوبية في المدونة القرآنية. وفي هذا الفصل أعرف بالأجزاء التكوينية لهذا التركيب ويعرض جملة من الأحكام النحوية المتصلة به، والتي لها علاقة مباشرة بالدراسة الأسلوبية. كما يعرض لأدوات شرط عديدة لم يكن لها استعمال في النص القرآني، وإن كان لها استخداماتها في الكلام المنظوم والمأثور في الفصحى من الكلام، طلبا لاستكمال صورة التركيب الشرطي.

المبحث 1- مفهوم الشرط:

المطلب 1- المفهوم المعجمي للشرط:

إذا تصفحنا المعاجم العربية من العين إلى معاجم المتأخرين وجدنا كلمة الشرط تحمل مدلولاً فقهيًا لا لغويًا ولا نحويًا، جاء في لسان العرب في مادة شرط: « الشرط معروف، وكذلك الشريطة، والجمع شروط وشرائط. والشرط إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه، والجمع شروط. والشرط بالتحريك العلامة، والجمع أشراط. وأشراط الساعة أعلامها، ومنه التنزيل العزيز: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ محمد: 18.¹

فالشرط في البيع هو إلزام أحد المتعاقدين الطرف الآخر بمصلحة له، يلتزم بها الطرف الآخر، كأن يقول أشتري منك هذه السلعة شرط أن تحملها إلى بيتي. أو اشتري منك هذا الثوب شرط أن تحيطه لي.

وفي المعجم الوسيط جاء الشرط بمعنى "... ما يوضع ليلتزم به في بيع ونحوه، وفي الفقه ما لا يتم الشيء إلا به، ولا يكون داخلا في حقيقته. وعند النحاة ترتيب أمر على أمر بأداة من أدوات الشرط وهي الألفاظ التي تستعمل في هذا الترتيب مثل إن ومهما - وجمعه شروط.²

1- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994: 329/7. وأما الجزء في لسان العرب كذلك فهو بمعنى " المكافأة على الشيء. جزاء به وعليه جزاء، وجزاءه مجازاة وجزاء، وجوازي جمع جزاء". ينظر لسان العرب في مادة "جزى": 14 / 143.

وينظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط (مادة شرط)، دار الجليل، بيروت، د. ط، د. ت: 2 / 380.

2- إبراهيم مصطفى وآخرون، معجم الوسيط (مادة " شرط")، دار الدعوة، مصر: 1 / 479.

و يلاحظ أن هذا التعريف حاول أن يحيط بكلمة الشرط من جميع مدلولاتها؛ فاعتبر إلزام الشيء والالتزام به في بيع ونحوه شرطا لغويا، وأضف الشرط الفقهي وهو ما لا يتم الشيء إلا به، ولا يكون هو داخلا فيه كالوضوء للصلاة، والثالث هو الشرط النحوي وعرفه بمعنى ترتيب شيء على شيء باستعمال أداة الشرط. وهذا التعريف أشتمل لأنه اشتمل على المفهوم اللغوي والفقهي والنحوي للشرط.

المطلب 2- الشرط لدى النحاة:

وأما كتب النحو فتكاد تعدم تعريفاً للشرط كمصطلح نحوي؛ ذلك أن النحاة درسوا الشرط من جهة أنه أدوات تعمل الجزم في المضارع، وأن لها تأثيراً على الفعل في بنيته وإعرابه، ولكن المبرد أشار في المقتضب إلى أن معنى الشرط هو: "وقوع الشيء لوقوع غيره." ¹

وهذا التعريف لا يرقى للمعنى الاصطلاحي، فهو من جهة يحمل معنى السبب، فكأن الشرط لا يكون إلا سبباً - ولعل هذا هو الأصل فيه، ومن جهة أخرى لا يصف الجملة الشرطية بأركانها ومعناها.

وعرفه كل من ابن مالك وأبي حيان الأندلسي بما مجمله أن الشرط هو: "تعليق جملة بجملة بأداة خاصة، تجعل علاقة الأولى بالثانية علاقة سببية، والتعليق بينهما يتم في الماضي أو المستقبل، أو المستقبل خاصة" ²، وهو تعريف أقل ما فيه أنه يحمل صبغة نحوية دلالية، لا فقهية.

المطلب 3- الشرط في مباحث أصول الفقه:

وأما الشرط في مباحث أصول الفقه فقد ظهر بوصفه مُخَصَّصاً لغويا متصلاً ³، ولم يفرد علماء الأصول ببحث لغوي خالص؛ لأن الشرط عندهم لا يكون لغويا فقط، بل هو عقلي وشرعي ولغوي أيضا. ¹

1- المبرد، المقتضب: 1/46.

2- ينظر كل من ابن مالك، شرح التسهيل: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد عبد القادر عطا وطارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2001، 3/386. وأبي حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 4/1862.

3- المخصّصات المتصلة لها أقسام هي: الشرط والصفة والغاية. فالشرط كما لو قال: وهبتك مائة دينار إن نجت. والصفة كما لو قال: أبرأتك من ثمن الإبل التي هلكت عندك. والغاية كما لو قال للوصي: أعطه كل يوم درهماً إلى شهر. واتصالها هو عدم الفصل بين الشرط والجزاء، وبين الموصوف والصفة، وبين لفظ الغاية والكلام السابق له.

وأما التخصيص المنفصل فهو التخصيص غير المنطوق بلفظه، أو المنطوق به غير أنه منفصل عن الصيغة الحاملة للمعنى العموم. ويعلم بدليل العقل من نحو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ آل عمران: 97. إن العقل بنظره يحكم بإخراج الصبي

أما القسم الأول وهو الشرط العقلي: فيكون العقل قد حكم بشرطيته، كالحياة للعالم؛ فإن شرطية الحياة للعلم تُعرف بالعقل وحده، وهو الذي عرفنا أنه لا يوجد علم بدون الحياة.

وأما القسم الثاني فهو الشرط الشرعي: وهو ما يكون الشرع هو الذي حكم بشرطيته من نحو شرط الطهارة للصلاة، فإن الشرع هو الذي حكم بشرطية الطهارة للصلاة، وأن الصلاة لا توجد بدونها.

وأخيرا القسم الثالث وهو الشرط اللغوي: وهو ما حكم أهل اللغة بشرطيته، كقولهم: إن دخلت الدار فأنت طالق، فجعلوا "إن دخلت الدار" من هذا القول المركب، يدل على أن ما دخلت علي هـ "إن" هو الشرط، والآخر هو الجزاء. وهذا القسم الرابع هو المستعمل في التخصيص لأنه يُخرج ما لولاه لدخل لغة.²

وإن كثرة أقسام الشرط عند الأصوليين انعكست على تعريف الشرط عندهم، على الرغم من أنهم قصدوا به التعريف اللغوي، وما هو الغزالي يقول في تعريفه له: هو "عبارة عما لا يوجد المشروط مع عدمه، لكن لا يلزم أن يوجد عند وجوده، وبه يفارق العلة، إذ العلة يلزم من وجودها وجود المعلول، والشرط يلزم من عدمه عدم المشروط، ولا يلزم من وجوده وجوده".³ فهو لا يختلف عن التعريف الشرعي للشرط، ومثاله الطهارة للصلاة، فلا تثبت صحة الصلاة مع عدم الطهارة، ولكن لا يلزم وجود صحة الصلاة مع وجود الطهارة؛ لأن أشياء أخرى قد تلغي صحة الصلاة كالكلام والأكل.

والشرط في المعجم الوسيط الممثل لفريق من المتخصصين في اللغة العربية في العصر الحديث، هو: ما يوضع ليلتزم في بيع أو نحوه، وفي الفقه: ما لا يتم الشيء إلا به ولا يكون داخلا في حقيقته، وعند النحاة:

والجنون من عموم الناس؛ لأخما غير مكلفين. وكما أن دليل العقل يكون مخصصا للعموم فكذلك دليل الحس، نحو قوله تعالى: ﴿ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ الذاريات:42. وقد أتت هذه الريح على الأرض والجبال، ولم تجعلهما رميما بدلالة الحس. ومنه تخصيص الكتاب بالكتاب؛ فقوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ الطلاق:4، مخصص لقوله تعالى: ﴿ وَالذَّيْنِ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَتَّبْنَ يَا نُفُوسَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ البقرة:24. وهناك مخصصات منفصلة أخرى ذكرها الأصوليون في مباحث التخصيص. يراجع على سبيل الذكر كتاب: الإحكام في أصول الأحكام للأمامي: 2 / 384-389.

1 - ينظر مثلا: الباقلاني (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المالكي) المتوفى سنة 403هـ، التقريب والإرشاد، تحقيق عبد الحميد بن علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 3/ 157. والغزالي (أبو حامد محمد بن محمد) المتوفى في سنة 505هـ، المستصفي من علم أصول الفقه، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 3/ 395. والإبجاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي، علي عبد الكافي السبكي، تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1981، 1 / 379.

2 - محمد محمود عوض الله، أثر الدلالة النحوية في مباحث التخصيص المتصل عند الأصوليين (رسالة ماجستير)، 2005، ص 77.

3 - الغزالي، المستصفي، 3 / 395.

ترتيب أمر على أمر آخر بأداة . وأدوات الشرط الألفاظ التي تستعمل في هذا الترتيب مثل إن ومن ومهما، وجمعه شروط...¹

وهو تعريف يحمل شقين ظاهرين هما المفهوم الفقهي، والمفهوم النحوي للشرط ملفتا إلى الأدوات التي يتم بها التعليق الشرطي.

وقد فصل عباس حسن مفهوم الشرط من خلال تعليل تسمية فعل الشرط بهذا الاسم قائلا: "سمي فعل شرط، لأن المتكلم يعتبر مدلوله ووقوع معناه شرطا لتحقيق الجواب ووقوع معناه، ولا يمكن - عنده- أن يتحقق معنى الجواب ويحصل إلا بعد تحقق معنى الشرط وحصوله؛ إذ لا يتحقق المشروط إلا بعد تحقق شرطه، سواء أكان الشرط سببا في وجود الجواب والجزاء، نحو: إن تطلع الشمس يختف الليل، أم غير سبب، نحو: إن كان النهار موجودا كانت الشمس طالعة. فوجود النهار ليس سببا في طلوع الشمس، وإنما هو ملزوم، والجواب لازم له؛ ولهذا يقولون : إن الشرط ملزوم دائما والجزاء لازم، سواء أكان الشرط سببا أم غير سبب."²

وملخصه أن الشرط اللغوي هو أن يعتبر المتكلم تحقق مضمون جملة أساسا في تحقق مضمون جملة أخرى، من غير مراعاة طبيعة مضمون الجملة الأولى فيما إذا كان سببا أو لا. والمهم في ذلك أن يعتبر الأولى ملزومة والأخرى لازمة.

المطلب 4- أحكام في أدوات الشرط وبيئتها:

الجملة الشرطية هي أسلوب لغوي متميز، يبني على جملتين لا تستقل إحدهما عن الأخرى، نظرا لارتباط الشرطي الذي يجمع بينهما في وحدة لغوية مفيدة. والأداة التي تحقق هذا الارتباط هي أداة الشرط المتصدرة للجملة الشرطية، لتجعل تحقق الجواب أو انتفائه معلقا بتحقيق الشرط أو انتفائه، وذلك في غير الشرط الامتناعي. إلا أن الشرط قد يلاحظ في الجملة وتختفي أدواته، ومن ثم فإن الشرط نوعان. النوع الأول:

شرط بواسطة الأداة الجازمة،

1 - جماعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص 479.

2 - عباس حسن، النحو الوافي، 4 / 422.

شرط بواسطة الأداة غير الجازمة، وهو الغالب والأكثر استعمالاً لأنه يغطي جميع حاجات المتكلم عند التعبير بأسلوب الشرط.

والنوع الثاني: الشرط الخالي من الأداة، وهو أقل استعمالاً وأضيق مجالاً من النوع الأول لأنه مرتبط بزمن الحال وبقريئة إعرابية، أو يأتي تركيباً مؤولاً بالشرط والجزاء.

المبحث2- أدوات الشرط في المباحث اللغوية:

في هذا النوع من التركيب تقوم أداة الشرط بالربط بين جملي الشرط والجزاء ربطاً يمتنع معه استقلال أي الجملتين بمعناها عن الأخرى. ويرتبط معنى الجملة الشرطية بمعنى الأداة؛ فمعاني الأسلوب الشرطي القائم على الأداة تتحدد بمعاني هذه الأدوات.

جاء في أغلب المباحث النحوية أن أدوات الشرط الأساسية هي: "إن، مَنْ، ما، مهما، أي، متى، أيان، أين، إذْماً، حيثما وأئى". ويطلق عليها الأدوات الشرطية الجازمة.¹

وقد جعل سيبويه هذه الأدوات ثلاثة أقسام:

أسماء وهي: من، ما، أيهم.

وظروف وهي: أي حين، متى، وأين، وحيثما.

وحرفين وهما: إن وإذْماً.² وتبعه في ذلك المبرد في المقتضب.³

وقسمها ابن مالك إلى قسمين:

أ - حرفان وهما إن، وإذْماً.

1- ينظر: ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، ص: 693. وابن هشام، قطر الندى وبل الصدى، مطبعة السعادة، مصر، ط، 1963، ص 85. وفخر الدين قباوة، إعراب الجمل وأشبه الجمل، دار القلم العربي، حلب سورية، ط 5، 1989، ص: 102. وعباس حسن، النحو الوائى: 4/424.

وأما (إذا، وكيف، ولو) فأدوات شرطية غير جازمة على الأصح. وثمة أدوات الشرط الامتناعي (لولا - لوما - لو في بعض أحوالها) وهي غير جازمة أيضاً، ولكنها تقتصر على ربط أمر بآخر، وتعليق الثاني منهما على الأول تعليقا خاصا. ينظر المرجع نفسه: 4/421.

2- سيبويه، الكتاب: 3 / 56.

3- انظر: المبرد، المقتضب: 2/ 46.

ب- وباقي الأدوات أسماء، وهي: من، ما، مهما، أيّ، متى، أيان، أين، حيثما، أنّ.

أما الأشموني (أحد شراح الألفية) فيقسم أدوات الشرط إلى ثلاثة أقسام: الحرف (حرفان) والظرف (المكاني والزمني) وغير الظرف (أي أسماء: وهي من وما، ومهما على الأصح) ¹ بينما يذهب السيوطي إلى أن كل أدوات الشرط أسماء إلا "إن" فهي حرف باتفاق. ² ولا يكاد يكون بينهم خلاف في تقسيم هذه الأدوات إلا ما كان من أمر "إذما" فبعضهم ردها إلى الظرفية، وإن كانت الأغلبية تعدّها حرف شرط.

وإذا انتقلنا إلى المباحث اللغوية الحديثة وجدنا أن عباس حسن يعدّ الأدوات الشرطية الجازمة كلها أسماء ما عدا إن وإذما فهما حرفان. ³

وأما مهدي المخزومي فلم يهتم بحرفية أو اسمية هذه الأدوات، واكتفى بتقسيمها إلى طائفتين:

(1) أدوات دالة على الشرط أصالة: إن - وإذا - ولو.

(2) الكنايات، وهي كثيرة منها: ما- من - أي- أين- متى- أيان- كيف... ⁴

"وهذه الأدوات وبغض النظر عن أصلاتها أو تحولها، فإنها لا تدل على معان معجمية وإنما تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق الشرطي" ⁵، فتتنفق جميعا في تعليق وقوع الجواب على وقوع الشرط (وذلك في غير الشرط الامتناعي)، ولكن تختلف من ناحية المعنى؛ فمنها ما وضع في أصله للزمان المجرد، وأخرى للمكان، ومنها ما يختص إمّا بالأمر المتيقن أو المحقق أو الراجح، وإما بالمشكوك أو المستحيل، ومنها المضاف الذي يصلح للأمر السالفة... ⁶

المطلب 1- أدوات الشرط الجازمة:

1. الأداة "إن":

- 1 - انظر: الصبان، حاشية محمد علي الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط 1، 1947: 4/ 10.
- 2- ينظر: السيوطي، همع الهوامع: 4/ 321.
- 3- ينظر: عباس حسن، النحو الوافي: 4/ 421.
- 4- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص 290.
- 5 - تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص: 125.
- 6- ينظر: عباس حسن، النحو الوافي: 4/ 428، 431.

يَعُدُّ النحاة " إِنْ " أم حروف الشرط من حيث أنها لا تفارق معنى الشرط، وأنها تصلح لكل ضروبه وتقع موصولاً لكل ما يوصل بها من زمان أو مكان أو عاقل أو غير عاقل، وغير ذلك. جاء في كتاب سيويه قوله: " زعم الخليل أن " إِنْ " هي أم حروف الجزاء. فسألته: لم قلت ذلك؟ فقال: من قبل أني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكراً استفهاماً، ومنها ما يفارقه " ما " فلا يكون فيه الجزاء. وهذه حال واحدة أبداً لا تفارق المجازة.¹

وتستعمل ظاهرة، ومضمرة مقدرة، فأما استعمالها ظاهرة فنحو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: من الآية 7. وأما عملها مقدرة فبعد خمسة أحوال: الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتمني.²

واهتمت المباحث البلاغية بالجوانب الدلالية التي تتحدد من المعطيات السياقية التي استعملت فيها " إِنْ "، فجاء في هذه المباحث:

أن الأصل في " إِنْ " أن تستعمل عند عدم الجزم بوقوع الشرط في المستقبل، ولذلك لا تقع في كلام الله إلا حكاية، كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يوسف: 33.

ولأن الأصل في " إِنْ " عدم الجزم بالوقوع في المستقبل، كان الحكم النادر الذي لا يقطع بوجوده غالباً موقعا لكلمة " إِنْ ".

كما تستعمل " إِنْ " في حالة الجزم بوقوع الشرط خلاف الأصل وذلك لأغراض بلاغية. ومن هذه الأمثلة السهيج في الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: 57، وكما يقول الوالد لابنه: " إن كنت ابني فافعل كذا". ومثل تعليم الناس التأدب والحيطة عندما يخبرون عن أعمالهم المستقبلية مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ الفتح: 27. وكالتبرك مثلما في الحديث: " وإنا - إن شاء الله بكم - لآحقون " أي سنلحق بكم، فيصيبنا الخير والبركة من جواركم.³

1 - سيويه: الكتاب: 63/3. وينظر: المبرد، المقتضب: 50/2. وابن يعيش: شرح المفصل: 41/2. والسيوطي: همع الهوامع: 449/2.
2 - ينظر: سيويه، الكتاب: 93/3. و: الرضي الأستربادي، شرح الكافية: 121/4. وعباس حسن، النحو الوافي، 4 / 435.
3 - ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط 1980، 5: 178/1. والسيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 138.

وبدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، دار ابن جزم، بيروت، لبنان، 1997: 51/4.

وأضافت مباحث البلاغة نكتا بلاغية كثيرة منها "التجاهل" وذلك حين يكون المتكلم جازما بالشرط غير أنه يخفيه حتى لا يؤاخذ بكلامه كقول الخادم لمن سأله عن سيده: "إن كان هناك أخيرك به" ومثل تصوير الشرط في صورة ما لا ينبغي أن يقع إلا على سبيل الفرض والتقدير. كقوله عز وجل: "أَفَنصْرِبُ عَنْكُمُ الدُّكْرُ صَفْحًا إِنَّ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ" الزخرف:5، فالشرط- وهو إسرافهم في أمرهم - مقطوع به وأريد تقديمه في صورة ما ينبغي ألا يقع إلا على سبيل الفرض والتقدير. ومثل: تنزيل المخاطب العالم، منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى علمه، كقولك للمتكبر توبیخا له: "إن كنت من تراب فلا تفتخر."¹

2. الأداة: "مَنْ".

"مَنْ" اسم وضع في أصله للدلالة على شيء يعقل غالبا²، فإذا ضمن إلى ذلك معنى الشرط صار- باتفاق - أداة شرطية للعاقل جازمة³. يربط الجواب بالشرط⁴، نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ النساء:123.

وتأتي "مَنْ" التي لم تتضمن معنى الشرط على أوجه أخرى، فتأتي استفهامية، وموصولة، ونكرة موصوفة، وزائدة.⁵

- 1 - ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، 1/ 180-181. ويدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، 51-52. و ينظر:- السيد الهاشمي - جواهر البلاغة، في المعاني والبيان والبدیع- ص139. وينظر: السيد الهاشمي، جواهر البلاغة، في المعاني والبيان والبدیع- ص139.
- 2- قد تستعمل "مَنْ" لغير العاقل مجازا، وذلك عند تغليب العاقل على غيره إذا اختلط به نحو قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" (الحج: من الآية18) انظر:عباس حسن - النحو الوافي، 4 / 428.
- 3- أدوات الشرط الجازمة هي أدوات الشرط التي تكون في الأمور غير المقطوع بتحققها. ينظرعباس حسن - النحو الوافي ج-4/ هامش 440.
- 4- ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 2/ 18.
- 5- استفهامية نحو قوله تعالى: "مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدَانَا؟" (يس: من الآية52) وموصولة مثل قوله عز وجل: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ؟" (الحج: من الآية18) ونكرة موصوفة، ولهذا دخلت عليها "رب" كقول الشاعر:

رب من أنضجت غيظا قلبه	قد تمنى لي موتا لم يطع .
-----------------------	--------------------------

و زائدة مثل قول حسان بن ثابت:

فكفنا بنا فضلا على من غيرنا	حبُّ النبي محمدٍ إيانا
-----------------------------	------------------------

ونحو: مررت بمن معجبٍ لك.

المصدر نفسه ص 18-19. وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبى، المعجم الوافي في النحو العربي، 318-321. وعباس حسن، النحو الوافي، 4 / 428.

ولكون التركيب الشرطي يخلص إلى الاستقبال، فإن "مَنْ" في سياقه تدل على الزمن المستقبل، وهذا ما يفهم من قول المبرد: "وجهُ الكلام: من يأتي آتِه. وتقول: من أتاني وتبسّط إليّ أكرمه؛ لأن (من أتاني) في موضع (من يأتي) لا تقع بعد الجزء إلا ومعناها الاستقبال."¹

وإذا كان لأدوات الشرط دلالاتها، فإن هذه الدلالات تكون قيوداً للشرط والجواب معاً، وعليه فإذا أراد المتكلم أن يقيد الشرط والجواب بذات مبهمه عاملة عاقلة فإنه يستخدم الأداة "مَنْ"، مثل: من يقصّر يعرّض نفسه للخطر.

3. الأدوات " ما " و " مهما " :

تأتي "ما" على وجهين حرفية واسمية. أما الاسمية فمعناها الشرطية ومنها غير ذلك،² وقد وضعت "ما" في أصلها للدلالة على ما لا يعقل، فإذا تضمنت إلى ذلك معنى الشرطية صارت أداة شرط لغير العاقل جازمة.³ وهي نوعان: زمانية وغير زمانية. أما الأولى فنحو قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا هُمُ﴾⁴ التوبة: 7. أي فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم⁴. وأما الثانية فمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾⁵ البقرة: 197.، وقوله أيضاً: ﴿مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهُ﴾⁵ البقرة: 106.

وأما " مهما "، فقد اختلفوا في صورتها اللفظية؛ فقالوا هي بسيطة على وزن "فعلى".

كما يذكر سيبويه أن الخليل قال عنها: هي "ما" ألحقت بها "ما" التي تلحق بسائر كلمات الشرط نحو متى ما وإمّا، ثم استكره تتابع المثليين فأبدلت الألف من الأولى هاء لتجانسهما في الهمس، وقول سيبويه أقرب إلى الصواب قياساً على أخواتها.

وذهب الزجاج إلى أنها مركبة من مه التي هي اسم فعل للزجر والنهي ومعناه أكفف، و " ما " المتضمنة معنى الشرط، وجعلها كلمة واحدة للشرط والجزاء. ويدل على هذا أنها أكثر ما تستعمل في مقام

1- المبرد، المقتضب، 2 / 60.

2 - مثل "ما" الموصولة، وهي معرفة ناقصة لاحتياجها إلى الصلة. ومنها النكرة الموصوفة المقدرة بـ : شيء، مثل قرأت ما محبوباً إليك. والتعجبية وهي نكرة تامة بمعنى شيء.

3 - عباس حسن، النحو الوافي، 4 / 328.

4 - ربما كانت "ما" هنا حرفية، وهي المصدرية الظرفية، وقد تقدمت على عاملها "فاستقيموا".

5- ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 2 / 205.

الزجر والنهي مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾
الأعراف:131.¹

وقيل عن " مهما "، هي بمعنى "ما" وقيل بل هي أعم منها². وهذا العموم قد يكون مصدره ما الزائدة للتوكيد، فزادت "ما" الأولى قوة وإمعانا في معنى الإبهام. و قد يكون للألف في ما (المطلقة الألف بالمد) دلالة صوتية تؤول إلى معنى الإطلاق مثل الدلالة على مطلق النفي.

و" مهما " اسم بدليل رجوع الضمير إليه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ ... ﴾ ومثل قول زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم³

4. الأداة : " أيّ "

أيّ بفتح الهمزة وتشديد الياء اسم له استعمالات ومعاني وظيفية عديدة . فيأتي شرطا نحو قوله تعالى : ﴿ أَيَّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ الإسراء: 110،⁴ وقوله: ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ القصص:28.⁵

وهي أكثر أدوات الشرط إبهاما ؛ إذ هي تكون بحسب معنى ما تضاف إليه مما يدل على العاقل وغيره والزمان والمكان، وقد تنضم إليها " ما " فتزيدها إبهاما كما جاء في الآية : أَيَّ مَا تَدْعُوا....⁶

- 1 -الرضي الأستريادي ، شرح الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة 2، 1996، 88/4.
- 2- أبو السعود حسنين الشاذلي - الأدوات النحوية وتعدد معانيها الوظيفية: دراسة تحليلية تطبيقية- دار المعرفة - مصر- ط1-1989-ص122.
- 3 - إذا كان فعل الشرط "كان" تاما كانت مهما في محل رفع مبتدأ مقدا. وإذا كان ناقصا كان الاسم خليقة في محل رفع اسمها، وتأتي مهما في محل نصب خبر كان مقدا وجوبا.
- 4 - ما : زائدة للتوكيد . وأيّ مقطوعة عن الإضافة بدلالة تنوينها.
- 5 - تأتي أيّ استفهامية مثل : (فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)(غافر: من الآية81) و تأتي اسما موصولا مثل : (نَعْلَمُ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)(الكهف: من الآية12) وتأتي تعجبية كقولك : أيّ طالب زيد ! وتأتي اسما دالا على كمال الوصفية ، مثل : أنت قائد أيّ قائد ! وتأتي صلة لنداء ما فيه "ال" مثل قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) (الانفطار:6).
- ينظر ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 1 / 72 والمعجم الوافي في النحو العربي ص 102 - 103.
- 6- ابن هشام، شرح شذور الذهب ، دار الفكر ، ط1، 2003، ص448.

وأَيُّ هي الاسم الشرط الوحيد المعرب بالحركات الثلاث ملازمته الإضافة إلى المفرد . والإضافة هي التي أبعدهت عن شبه الحرف الذي اقتضى بناء الأسماء الأخرى.¹

5. الأداة : "متى"

ظرف زمان مبهم لعدم إضافته قال سيبويه في باب الجزاء: "...إن أبدأ مبهما، وكذلك حروف الجزاء، ومتى من حروف الجزاء."² ويأتي اسم استفهام مبني على الظرفية الزمانية، نحو : ﴿ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ ﴾ البقرة: 214، وقد سمع عن العرب دون قياس إدخال حرف الجر "إلى" أو "حتى" عليه فقالوا : إلى متى؟ وحتى متى؟³

وإذا ضمن معنى الشرط جزم وصار اسم شرط دال على الزمان، ويجعل زمن فعله وجوابه في المستقبل ومثاله قول الشاعر:

متى تأتة تعشوا إلى ضوء ناره تجد خير حطب عند خير مُوقد

وإذا لحقتها ما الزائدة للتوكيد زادت إيماء وعموما، كقول الشاعر:⁴

متى ما تلقني فردين ترجف	رؤائف أليتيك وتستطارا ⁵
-------------------------	------------------------------------

6. الأداة "أيان" :

وأيان مثل متى، فهي ظرف زمان مبهم، يُضمّن معنى الشرط فيكون اسم شرط للزمان جازما لفعلين مثل قول الشاعر :

أيان تؤمنك تأمن غيرنا وإذا لم تدرك الأمن منا لم تنزل حدرا

وعباس حسن ، النحو الوافي، 4 / 431.
و فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، 4 / 82.
1- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية ، 2 / 304.
2- سيبويه ، الكتاب 1 / 433 .
3- علي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبي، المعجم الوافي في النحو العربي، ص 311.
4- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية ، 2 / 303.
5 - الروائف : أسفل الأليتين مما يلي الأرض عند القعود/ تستطارا: الألف للإطلاق، والمضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد واو المعية . وما قبلها جواب الشرط. ولما أشبه الشرط النفي في عدم تحققه وليته واو المعية بعدها المضارع منصوبا...

وأبان تستعمل فيما يراد تف خيم أمره وتعظيمه، قال ذلك الرضي الأستريادي، ومثل لها بوصفها استفهاما نحو قوله تعالى : ﴿ أَيان مُرْسَاهَا ﴾ (لأعراف: 187 من الآية) ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الذاريات:12)، ولا يقال : أيان نمت ؟ والظاهر أنها في الشرط كذلك.¹

7. الأداة " أين "

اسم مكان مبهم مبني على الظرفية المكانية في محل نصب ويرد اسم استفهام نحو : أين وضعت الكتاب ؟ وإذا تضمن معنى الشرط صار أداة شرط للمكان جازمة نحو : أين تنزل أنزل، وكثيرا ما تلحقها ما الزائدة للتوكيد نحو قوله تعالى : ﴿ أَيِنمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (النساء: 78) فتزيدها إبهاما² يتجاوز معنى " حيثما".

ومن أحكامها النحوية : إذا جاء بعدها اسم فهو معمول لفعل الشرط المحذوف المفسر بما يذكر بعده، نحو قول الشاعر :

صعدة نابتة في حائر أينما الريح تميلها تمل

والتقدير أينما تميلها الريح تمل، وجملة " تميلها " لا محل لها مفسرة.³

8. الأداة " أتى " :

ظرف وضع للدلالة على المكان، ويأتي اسم استفهام بمعنى كيف كقولك : أتى فعلت هذا؟ أو بمعنى من أين، قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكِ هَذَا ﴾ (الأنعام:37)، وأتى في محل نصب على الظرفية وإذا ضمن معنى الشرط صار أداة شرط للمكان جازمة لفعلي الشرط والجزاء، ولا تلحقها "ما" الزائدة للتوكيد، نحو قول الشاعر :

1 - فاضل صالح السامرائي ، ص معاني النحو ، 82 / 4.

2 - صفحة76 : { أَيِنَمَا تُقْفُوا } عام في الأمكنة. وهي شرط، وما مزيدة بعدها، وثقفوا في موضع جزم، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله، ومن أجاز تقدم جواب الشرط قال: ضربت هو الجواب، ويلزم على هذا أن يكون ضرب الذلة مستقبلاً. وعلى الوجه الأول هو ماض يدل على المستقبل، أي ضربت عليهم الذلة، وحيثما ظفر بهم ووجدوا تضرب عليهم، ودل ذكر الماضي على المستقبل، كما دل في قول الشاعر:

وندمان يزيد الكأس طيبا سقيت إذا تغوّرت النجوم.

3- عباس حسن، النحو الوافي، 4 / 430. وفاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، 82 / 4.

خليلي أتى تأتياني تأتيًا أخوا غير ما يرضيكما لا يحاول¹

9. الأداة " حيثما " :

ظرف وضع في أصله للمكان، وضمن معنى الشرط فصار أداة شرط للمكان جازمة نحو قوله تعالى:
﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة:150)، وقول الشاعر:"

حيثما تستقم يقدر لك الله نجاحا في غابر الأزمان.

و يلزم أن تقترب بها م الكافة ؛ وذلك أنه لما أريد إدخال حيث في باب الشرط لزمتهها ما، لأن حيث ملازمة للإضافة والإضافة توضحها، فلا تصلح للشرط، فكفت بما لتبهم، فصلح دخولها في باب الشرط حينئذ².

و قال سيبويه : إنما منع حيث من أن يجازى بها أنها توصل بما بعدها، فإنها ضمت إليها "ما" صارت بمنزلة إن، ولم يجز فيها وصلها بما دخلت عليه قبل ضم "ما" إليها³.

والفرق بين حيثما وأينما أن أينما أكثر إبهاما وسعة ؛ لأنها قبل انضمام "ما" إليها كانت أين مبهمة لعدم ملازمتها الإضافة . أما حيث فملازمة للإضافة وبالتالي ملازمة للتخصيص .

والاستعمال القرآني أورد التعبير بـ"أينما" حيث يراد السعة والشمول مثل وجود الإنسان في أي نقطة في الأرض يناله فيها الموت، وعبر بـ"حيثما" فيما هو أقل سعة وشمولية مثل وجود الإنسان في أماكن معينة صالحة للصلاة فيها، ومنها يولي وجهه شطر المسجد الحرام.⁴

المطلب 2- أدوات الشرط غير الجازمة:

1. الأداة : " إذا " :

1- خالد الأزهرى، شرح التصريح ، 2/249. وابن هشام ، شذور الذهب-446.

ومصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج2، 302-303.

2- المبرد، المقتضب ، 2/48.

والسيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتاب العربي، بيروت-ط1، 1984، 1/97-98 .

3- سيبويه، الكتاب 1، ص432-433.

وابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 1/118.

4- فاضل صالح السامرائي -ص معاني النحو - ج4-83-84.

"إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان، وهي شرطية في أكثر استعمالاتها، وغير جازمة إلا للضرورة الشعرية مثل قول الشاعر:

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتحمل.

وقد تجيء للماضي بقرينة نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوْا انْفِصُوا إِلَيْهَا ﴾ (الجمعة: من الآية 11)، فالآية خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم في حادثة مضت وقت النزول. كما تكون "إذا" فجائية وظرفية محضة.¹

و لتضمنها معنى الشرط فإنها كغيرها من أدوات الشرط تحتاج إلى جملتين : جملة الشرط والجملة الجوابية، وتكون خافضة لشرطها منصوبة بجوابها، وكثيرا ما يكون فعلها ماضيا ويقل أن يكون مضارعا، مثل قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ المنافقون: 1، واجتمع الماضي الكثير، والمضارع القليل في قول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع.²

و ما تقتضيه "إذا" الشرطية من جملي الشرط والجواب ينطبق عليهما كل الشروط والأحكام التي تنطبق على جملي الشرط والجواب، وخاصة الدلالة الزمنية .

و تشترك "إذا" مع "إن" في دخولها على الأسماء في الظاهر، وهما في الحقيقة داخلان على فعل مقدر وجوبا يفسره ما بعده مثل قوله تعالى: "إذا السماء انشقت.... وإذا الأرض مدّت... والتقدير: إذا انشقت السماء انشقت، وإذا مدت الأرض مدت...".

و يكثر مجيء "ما" الزائدة بعد "إذا" كقول الشاعر :

1- تكون "إذا" فجائية أي حرف مفاجأة حين تدخل على الجملة الاسمية نحو : خرجت فإذا زيد بالباب. ولا تحتاج إلى جواب. و لا تقع في الابتداء. وتكون ظرفية محضة (أي حينية) لا تتضمن معنى الشرط ، وهي التي يسبقها القسم ويعمل فيها فتكون دالة على الحال نحو قوله تعالى: "وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى" (الليل: 1-2) ومثلها أيضا قوله عز وجل: " وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ" (الشورى: 39) فلو كانت "هم ينصرون" جواب "إذا" لوجب اقترانها بالفاء.

2 - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 1 / 84-85. وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبي ، المعجم الوافي في النحو العربي، 36-37. وعباس حسن ، النحو الوافي، 4 / 441.

وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبي ، المعجم الوافي في النحو العربي ، ص 36-37.

وعباس حسن ، النحو الوافي ، 4 / 441.

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين وإذا هي ناجتني فكلي مسامع¹

و تذكر المباحث البلاغية كذلك أن " إذا " تستعمل بحسب أصلها في كل ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل، ومن أجل هذا لا تستعمل إلا في الأحوال الكثيرة الوقوع، ويتلوها الماضي لدلالته على القطع بالحصول، نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ الأعراف : 131، فعبر بـ " إذا " في الأمر المحقق وهو مجيء جنس الحسنه من نعم كثيرة، وبالفعل الماضي المقطوع بوقوعه، وعبر بـ " إن " وبالمضارع عن إصابتهم بالسئته وهو أمر نادر الوقوع.²

2. الأداة : " لو "

لهذه الأداة استعمالات عديدة في اللغة، وهي في أكثر استعمالاتها تكون حرف شرط، وترد لوظائف أخرى فتأتي حرفا مصدريا، أو حرف تمن، أو عرض، أو وصلية، أو للتقليل.³

و أما " لو " الشرطية فقد عرفها سيبويه بقوله: " أما " لو " فليما كان سيقع لوقوع غيره ."⁴ وأغلب النحاة يعودون إلى تعريفه هذا .

و هي حرف شرط غير جازم، وتردد في أغلب المباحث النحوية أنها " حرف امتناع لامتناع " . وقد عارض ابن هشام هذه العبارة وقال : " هي حرف يقضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه. " كأنه يقول : " "

1 - عباس حسن ، النحو الوافي : 4 / 440،441. وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزعبي ، المعجم الوافي في النحو العربي ص: 35 .
2 - السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ص: 138.
3- حرف يدل على التمني فينبص المضارع بأن مضمره وجوبا بعد فاء السببية مثل لو يعود الشباب ففسد بآيامه ؛ ذلك أن المتكلم يجعل التمني في صورة المنوع أو في حكم المستحيل .
لو المصدرية أكثر وقوعها بعد الفعل " و " نحو قوله تعالى: ﴿ يَحْيَىٰ أَخَذَهُمْ لَوِ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ البقرة: من الآية96، ومثل : " ما كان ضرك لو مننت " .
لو المفيدة للعرض: (أو للتحضيض بحسب المقام) مثل : لو تسهم في الخير فتنتاب .
لو الوصلية (أو الزائدة) ولا تحتاج إلى جواب ، وهي مثل إن الوصلية ، بحيث يمكن وضع إن مكان لو ، مثل : الدينء ولو كثر ماله بخيل ، ونحو قوله تعالى: وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (الصف: من الآية8) وتسبق بواو الحال.
لو : حرف يدل على التقليل، ولا يحتاج إلى جواب ، نحو قول رسول الله (ص) : " اتق النار ولو بشق تمرة " .
ينظر الصبان ، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ، 4 / 30-33. وابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 2 / 208-211. وعباس حسن ، النحو الوافي ، 4 / 503-505. وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزعبي ، المعجم الوافي في النحو العربي، ص290-291.
4- سيبويه، الكتاب، 4 / 493.

لو " إذا كانت للشرط تدل على امتناع فعل الشرط، وعلى استلزام فعل الشرط لجوابه، من غير تعرض للدلالة على نفي جوابه." ¹ . ولكن عبارة سيوييه أشمل التعريفات لأنها تحتوي التعريف الشائع لدى النحاة إضافة إلى ما رآه ابن هشام . والسر في ذلك أن تعريف سيوييه يتضمن حرف اللام في "لوقوع" وهي بمعنى كلمة "عند" . و قد تبعه الأستاذ عباس حسن في ذلك بالقول: "...إن امتناع الشرط لا يستلزم امتناع الجواب، فقد يستلزمه وقد لا يستلزمه [ولا تكون عبارتهم " حرف امتناع لامتناع " صحيحة] إلا إذا كان غرضهم أن ذلك الامتناع هو الغالب." ²

و تأتي " لو " الشرطية على ضربين :

أولاً- الشرطية الامتناعية ³ ، وتفيد:

الشرطية، أي عقد السببية والمسببية بين الجملتين بعدها .

تقييد الشرطية بالزمن الماضي .

امتناع وقوع الشرطية في الماضي .

و يترتب على امتناع الشرط وعدم وقوعه امتناع الجواب تبعاً له، وذلك إذا كان فعل الشرط هو السبب الوحيد في إيجاد جوابه وتحقيقه، نحو : لو طلعت الشمس أمس لظهر النهار، فعدم وقوع طلوع الشمس، وهو الشرط والسبب الوحيد امتنع له ظهور النهار، وهو الجواب والمسبب. ومن أمثلة امتناع الجواب امتناعاً حتمياً تبعاً لامتناع الشرط : لو توقفت الأرض عن الدوران لهلك الأحياء جميعاً من شدة البرد والحر. ومثل : لو امتنع الغذاء لهلك الحي.

وأما إذا كان للجواب سبب آخر في تحقيقه غير المذكور فقط فإنه لا يتحتم الامتناع بامتناع هذا الشرط، لأن السبب الآخر قد يؤدي إلى تحقيق نفس الجواب، نحو : لو كانت الشمس موجودة أمس كان النور موجوداً، فامتناع طلوع الشمس قد يستلزم امتناع وجود النور، وقد لا يستلزمه ؛ لأن الشرط ليس

1- ابن هشام ، شرح قواعد الإعراب محيي الدين الكافيجي ، تحقيق فخر الدين قباوة، ط. 1 ، دار طلاس ، دمشق ، 1989 ، ص 399. وابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 2 / 205.

2- عباس حسن ، النحو الوافي ، 4 / 494.

3- قد وضع ابن هشام في المغني ضابطاً يميز " لو " الامتناعية من غيرها ، وهو أن يصح الاستدراك بـ لكن بعد مدحولي " لو " ، ويتلو لكن فعل الشرط منفيًا لفظاً أو معنى ، نحو : فلو كان حمدٌ يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَوْشَيْتَنَا لَا تَبِينَا كُلُّ نَفْسٍ هُذَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ السجدة:13، أي ولكن لم أشأ فحق القول مني...

السبب الفريد في وقوع النور بل إن لوجود النور أسبابا أخرى كالمصباح أو البرق أو النار . ومن أمثلة امتناع الشرط دون أن يستلزم امتناع الجواب استلزاما محتما : لو تعلّم الفقير لاغتنى. لو استشار المريض طبيبه لشفي¹ .

أما أحكامها النحوية: ف " لو " أداة شرط امتناعية، قياسية الاستعمال ،غير جازمة، شرطها وجوابها فعلا ماضيان لفظا ومعنى ،أو معنى فقط (مضارع مجزوم ب لم) .

وقد يليها الماضي لفظا ولكنه مستقبل المعنى نحو قوله تعالى: ﴿ وَلِيُخْشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ النساء:9 .

وإن وليها المضارع قلبت معناه إلى الماضي نحو قول كثير عزة :

لو يسمعون كما سمعت حديثها	خروا لعزة ركعا وسجودا
---------------------------	-----------------------

وقد يحذف فعل الشرط ويقدر ب ثبت أو وقع، وذلك إذا ولي " لو " مصدرا مؤولا من أن ومعموليهما، فيعرب فاعلا لفعل محذوف تقديره ثبت. نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ البقرة: 103، وتقديره : ولو ثبت إيمانهم.

أما جوابها فيأتي ماضيا مثبتا مقترنا باللام أم مجردا منها، وقد يقترن ب قد، نحو قول الشاعر :

لو شئت قد نفع الفؤاد بشرية تدع الحوائم لا يجْدُن غليلا.

و يأتي مضارعا منفيًا ب لم غير مقترن باللام نحو: لو أغلق الباب لم يسرق البيت.

أما إذا كان الجواب منفيًا ب ما فتجرده من اللام أكثر من اقترانه بها نحو: لو أغلق الباب ما سرق البيت، أو لما سرق.

و نادرا ما يجيء الجواب جملة اسمية نحو : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ البقرة:103.

و الجواب قد يحذف إن دل عليه دليل، ويغلب ذلك عند اقترانها بواو الحال كقول الشاعر :

1- المرجع السابق - ج4 / 492.

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار.

" لو " الشرطية غير الامتناعية:

وهي قليلة الاستعمال، غير أن استعمالها قياسي، ومثالها : لو يشتد الحر في العطلة الصيفية المقبلة أصطاف في الجهات المعتدلة . وتدل على الشرطية الحقيقية وهي التي يتعلق جابها بشرطها وجودا وعدما في المستقبل، فيكون شرطها وجوابها مضارعين لفظا ومعنى، وزمنهما المستقبل ¹ ، وفي هذه الحالة تكون لو الشرطية رديفة لـ إن غير أنها لا تجزم. ²

وإذا كان أحد مدخوليهما ماضي اللفظ وجب أن يكون زمنه مستقبلا، فيكون ماضي الصيغة مستقبل المعنى . ومن ذلك قول الشاعر :

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن رمسينا من الأرض سبب

لظل صدى صوتي - وإن كنت رُمةً - لصوت صدى ليلي يهشّ ويطرّب

واسترعت " لو " اهتمام علماء المعاني فعنوا بها مثل عنايتهم بـ " إذا " و " إن " لأنها تختص بأحكام دقيقة فوضحوها . وبينوا ما بينها من فروق .

يقول الخطيب القزويني: " وأما " لو " فهي للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط، فيلزم انتفاء الجزء كانتفاء الإكرام في قولك " لو جئتني لأكرمتك : ولذلك قيل : هي لامتناع الشيء لامتناع غيره ³ ، فلو الشرطية الامتناعية تقضي بأن يكون شرطها ممتنعا، ويترتب عليه انتفاء وقوع الجزء وذلك في الماضي، وأنه على تقدير وجود شرطها يقع جزاؤها .

ويلزم كون جملتها فعليتين، وكون الفعل ماضيا، وعدم ثبوتهما؛ إذ الثبوت ينافي التعليق والحصول الفرضي المدلول عليه بـ لو .

وقد يخرج الكلام على خلافه فتستعمل " لو " في المضارع لدواع اقتضاها المقام، مثل :

1- المرجع السابق - ج 4 / 494.

2- ابن هشام - شرح قواعد الإعراب، ص 413.

3- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني - ص 186.

الإشارة إلى أن المضارع الذي دخلت عليه " لو " يقصد استمراره حيناً بعد حين فيما مضى (أي استمراراً تجديدياً في الماضي) نحو قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ الحجرات:7.

وتنزيل المضارع منزلة الماضي لصدوره عن المستقبل عنده كالماضي في تحقق الوقوع، ولا تخلف في أخباره مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ السجدة:12، والجواب محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً.¹

3. الأداتان " لولا - لوما " :

(أ) صيغتهما:

الشائع أن كلا منهما مركبة من كلمتين (لولا، و) و(لوما، و) وبعد اتحاد الجزأين صارتا كالكلمة الواحدة، تؤدي معنى جديداً، وتختص بأحكام جديدة لم تكن لها قبل التوحيد.²

(ب) معناهما وأحكامهما النحوية:

يدل هذان الحرفان على امتناع جوامعها لوجود تاليهما فيختصان في الغالب بالجمل الاسمية . وتقتضيان حينئذ مبتدأً ملتزماً حذف خبره وجوبا في الغالب، وجواباً مصدراً بفعل ماضٍ، أو مضارع مجزوم بلم . فإن كان الماضي مثبتاً غلب اقترانه باللام مثل قول الشاعر :

لوما الإصاححة للوشاة لكان لي من بعد سخطك في رضاك رجاء

وإذا كان منفيًا غلب تجرده منها، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ النور:21.

ويجوز حذف الجواب إذا دل على دليل، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ النور:10 .³

1- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 141. وبدوي طبانة معجم البلاغة العربية، ص 636. المرجع السابق، ص 186.

2- عباس حسن - النحو الوافي - ج 4 / 512.

3- خالد الأزهرى ، شرح التصريح ، 263/2.

4. الأداة "لما":

قال الزجاجي (340 هـ) صاحب كتاب حروف المعاني : إذا اقتضت " لما " جوابا فهي لأمر يقع لوقوع غيره ¹ وتكون بمعنى "حين" كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الزخرف:55، ² ويقول ابن هشام بأنها حرف وجود لوجود، أو يقال : حرف وجوب لوجوب، تقتضي جملتين فعليتين، فعلهما ماض، مثل :لما جاءني أكرمته. وزعم بعض النحاة كابن السراج والفارسي وابن جني أنها ظرف بمعنى " حين "، وقال ابن مالك بمعنى " إذ " لأنها مختصة بالماضي وبالإضافة إلى الجملة. وإذا قدرت ظرفا فعاملها الجواب وإلا فهي حرف لا محل له، وبما أن التعليق بها في الماضي فهي مثل « إن كنتُ قلتُهُ فقد علمتُهُ » وليس لها من معنى الشرط إلا تعليق الجملة الثانية بالأولى وجودا في الماضي فقط؛ لأن الشرط لا يكون إلا مستقبلا. وأما جوابها فكما يأتي فعلا ماضيا يأتي أيضا جملة اسمية مقرونة بـ "إذا" الفجائية أو بالفاء نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت:65، وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ لقمان:32، ³.

وإذا جاء جواب "لما" مترتبا ترتبا سببيا على مدخولها الأول، فاللام في كلمة " لوقوع" من قول النحاة في تعريفها « فهي لأمر يقع لوقوع غيره » بأنها سببية ومثالها قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. وأما إذا جاء جوابها متعلقا بمدخولها الأول تعلقا زمنيا فقط، فإن معنى تلك اللام هو الظرفية (بمعنى عند) مثل ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا بَعْضَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الكهف:61. وفي الحالتين ليست " لما " شرطية لأن التعليق بها في الماضي

5. الأداة "أما":

" أما " بفتح الهمزة وتشديد الميم، وقد تبدل ميمها الأولى ياء فتصبح "أيما" كقول الشاعر عمر بن أبي ربيعة يصف نفسه بالترف البالغ:

وابن الناظم ، شرح ألفية ابن مالك ، ص717..

1 - أي : إذا لم تقتض جوابا فإنها تكون إما حرفا جازما للمضارع (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ : الحجرات 14) أو تكون بمعنى أداة الاستثناء إلا ﴿ إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ الطارق : 4.

2 - أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي - كتاب حروف المعاني، ص11.

3 - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، 1 / 219.

رَأَتْ رَجُلًا أَيَّمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيُضْحَى، وَأَيَّمَا بِالْعَشِيِّ فَيُخَصَّرُ¹

وأما معناها فالدلالة على ثلاثة أمور : الشرطية والتوكيد والتفصيل .²

فهي حرف شرط، حيث جاء في المفصل أن " أمّا " لها معنى الشرط لقول سيبويه : إذا قلت أما زيد فمنطلق فكأنك قلت مهما يكن من شيء فزيد منطلق، وعلامة دلالتها على الشرطية أن الفاء لازمة لها.³ ومثالها قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۗ ﴾ البقرة: 26، ويعضده قول ابن هشام، حيث يرى أن الفاء لو كانت للعطف لم تدخل على الخبر، لأن الخبر لا يعطف على المبتدأ . ولو كانت زائدة لصح الاستغناء عنها، فيتعين أن تكون فاء الجزاء، وقد تحذف في الشعر للضرورة، مثل :

فأما القتال لا قتال لديكم ولكنّ سيرا في عراض المواكب

وحذفت مع القول في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴾ آل عمران: 106، والتقدير فيقال لهم... ولما حذف القول لغنى المقول عنه حذفت معه الفاء.⁴

وتستعمل للدلالة على التوكيد. وذكر صاحب المغني أن أحكم من علل الدلالة على التوكيد هو الزمخشري في مفصله حيث قال : إن " أمّا " تعطي الكلام فضل توكيد ؛ تقول زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت: أما زيد فذاهب . ولذلك قال سيبويه في تفسيره مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مُدِلٌّ بفائدتين : بيان كونه توكيدا، وأنه في معنى الشرط. ⁵ وفي قول الشاعر السالف الذكر هي دالة على الشرط والتوكيد معا دون معنى التفصيل.

وتستعمل أداة دالة على التفصيل بذكر الأقسام والأفراد المتعددة المختلفة لشيء مجمل مثل الآية السابقة حيث الإجمال في قوله تعالى: " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " .

1 - صفحة 85: يضحى : لا يخرج في الضحى بسبب الحر . يخصر: يبرد

2- ينفي الدكتور فخر الدين قباوة عن "أما" أن تكون لها دلالة على الشرط، و يحتج على ذلك ، بينما يقر دلالتها على التوكيد والتفصيل . ينظر فخر الدين قباوة ، إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص 51 وما بعدها.

3- الزمخشري، المفصل في صناعة الإعراب، ص 442.

4- ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 2 / 53.

5- المصدر نفسه، 2 / 54-55

و عباس حسن ، النحو الوافي ، 4 / 505. وخالد الأزهرى، شرح التصريح، 2 / 262.

وقد تدل على التفصيل تقديرا أي من غير ذكرها وذكر شيء معها، وإنما يدل عليها السياق والقرائن نحو: الناس معادن ؛ فأما أنفسها وأغلاها فالأخيار . والتقدير: وأما أخسها وأرخصها فالأشرار. 1 ويجب أن نلاحظ بأن "أما" المقدره هنا هي المعطوفة على ما قبلها مما ذكر في الكلام.

ويجوز حذفها إذا توفر الدليل على ذلك الحذف، فيكون الدليل الفاء (وهو قرينة) والتنوع أو التفصيل (وهو السياق)، ويكثر هذا قبل الأمر والنهي نحو قوله تعالى: ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ المدثر: 3-4-5.

وقد لا تدل على التفصيل أصلا، نحو : أما زيد فمنطلق . 2.

ويمكن تلخيص أحكامها النحوية في النقاط الرئيسية التالية :

تقوم "أما" مقام الأداة " مهما" مع فعل شرطها، دون أن يفسد المعنى ولا التركيب . وليس معنى ذلك أنه - في المقابل - يصح إقامة " أما " في كل موضع تشغله مهما الشرطية مع فعل شرطها، لأن " أما" وهي حرف لا تؤدي معنى اسم وفعل معا. 3

وقد تقوم " أما " مقام تعبير شرطي آخر مناسب للسياق وللمعنى المراد مثل الرد على من يشك في علم شخص بقولنا : أما العلم فعالمٌ. ذلك على تقدير: مهما ذكرت العلم ففلان عالمٌ.

3. وجوب اقتران جوابها بالفاء.

ويجب الفصل بين أما وهذه الفاء بفاصل. والفاصل قد يكون :- المبتدأ أو الخبر- أو الجملة الشرطية وحدها دون جوابها - أو الاسم المنصوب بجوابها لفظا أو محلا، ولا يمنع هنا عمل ما بعد الفاء في ما قبلها مثل قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: 9-10-11، - أو الاسم المعمول المحذوف يفسره ما بعد الفاء مثل : أما المخترع فأعظمه - أو شبه الجملة المتعلقة بأما أو بفعلها المحذوف الذي نابت عنه مثل : أما اليوم فإني ذاهب، وأما في الدار فإن زيدا جالسٌ - أو الجملة الدعائية المسبوقة بشبه جملة نحو : أما الآن . حفظك الله . فأنا مسافرٌ.

1- المرجع السابق، 4 / 507.

2- ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 2 / 54.

3 - الصبان - حاشية الصبان على شرح الأشعري لألفية ابن مالك- ج4- ص44.

4. يجوز حذف "أما"، وذلك كثير قبل الأمر والنهي، بشرط أن يقوم الدليل على الحذف. كما يجوز حذف جوابها ومعه الفاء قبل المقول.

5. تختلف "أما" بتركيبها البسيطة عن "أما" المركبة من أن المصدرية و"ما" المعوضة لكان، في مثل قول الشاعر:

أبا حراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع¹

6. الأداة " كلما " :

2 ذكر سيبويه " كلما " في قوله: كلما تأتيني آتيك، فالإتيان صلة ل ما، كأنه قال : كلَّ إتيانك آتيك. ويقول ابن هشام ما يتفق ورأي سيبويه فيذكر أن : "كل" منصوبة على الظرفية باتفاق، وناصبها هو الفعل الذي هو جواب في المعنى. وأما " ما " فقد تكون مصدرية والجملة بعدها صلة فلا محل لها، وقد تكون " ما " نكرة موصوفة بمعنى وقت .³

و" كلما " تفيد التكرار ولكنها لا تتكرر في جملة واحدة،⁴ ويكون الفعل بعدها ماضيا، ولم ترد في القرآن الكريم إلا ويليهما الماضي نحو قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ المائدة:64.

ومن اللغويين المحدثين مثل د.عبد الراجحي من لا يعدّ " كلما " أداة شرط حيث يرى: أن هناك تراكيب عددها بعض النحاة من جمل الشرط وهو لا يراها كذلك، وهي تلك التراكيب التي تربط بين أجزائها كلمات مثل " لما وكلما... " وذلك أن العلاقة التي تربط بين الجزأين ليست علاقة عليية بل هي علاقة زمانية TEMPORAL⁵ .

ويظهر أن الفعل الثاني الذي يذكر بعدها يلي الفعل الأول في الوقوع، فكأن هذا الوقوع ترتب على الأول وتعلّق به كتعلّق الجواب بالشرط، ومن ثم فإن الأداة " كلما " تكون متضمنة معنى الشرط؛ لما فيها

1 - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، 1 / 53-54 .

خالد الأزهري، شرح التصريح ، 2 / 261 .

وعلي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبى، والمعجم الوافي في النحو العربي، ص69-70. وعباس حسن، النحو الوافي، 4 / 206-210.

2 - سيبويه، الكتاب، 3 / 102.

3 - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 1 / 171.

4 - ويجري في الفصحى الحديثة استعمال مخطئ ل " كلما " فتكرر في الجملة الواحدة. مثل كلما طرق بابي كلما فتحته له.

5 - عبد الراجحي، التطبيق النحوي ، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1999، ص 321.

من معنى العموم والإيهام ولما تقتضيه من جملتين مترابطتين ارتباط لازم بالملزوم، غير أن الأداة " كلما " لا تجزم ؛ كون مدخولها فعلين ماضيين دائماً ولا تعليق بها في المستقبل . وعلى كلّ، تكون "كلما" ظرف زمان مفيداً للتكرار، متضمناً معنى الشرط، غير جازم في مثل قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ آل عمران: 37. وتكون "كلما" بما وصفنا بالإضافة إلى التعليق بها في المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ النساء :؛ 56. وهكذا تكون "كلما" ظرفية فقط، أوظرفية متضمنة معنى الشرط، بحسب قصد المتكلم، وبما يقضي به السياق.

7. الأداة : " كيف "

أصل معناها الاستفهام عن الحالة والهيئة، أي الكيفية مثل : كيف أنت؟ . وترد في سياقات صورتها استفهامية غير أنها لا تفيد حقيقة الاستفهام نحو قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ البقرة: 28. فدلّت على التعجب.

ولها استعمال آخر غير الاستفهام فتخرج إلى الشرطية « لأن معناها على أي حال تكن أكن¹ »، وتحتاج إلى جملتين جملة شرطية وأخرى جوابية غير أنها لا تجزم على الأرجح نحو : كيف تصنع أصنع . وينطبق على جملتيها كل الشروط والأحكام التي تنطبق على جملي الشرط والجواب، ويضاف إلى ذلك أن يكون فعلاها متفقي اللفظ والمعنى ؛ فلا يجوز كيف تجلس أذهب، ولا : كيف تجلسن أجلسن بالجزم لمخالفتها أدوات الشرط الجازمة بوجوب موافقة جواها لشرطها، ولا كيف تضرب العدد أضرب زيدا لاختلاف الفعلين في المعنى.

وقد يضم إلى آخرها "ما" الزائدة فلا يتغير من أحكامها شيء².

وقيل إذا زيدت عليها "ما" أصبحت جازمة مثل : كيفما تعامل الناس يعاملوك³.

ولم ترد في القرآن جازمة ولا أتى فعلاها فيه متفقي اللفظ والمعنى.

ول " كيف " استعمال آخر تتجرد فيه عن معنى الاستفهام وتخلص لمعنى الهيئة أو الحالة المجردة (أي تكون بمعنى الكيفية) نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الفيل: 1، ونحو: ﴿ رَبِّ

1 - سيبويه - الكتاب - ج3-ص 60.

2 - ابن هشام ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، 2 / 173 . وعباس حسن ، النحو الوافي ، 4 / 442-443.

3 - د.علي توفيق الحمد ويوسف جميل الزغبي ، المعجم الوافي في النحو العربي، ص256.

أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴿ البقرة:260 فتكون مفعولا به. وأما إعراب المتصدرة فضابطه أن ننظر إلى حاجة العامل بعدها فتعرب بحسب حاجته إليها .¹

المطلب3- الشرط بلا أداة :

وآخر قضايها هذا الباب قضية أجوبة التراكيب الطلبية. بينا الخلاف بين سيبويه وغيره من النحاة وقلنا إنه لا خلاف هناك وإنما اختلاف، فكل من الفريقين يتكلم عن تركيب يختلف عن التركيب الذي يتكلم عنه الآخر، فسيبويه يتكلم عن تركيب شرطي مكون من عبارتين عبارة أمرية وعبارة جوابية، والنحاة يتكلمون عن تركيب مكون من جملتين الأولى جملة أمرية والثانية جملة شرطية محذوف منها عبارتها الشرطية لأن تجاوزها مع سابقتها جعلها معروفة فالجملة الشرطية جاءت لتقوم بدور الحث على تنفيذ الطلب سواء بالترهيب أو الترغيب، وبيننا كيف أن سيبويه موفق في رد المثال (لا تدن من الأسد يأكلك) والنحاة غير موفقين. وذكرنا أن التنغيم له دور في إعطاء الجملة دلالاتها.

الشرط الضمني (المقدر) :

إذا وقع المضارع المجرد من الفاء في جواب الطلب جزم وذلك إذا قصد به الجزاء، أي إذا قدرناه مسببا عن لفظ الطلب. والطلب قد يكون أمرا أو نهيًا أو عرضا أو تحضيضا أو تمنيا أو ترجيا، نحو : تعلم تفز، لا تكسل تسد، هل تفعل خيرا؟ تؤجر، ألا تزورنا تكن مسرورا، هلا تجتهد تنل خيرا، ليتني اجتهدت أكن مسرورا، لعلك تطيع الله تفز بالسعادة.

وعامل الجزم في جواب الطلب هو "إن" المحذوفة مع فعل الشرط المقدر من لفظ الطلب ومعناه أو معناه فقط، وهذا هو مذهب الجمهور الذي صححه ابن هشام .

وقيل الجواب مجزوم بالطلب نفسه لتضمنه معنى الشرط وذهب إلى هذا الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي والزمخشري . وعلى حد ما ذهبوا إليه فالطلب متضمن معنى "إن" ومعنى الشرط بالإضافة إلى تضمنه معنى الطلب أصلا. وهذا ما أضعف مذهبهم .²

1 - المرجع السابق ، 4 / 509.

2- ابن هشام، شرح شذور الذهب ، هامش ص457،456.

و الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، ص:333

ويشترط لصحة الجزم بعد النهي أن تدخل "إن" الشرطية عليه مع إسقاط الفاء، ويستقيم المعنى مع ذلك مثل : لا تدن من الأسد تسلم فإن تقديره: إلا تدن من الأسد تسلم . فإن لم يصلح دخول "إن" عليه بأن يفسد المعنى، وجب رفع المضارع بعده، مثل لا تدن من الأسد تهلك.

وقد لا يكون الطلب في صيغة من صيغ الطلب المذكورة، ولكنه طلب في المعنى وخبر في اللفظ فيجزم المضارع الواقع جزاء له، كقولك : تطع أبويك تلقَ خيرا، أي أطعهما تلقَ خيرا. ومنه قول العرب : اتقى الله امرؤً وفعل خيرا يُثب عليه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجَارَةِ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الصف:10-11-12، أي آمنوا وجاهدوا يغفر لكم... وليس الجزم لأنه جواب الاستفهام : هل أدلكم...؟ وهكذا فقد يأتي المضارع مجزوماً لأنه جواب طلب في المعنى وإن كان الطلب خبراً في اللفظ.

ولا يجزم المضارع بعد الطلب إذا لم يقصد به الجزاء، بل يجب رفعه لعدم وجود شرط مقدر، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَنَّئْ مِنْ نَسْتَكْتِكُمْ ﴾ المدثر:6، وقوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبِ ﴾ مريم:5_6، وقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ التوبة:103.¹ ويتعرض صاحب كتاب معاني النحو إلى الفرق بين ما يسمى بجواب الطلب والأسلوب الشرطي فيذكر أن جواب الطلب يكون جواباً للاستفهام أو التمني أو الأمر أو العرض أو... مما لا يمكن التعبير عنه بالشرط ؛ فقولنا: ليت محمداً هنا يدافع عني، يدافع جواب التمني . ولا يؤدي هذا المعنى بالشرط فيما إذا قلنا : إن يكن محمد هنا يدافع عني إذ ليس فيه معنى التمني .

إن أسلوب الشرط يؤدي فائدة واحدة هي اقتضاء الأسباب لمسبباتها، أما هذا التعبير (جواب الطلب) فيؤدي فائدة الشرط المذكورة، يضاف إليها فائدة ثانية هي إفادة معنى الطلب أو النهي أو الأمر أو التمني... مما لا يتحقق بالشرط .²

وقد ركزت الدراسات النحوية العربية عند النحاة القدامى على البحث في الأثر الإعرابي الذي تعمله أدوات الشرط في فعلي الشرط وجزائه، ولذا درس الشرط من خلال دراسة الأدوات الجازمة للمضارع،

1- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية 2/ 309-311 .

2- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، 4/ 20.

وصنفت الأدوات إلى حروف وأسماء وظروف، وأدوات جازمة وأخرى غير جازمة. وفي كل مبحث من ذلك تقع بعض الاختلافات بين النحاة. وعلى الجملة لم تدرس كتب النحو القديمة الشرط بصفته أسلوباً.

ومن النحاة المتأخرين الذين قدموا تعريفاً لأدوات الشرط ابن مالك في القرن السابع الهجري، فقال: "هي كلمات وضعت لتدل على التعليق بين جملتين، والحكم بسببية أولاهما ومسببية الثانية. وهذا التعليق نوعان: تعليق ماض على ماض، وتعليق مستقبل على مستقبل".¹

وقد حدد للأول حرفين هما "لو، و"لولا"،

وحدد للثاني حرفاً هي "إن"، و"إذما"، و"أما". وأسماء جعلها خمسة أضرب:

الضرب الأول: اسم محض، وهو "من"، و"ما"، و"مهما".

الضرب الثاني: اسم يشبه الظرف، وهو "أني"، و"كيف".²

الضرب الثالث: ظرف زمان، وهو "إذا"، و"متى"، و"أيان".

الضرب الرابع: ظرف مكان، وهو "حيثما"، و"أين"

الضرب الخامس: ما يستعمل اسماً وظرفاً، وهو "أي"³

ولما كان الشرط والجزاء - عند النحاة- لا ينعقدان إلا بالفعل المستقبل، فقد اعتبر أبو حيان الأدوات: أما، ولما، ولو، ولولا أدوات يحصل بها التعليق، ولكنها ليست أدوات شرط.⁴

ولم يعد سيبويه والمبرد "إذا" من أدوات الشرط الجازمة، لكونها مؤقتة، أي تدخل على ما هو معلوم، وأدوات الشرط مبهمة، تدخل على ما هو متوقع. فإذا قلت: "إن تأتي آتك"، فأنت لا تدري أيقع منه إتيان أم لا. وكذلك "من أتاني أتيت"، إنما معناه: إن يأتي واحد من الناس آته. فإذا قلت: إذا أتيتني...

1 - ابن مالك، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى، 1990، 66/4.

2 - يشبه الظرف، أي يصح تقدير كل من هاتين الأداتين بالجار والمجرور. والجار والمجرور يقدر بهما الظرف، وتقدير كيف: على أي حال، وتأتي أتى بمعنى متى، وبمعنى أين، وتكون استفهاماً، وشرطاً... ينظر: المصدر السابق، 70/4. (شرح التسهيل).

3 - نفس المصدر، الصفحات: 66-73.

4 - أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب، 1893/4.

وجب أن يكون الإتيان معلوماً.¹ وجرى في كتب المتأخرين أن "إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان يتضمن معنى الشرط.

وإضافة إلى ما أحصاه النحاة من صيغ الشرط، فقد أورد بعض علماء الأصول مثل الرازي (606هـ) والآمدي (631هـ) - في مبحث التخصيص بالشرط - صيغة أخرى للشرط هي: "إذا".²

وفرق الرازي بينها وبين "إن"؛ بأن هذه تدخل على المحتمل فقط، و"إذا" تدخل على المتحقق والمحمّل. ومثل لذلك بقوله: "أنت طالق إذا احمرّ البسر، وإن دخلت الدار" فالأول محقق، والثاني محتمل، ولا تقول: "أنت طالق إن احمرّ البسر" إلا إذا لم يتيقن ذلك.³

ولم يتوقف مدّ صيغ الشرط عند الأصوليين على ما توصل إليه الرازي والآمدي، بل إن الإمام الفقيه القرافي (684هـ) شارح المصنوع، تجاوز صيغ الشرط التي أقرها النحاة وعلماء الأصول إلى القول بكل تركيب يحمل معنى الشرط بغض النظر عن الأداة جازمة أو غير جازمة، فأضاف الموصولات ومثالها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: 274، والنكرات الموصوفة إذا كانت صلتها صفة أو ظرفاً، نحو كل رجل يأتيني أو عندك فله درهم.⁴

ومن الظاهر أن الشرط عند القرافي ليس له صيغ محددة وإنما يلمح في الأساليب لمخاً بغض النظر عن خصوصياتها التركيبية.

المطلب 4- أحكام عامة في طبيعة الشرط والجزاء:

1. الربط في التركيب الشرطي:

الربط هو عقد الصلة بين وحدات الجملة العربية، وقد أطلق النحاة للتعبير عن هذا المفهوم بعض المصطلحات مثل البناء والتلازم والعقد والتلاؤم والتضام.

¹ - سبويه، الكتاب، 433/1، والمبرد، المقتضب، 54/2.

² - الرازي، (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين)، المصنوع في علم أصول الفقه، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، 3/66. والآمدي (علي بن محمد)، الإحكام في أصول الأحكام، 2/380.

³ - الرازي، المصدر السابق، 3/57-58.

⁴ - القرافي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المصري)، فرائص الأصول في شرح المصنوع، تحقيق: عادل أحمد عبد المودود وعلي محمد معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، 5/2133.

فسيبويه يفاد من عباراته أن أجزاء الكلام تتضام في بناء التراكيب كاللبنات في البناء. ولذا فإن الربط هو أهم وظيفة للأدوات، فهي تجعل بين جملتين تلازما لم يكن بينهما من قبل دخول الأداة.¹

وقال تمام حسان في وظيفة الأداة، بأنها قرينة تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر. والمعروف أن الربط ينبغي أن يتم... بين الشرط وجوابه. ويتم الربط - عامة- بالضمير أو بالحرف أو بإعادة اللفظ أو إعادة المعنى أو باسم الإشارة، أو "أل" أو دخول أحد المترابطين في عموم الآخر... والربط بالحرف يكون كوقوع الفاء في جواب الشرط، ومثلها "إذا" المفاجأة، فتكون قرينة لفظية على أن ما اقترن بها هو جواب الشرط.² وإنه لو لم يكن هذا الربط بين الجمل التي تمثل صورا ذهنية معقودة ببعضها البعض، لما استطاع المتكلم أن يعبر بهذه الجمل التي يتم بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا، ولوقع اللبس ولأمكن حمل الكلام على غير ما أريد به.

وعن ضرورة ربط الجواب بالفاء في بعض الأحوال، قال سيبويه: "واعلم انه لا يكون جواب الجزاء إلا بفعل أو بالفاء. فأما الجواب بالفعل فنحو قولك: إن تأتني آتتك، وإن تضرب أضرب، ونحو ذلك. وأما الجواب بالفاء فقولك: إن تأتني فأنا صاحبك. ولا يكون الجواب في هذا الموضع بالواو ولا بثم.³ واختاروا الفاء دون الواو وثم، لأن حق الجواب أن يكون عقيب الشرط متصلا به. والفاء توجب ذلك.⁴ والفاء عند ابن جني تكون خالصة للإتباع، إذا ما استعملت في سياق الشرط والجزاء.⁵ وأما الزركشي فهو يعلل السبب الذي من أجله استعملت هذه الفاء، فيقول: "فأما الفاء التي تُلحق التالي - أي الجزاء- معقبةً فللاحتياج إليها؛ حيث لا يمكن أن يرتبط التالي بذاته ارتباطا، وذلك إن كان افتتح بغير الفعل كقوله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ البقرة: 115، وقوله سبحانه: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ﴾ الأنعام: 160، لان الاسم لا يدل على الزمان فيجازي به."⁶

كما يوضح الزركشي عن طريق المقارنة بين التراكيب المختلفة أن هذه الفاء ضرورية لأداء وظيفة الربط؛ قد يأتي الجواب جملة تامة مستقلة عن الشرط، وليعلم أنها جوابه لا بد أن ترتبط به، فإذا كان الجواب جملة فعلية صالحة لأن تكون جزاء فإن دلالة الحال كافية على أنها جواب، لأن الشرط يقتضي

1- ينظر سيبويه، الكتاب، 269/1. وابن قيم، بدائع الفوائد، 1/ 43.

2- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 213- 215.

3- سيبويه، الكتاب، 3/ 60.

4- سيبويه، الكتاب، 3/ 69. تح عبد السلام هارون.

5- ابن جني، الخصائص، 2/ 376.

6- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 353.

جوابا. وامتنع دخول الفاء للاستغناء عنها. وأما إذا كانت الجملة غير فعلية لم تكن صالحة بنفسها للجواب؛ لأن الشرط يقتضي فعلين، وما ليس فعلا ليس من مقتضيات أداة الشرط، فلا بد من رابطة. وجعلوا الفاء رابطة، كونها للتعقيب، فيدل تعقيبها على أن تلك الجملة جزء. وهذا هو السبب في تعاقب الفعل والفاء في باب الجزاء.¹

وملخص هذه الأقوال أن هذه الفاء هي مجرد حرف زائد للربط المحض الدال على التعليل، وليست للعطف ولا لغيره، وليس لها من معنى سوى الربط المعنوي بين جملة الجواب وجملة الشرط، لكيلا تكون إحداها مستقلة بمعناها عن الأخرى بعد تعذر وجود الجزم الذي كان يربط بينهما.

ويعرب المعربون هذه الفاء وكذا "إذا" الفجائية التي تخلفها مع الجملة التي بعدها في محل جزم جوابا للشرط. ولا يصح اعتبار الفعل الذي بعدها هو وحده الجواب كما لا يصح أن يجزم.²

ومن الثابت أن فاء الجواب تقتزن بالفعل في عدد من الحالات: إذا كان منفيًا أو طلبيا أو جامدا أو مستقبلا... ومن المسلم به أن الفعل الذي يقصده الزركشي (وهو الجملة الفعلية) ليس بواحد من هذه الأفعال. وبمعنى آخر فإن تعاقب الفعل والفاء معناه أن كل ما يقتزن بالفاء ليس فعلا.

وقول الزركشي بأن تعاقب الفعل والفاء يعني أن كل ما يقتزن بالفاء ليس فعلا، معناه أيضا أن ما لا يصلح أن يكون جواب شرط، يجب أن يقتزن بالفاء، فإن لم يقتزن بها كان مظنة الاستئناف.³

وتتضح فكرة الزركشي في قول ابن يعيش من "أن الشرط والجواب لا يصحان إلا بالأفعال، أما الشرط فلأنه علة وسبب لوجود الثاني، والأسباب لا تكون بالجوامد، إنما تكون بالأعراض والأفعال. وأما الجزاء فأصله أن يكون بالفعل أيضا، لأنه شيء موقوف دخوله في الوجود على دخول شرطه. والأفعال هي التي تحدث وتنقضي، ويتوقف وجود بعضها على وجود بعض لا سيما والفعل مجزوم، لأن المجزوم لا يكون إلا مرتبطا بما قبله ولا يصح الابتداء به من غير تقدم حرف الجزم عليه. وأما إذا كان الجزاء بشيء يصلح الابتداء كالأمر والنهي والابتداء والخبر فكأنه لا يرتبط بما قبله، وربما آذن بأنه كلام مستأنف غير جزء لما قبله فإنه حينئذ يفتقر إلى ما يربطه بما قبله، فأتوا بالفاء لأنها تفيد الإتيان وتؤذن بأن ما بعدها مسبب عما

1- الزركشي، المصدر السابق، 299-300.

2- عباس حسن، النحو الوافي، 4/ 459.

3- الشرط في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، إعداد: عبد العزيز علي الصالح المعيد، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1976، ص 195-196.

قبلها، إذ ليس في حروف العطف حرف يوجد هذا المعنى سوى الفاء، فلذلك خصوها من بين حروف العطف، ولم يقولوا: إن تحسن إلي والله يجازيك ولا ثم الله يجازيك...¹

وإذا كان الاقتران بالفاء واجبا في كل جملة لا تصلح أن تكون شرطا، ثم أريد لها أن تأتي جزاء، فإن هذا الحرف يكون حينئذ قرينة دالة على مشروطة هذه الجملة.

وهناك تفسير تقدم به أحد الدارسين المحدثين² يحاول أن يفسر به ارتباط الجواب بالفاء، وهو تفسير يعتمد جانبا دلاليا تترج فيه فكرة العمل النحوي Government بالزمن Time.

يقول هذا الدارس في وصف البنية الأساسية للتعليق الشرطي، بأنه ليس ثمة شك في أن العلاقة بين أي شرط وجوابه يمكن وصفها بأنها علاقة منطقية في الأصل، من حيث أن ما يعلق (أي الجزاء) أمر يمكن أن ينتج - استنادا إلى واقع الحياة- عن وقوع الشرط. ويفترض أن يكون تاليا له في زمن التحقق الواقعي؛ وهذا يعني أن وقوع الشرط، قد يفضي إلى وقوع الجزاء، وإن كان هذا الأخير ممكن الحدوث من غير تعليق على الشرط. فمثال الأول الآية الكريمة: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ جَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ المزملة: 20. ومثال الأخير الآية الكريمة: ﴿ إِنْ يَمَسُّنَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ آل عمران: 140.

يقول بأنه إذا كنا ممن يقبل بمقولة: إن الزمن في التعليق الشرطي، لا يستدل عليه بصيغ الأفعال وحدها، ولكن بها وبأداة الشرط، أي بالسياق. وإذا كنا كذلك ممن يقبل بمقولة: إن زمن الشرط - استنادا إلى هذا - مستقبل (في حيز أدوات الشرط غير لو ولولا)، وأن زمن الجواب كذلك مستقبل يلي المستقبل الأول، إذا كنا كذلك فلا بد إذاً من أن تكون بنية التعليق الشرطي المباشرة، التي تصدق فيها فكرة الزمنية السابقة... من النوع الذي لا يكون في جوابه ما يحول دون امتداد... أثر أداة التعليق في تحديد الزمن، إلى الجواب.

لا شك أن الزمن مستقبل في جواب الشرط الذي أوله: لن - سوف - السين، غير أن الاستقبال فيه ليس بتأثير من أداة الشرط، ولكنه بتأثير من القرائن المذكورة. وإذا ما جاء الجواب إنشائيا إيقاعيا تعجيبيا، أو إنشائيا إيقاعيا مادحا أو ذاما، فزمنه هو زمن النطق به، فالإنشاء كما يقال (أي كما يقول تمام حسان)

1- ابن يعيش، شرح المفصل، 2/9.

2- الأستاذ الدكتور: فيصل إبراهيم صفا، أستاذ النحو والصرف واللغة بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، له مقال منشور في المجلة التالي ذكرها، بعنوان: التعليق الشرطي: أسلوب للربط التركيبي والدلالي بين الجمل في النص.

ينظر: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية دورية سنوية محكمة، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، الجماهيرية العظمى، 1999، السنة الخامسة العدد الخامس، ص31.

إيقاعي من حيث كان زمن المدح أو الذم في هذه الصيغ هو زمن النطق به. وهذا معناه أن أداة الشرط لم يمتد تأثيرها إلى الجواب.

وكثيرا ما يقع الجواب جملة اسمية تتصل بما الفاء، وذلك لأن الزمن في الجملة الاسمية غير محدد؛ فهو مطلق. أي أن العلاقة بين المسند والمسند إليه فيها غير مقيدة بزمن. وإذا كان لا بد من لحظ زمن فيها فهو الحاضر، ولكان سبب اتصال هذه الفاء هو أن زمن الإسناد بين ركبي الجملة غير ذي علاقة بزمن الشرط الذي تقوم أداة التعليق بدور أساسي في تحديده. ويصح أن نقول إن العلاقة بين ركبي الجملة الاسمية علاقة ثابتة غير مترتبة على وقوع الشرط.

وما يقال في الجملة الاسمية المثبتة الواقعة جوابا، يقال في الجملة الاسمية الواقعة جوابا منفيًا بـ " ليس " أو " ما "، فبالإضافة إلى عدم امتداد أثر الأداة تحديد زمن الجواب في أي منهما، فإن كلا من ليس وما تنفي الحاضر؛ وهذا يقوي القول بانتفاء دور الأداة في تحديد زمن الجملة الاسمية الواقعة جوابا.

وكذا إذا وقع الجواب إنشاء طلبيا، حيث يكون زمن كل من الأمر والنهي والاستفهام حالًا بمجرد النطق بكل، فهذا يعني أن دور التعليق الشرطي في تحديد زمن الجواب دور ملغى، وإذا أخذنا بالرأي القائل بأن زمن هذه الصور من صور الإنشاء الطلبي مستقبل(بالنظر إلى زمن الاستجابة)، فهذا الاستقبال مستند إلى الطلب لا إلى أداة التعليق.

وإذا أنعمنا النظر في جواب شرط مبدوء بـ "عسى" فسنجد أن إفادة "عسى" لمعنى الرجاء، يكون ساعة النطق بها، وتشير إلى إمكان تحقق الجواب مستقبلا، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الفعل الواقع بعد "عسى" غير تام لوقوعه تاليا لـ "أن" الواقعة بعد "عسى"، تأكد لنا أن أداة الشرط غير ذات أثر في تحديد زمن هذا الجواب. ولعلّ قريبا مما قيل في "عسى" متصدرة لجواب الشرط، يقال في "لعل"، مبدوءا بها الجواب.

ولا شك في أن انحسار دور أداة الشرط في التحديد الزماني عن الجواب، يضعف من ذلك الارتباط بين الشرط والجواب. فاستدعت الحاجة إلى عامل يحمي ارتباط الأول بالآخر، ويعيد لأداة الشرط قيمتها في التعليق، فكانت الفاء هي ذلك العامل دون غيرها من الحروف.¹

2. الحالات التي يجب فيها ربط الجواب بالشرط عن طريق الفاء:

1- مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية دورية سنوية محكمة، المرجع السابق، 37، 38، 39.

عند عرضنا لفكرة أحد الدارسين المعاصرين في ضرورة ربط الجواب بالشرط بحرف الفاء، في كثير من استعمالات التركيب الشرطي، تبينت الحالات التي يربط فيها الجواب بالفاء، ولكنها كانت من غير تمثيل يجليها، وهي - كما قدمناها - مغرقة في المستوى النظري. والآن يحين طرح السؤال التالي: ما هي الحالات التي يجب فيها ربط الجملة الواقعة جوابا بحرف الفاء؟

إنها حالات معينة، نص النحاة عليها، وحصروها في ست مسائل، هي:

1. أن يكون الجواب جملة اسمية، نحو: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِيْخِرٍ فَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنعام: 17.

وهذا جريا على الظاهر وفي التحقيق الجواب محذوف، أي: يوصلك إليه.

2. أن تكون فعلية كالاسمية، وهي التي فعلها جامد، من نحو: ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنْأَ أَقْلَ مِنْكَ مَلَأَ وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ الكهف: 39-40، ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾.

3. أن يكون فعلها إنشائية، نحو: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ آل عمران: 31، ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ الأنعام: 150.

4. أن يكون فعلها ماضيا لفظا ومعنى، إما حقيقة نحو: ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يوسف: 77. وإما مجازا نحو: ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ النمل: 90، فقد نزل هذا الفعل لتحقيق وقوعه منزلة ما وقع.

5. أن تقترن بحرف استقبال نحو: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ المائدة: 54. ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ آل عمران: 115.

6. أن تقترن بحرف له الصدر¹، وهذا مثل قول الشاعر:

فإن أهلك فذي حنق لظاه
علي يكاد يلتهب التهابا¹

1- الحالات الست المعينة، أجري عليها القليل من التصرف الذي يتصل بلشواهد القرآنية.

ينظر على سبيل المثال: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب، التراث العربي، الكويت، 494/2.

فـ"حنق" مجرور بـ:"رب" مقدره، ولها الصدارة.. وأما دخولها في نحو: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ﴾¹ المائدة: 95، لأن الفعل مقدر خبراً محذوف؛ والتقدير على ذلك أن ما بعد الفاء جملة اسمية، أي: ومن عاد فهو ينتقم الله منه.²

3. نيابة "إذا" الفجائية الفاء:

حاور سيبويه الخليل في اقتران "إذا" الفجائية بجواب "إن" الشرطية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ الروم: 36. فأفاده بأن هذا كلام مُعَلَّقٌ بالكلام الأول، كما كانت الفاء معلقةً بالكلام الأول، وهذا هنا في موضع "قنطوا"، كما كان الجواب بالفاء في موضع الفعل. ومما يجعلها بمنزلة الفاء أنها لا تجيء مبتدأة، كما أن الفاء لا تجيء مبتدأة.³

وقد تَضَمَّنَ جواب الخليل أن "إذا" الفجائية معادلةٌ للفاء في جواب الشرط، واستدل على ذلك بأنَّ الفاء كـ"إذا" الفجائية في كونها لا تأتي أول الكلام. فالتشابه في الموقع نشأ عنه تشابه في الوظيفة. كما أنه تأوَّل الجملة الاسمية في جواب الشرط "هم يقنطون" بالجملة الفعلية الماضية "قنطوا". وهذا ضرب من التفسير اللغوي كان سيبويه يستعين به في الكتاب، وقد أفاد منه المفسرون وأهل اللغة من بعده.

ولحظ كل من ابن الأنباري وأبي البقاء ما في "إذا" من معنى المفاجأة الذي استلزم ألاَّ يبدأ بها، ومن ثمَّ صارت مساوية للفاء في الموقع؛ فابن الأنباري في إعرابه للآية السابقة يقول: "إن: شرطية، وجوابها إذا بمنزلة الفاء، وصارت إذا بمنزلة الفاء، لأنه لا يبدأ بها، لأنها تكون للمفاجأة، وإنما يبدأ بإذا إذا كان فيها معنى الشرط، ولا يجوز أن تقع جواباً للشرط؛ لأن جواب الشرط لا يقع مبتدأ."⁴

1- هذا الكلام تسلل عن العيش بعد قضاء حاجته، وإدراك ثأره، وإرغام عدوه، ولولا ما تيسر له من ذلك وتسهل لكان لا يسهل عليه انقطاع العمر، ولو مات مات بغصة. البيت لربيعه بن مقوم الضبي بن قيس، وينتهي نسبه عند مضر بن نزار. وهو شاعر إسلامي مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وشهد القادسية، وعاش مائة سنة.
ينظر: ابن الحسن البصري(صدر الدين علي بن أبي الفرج)، الحماسة البصرية، تحقيق عادل جمال سليمان، القاهرة، 1987، 1/ 154.
2- أبو حيان، البحر المحيط، 25/4.
3- سيبويه، الكتاب، 64/3. مع تسجيل ما سبق الشاهد في هذه الآية من أجل أن يبرز معنى المفاجأة في "إذا".
4- أبو البركات بن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق: طه عبد الحميد طه الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980، 2/ 251. وأبو البقاء العكبري (عبد الله بن الحسين بن عبد الله)، إملأ ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 2 / 16.

وجاء في الكشاف أيضا عند تفسير آية الروم نفسها قوله: فإن قلت: ما الفرق بين إذا وإذا، قلت: الأولى للشرط والثانية للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط، ومثل قول الزمخشري جاء في البحر¹.

وذهب بعضهم كالأخفش إلى أن "إذا" المفاجأة حرف وليست باسم، "لأنه ناب عن الفاء في جواب الشرط وأغنى غناه، فيكون حرفا"². وهذا الحكم أقرب للواقع بالقياس.

والقول بحرفية "إذا" يتلاءم والوظيفة التي تؤديها في التركيب الشرطي، فهي تدل على معنى في غيرها، هو أن المضمون الذي يليها يعد مفاجأة بالنظر للمضمون الذي يسبقها.

ولا يجوز أن تجتمع "إذا" المفاجأة والفاء الرابطة للجواب، من نحو إن تقم فإذا زيد قائم، لأنها عوض منها فلا يجتمعان³؛ لأنه من أصول العربية ألا يجتمع المعوض والمعوض.

وقد اجتمعتا في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء: 96-97. وقوله: ﴿قَالَ أَلْقَاهَا يَا مَوْسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ طه: 20.

وقد تناول أبو البقاء العكبري إعراب الآيتين واكتفى بلأن ذكر: "فإذا للمفاجأة." وقال بعد إعراب "إذا" بأنها "قد دخلت الفاء عليها في بعض المواقع زائدة"⁴.

وأما أبو السعود في تفسيره فيقول: وإذا المفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية.. فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط.⁵ والظاهر أن أبا السعود ينطلق من أحد أصول العربية مفاده أن الزيادة في المبنى لزيادة في المعنى.

ويتحصل من اجتماع الفاء وإذا في جواب الشرط أن الفاء تكون زائدة، وإن كانت هي الأصل في ربط الجواب بالشرط.

1- الزمخشري، تفسير الكشاف، 202/3. وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 7/168.

2- ابن هشام، المغني، 87/1.

3- السيوطي، الأشباه والنظائر، 138/1.

4- أبو البقاء العكبري، إملأ ما من به الرحمن، 186/2.

5- تفسير أبي السعود، 3/536.

ولا ترد " إذا " في أساليب العربية خالفة الفاء في ربط الجواب بالشرط، إلا إذا كانت أداة الشرط هي: إن أو إذا، لأن الشرط بهما لا يكون إلا مستقبلا، وذلك هو المعنى المناسب لوقوع المفاجأة. (يدعم هذا الحكم بما يناسب من المصادر والمراجع)

4. اللام في جواب لو ولولا:

قال الزركشي عن اللام في جواب "لو" في نحو قول الله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ الواقعة: 65، إنها تفيد تأخره لأشد العقوبة... وهذا بخلاف: لو نشاء جعلناه أجاجا، بغير اللام، فإنه يفيد التعجيل، أي جعلناه أجاجا لوقته¹. وهذا القول ربما استند إلى كون الزيادة في المبنى تفيد زيادة في المعنى. كما أنه قول لا يصرح بأن هذه اللام رابطة، أي تؤدي وظيفة الفاء في جواب الشرط.

وأما ابن يعيش فقد ذهب إلى أن اللام في جواب لو ولولا يؤتى بها لتأكيد الارتباط.² وقوله لا يفهم منه أن هذه اللام لها وظيفة الربط وإنما هي تؤكد ربطا كان قائما، وهذا الربط يكون مفهوما من سياق التركيب الشرطي.

ولا يوافق ابن هشام زعم أبي الفتح بن جني في أن اللام بعد "لو ولولا ولوما" لام جواب قسم مقدر، ورد عليه في أن الأؤلى في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 103، أن تكون لام جواب قسم مقدر، بدليل كون الجملة اسمية. أما القول بأنها جواب لام "لو"، وأن الاسم استعيرت مكان الفعلية ففيه تعسف. مما يدل عند ابن هشام على ضعف قول ابن جني؛ إذ لو كانت اللام بعد لو أبدا جواب قسم مقدر، لكثير مجيء نحو: "لو جاءني زيد لأنا أكرمه" كما يكثر ذلك في القسم.³

والظاهر مما تقدم أن اللام الواقعة في جواب الشرط قد تقع وقد لا تقع، فإذا وقعت كانت مجرد توكيد الجواب.

5. أحكام تختص بالشرط والجزاء من حيث الصورة:

1- البرهان، 337/4

2- شرح المفصل، 23/9.

3- مغني اللبيب، 271/3-273.

1. لا بد أن تكون جملة الشرط فعلية، وفعلها فقط هو فعل الشرط، وأما جملة الجواب فقد تأتي فعلية، وقد تأتي غير ذلك بشرط اقتراحها بالفاء أو ما يخلفها. والأصل في الشرط والجزاء أن يأتيا فعلين مضارعين، والرباط صوت الجزم في الفعل المجاب به.
2. وقد يحذف كل من جملي الشرط والجزاء، بشرط أن تقوم قرينة بالدلالة عليهما. والأغلب عند حذفهما أن تكون أداة الشرط "إن" مثل قول الشاعر:

نودعكم، ونودعكم قلوبا	لعلّ الله يجمعنا، وإلاّ
-----------------------	-------------------------

أي وإلا يجمعنا الله هلكنّا، أو شقينّا.

وقول آخر:

فإن المنية من يحشها	فسوف تصادفه أينما
---------------------	-------------------

أي أينما يذهب فسوف تصادفه.

3. وجوب المغايرة في دلالة كل من الجملتين؛ لأنه ليس من الاستقامة في شيء أن يعقد كلام من جزء هو نفسه الشرط، وبعبارة أخرى لا تنبني فائدة من تركيب يسلك فيه الجزء من نفس معنى الشرط، بل لا بد من المخالفة بين الجملتين، لأجل المخالفة بين المضمونين.
4. الربط بينهما برابط ما، يمنع استقلال أي منها عن الأخرى. وذلك الرابط هو أداة الشرط ذاتها، ويضاف إليها صوت الجزم أو الفاء أو "إذا" المفاجأة، أو اللام عند الاشتراط ب"لو أو لولا"، والربط باللام أكثر من عدمه كما يقره الاستعمال.¹
5. تتحدد جهة الزمان في الجملتين بالاستقبال في الشرط الإمكانى، وقلما يأتي الشرط ب: "إن" مفيد لمعنى المضى. وأما الشرط الامتناعي فإن الربط بين طرفيه ينعقد في زمن المضى، وقلما يفيد معنى الاستقبال. وللسياق الدور الكبير في تحديد ما إذا خرج الشرط الإمكانى أو الامتناعي من بابه.

المطلب 5- الرتبة في التركيب الشرطي:

تحت هذا العنوان، درس علماء النحو والأصول مسألتين هما:

تقدم الجواب على الشرط،

1- عباس حسن، النحو الوافي، 4/ 471، 481.

اتصال الشرط بالكلام وانفصاله عنه.

1. تقدم الجواب عن الشرط:

ذهب سيوييه وجمهور النحاة البصريين إلى أن الشرط يتقدم على الجزاء لأن أداة الشرط تتصدر التركيب الشرطي، وتعمل في الشرط والجزاء معا، ولا يجوز أن يتقدم عليها الجزاء أو بعض منه. فإذا تقدم أو تقدم شيء منه على الأداة كان ذلك المتقدم دليلا على الجزاء أو شبه جزء وليس إياه¹.

ولكننا نجد المبرد يقول بجواز الجواب المتقدم على أداة الشرط وضرب أمثلة عليه بالأداة "إن" فقال: "ما يجوز من الكلام: أتيتك إن أتيتني، وأزورك إن زرتني، ويقول القائل: أعطيني درهماً؟، فأقول: إن جاء زيد، وتقول: أنت ظالم إن فعلت." ثم قدم أمثلة بغير الأداة "إن" فقال: "فإن قلت آتي من أتاني، وأصنع ما تصنع، لم يكن ههنا جزء، وذلك أن حروف الجزاء لا يعمل فيها ما قبلها... إلا أنك لما ذكرته سد مسد جواب الجزاء"² ومعنى ذلك أن الأداة في هذه الحال تُحمل على معنى "الذي"، والمتقدم ليس جزءا ولكنه كلام وارد على سبيل الإخبار، والجزاء محذوف.³

وأما إذا كانت الأداة هي "إن" فإن المبرد يرى أن ما تقدم هو نفسه الجواب، وقد تقدم جوازا. ويذهب جمهور النحويين الكوفيين وأبو زيد الأنصاري والمبرد - فيما حددناه-، إلى أن ما يتقدم على أداة الشرط هو جزء.⁴

وتناول الأصوليون هذه المسألة أيضا، ولكن من غير منظور العامل، فكان رأيهم أن تقدم الشرط أولى، لكن يجوز تقديم الجواب عليه، من غير أن يختلف التركيبان من جهة الدلالة. ونسوق على سبيل الذكر لا الحصر قول الباقلاني. قال: "وقد يصح تقديم الشرط اللغوي المخصص للعام ويجوز تأخيره؛ لأنه لا فرق بين قول القائل: إن جئتني جئتك، وبين قوله أجيئك إن جئتني، فيقدم تارة الشرط، ويؤخر أخرى"⁵

1 - ينظر على سبيل المثال شرح الأشموني : حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 4/ 22-23.

2 - المبرد، المقتضب، 2/ 66.

3 - شرح التسهيل، 4/ 85 - 86.

4 - أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب، 4/ 1879.

5 - الباقلاني، التقريب والإرشاد، 3/ 163 - 164.

وفي تحقيقه لأوضح المسالك، أوضح محمد محيي الدين عبد الحميد الفرق بين دلالة التقديرين عند كل من البصريين والكوفيين ومن لف لفهما، وهو معنى دقيق يتبين بقولك: "أنت ظالم إن آذيتني"، فإن معناه على تقدير البصريين أن المتكلم بنى كلامه أول الأمر على الإخبار جازماً بأن المخاطب ظالم، ثم بدا له أن يعلقه على الشرط، فهو أشبه شيء بالتخصيص بعد التعميم، وأما على تقدير الكوفيين، فإن المتكلم بنى كلامه على الشك، والتردد من أول الأمر، وفرق بين البناءين.¹

والحق أن العبرة في معنى التركيب الشرطي تكمن في ما يتلقاه المخاطب. والمعنى في التقديرين يؤول إلى شيء واحد هو أن الشرط علقَّ الجزء، وخصصه، وجعله يدخل في مجال التردد والشك. أي كأنه لا فرق بين التقديرين إلا بما هو جار في نية المتكلم من بناء على الجزم أو الشك.

وردّ العالم الأصولي الزركشي (794هـ) على علماء الأصول في قولهم بأن تقديم أو تأخير الجواب سواء في الدلالة. واعتمد في رده على آراء نخاة الكوفة والبصرة، قال: "فمذهب البصريين أن الشرط له صدر الكلام كالاستفهام، فلا يتقدم عليه الجواب، فإن تقدم عليه شبه بالجواب، وليس بجواب. وجوزّه الكوفيون، فنحو: أنت طالق إن دخلت الدار، تقديره عند البصريين: أنت طالق إن دخلت الدار، فأنت طالق. ولا تقدير عند الكوفيين، بل هو جواب مقدم من تأخير، ووردّ بأنه لو كان كذلك لما افترق المعنيان، وهما مفترقان، ففي التقديم مَبْنَى الكلام على الجزم، ثم طرأ التوقف. وفي التأخير مَبْنَى الكلام من أوله على الشك."² ثم ضرب مثالا يوضح به الفرق الدلالي بين التقديم والتأخير، وهو فرق ينجم عنه اختلاف في الحكم الفقهي، فقال: "لو قال لزوجته: طلقي نفسك ثلاثاً إن شئت، فطلّقتُ يقع، ولو قال: إن شئت طلقي نفسك، فطلّقت لا يقع شيء."³

والذي يبدو أن الخلاف بين الأصوليين في مسألة التقديم والتأخير هو في أساسه خلاف فقهي، يجد له كل فريق مخرجا نحويا.

ثم إذا كان تقديم الجزء يقع به الحكم الفقهي كما في مثال التطليق السابق، وتأخير الجزء لا يقع به، فإن هذا قد يكون حقيقة في الشرط الفقهي لا اللغوي.

1 - حاشية أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 4/ 418.

2 - الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: عمر سليمان الأشقر، دار الصفوة، الغردقة مصر، الطبعة 2، 1992، 3/ 332.

3 - نفس المصدر، 3/ 333.

2. اتصال الشرط بالكلام وانفصاله عنه:

تناول النحاة هذا الجانب في مبحث الترتيب بين جملي الشرط والجزاء، أي فيما إذا كان الجزاء متقدما الشرط أو تاليا له، وما يعقب ذلك من القول بحذف الجزاء أو عدمه.

كما تناولوه في قضية الفصل بالاسم بين أداة الشرط "إن" والفعل الظاهر. قال المبرد في باب ما تحتمل حروف الجزاء من الفصل بينها وبين ما عملت فيه : "أما "إن" إذا لم تجزم، فالفصل بينها وبين ما عملت فيه في الظاهر جائز بالاسم. وذلك قوله: إن الله أمكنني من فلان فعلت، وإن زيد أتاني أكرمته ، كما قال الشاعر¹:

عَاوِدْ هَرَاءَ وَإِنْ مَعْمُورُهَا حَرْبًا
---	-------

و إنما تفسير هذا: أنك أضمرت الفعل بينها وبين الاسم، فتقديره: إن أمكنني الله من زيد، وإن حرب معمورها، ولكنه أضمر هذا، وجاء بالفعل الظاهر تفسيرا ما أضمر، ولو لم يضم لم يجز؛ لأن الجزاء لا يكون إلا بالفعل. وإنما احتملت "إن" هذا في الكلام، لأنها أصل الجزاء.² وقال ابن السراج (316هـ): "وزعم سيبويه أنه جاز فيها ما امتنع في غيرها لأنها أصل الجزاء قال : والدليل على ذلك أنها حرفه الذي لا يزول عنه لأنها لا تكون أبداً إلا للجزاء وَمَنْ تكون استفهاماً وتكون في معنى الذي وكذلك ما وأيُّ وأين ومتى تكون استفهاماً وجميع الحروف تنقل غيرها."³

وملخص ما نص النحاة عليه بقوة في مسألة اتصال الشرط بالكلام، هو عدم الفصل بين الأداة وفعل الشرط، وأن ما قد يرى من فصل الاسم بين "إن" وفعل الشرط لا يكون إلا مع حرف الشرط هذا؛ لقوة تمكنه في معنى الجزاء وعدم انصرافه إلى غيره من المعاني. وهذه الخاصية لا تتوفر في بقية أدوات الشرط أسماء وظروفا. كما أن "إن" في هذا الاستعمال لا يظهر عملها لدخولها على فعل الشرط المضمّر المفسّر بعد الاسم الفاصل بينها وبين الفعل المفسّر.

1 - هذا صدر بيت عجزه:

وأَسْعِدِ اليَوْمَ مَشْغُوفًا إِذَا طَرَبًا
---	-------

وهو لشاعر من أهل هرة بخراسان، والبيت من أبيات قالها الشاعر بمناسبة فتح عبد الله بن خازم هرة في سنة 66هـ. والبيت من شواهد سيبويه 112/3، (تحقيق عبد السلام محمد هارون)، والمقتضب 72/2، والجوهري (إسماعيل بن حماد)، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، 1987، 475 / 8.

2 - المبرد، المقتضب، 72/2.

3 - ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي)، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 195/2.

ويختلف معنى الفصل عند الأصوليين عنه عند النحاة؛ فهو يعني عندهم ألا يفصل الشرط عن الجزاء، وإنما يجب أن يتصل الشرط بالكلام. واتفقوا على أن الشرط تقييد كالاستثناء، كما يجب أن يكون الخارج به أكثر من الباقي.¹

المبحث 3- الشرط الحقيقي والشرط المطلق:

المطلب 1- معنى الشرط على الحقيقة والإطلاق، وعلاقته ببنية التركيب الشرطي:

لأسلوب الشرط عند النحاة معنى معين، يعتبرونه الأصل في دلالة التركيب الشرطي، ويفرض هذا المعنى أن تكون بنية هذا الأسلوب على صياغة محددة. فإذا لم يقصد المتكلم ذلك المعنى الأصلي المعين، بأن أراد مطلق التعليق بين مضموني جملتين، كان له أن يتصرف في نظم هذا التركيب.

المطلب 2- ركائز الشرط الحقيقي:

1. ملزومية الشرط ولازمية الجواب:

التركيب الشرطي أسلوب للربط والتعليق بين جملتين؛ بحيث تجمع أدوات الشرط بين جملتين، تسمى الأولى جملة الشرط والثانية جوابه وجزءه. وفي هذا التركيب يُعْتَبَرُ المتكلم تحقق مدلول الشرط ووقوع معناه شرطاً لتحقيق مدلول الجواب ووقوع معناه، وبهذا الاعتبار لا يمكن أن يتحقق الجواب إلا بتحقيق الشرط، سواء أكان الشرط سبباً في وجود الجواب والجزاء نحو: إن تطلع الشمس يختف الليل، أم ليس سبباً نحو: إن كان النهار موجوداً كانت الشمس طالعة؛ فكون النهار موجوداً ليس سبباً في طلوع الشمس، وإنما هو ملزوم. وطلوع الشمس لازم له. ولهذا يقول النحاة: إن الشرط ملزوم دائماً والجزاء لازم؛ سواء أكان الشرط سبباً أم غير سبب. وهذه العلاقة الدلالية بين مضموني الشرط والجزاء تمثل ركيزة من ركائز ثلاثة يبني عليها الشرط الحقيقي عند النحاة.²

2. جزم الشرط والجزاء، وارتباطهما بالزمن المستقبل:

1 - الرازي، المحصول، 62/3. الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 80/1. والشوكاني (محمد بن علي بن محمد) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي دمشق، الطبعة الأولى، 1999، 1/377.
2. ينظر المبرد، 45/2. وشرح الكافية للرضي الأستبازي، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط2، 1996، 451/4. وعباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط3: 4 / هامش ص422.

ولا يقع الشرط الحقيقي إلا إذا كان كل من الشرط والجزاء فعلين مستقبلين استقبالا محضا، بصرف النظر عن صيغتيهما، بل وعن الأداة أيضا، وإن كان الأصل أن يأتيا مضارعين مجزومين¹، أو في محل جزم إن كانا ماضيين صورة؛ لأن الشرط فعل مفترض الوجود ويتعلق بوجوده دخول الجزاء في الوجود. ولا يعقل ذلك الفرض والتقدير إلا في الزمن المستقبل. يقول ابن يعيش إن سيويه إنما ذكر إن وإذما فقط في حيز حروف الشرط، ولم يذكر "لو" لأن معناها الماضي. والشرط إنما يكون بالمستقبل، لأن معنى تعليق شيء على شرط إنما هو توقيف دخوله في الوجود على دخول غيره في الوجود، ولا يكون هذا المعنى فيما مضى. وإنما ذكرها من ذكرها في حروف الشرط لأنها كانت شرطا فيما مضى؛ إذ كان وجود الثاني موقوفا على وجود الأول في الزمن الماضي...²

إن الركيبتين الثانية والثالثة في بنية التركيب الشرطي الأصلي هما الإعراب بالجزم، والاستقبال. لا الرفع أو النصب، ولا الماضي أو الحضور.

المطلب 3- التركيب الشرطي والحكم بالصدق والكذب:

- لا تنعقد فائدة في الحكم على الشرط والجزاء الحقيقيين بالصدق أو الكذب، لعدم القطع بوقوعهما.
- وأما إذا دلّ الفعلان على الماضي دلالة صريحة فإن ذلك يعني ثبوتهما وتحققهما فعلا، وبالتالي ينعقد الحكم عليهما بالصدق أو الكذب. وهذا ما يضعف معنى الشرط الحقيقي، ويكون التعليق على شبه الشرط.

1 . قال ابن مالك: وأجزم بأن ومن وما ومهما..... فعلمين يقتضين شرط قدما ... يتلو الجزاء وجوبا وسما. أي إن "أدوات الشرط تقتضي جملتين، تسمى الأولى شرطا والثانية جزاء وجوبا أيضا. ويجب كون الأولى فعلية، وأما الثانية فمنها ما تكون فعلية أيضا ومنها ما تكون اسمية... وقد قال (فعلين) تنبيهها على أن الحق في الشرط والجزاء أن يكونا فعلين، وإن كان ذلك لا يلزم في الجزاء." ينظر: المرادي(749هـ)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تح: عبد الرحمان علي سليمان، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1277.1274/4 /2001.

2 . ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، 155/8.

- ولا ينعقد الشرط الحقيقي بإذا أيضا على الرغم من كونها للاستقبال؛ لأن الذاكر لها كالمعترف بوجود ذلك الأمر، نحو قولك: "إذا طلعت الشمس فأتني"، فقولك إذا طلعت، فيه اعتراف بأنها ستطلع لا محالة. وحق ما يجازى به ألا يعلم أيكون أم لا يكون.¹

المطلب 4- أحكام نحوية ودلالية ناجمة عن مطلق التعليق:

وإذا ضعف معنى الشرط الحقيقي، صار إلى مطلق التعليق، أي الربط بين حدثين أو أكثر على جهة التبعية، من غير اختصاص بالزمن المستقبل، ولا جزم للفعلين. وفي هذه الحال تتغير أشياء كثيرة في التركيب الشرطي وهي:

- 1) دخول كل الأدوات التي تتضمن معنى تعليق حدث بحدث، في أسلوب الشرط(لو. إذا).
- 2) فقدان الشرط والجزاء قيد الزمن المستقبل. فيخرجان بذلك من حيز الإمكان.
- 3) غياب الإعراب بالجزم. ومن ثم وجوب ربط الجواب بالفاء، للدلالة على تبعية مضمون جملة الجواب لمضمون جملة الشرط تبعية المسبب للسبب.²
- 4) إتيان الأفعال في هذا التركيب على الماضي والحاضر.
- 5) جواز ألا تتكون جمل الشرط والجزاء من الأفعال، ولزوم تأويل الفعل فيها.
- 6) إمكانية الحكم على هذه الأفعال بالصدق أو الكذب لدلالاتها على الماضي أو الحال، بما يعني أنها دخلت في حيز الوجود والثبوت.

7) حدوث التغيير في ترتيب بنية هذا التركيب، بوقوع جملة الجواب أو جزء منها قبل جملة الشرط، الأمر الذي أدى إلى خلاف بين النحاة حول تأويله. وعلى أية حال فمعنى المجازاة الحقيقية يضعف، وهو

1. شرح المفصل، ابن يعيش، 4/9.

2. وهذا الحكم النحوي المتمثل في وجوب ربط الجزاء بالفاء، وضع له النحاة بعض الضوابط كقولهم بان الجواب الذي يصلح الابتداء به يجب قرنه بالفاء، أو نحو قول ابن مالك: وأقرن بفا حتما جوابا لو جعل ... شرطا لإن أو غيرها لم ينجعل = يقول المرادي في شرحه على هذا البيت بأن الأصل في جواب الشرط أن يكون فعلا صالحا لجعله شرطا، فإذا جاء على الأصل لم يكن في حاجة إلى الاقتران بالفاء، وذلك إذا كان ماضيا متصرفا مجردا من قد وغيرها، أو مضارعا مجردا أو منفيا بلا ولم.
2. المرادي(749هـ)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، 4/1281.

ما يفهم من كلام الرضي الأستريادي: "والشرط مرتبته التصدر، فإذا توسطت كلمة الشرط ضعف معنى الشرطية الأصلية."¹

8) الشرط والقيد² في التركيب الشرطي: لا يكون الحكم بحرية التركيب الشرطيّ أو إنشائيته مفيدا إلاّ إذا بني الجواب على شبه الشرط(بمجرد العليق). وحينئذ تتغير صيغة الجواب بأن تتحول إلى ما يمكن الابتداء به، ويصبح الشرط بمنزلة القيد للجواب.

وهنا يصدق ما يقول به الأستاذ عبد السلام هارون وهو أن خبرية الجملة الشرطية وإنشائيته ترجعان إلى طبيعة الأسلوب الذي جرت عليه جملة الجواب، وما الشرط إلا قيد فيها³. وأما أن يكون هذا الضابط مطلقا فلا.

المبحث 4- التركيب الشرطي والتخصيص:

المطلب 1- دلالة الشرط على التخصيص:

هذا الجانب الدلالي من التركيب الشرطي حظي باهتمام علماء الأصول أكثر من اهتمام النحويين به. فالنحويون قالوا بوظيفة الشرط التي يؤديها في تقييد الجواب. ولكن الأصوليين وجدوا فيه مخصصا للعموم، ولولا أنّ المتكلم أراد التعبير عن معنى التخصيص في كلامه ما كان ليشرط، وما كان يختار هذا النوع من الأساليب. والشرط عندهم بمنزلة الاستثناء لأنه يتقاطع دلاليا معه؛ قال الإمام الغزالي: "لا فرق بين قوله: اقتلوا المشركين إلا أن يكونوا أهل عهد، وبين أن يقول: اقتلوا المشركين إن كانوا حربيين"⁴.

1 . سعيد حسن بحيري، التركيب الشرطي في مقابسات أبي حيان التوحيدي دراسة تركيبية دلالية، ضمن كتاب: تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2002، 128.

2 - اختلاف الشرط عن القيد:

القيد عبارة عن تحديد جهة دلالية تعدل بالفعل وتخرجه من إطلاقه. وقد يتقدم القيد فيكون تقدمه على نية التأخير. كما أنه فضلة في الجملة، ولذا يمكنها أن تبنى من دونه. ومن القيود الأحوال والمفعولات والظروف.

وأما الشرط فهو "وقوع الشيء لوقوع غيره" وذلك يقتضي جملتين تعلق بينهما أداة الشرط، ولو حذفت الأداة وجملة الشرط لفقد التعليق الشرطي، ولتغير التركيب الشرطي إلى مجرد جملة بسيطة خبرية أو إنشائية. وأما عبارة الشرط المكونة من الأداة والفعل فتتصدر التركيب، لأن حق الأدوات التي تغير معنى الكلام أن تتصدره. وإذا أخرت فهي على نية التقديم، وجوابها محذوف مدلول عليه بما تقدم عبارة الشرط.

3. عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص24.

4 - المستصفي، 2/ 189.

المطلب 2- لانفراد والتعدد في الشرط والجزاء:

ولاحظ الأصوليون صور العطف المختلفة التي قد ترد في حيز الشرط أو في حيز الجزاء أو في الحيزين معاً، وما يتصل بهذه الصور من معاني التخصيص الكثيرة.

وقد يتعدد فعل الشرط أو الجزاء. فإذا دخل فعل الشرط الواحد على جزأين على سبيل الجمع، فإن تخصيص فعل الشرط يتسلط عليهما معاً، ويكون الجزاء الثاني قد زاد الجزاء بجملته في التخصيص بالشرط، ففي قولك: "إن سألك فقير فأعطه نقوداً واكسئ حلة"، الشرط يقتضي حصولهما معاً، أي: أن العطاء والاكسئ معاً مختصان بسؤال الفقير، وقد زاد الجزاء الثاني في درجة اختصاص الجزاء برمته بالشرط. وأما إذا دخل فعل الشرط الواحد على جزأين على سبيل البدل، فإن فعل الشرط يتخصص بحصول أحدهما، نحو قولك: "إن أجزمت في حق أخيك طردتك أو جلدتك"، فمقتضاه اختصاص الطرد بالإجرام أو الجلد به، ويكون الجزاء الثاني في هذه الحالة قد رفع بعض التخصيص عن الجزاء الأول، ويترك تعيين أحدهما للمتكلم.

وفي حالة دخول شرطين على جزء واحد، فإن كانا على الجمع لم يحصل المشروط إلا عند حصولهما معاً، نحو قولك: "إن دخلت الحديقة وقطفت زهرة منها عاقبتك" فمقتضى الشرط تخصيص العقاب بدخول الحديقة وقطف الزهرة مجتمعين، ويكون فعل الشرط الثاني قد زاد في التخصيص، أي ازداد نطاق الشرط "المدمج دلالياً" ضيقاً وانحصاراً، ولا يقع الجزاء المعلق به إلا في المزيد من الندرة. وأما إذا كانا على البدل فإن المشروط يحصل بحصول أحدهما نحو قولنا: "إن دخلت الحديقة أودنت منها عاقبتك". فالشرط يقتضي العقاب بحصول أحد الشرطين، أي أن العقاب متخصص بوقوع أحد الشرطين. ويكون الشرط الثاني قد رفع بعض التخصيص؛ لأننا لما قلنا: "إن دخلت الحديقة" نفينا العقاب بفقد الدخول وأخرجناه من الكلام، فلما قلنا: "أودنت منها" أوجبنا العقاب بالدنو وإن لم يدخلها.¹

يتضح في هذا المثال أن الجزاء، أو ما دل عليه جاء قبل الشرط، وهذا المثال وما يشابهه مأخوذ من كتب أصول الفقه، وهو يدل على عدم تأثير الحكم الشرعي عند الأصوليين بتقدم الجزاء على الشرط أو تأخيره.

1 - محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول في علم الأصول، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، الطبعة الأولى، 1400، 3/ 94-96.

وموسى بن مصطفى العبيدان، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين، الأوايل للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، 2002، ص 182-183.

والشرط الواحد إذا دخل على جزأين على سبيل البدل كقولك: " إن زنت جلدتك أو نفيتك " فمقتضاه أحدهما، مع أن التعيين فيه إلى القائل.¹

والعناية التي أولاها الأصوليون للشرط تصب في خانة الدلالة التي تكون للحكم متعلقا بالشرط، وعلى الخصوص عندما يتعدد الشرط أو الجزاء على جهة الجمع أو البدل. وتتخلص وظيفة الشرط ال دلالية في معنى التخصيص.

والجدول التالي يوضح الأقسام التسعة للانفراد والتعدد اللذين قد يطران على جملي الشرط والجزاء. علما أن هذه الأقسام نظرية استقصائية، ليس من الضروري وجودها بجميع أحوالها في المدونة القرآنية، كما أن بعض أمثلتها مختلف عن الأمثلة التي تقدمت لزيادة الفائدة:

حالة الشرط	حالة الجزاء	مثال	حكم الحالة
1- شرط واحد.	جزاء واحد.	أكرم بني تميم إن دخلوا الدار	يتحقق الجزاء بتحقق الشرط، ويختل باختلاله.
2- شرط واحد .	جزاءات متعددة على الجمع (العطف بالواو)	إن دخل زيد الدار فاعتقه واعطه دينارا	يتحقق الجزاءان بتحقق الشرط الواحد، ويختلان باختلاله.
3- شرط واحد.	جزاءات متعددة علما لبدل (العطف بأو)	إن دخل زيد الدار فأعطه دينارا أو ثوباً.	يتحقق أحد الجزأين بتحقق الشرط، ويختل كل منهما على حدة باختلاله.
4- شروط متعددة على الجمع (العطف بالواو)	جزاء واحد.	أكرم بني تميم إن دخلوا الدار والسوق.	يتوقف الجزاء على اجتماع الشرطين، ويختل باختلال أحدهما.

1 - محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول في علم الأصول، 3 / 96.

الفصل الثاني : الشرط، أدواته، أحكامه، وقضايه الدلالية.

5- شروط متعددة على الجمع(العطف بالواو)	جزاءات متعددة على الجمع(العطف بالواو)	إن دخل زيد السوق والدار فأعطه ديناراً وثوباً.	الجزاء متوقف على اجتماع الشرطين، ومختل باختلالهما، أو باختلال أحدهما.
6- شروط متعددة على الجمع(عطف بالواو)	جزاءات متعددة على البدل(عطف بأو)	إن دخل زيد السوق والدار فأعطه ديناراً أو ثوباً.	الجزاء، وهو إعطاء أحد الأمرين متوقف على اجتماع الشرطين، واختلاله باختلال أحدهما.
7- شروط متعددة على البدل(عطف بأو)	جزاء واحد.	أكرم بني تميم إن دخلوا الدار أو السوق.	تقتضي الشرط توقف الجزاء على تحقق أحد الشرطين، واختلاله باختلال أي منهما.
8- شروط متعددة على البدل(عطف بأو)	جزاءات متعددة على الجمع(عطف بالواو)	إن دخل زيد الدار أو السوق فأعطه ديناراً وثوباً.	الجزاء وهو إعطاء الأمرين متوقف على أحد الشرطين، ومختل باختلالهما معاً
9- شروط متعددة على البدل(العطف بأو)	جزاءات متعددة على البدل (العطف بأو)	إن دخل زيد الدار أو السوق فأعطه ديناراً أو ثوباً.	الجزاء وهو إعطاء أحد الأمرين متوقف على تحقق أحد الشرطين، واختلاله باختلال مجموع الشرطين.

الجدول 1: استقصاء حالات الانفراد والتعدد في الشرط والجزاء

الفصل الثالث:

دلالات العدول بالزيادة

في التركيب الشرطي

أهم المباحث:

المبحث 1- الزيادة بعضد الشرط

المبحث 2- الزيادة بتقييد الجواب

المبحث 3- الزيادة بدخول أساليب لغوية

المبحث 4- الزيادة بعطف المقابل للتركيب الشرطي

تمهيد...

أقدم في هذا الفصل بعض الأفكار النظرية عن التحويل الذي يطرأ على التركيب الشرطي محدثاً فيه زيادة على نمطه الأولي. كما أعرض جملة من المفاهيم التي تتصل بهذا النوع من العدول مثل مفهوم التخصيص بالشرط، ودلالة المفهوم فيه. وإذ أعرج على شيء من المعلومات النظرية، فأنا أروم تقريب المفاهيم من مظان النماذج المراد دراستها والتطبيق عليها.

فالزيادة هي من عناصر التحويل، وهي عبارة عما يضاف إلى الجملة التوليدية من كلمات، ويسمى النحاة "الفضلات"، ويسمى علماء البلاغة "القيود"¹، وهي ليست فضلات زائدة دخولها كخروجها، وإنما هي كلمات أو كلم تضاف لتح زيادة في المعنى، فكل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى.

وقد ذكر الجرجاني في مواضع من نظرية النظم أن الكلام المفيد ينتظم أدناه من طرفي الإسناد. وللمتكلم أن يزيد على ذلك فيعمد إلى الاسم (فاعل أو مفعول به أو مبتدأ أو خبر) فيشبعه اسماً آخر يكون له صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو يرتقي في الزيادة فيعمد إلى جملة هي لإثبات معنى ويدخل عليها نفياً أو استفهاماً أو تمنياً فيتحول ذلك المعنى المثبت إلى نفي أو استفهام أو تمن، وللمتكلم أن يتجاوز ذلك المستوى من الزيادة، فيعمد إلى فعلين فيجعل أحدهما شرطاً في الآخر، بأن يأتي بهما معا بعد حرف الشرط أو ما تضمن معناه من الأسماء². وللمتكلم أن يزيد على هذا النحو من تقييد المفرد أو الجملة أو أكثر من الجملة.

قال الجرجاني إنه لا يتحقق النظم في التراكيب الإسنادية "من غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعلٍ أو مفعولاً. أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تُشبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفةً للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه أو تحيئاً باسمٍ بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفةً أو حالاً أو تمييزاً، أو تنوخي في كلامٍ هو لإثبات معنى أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنياً فتدخل عليه الحروف

1 - المبرد، المقتضب، 116/3. وابن جني، الخصائص، 197/1. وشرح ابن عقيل على الألفية، 286/2. وشرح الرضي على الكافية، 62/1. وعبد الرحمن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط الأولى، دار القلم، دمشق، 159/1، ص 307. وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها: علم المعاني، دار الفرقان، ط 4، الجامعة الأردنية، 1997، ص 335.

2 - وفي هذا البحث لا أنطلق من كون التركيب الشرطي جملة واحدة اعترتها زيادة بالشرط. ولكن باعتبار التركيب الشرطي تركيباً له مستواه النحوي الأدنى المتمثل في جملتين تربط بينهما أداة الشرط. ثم قد تطرأ على هذا التركيب تحويلات منها التحويل بالزيادة.

الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس.¹

إن تأملا في قوله هذا يكشف لنا أنه يصنف الجملة المفيدة إلى توليدية وأخرى تحويلية بزيادة تلحق بعض عناصرها التكوينية، أو بزيادة في أولها تلقي بمعناها الوظيفي على الجملة بأجمعها، كالنفي أو الاستفهام أو التمني، أو كالنواسخ، وهي كان وأخواتها وإن وأخواتها، وقسم من أفعال الشرع والرجحان والمقاربة. وبهذه الزيادة تتحول الجملة إلى تحويلية فعلية أو اسمية.²

أو تتحقق الزيادة _ عند الجرجاني _ بزيادة جملة فعلية، تربطها بالجملة التوليدية أداة تصدر الجملتين، وتعلق تحقق مضمون الثانية على تحقق مضمون الأولى.

وأساس ذلك كله أن كل زيادة في المبنى تتبعها زيادة في المعنى.

والفعل كالأسم من حيث التقييد، فيشملة التقييد بالمنصوبات التي تتعلق به، قال السيوطي: "وأما تقييد الفعل بفقيد من مفعول مطلق أو به، أو له، أو فيه، أو معه، أو حال، أو استثناء، وذلك لزيادة الفائدة"³. حتى أنه يمكن أن يؤتى بفعل الشرط غير مقيد بالحال بينما يؤتى بالفعل نفسه جوابا مقيدا بالحال، ثم يستقيم التركيب الشرطي، الذي من أحكام شرطه وجزائه أن يكونا متغايرين دلالة. ولم يكن لاستقامة التركيب الشرطي أن تتحقق لولا أن القيد في الجواب أضاف معنى إلى الشرط فأصبحت متغايرين.

المبحث 1- الزيادة في التركيب الشرطي:

ينبغي هذا التركيب في الأساس على جملتين تربط بينهما أداة شرط. وأي من هاتين الجملتين تتعرض بعض من عناصرها إلى الزيادات التي أشار إليها الجرجاني. ولذا فإن جملي (عبارتي) الشرط والجواب لا تختلفان كثيرا عن بقية الجمل المستقلة الفعلية أو الاسمية التي تعترتها الزيادة.

وعلى الرغم من وجود قدر من الزيادات المشتركة بين التركيب الشرطي وغيره من الجمل، فإن هذا التركيب يتميز عن البقية بأنه يقع مسرحا للعديد من الزيادات، التي تختلف أحكامها عن الزيادات نفسها التي تلحق الجمل الإسنادية الفعلية والاسمية، وذلك نحو زيادة التوكيد بالقسم التي توجب حذف أحد الجوابين، وزيادة الاستفهام التي تدخل في المعنى على الجواب وإن دخلت لفظا على الشرط، وزيادة دخول

1 . عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاکر، ص55.

2 - أحمد خليل عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط الأولى، 1984، ص101.

3 . جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، تح أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1976، ص33.

الشرط على الشرط، فيكون الثاني قيذا في الأول. كما أن بعض هذه الزيادات يتميز بها هذا التركيب دون غيره. ولنبدأ بهذه الأخيرة نظرا لانفرادها بهذا التركيب.

إنّ من شأن الموجّهات اليقينية (وهي زيادات لأجل التقييد) أنّها تمنح الخطاب القرآني بعدا موضوعيا يعث على التصديق ، ويولد الإقناع . وبذا يقوى الجانب الحجاجي في الخطاب، ولا بد في مقامات الإقناع أن تكون الموجّهات يقينية¹ حازمة محضة تحمل المخاطب بما على الاقتناع ، وترك التردد والإنكار، وهو ما نهضت به على خير وجه الموجّهات القرآنية.²

ومجرى البلاغة كلها على أن يكون الكلام مؤثرا مقنعا مستجلبا لغرض حجاجي، لا مجرد قول جميل الإيقاع. قال ابن الأثير في وظيفة البلاغة: يجاري البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"³

ويخاطب القرآن من جملة من يخاطب عبادا يتسمون بالصدود والعناد، وآخرين يبغون اليقين والثبوت من أجل أن يبنوا عقيدة صحيحة ثابتة. وكل هذه الأحوال من المخاطبين تقتضي أن يكون النظم القرآني راعيا لها، يخاطبها بما يطابقها من تشكيلات تعبيرية، تجعل الخطاب القرآني مستجيبا لتلك الحالات مؤثرا فيها مقنعا إياها، حاثا إياها على ترك العناد، ومتجهة إلى اعتناق ما هو يقين. ومن الخصائص التعبيرية للكلام الملائم لهذه الحالات أن يكون موجها بأحد الموجّهات التي تزيد في توكيد وتحديد بعض أجزاء الجملة أو الجملة بكاملها، وبالتالي تكون المحددات كلمات أو جملا. والذي يعيننا من ذلك أن تكون المحددات قيودا في التركيب الشرطي أو يؤتى بها لفضل توكيد التركيب الشرطي بروته بتكيب آخر مثله.

1 - الموجّهات اليقينية هي في مقابل الموجّهات الظنية التي تفيد الشك والارتباك، وتؤدي في الكلام بألفاظ مثل : قد، والظن، وربما، وبعض...

والتوجيه حكم على حكم، أي إنه حكم من درجة ثانية... وهو ما من شأنه أن يجعل مجال التوجيه واسعا؛ فقولنا: " هو يعدو سريعا" قول موجّه، ذلك أن قولنا: "يعدو" حكم هو نفسه محكوم عليه بحكم آخر من قولنا: "سريعا". وهذا يعني أن كل قول عادي هو قول موجّه. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط2، 2007، ص315، عن J.Lyons, Semantique linguistique, cds Larousse, 1980, chapitre VII: La modalité, pp 406-466.

2 - نفس المرجع، ص318، 319.

3 - ابن الأثير، المثل السائر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط2، 2/ 250.

المبحث 2- الزيادة بعضد الشرط (أو الشرط المعضود):

الشرط المعضود هو فعل الشرط الذي لا يعول عليه وحده ليكون موضوعاً يتأسس عليه الجواب، بل يتعلق به كلامٌ غيره فيساعده ويدعمه على سبيل القيد لذلك الفعل، ليصير مشكلاً لسببية يبنى عليها وجود الجواب. ولو كان الاقتصار على مجرد فعل الشرط ما كان الفعل يكفي دلالياً لأن يتأسس عليه الحكم الذي تضمنه جواب الشرط.

وتختلف زيادة القيد هنا عن زيادة الفعل الذي يضاف إلى فعل الشرط على سبيل الجمع أو الاختيار؛ لأن الفعل المعطوف على سبيل الجمع أو الاختيار، قد يبنى حكم الجواب عليه لوحده، أو عليهما معاً، من غير اعتبار المعطوف قيدا في المعطوف عليه.

وفي هذا المبحث نقتصر على تحليل فعل الشرط الذي لا يضطلع بمفرده لاستحقاق الجزاء، ولكن يؤازره قيد هو بمثابة الإضافة الدلالية إلى دلالة فعل الشرط، فيصبح الشرط بذلك مؤهلاً لاستحقاق الجزاء.

ولا نكتث في هذا المبحث للخواص التركيبية الأخرى للنموذج الذي يشتمل على الشرط المعضود؛ لأن تلك الخواص من زيادة وحذف وغيرهما...تناولها في مباحث خاصة بها.

نماذج للتحليل:

قال عز وجل: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ المائدة: 6.

"وقوله: فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً عَطْفٌ عَلَىٰ فِعْلِ الشَّرْطِ، وَهُوَ قَيْدٌ فِي الْمُسَافِرِ، وَمَنْ جَاءَ مِنَ الْغَائِطِ، وَمَنْ لَامَسَ النِّسَاءَ، أَمَّا الْمَرِيضُ فَلَا يَتَقَيَّدُ تَيَمُّمُهُ بِعَدَمِ وَجْدَانِ الْمَاءِ لِأَنَّهُ يَتَيَمَّمُ مُطْلَقًا، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ بِدَلَالَةِ مَعْنَى الْمَرَضِ، فَمَقْهُومُ الْقَيْدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مُعْطَلٌ بِدَلَالَةِ الْمَعْنَى، وَلَا يَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمَرِيضِ الزَّمَنُ، إِذْ لَا يُعَدُّمُ الزَّمَنُ مُنَاوِلًا يُنَاوِلُهُ الْمَاءَ إِلَّا نَادِرًا."¹

وتدخل هذه الآية في إطار الإيجاز الذي يكون سبيله الاقتصار على السبب الظاهر للشيء اكتفاء بذلك عن جميع الأسباب، أي إن قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾، مغني عن ذكر النوم وغيره من النواقض، فذكر السبب الظاهر وعلم منه الحكم في الباقي. وليس معنى الآية أن ما ذكر من النواقض صغيرها وكبيرها، هو على وجه الحصر والتحديد.

1 - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 68/5.

وفي بعض التفاسير توجيه آخر يختص بقيد افتقاد وجدان الماء. جاء في روح المعاني للأوسي أنه ربما كان من الأوجه في تقرير الآية أن يجعل عدم الوجدان عبارة عن عدم القدرة على استعمال الماء لفقد الماء، أو المانع ليصح أن يكون قيدها للكل، أو يحمل على ظاهره ويجعل قيدها للأخيرة لأن عموم الإعواز في حق المسافرين غالب، ولمانع من القدرة على استعمال الماء القائم مقامه في حق المريض مغن عن التقييد لفظاً، وأن يبقى قوله سبحانه: مَرَضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ عَلَى إِطْلَاقِهِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِكُونِهِمْ مُحَدَّثِينَ أَوْ مَجْنُبِينَ.¹

إن مجرد حالة المرض أو السفر أو الحدث الأصغر أو الأكبر، ليس هو العلة التي بني عليها الترخيص بالتيمم، ولكن الترخيص معلل بعدم وجود الماء أو عدم القدرة على استعماله أو القدرة عليه مع المشقة. وهكذا كانت الحالات الأربعة المذكورة وما في معناها عبارة عن الظروف التي أضيف إليها قيد عدم وجدان الماء، واعتباراً لما تقدم من المقيد والقيد صدر حكم الترخيص بالتيمم. وبعبارة أخرى الشرط في الآية معضود ومدعوم بالإضافة الدلالية التي يقدمها القيد، ثم انبثق عن الاثنين حكم شرعي. بل إنه يمكن اعتبار القيد لوحده راقياً إلى رتبة السبب، فيكون المعنى "فمن لم يجد ماء فليتيمم".

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قَيِّمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة: 217.

"وظاهر هذا الشرط والجزاء ترتب حبوط العمل على الموافقة على الكفر، لا على مجرد الارتداد، وهذا مذهب جماعة من العلماء، منهم: الشافعي، وقد جاء ترتب حبوط العمل على مجرد الكفر في قوله: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ والخطاب في المعنى لأمتيه".²

فعل الشرط هو الارتداد، ولا يتوقف عليه حبوط العمل مجرد وقوعه من الإنسان؛ لأنه إن هو تاب وثاب قبل الوفاة فإنه لا يستحق حبوط العمل، وإنما يصبح الارتداد سبيلاً إلى حبوط العمل إذا اجتمع إليه حال الموت على الكفر. ومن الواضح أن الفعل الثاني كقيل لوحده بأن يستحق صاحبه أن يحبط عمله؛ لقوله تعالى على سبيل المثال: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: 88. إن الفعل العاضد في هذه الآية هو الذي أهل فعل الشرط لاستحقاق الجزاء، أي بعد أن انضمت دلالاته إلى دلالة فعل الشرط.

1 - الأوسي، روح المعاني، 42/5، 43.

2 - أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين)، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1993، 160-159/2.

العدول المسجل في هذه الآية هو زيادة القيد لفعل الشرط ليصبح سببا يُستحق به الجزاء، أي إن الارتداد الذي يضاف إليه الوفاة على الكفر، يستحق به حبوط العمل. ولولا هذه الزيادة ما كان التركيب الشرطي ليصح من حيث أنه كلام يصدر عن الإله العادل في حكمه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: 120.

في هذه الآية تحويف وتحذير للأمة من خلال خطاب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. يقول فيه الله تبارك وعلا: إنك يا محمد لَمَّا اتَّبَعْتَ رِضَا هَوَاهُ الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَأَصْحَابِكَ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ البقرة: 135، فَرَجَعْتَ إِلَى قِبَلَتِهِمْ، وكنت كاليهود يصلون قبل المغرب لبيت الـمَقْدِس، أو كالنصارى يصلون قبل المشرق، كذبا على ما في كتبهم وعنادا من عند أنفسهم. وذلك مِنْ بَعْدِ مَا وَصَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ بِإِغْلَامِي إِيَّاكَ أَنَّهُمْ مُقِيمُونَ عَلَيَّ بَاطِلٍ وَعَلَى عِنَادٍ مِنْهُمْ لِلْحَقِّ وَمَعْرِفَةِ مَنْهُمْ أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي وَجَّهْتُمْ إِلَيْهَا هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي فَرَضْتُ عَلَى أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسَائِرِ وَاوَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الرُّسُلِ التَّوَجُّهُ نَحْوَهَا . إنه لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أَمْرَكَ، وَقِيمَ يَقُومُ بِهِ، وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُكَ مِنَ اللَّهِ، فَيُدْفَعُ عَنْكَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ عِقُوبَتِهِ، وَمَنْعُكَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَحَلَّ بِكَ ذَلِكَ رُبُّكَ.¹

بالنظر إلى الجهة النحوية النمطية والإعرابية للتركيب الشرطي، يكون فعل اتباع المخاطب لأهواء اليهود والنصارى هو المعدود فعل شرط، ويتأسس على وجوده وجود الجزاء الذي هو أن الله يعاقب المخاطب وأمته، ولا يجدون دافعا لعقوبته من ولي ولا نصير . ولو أننا أخذنا بربط هذه الحالة الإعرابية بالدلالة، لتكشف لنا أن الدلالة الشاملة للآية تكون مغلوطة أو ناقصة؛ لأنها تؤدي إلى الشك في عدالة الله ولطفه بعباده، فيصبح في صورة من يعاقب بدون سابق عذر وبيان. ولما كان من أغراض الخطاب القرآني التبيين والتوجيه ليكون الناس على بينة من أمورهم، أضاف الكلام الإلهي إلى فعل الشرط قيادا هو: مجيء العلم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليقطع به مراوغات أهل الكتاب. ولولا هذا العلم ما كان يليق تجريم المخاطب وأمته وتحميلهم مسؤولية جهلهم بحقيقة القبلة. إنه لولا زيادة القيد العاضد لفعل الشرط ما كان يقبل عقليا ترتيب الجزاء على ذلك الشرط بمجرد.

1 - أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، القاهرة، الطبعة 1، 2003، 669/2.

وقال عز من قائل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه:

.112

أي إنه: لا يُجْزَى بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْمُؤْمِنُ، وَيُجْزَى بِهِ الْكَافِرُ فِي الدُّنْيَا. لَا يَنْتَقِصُ اللَّهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا، وَلَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ مُسِيءٌ وَأَصْلُ الْهَضْمِ: النَّقْصُ.¹

إن الاعتماد على مجرد الناحية الإعرابية، يظهر معه أن فعل الشرط الذي انبنى عليه وجود الجواب، هو العمل الصالح الذي ينبنى عليه الجزاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾. وللتذكير فإن الحالة الإعرابية هي تمثيل للأركان الأساسية التي يقوم عليها التركيب الشرطي، الشيء الذي يتجلى معه زيادة الحال، أو عبارة أخرى توجيه فعل الشرط على جهة الحال، ولا تخلو هذه الزيادة من إضافة دلالية، ترشح الشرط وتزكيه ليضطلع بقبولنا له سببا يتأسس عليه الحكم الوارد به الجواب. وهو عدم خوف المؤمن من الظلم ولا الهضم يوم القيامة.

إنّ تخصيص العمل الصالح بصدوره عن أهل الإيمان، يمكن أن نلاحظ اطلاقاً منه الإلتفاتات

الدلالية التالية:

1. انبناء الجزاء على فعل مصحوب بوصف معين، أي تأسس الجزاء الحسن في الآخرة على العمل الصالح الصادر من المؤمن.
2. براءة العبارة القرآنية من ترجمة قصد لا يليق بدعوة الله للعباد، وهي تسوية الجزاء بين كل من الأعمال الصالحة للمؤمنين والكافرين معاً.
3. زيادة معنى الترغيب في الإيمان، وربطه بحسن الجزاء في دار لا تفتنى، وبذا يظهر معنى العدالة الإلهية.
4. التعريض بحال الكافر الذي قد يعمل صالحاً، فلا يحسن إليه إلا في دنياه. وهي دار آيلة إلى الفناء.

ومما ينبغي تسجيله أن دخول الشرط على الشرط، يعد من هذا النوع من الزيادة. وذلك عندما يكون الشرط الثاني غير مقترن بالفاء، فيكون الشرط جواباً للشرط الأول، وأما الشرط الثاني فمقيد فيه.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ البقرة: 283.

يرشد الله تعالى المؤمنين، في حال ما إذا هم أُلجئوا في الأسفار الى أن يدين بعضهم البعض، بأن يكون هذا الدين الى أجل معين، وأنه يفضل أن يكتبوه.

والذي يجب ملاحظته أن الجار والمجرور المتعلقين بفعل الشرط وهما قوله تعالى: " إلى أجل مسمى " يشكلان زيادة لفظية انحر عنها زيادة في المعنى، فأصبح فعل الشرط ناقص الدلالة في حال الاعتماد عليه وحده، بصفته موجبا لوجود الجواب. وحتى يصح بناء الجواب على الشرط المذكور وجب دعمه بالقيود بالجار والمجرور ثم تقييد المجرور بالصفة، فتحصل أنّ شرط المدائنة لا بد أن يكون الى أجل وأن يكون الأجل متعينا، وهكذا يكون مفهوم الشرط، أنه لا تجوز المدائنة اذا كانت الى أجل مجهول، وبغض النظر عن كتابة الدين أو لا.

وقال جل ذكره: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ الروم:36.

يقول تعالى ذكره: إذا أصاب الناس من هخصب ورحاء وعافية في الأبدان والأموال، فرحوا بذلك . وإن تصيبهم من هشدّة من جذب وقحط وبلاء في الأموال والأبدان بسبب مما قدمته أيديهم من سيئ الأعمال بينهم وبين الله، وركبوا من المعاصي، إذا هم ييأسون من الفرج.¹

التركيز في هذه الآية منصب على التركيب الشرطي الثاني. إنه لو اكتفى المتكلم سبحانه بالقول: "وإن تصيبهم سيئة فهم يقنطون" تفوت بعض المعاني التي تحمل معاني المدح لله تعالى، ومعاني الذم التي تتصل بالبشر الذين يسيئون الصنع فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الله. وإظهارا لتلك المعاني كان لا بد من تقييد وتخصيص السيئة التي تصيبهم بقيود النعت وهو " بما قدمت أيديهم " لأن معناها يضع مسؤولية العذاب منوطا بسبب من المرتكبين للمعاصي والخطايا.

ولا بد أن نضع نصب أعيننا أن فعل الشرط قد يقصد بتقييده، التمهيد للتعجب من حال الكافرين والدهشة من أمرهم المتمثل في القنوط الذي يصيبهم، في حال مجازاتهم بما يستحقون من العقاب الذي كانت أيديهم قد قدمت له.

1 - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تج: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 2000 م، 102/20.

كما أن هذا القيد يعتبر ممهّداً نحوياً ومسوغاً دلالياً من أجل أن يكون جواب الشرط مرتبطاً بـ"إذا" المفاجأة؛ ذلك أنه من دواعي وشروط ربط الجواب بالشرط عن طريق "إذا" هو أن يكون في الشرط ما يشير الدهشة من ملازمة الجواب لذلك الشرط. وأن تكون أداة الشرط "إن أو إذا"

بهذا القيد تحقق مدح الله بأمرين أولهما: تفضله على الناس بالخيرات والرحمات التي لا قوام لحياة الناس إلا بوجودها، وهو فضل ليس بمستحق عن أعمال صالحة قدموها. وثانيهما هو عدله سبحانه؛ إذ لا يعاقب العباد إلا بمقدار ما تجترحه أيديهم من خطايا بين بعضهم أو بينهم وبين الله جل شأنه.

المبحث 3- الزيادة بتقييد فعل الجواب:

من الزيادة التي تطرأ على هذا التركيب تقييد الفعل الواقع جواباً بقيد الحال أو غيره، من أجل الزيادة في الجهة الدلالية، وبها يصير جواب الشرط مغايراً لمعنى الفعل الواقع شرطاً. وفي هذا المعنى نقل الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور قولاً لابن جني في كتاب "التنبيه على إعراب الحماسة" عند قول الأحوص¹:

فإذا تزول تزول عن مُتَحَمِّطٍ	تُحْشَى بوادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ ²
-------------------------------	---

حال أن تقول إذا قمت قمت ، وإذا أقعد أقعد ؛ لأنه ليس في الثاني غير ما في الأول . أي فلا يستقيم جعل الثاني جواباً للأول. وإنما جاز أن يقول: "فإذا تزول تزول" لِمَا اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المُفَادُ منه الفائدة. ومثله قول الله تعالى: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْوَيْنَا أَعْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا³ ﴾ القصص: 63. ولو قال: "هؤلاء الذين أعويننا أعويناهم" لم يفد القول شيئاً ، لأنه كقولك: "الذي ضربته ضربته" ، و"التي

1 - الأحوص الأنصاري ، هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم. شاعر إسلامي أموي هجاء من سكان المدينة، وهو من طبقة جميل بن معمر. كان معاصراً لجرير والفرزدق. قدم دمشق ومات بها، وكان حماد الراوية يقدمه في النسب على شعراء زمنه. ينظر: المرزباني(أبو عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1982، ص 48.

2 - وفي نفس الصفحة السابقة جاء قبل هذا البيت قوله:

ما من مصيبة نكبة أمني بها	إلا تعظمي وترفع شاني
---------------------------	----------------------

وعليه فإن الضمير المستتر في الفعل "تزول" راجع إلى كلمة "مصيبة" من هذا البيت. و"المتحطم" هو شديد الغضب.

3 - ليس تركيب هذه الآية تركيباً شرطياً. ولكن جاز استعماله في الاستدلال به على أسلوب الشرط الذي يتكرر فيه فعل الشرط وفعل الجواب مع تقييد الثاني ؛ لما يجمع بين تركيب الآية والتركيب الشرطي من ضرورة أن يكون المُبْتَدِئُ على غيره مخالفاً للمُبْتَدِئِ عليه، مثل المبتدأ والخبر في نحو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم خيركم لأهله". علماً أن بعض النحاة تصوروا التركيب الشرطي مختزلاً في جملة المبتدأ والخبر. ومثلما أن الخبر يجب أن يختلف دلالة عن المبتدأ فكذلك يجب أن يختلف الجواب عن الشرط.

أكرمتمها أكرمتمها". ولكن لما اتصل ب"أغويناهم" الثانية قوله: "كما عَوَيْنَا" أفاد الكلام، ك"الذي ضربته ضربته لأنه جاهل".¹

وينطبق هذا التحليل من الوجهتين النحوية والدلالية على بضع آيات قرآنية، نحلل منها ما يلي:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ المطففين:31.

معنى الآية أن مجرمي قريش كانوا إذا رجعوا إلى من مجالسهم إلى أهلهم ببيوتهم، رجعوا ملتذّين فرحين باستخفافهم بالمؤمنين. وفي الآية إشارة إلى أنهم يعدون صنيعهم ذلك من أحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم.²

العدول المائل في هذه الآية هو تكرار الفعل "انقلبوا"، فقد ورد مرة شرطا وأخرى جوابا، بينما لا تميز أحكام النحو هذا التكرار إذا كان مدلول الثاني هو نفسه مدلول الأول، ولا يستقيم نظام التركيب الشرطي إذا بني على هذا النحو. وعلة عدم الاستقامة انعدام الفائدة في تعليق الأمر على الأمر نفسه. أما إذا أبقى على إطلاق الفعل الواقع شرطا، وزيد الفعل الواقع جوابا بقيد ما، فإن هذا الأخير يصير مختلفا دلاليا، وتحقق بذلك الفائدة.

وإن تكرير الفعل الوارد في العديد من المرات في القرآن لهو من النسج الجزل في الكلام؛ فقد كان يكفي أن يقال في غير كلام الله: وإذا انقلبوا إلى أهلهم فكهوا، أو "وإذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فكهين، ولكن الأسلوب القرآني أثر التكرير للفوائد الدلالية التالية:

الزيادة في تقرير معنى الفعل في ذهن السامع لأنه مما ينبغي الاعتناء به ؛ لانعقاد الكلام على بيان هيئة انقلابهم إلى أهلهم.

والزيادة في تقرير ما في الفعل من إفادة معنى التجدد، حتى يكون فيه استحضر الحالة التي كانت عادة المجرمين من قريش.

ولأجل بناء الحال عليه "انقلبوا فكهين"، وفي ذلك تفصيل بعد إجمال، وتلبية لما تتطلبه صناعة الكلام. وهذا من محاسن الاستعمال.³

1 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 30 / 212. نقلا عن التنبيه على إعراب الحماسة لابن جني.

2 - الألوسي، روح المعاني، 30 / 77.

3 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 30 / 212.

وأما على مستوى المتلقي، فإن تكرار الفعل "انقلبوا" يحقق مفاجأة السامع؛ نظرا لاعتياده أن يستعمل الشرط والجواب غير متحدين لما في ذلك من إحالة الكلام. ثم تأنس نفسه بعد تقييد فعل الجواب بالحال.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الشعراء:130.

البطش تناول الشيء بصولة¹.

في هذه الآية يخاطب هود قومه فيستنكر ما هم عليه من عتو وغلظة، يتجربون حين يبطشون، ولا يتخرجون من القسوة في البطش، فإذا بطشوا بأحد من الخلق قتلا أو ضربًا، فعلوا ذلك قاهرين ظالمين.

بني التركيب الشرطي في الآية على فعلين ماضيين متحدين أصلا في اللفظ والمعنى، غير أن الثاني منهما قيد من إطلاقه بالحال "جبارين" ليكسب معنى نحويا مختلفا عن الفعل الأول. وهكذا تستقيم للتركيب الشرطي فائدته.

وأما الغرض الذي لأجله سبق التركيب فهو بيان بطشهم. ولذا ركز التعبير على هذا الفعل واعتنى النظم القرآني بتصويره كما يلي:

تكرير فعل البطش زيادة في تقرير معناه ولفت العناية إليه، وأنه محور الكلام.

تكرير الفعل هو في ذاته زيادة لتقرير معنى التجدد الذي يحمله، الشيء الذي يدل على أن البطش بالضعفاء عادة لدى قوم هود.

تقييد فعل الجواب بقيد الحال، فيه زيادة تصويرية، حيث أدى الحال وظيفة بيانية تعمق من الدلالة على القسوة؛ فبعد أن كانت قسوتهم متجلية في البطش، صارت أشد لزيادة التجبر إليها. والتجبر هو ظلم وقهر يتجاوزان مجرد البطش.

ولو أن النظم القرآني اختار التعبير التالي: "وإذا بطشتم تجبرتم" - وهو تعبير ليس فيه زيادة بالقياس إلى التعبير المستعمل - لما اشتمل على تصوير بطشهم الذي هو مدار الكلام، ومعقد تصوير إجرام هؤلاء القوم وجورهم في البطش.

1 - الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1/64.

وقال عز وعلا: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ النساء: 142.

أي: وإذا قام المنافقون إلى الصلاة لإتيانها بهيئتها وحركاتها، قاموا متثاقلين متباطئين لا نشاط لهم ولا رغبة، كالمكره على الفعل؛ لأنهم لا يعتقدون ثواباً في فعلها ولا عقاباً على تركها. ومن الواضح أن الآية تتحدث عن صورة قيامهم إلى الصلاة، في إشارة إلى أنهم لا يقيمونها إقامةً ب توفية شرائطها كما يحرص المؤمنون.

وفي هذه الآية كذلك وردت كلمة "كسالى" حالاً لازمة من ضمير "قاموا"؛ لأن "قاموا" لا يصلح أن يقع وحده جواباً لـ "إذا" التي شرطها "قاموا" الأولى، إذ لو وقع "قاموا" الثاني مجرداً لكان الجواب عين الشرط، ولا يكون ذلك مفيداً، فلزم ذكر الحال. وكان الحال في هذا التركيب وأمثاله فضلة غير مستغنى عنها، بخلاف الحال التي يصح التركيب عند حذفها. جاء في النحو الوافي لعباس حسن: "قد تكون الحال بمنزلة العمدة أحياناً في إتمام المعنى الأساسي للجمله. في مثل الآية: "وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى" إن المعنى الأساسي لا يتم لو حذفت الحال "كسالى".¹

وتنصبّ عناية النظم القرآني على وصف قيام المنافقين إلى الصلاة كما جاء في موضع آخر من القرآن، هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ التوبة: 195، بحيث قصر إتيانهم الصلاة على صفة الكسل. إنهم يقومون إليها قطعاً، أو على سبيل الكثرة، بدليل استعمال أداة الشرط "إذا"، ولكن جاء هذا القيام مجملاً في الشرط، بينما تعلق به الحال في الجواب، فأضاف إليه الحال زيادة في معنى القيام، وزيادة في معنى التجدد الذي للفعل، وزيادة قدر من التفصيل بفضل الحال "كسالى".

ولما كانت هذه الدلالات متجمعة في جواب الشرط فإنه بذلك يشكل البؤرة الدلالية للمركب كله، وقطب الاهتمام فيه.

ويرجع الاهتمام بتصوير قيامهم إلى الصلاة إلى أن الصلاة هي أكثر الأعمال التعبديّة تواتراً فيسهل على المؤمنين ملاحظتها، كما أنها تمثل الأمانة الفارقة بين الإيمان والكفر. ثم إن القيام إليها هو المظهر الخارجي والسلوك المشاهد الذي ينبئ عن مدى اقتناع وتقبل المصلي بهذه العبادة. وهذا الأمر لِمَمَّا يُعْنَى المؤمنون بمعرفته حتى لا يقعوا في أحابيل المنافقين، وكان القرآن الكريم والحديث النبوي حريصين على كشف صفات المنافقين تنبيهاً وتحصيناً للمؤمنين.

يقول محمد الطاهر بن عاشور في جمالية هذا الأسلوب: "...إن إعادة فعل (الشرط) وتعليق المتعلق بالفعل المُعاد دون الفعل الأول، تجد له من الروعة والبهجة ما لا تجده لتعليقه بالفعل الأول دون إعادة، وليست الإعادة في مثله لمجرد التوكيد؛ لأنه قد زيدَ عليه ما تعلّق به. " ويقول في سرّ تعلُّق النفس بهذا الأسلوب: "...لإشعار إعادة اللفظ بأن مدلوله بمحلّ العناية وأنه حبيب إلى النفس."¹

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ سورة الفرقان: 72.

واو الجماعة في "مَرُّوا" عائدة إلى "عباد الرحمن"، واللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصفير ونحوها من الطيور². ومروا كراما: "كُنُوا عن القبيح ولم يصْرَحُوا به، وقيل: معناه إذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم."³

إن تكرار المرور الواقع من عباد الرحمن، يشير إلى أن عناية المتكلم متوجهة إليه، وهتمته متعلقة به، وأن الكلام معقود على بيانه وتصويره لما فيه من حياء نبل وكرامة. ولأجل ذلك اختارت الصياغة القرآنية:

إعادة لفظ الفعل "مروا" لمنحه شيئا من معنى التوكيد اللفظي.

وفي إعادة لفظ الفعل إحياء لمعنى التجدد والاستمرار والتكرار الذي يدل عليه، وأن ذلك دأب عباد الرحمن في علاقتهم اليومية بالكافرين.

كما أنه تعلق بـ"مروا الثانية" حال وهو "كراما"، فزاد هذا التعليق في الدلالة على مجرد المرور.

وهكذا حظي جواب الشرط - وهو الفعل المعاد- في هذه الآية ومثيلاتها بجملة من الإجراءات التعبيرية جعلته محل عناية وقطب اهتمام، ومنها الزيادة بقيد الحال، التي تمثل أحد التحولات المحققة للعدول عن أصل التركيب الشرطي.

قال عز من قائل: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ الإسراء: 7.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، مقدمة تفسير التحرير والتنوير، 1/ 192 - 193.

2 - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 1/ 582.

3 - الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية بيروت لبنان، 4/ 435.

يخاطب الله تعالى بني إسرائيل قائلاً: " إِنْ أَحْسَنْتُمْ " أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية للغير، أي عمَلتموها على الوجه المستحسن اللائق، أو فعلتم الإحسان، "أَحْسَنْتُمْ لأنفُسِكُمْ" أي سعيتم لنفعها بما يترتب على إحسانها من الثواب.

تمركز التركيب الشرطي حول فعل الإحسان لأهميته التي يتوقف عليها مصير البشر؛ فجاء الفعل الأول "أَحْسَنْتُمْ" مطلقاً، يدل على إحسان المخاطب العمل إلى نفسه وإلى غيره، وكُرِّر في الجواب إشعاراً بأن الجزاء من جنس العمل " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟" وأنه مما يجب على الإنسان أن يجتهد لأجله في حياته. وبالإضافة إلى التكرار عُلق به الجار والمجرور "لأنفسكم" ليصير الإحسان هنا مختصاً بأنفسهم لا ذلك الإحسان السابق اللازم والمتعدي لهم. وبمعنى آخر صار الإحسان هنا بمعنى الثواب الذي يتلقونه من الله.

ويستقيم التركيب الشرطي أيضاً على اعتبار أنه جاء على طريقة التجريد، بأن تجعل نفس المحسن كذات يحسن لها.

كما جاء نظم هذا التركيب مبنيًا على التعليق بـ: "إن" - خلافاً للأمتثلة المتقدمة من هذه الصورة التي تمّ التعليق فيها بـ "إذا" - لِمَا هناك من مساواة في احتمال إقدام المخاطبين على الإحسان أو على الإساءة، بل إن هذه الآية آثرت أسلوب الإطناب حينما ذكرت عاقبة المحسنين وعظفت عليها عاقبة المسيئين ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. وكان يمكن أن تكتفي بذكر ما يتعلق بالصنف الأول، وتدع ما يتعلق بالصنف الآخر جريباً على طريقة الدلالة عليه بمفهوم المخالفة. علماً أن هذا النوع من الدلالة كثير في التركيب الشرطي.

المبحث 4- الزيادة في التخصيص والرفع منه:

التخصيص مصدر الفعل خصّص، وصيغة فعل تفعيلاً تفيد معنى التكثر، ولكن هذا المعنى لا يراد هنا. فخصّص بمعنى خصّ، وفي اللغة خصّصه: أفرد به دون غيره، واختصّ فلان بالأمر وتخصّص له إذا انفرد به...¹ وفي أساس البلاغة: خصّصه بكذا واختصّصه وخصّصه وأخصّصه، فاختصّ به وتخصّص.²

1 - ابن منظور، لسان العرب، 7 / 24.

2 - الزمخشري، أساس البلاغة، 1 / 250.

والتخصيص ضد التعميم، وهو التفرد بالشيء مما لا تشاركه فيه الجملة...¹

2 ولعل أوضح تعريف اصطلاحى له عند علماء الأصول هو تعريف أبي الحسين البصري وهو: إخراج بعض ما يتناوله الخطاب عنه.³

التخصيص في اللغة معناه إفراد جهة أو أكثر بما كان عاما على أكثر من تلك الجهات، فيصير العموم مضيقا، ومنطبقا على القليل دون الجملة.

والتخصيص بعبارة أخرى هو التقليل من الاشتراك أو تضيق الدلالة العامة، وهذه الوظيفة مشتركة بين الشرط والاستثناء والوصف والغاية وغير ذلك.

وقد اعتنى النحاة بالشرط اللغوي من حيث بحث أدواته وعملها، وأحكام فعل الشرط، وإمكان مجيء فعل الشرط والجزاء ماضيا أو مضارعا، وحكم اقتران الجواب بالفاء، إلى غير ذلك من المباحث المتعلقة بالبنية التركيبية لهذا الأسلوب. وأما الأصوليون فقد ركزوا على جانب الدلالة منه، فهو عندهم يوجب تخصيص بعض الجملة أو يقيد عمومها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: 7. فالشرط يقتضي اختصاص نصر الله للمؤمنين وتثبيت أقدامهم معا بنصرهم لدين الله، ولا يفيد أن الجزاءين متحققان على الإطلاق والعموم، وبدون نصر المؤمنين لدين الله.

جاء في كتاب المعتمد لأبي الحسين البصري أنّ الشرط يُخَصُّ الكلام، فُخْرِجَ من هـ ما لا نعلم خروجه منه لولاه كقولنا: " أكرم القوم أبدا إن دخلوا الدار "، فلو لم نذكر الشرط لزم إكرامهم وإن لم يدخلوا الدار. ومع ذكرنا للشرط سقط وجوب الإكرام إن لم يدخلوا الدار ؛ لأن لفظة "إن" للشرط، والشرط يقف عليه المشروط وعلى بدله.⁴

1 - الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1977، 555 / 17.

2 - أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة، وهو أحد أئمتهم. كان جيد الكلام مليح العبارة غزير المادة، وله التصانيف الكلامية الفائقة في أصول الفقه، منها شرح الأصول الخمسة، والمعتمد وهو كتاب كبير، منه أخذ فخر الدين الرازي كتاب الحصول، وله غير ذلك ؟ وتوفي ببغداد سنة ست وثلاثين وأربعمائة (436) من الهجرة. ينظر: ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 5 / 182.

3 - ينظر: علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، الإحكام في أصول الأحكام، تح: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، 1404، 2 / 299.

4 - ينظر: أبو الحسين البصري (محمد بن علي بن الطيب)، المعتمد في أصول الفقه، تح: خليل الميس، دار الكتب العلمية - بيروت، 1، 1403، ص 1 / 240.

وقد يتعدد فعل الشرط أو الجزاء. فإذا دخل فعل الشرط على جزاءين على سبيل الجمع ، فإن تخصيص فعل الشرط يتصلط عليهما معا، ويكون الجزاء الثاني قد زاد الجزاء بجملمته في التخصص بالشرط، ففي قولك : "إن سألك فقير فأعطه نقودا واكسئ حلة"، الشرط يقتضي حصولهما معا، أي: أن العطاء والاكسء معا مختصان بسؤال الفقير ، وقد زاد الجزاء الثاني في درجة اختصاص الجزاء برمته بالشرط . وأما إذا دخل فعل الشرط على جزاءين على سبيل البدل، فإن فعل الشرط يتخصص بحصول أحدهما، نحو قولك: "إن أحرمت في حق أخيك طردتك أو جلدتك"، فمقتضاه اختصاص الطرد بالإجرام أو الجلد به، ويكون الجزاء الثاني في هذه الحالة قد رفع بعض التخصص عن الجزاء الأول، ويترك تعيين أحدهما للمتكلم.

وفي حالة دخول شرطين على جزاء واحد، فإن كانا على الجمع لم يحصل المشروط إلا عند حصولهما معا، نحو قولك : "إن دخلت الحديقة وقطفت زهرة منها عاقبتك" فمقتضى الشرط تخصيص العقاب بدخول الحديقة وقطف الزهرة مجتمعين، ويكون فعل الشرط الثاني قد زاد في التخصص، أي ازداد نطاق الشرط "الدمج دلاليا" ضيقا وانحصارا، ولا يقع الجزاء المعلق به إلا في المزيد من الندرة. وأما إذا كانا على البدل فإن المشروط يحصل بحصول أحدهما نحو قولنا: "إن دخلت الحديقة أودنت منها عاقبتك". فالشرط يقتضي العقاب بحصول أحد الشرطين، أي أن العقاب متخصص بوقوع أحد الشرطين. ويكون الشرط الثاني قد رفع بعض التخصص؛ لأننا لما قلنا: "إن دخلت الحديقة" نفينا العقاب بفقد الدخول وأخرجناه من الكلام، فلما قلنا: "أودنت منها" أوجبنا العقاب بالذنو وإن لم يدخلها.¹

والشرط الواحد إذا دخل على جزاءين على سبيل البدل كقولك: "إن زيتت جلدتك أو نفيتك" فمقتضاه أحدهما، مع أن التعيين فيه إلى القائل.²

والعناية التي أولاها الأصوليون للشرط تصب في خانة الدلالة التي تكون للحكم متعلقا بالشرط، وعلى الخصوص لما يتعدد الشرط أو الجزاء على جهة الجمع أو البدل. وتتلخص وظيفة الشرط النحوية في معنى التخصص. وبمختنا يعني بهذا الجانب الدلالي، لأنه يمنح هذا التركيب تلونات دلالية تتجاوز ما للتركيب الشرطي البسيط من دلالة تخصيص الجواب المفرد بالشرط المفرد.

1 - محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول في علم الأصول، تح: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط الأولى، 1400، 3/ 94-96.

وموسى بن مصطفى العبيدان، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين، الأوايل للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط الأولى، 2002، ص 182-183.

2 - محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول في علم الأصول، 3/ 96.

وهذه الدلالة الهامة للشرط والجزاء، تظهر على مستوى الأحكام الشرعية خاصة عندما يتعدد أحدهما أو كلاهما. ولا نشعر بوجود هذه الدلالة في مباحث النحاة؛ لأن الأمر عندهم يتعلق بإشراك التابع في الحكم الإعرابي للمتبوع سواء كان العطف بأو أو بلواو.

نماذج للدراسة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ النساء: 112.

اتَّهَمَ طعمة بن أُبَيْرِق بصنيعه القبيح -وهو السرقة- زيدا بن السمين اليهودي، وقد كان بريئاً، وهو الظالم الخائن. وقد أطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم.

وإنما فرق بين "الخطيئة" و"الإثم"، لأن "الخطيئة" قد تكون من قبل العمد وغير العمد، و"الإثم" لا يكون إلا من العمد، ثم يُضيف المذنب ماله من خطئه أو إثمه الذي تعمده إلى بريء، فيكون قد تحمّل بفعله ذلك فريّة وكذباً وإثماً عظيماً.¹

اجتمع شرطان على سبيل الجمع ودخلا على جزاء واحد. والشرطان كسب الخطيئة أو الإثم من جهة ثم رمي بريء بهما من جهة أخرى، داخلين على احتمال البهتان والإثم المبين. إن الشرطين معا يقتضيان الجزاء، فلا يحصل وجوده إلا عند حصولهما معا، فيكون الجزاء متخصصا بالشرطين مجتمعين، أي أن احتمال البهتان والإثم المبين متخصص بهما.

وفعل الشرط الذي هو كسب الإثم جاء معطوفاً بـ"أو" على فعل الشرط الذي هو كسب الخطيئة، فاقتضى هذا العطف أن يكون الجزاء مشروطاً بأحدهما على جهة البدلية.

وأما فعل الشرط الثاني وهو رمي بريء بأحدهما، فقد زاد في تخصيص الشرط للجزاء، بخلاف لو كان الشرط واحداً.

والجدول التالي يقدم صورة توضيحية للتراكيب والدلالات التي ميزت الآية المدروسة:

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن 9/ 197.

الفصل الثالث: دلالات العدول بالزيادة في التركيب الشرطي

أداة الشرط	الشرط	الجزء
مَنْ	يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا	فقد احتملُ بُهتاناً وإثماً مُبيناً
هيئة التركيب النحوية	تركيبية الشرط من جزأين:	تركيبية الجزء من جزأين:
	(1) يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا	فقد احتملُ بُهتاناً، وإثماً مُبيناً
	(2) ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا	
صفة التركيب	متعدد على البدلية	متعدد على الجمع، وحكمه حكم الواحد.
صفة التعليق	يقوم التعليق على أحد الشرطين فقط.	الجزء وهو الحكم، متخصص بالشرطين المحددين.
كمية التخصيص	أحد الشرطين رفع من تخصيص الآخر.	زاد في تخصيص الشرط

جدول 2: كمية التخصيص في آية 12 من سورة النساء.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيُحْمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ البقرة: 217.

جاء في تفسير القرطبي له ذه الآية الكريمة أنها تدل على أن الردة لا تحبط العمل إلا بقيد الموت على الكفر وهو قوله: ﴿ فَيُحْمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الردة تحبط العمل مطلقا ولو رجع إلى الإسلام ، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المائدة: 5. وهذه المسألة من مسائل التعارض بين المطلق والمقيد، فيحمل المطلق على المقيد،

فتقيد الآيات المطلقة بالموت على الكفر. ولهذا التركيب الشرطي مفهوم هو أَنَّهُ مَنْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ مُطْلَقًا. ولهذا قال القرطبي: من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج، وهو قول الشافعية.¹

تضمنت عبارة الجزاء حكما هو حَبَطُ الأعمال، وقد تخصص بشرطين مجتمعين لا ينفك أحدهما من الآخر وهما: الارتداد عن الدين، والموت على الكفر الذي جاء معطوفا بالفاء على سابقه. وتقتضي الفاء أن يكون الفعل المعطوف مرتبا على السابق على سبيل التعقيب. ولذا فإن الشرط الأول ازداد تخصيصا لكونه مقيدا بالشرط الثاني. ولا يصح اعتبار أحد الشرطين زاد في اختصاص الآخر، كما هو الحال إذا كان العاطف واوا.

وكان لهذا التخصيص بالشرط الثاني أهمية كبرى في تحديد الحكم الشرعي المنوط بالمرتد على الإطلاق؛ إنه ينظر في شأنه، فإذا رجع إلى الإسلام قبل وفاته لم تحبط أعماله، وإذا توفي وهو على ارتداده وكفره حبطت أعماله.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة:

.39

أي من تاب إلى الله تعالى من بعد سرقته، وهي ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة، وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات، فإن الله يقبل توبته.

الجزء في هذه الآية متخصص بالشرطين على الاجتماع؛ فتوبة الله على صاحبها مشروطة الحصول بالتوبة من بعد ظلمه وإصلاح أعماله مجتمعين. وقد زاد الشرط الثاني في تخصيص الشرط، ويستتبع هذا التخصيص تضييق في نفس الشرط المكون دلاليا من شرطين، ويقتضي هذا الإمعان في التخصيص أن يزداد الشرط تعقيدا وندرة في الوقوع، وينبني عليه نفس الندرة في وقوع الجزاء؛ إذ لا تتحقق توبة الله عليه بمجرد توبته من بعد ظلم نفسه، أو بمجرد إصلاح عمله بالطاعات، ولكن بأن يقرب بين التوبة وإصلاح الأعمال. وبذا يعنى الجزاء في اشتراط التحقق، لأن المسافة الدلالية والعملية بين الشرط والمشروط مسافة بعيدة، ينتقل فيها صاحبها من كبريات المعاصي، إلى خير ما يصبو إليه المطيع المحسن.

1 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 430/3.

أداة الشرط	الشرط	الجزء
فَمَنْ	تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ	فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ
هيئة التركيب النحوية	تركيبية الشرط من جزأين	جزء واحد هو: نيل توبة الله عليه.
صفة التركيب	متعدد على الجمع	متحد..
صفة التعليق	يقوم التعليق على الشرطين مجتمعين . ويختل الجزء باختلالهما أو اختلال أحدهما؛ لأنهما في حكم الواحد.	الجزء وهو الحكم، متخصص بالشرطين المحددين.
كمية التخصيص	زاد الشرط الثاني في التخصيص.	XXXXXXXXXX

جدول 3: كمية التخصيص في آية 39 من سورة المائدة.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: 7.

دخل فعل الشرط على جزأين على سبيل الجمع. فخصص الشرط وهونصر المؤمنين لدين الله، الجزأين وهما: نصر الله لهم وتثبيت أقدامهم. ولو لم يذكر الشرط لكان يلزم نصر الله للعباد وتثبيت أقدامهم على الإطلاق سواء عملوا بالشرط أم لم يعملوا به، وفي هذه الحال يكون الجزء الثاني قد زاد في معنى التخصيص؛ لارتباط وقوعه بالجزء الأول، وهما لا يقعان إلا معا معلقين بالشرط.

إن الزيادة المسجلة في هذه الآية هي تخصيص الشرط لجزأين لا واحد فقط، كما أن الجزء الثاني نتج عنه مولودا دلاليا(أو وظيفيا) يتمثل في زيادة تخصيص الجزاء. إن نصر الله للمؤمنين ازداد خصوصية من حيث أنه قرن إليه تثبيت أقدام المؤمنين.

قال عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال: 29.

في هذه الآية من الله على عباده، بأن أخبرهم بما سيفعل، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة. وسياق الآية سياق ترغيب في تقوى الله، والتقرب منه.

وتحصى الآية أنعم الله على عباده المؤمنين إذا حصلت منهم تقوى الله، فهو يقابل تقواهم بمجموع من الثمار التي يتفضل بها عليهم من عنده، وذلك أنه يقذف في قلوبهم نورا يفرقون به بين الحق والباطل، ويكفر عنهم سيئاتهم بأن يسترها في الدنيا ولا يفضحهم، ويغفر لهم ذنوبهم بأن يتجاوز عنها ويزيلها يوم القيامة.¹

اقتضى وجود فعل الشرط وهو تقوى الله وجود ثلاثة جزاءات على جهة الجمع بينها، وهي: "يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم" فكان بذلك الاقتضاء مخصصا لهذه الجزاءات كلها مجتمعة. ويلاحظ في علاقة هذه الجزاءات مع بعضها أن التالي منها يزيد في تخصيص ما سبقه، إلى أن يصير الجزاء بأجمعه - في النهاية - جزاء شديد الاختصاص. وهو ما خص به الله تعالى المتقين. والحكم العام لهذه الحالة هو "كما لو اتحد المشروط"² وهذا من حيث اقتضاء الشرط له. وبمعنى آخر فإن المشروط الواحد من هذه الجزاءات لا يتحقق إلا مع اقترانه بغيره من المشروطات التي ذكرت معه، وإن كان تحقق كل جزء من الثلاثة مقبولا من الجهة النظرية.

كما أن تعدد الجزاءات التي وعد الله بها المؤمنين ينبئ عن أهمية شرط التقوى، وكذا عن مدى تفضل الله تبارك وعلا على عباده، وذلك ما ينطق به أيضا تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

وفي الجدول المزيد من تجلية التراكيب والدلالات:

1 _ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 123/15.

2 - الأمدى (علي بن محمد أبو الحسن)، الإحكام في أصول الأحكام، تح: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1404، 2 / 334.

الأداة الشرط	الشرط	الجزء
إِنْ	تَتَّقُوا اللَّهَ	يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ
هيئة التركيب النحوية	تركيبية الشرط من جزء واحد	ثلاثة جزاءات متعاطفة بالواو
صفة التركيب	متحد.	متعدد على الجمع
صفة التعليق	يقوم التعليق على شرط تقوى الله.	الجزء وهو الحكم . مشتمل على ثلاثة جوانب مجتمعة. وهو متخصص بالشرط المذكور. ويقوم كله بوجود الشرط ويختل باختلاله.
كمية التخصيص	الشرط خصص الجزاءات الثلاثة مجتمعة	زاد الجزء الثاني في درجة تخصيص الجزء الأول، كما زاد الجزء الثالث في درجة اختصاص الجزء الثاني.

الجدول 4: كمية التخصيص في آية 29 من سورة الأنفال.

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ المائدة: 95.

صرح الله تعالى بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام في الحج والعمرة. والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدماته والمشاركة فيه والدلالة والإعانة عليه، وأكل ما قُتل أو صيد منه، تعظيماً لهذا النسك العظيم، وأنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام.

وانتقل الحكم الإلهي بعد ذلك إلى تبين حكم من وقع من المحرمين في مخالفة حكم النهي هذا، فبين أن ﴿ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا ﴾ فعليه:

1- جزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ الْإِبِلِ أَوْ الْبَقَرِ أَوْ الْغَنَمِ، يَذْبَحُهُ وَيَتصدقُ بِهِ. والاعتبار بالمماثلة أن ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، وذلك الهدى لا بد أن يذبح في الحرم.

2- ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، فيجعل مقابلة المثل من النعم، طعاما يطعم به المساكين.

3- ﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ﴾ الطعام صِيَامًا، فيصوم عن إطعام كل مسكين يوما.

ورد الشرط واحدا وهو قتل المؤمن الصيد متعمدا في حال إحرامه، وقد اقتضى هذا الشرط ثلاثة جزاءات على سبيل البدلية. وهذا يعني أن كل واحد من الجزاءات مخصَّصٌ بالشرط الوحيد، وأن الشرط يطلب واحدا فقط من مجموع المشروطات، وأن أيّ واحد منها مجزئ. وأما تعيين أحدها دون الآخرَيْنِ فأمر يرجع إلى الله أو أولي العلم. والملاحظ أن ترتيب المشروطات ورد حسب ما هو أولى بإصلاح حال الناس، وسد حاجاتهم.

والمشروطات المتعددة على البدلية منحت الجزاء فضل توسيع في الحكم المنوط بعنق المحرم الذي وقع في عصيان أمر الله المتمثل في تجنب قتل الصيد؛ ويرجع ذلك التوسيع إلى كون الجزاء المعطوف بـ"أو" يزيل من حجم اقتضاء الشرط لجزاء معين، فيصير الشرط الواحد مقتضيا لأكثر من جزاء، أيّ واحد منها مجزئ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل: 97.

في هذه الآية اتحد الشرط وهو العمل الصالح الواقع من المؤمن أو المؤمنة. وتعدد جوابه على سبيل الجمع، وإن كان جوابه محذوفا مستدلا عليه بجواب القسم. وقد اختص الجوابان معا بالشرط الوحيد؛ لاقتضائه إياهما مجتمعين، وزاد الجزاء الثاني في تخصيص الجزاء.

قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ النساء: 149.

إبداء الخير إظهاره، وعطف عليه ﴿أو تخفوه﴾ احتراسا عن أن يظنوا أن الثواب على إبداء الخير خاصة، والعفو عن السوء بالصفح وترك المجازاة. وجملة ﴿فإنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ دليل الجواب

المخدوف، وهو علة له، وتقدير الجواب: يعف عنكم عند القدرة عليكم، كما أنكم فعلتم الخير جهرا وخفية وعفوتم عند المقدرة على الأخذ بحقكم.

اجتمعت ثلاثة شروط على سبيل البدل، وهي إبداء الخير، وإخفاؤه، والعفو عن السوء. والمشروط هو العفو عنهم عند القدرة عليهم. وفي هذه الحال يكون كل واحد منها وحده كافيا في تخصيص الحكم. ويكون الشرطان الثاني والثالث قد رفعا بعض التخصيص؛ لأنه لما قال: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ نفى العفو عنهم بفقد إبدائهم الخير، وأخرجه من الكلام، فلما قال: ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ أوجب العفو عنهم وإن لم يبدوه، وبقوله: ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ نفى العفو عنهم بفقد إخفاء الخير، وأخرجه من الكلام، فلما قال: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أوجب العفو عنهم وإن لم يخفوه. وعلى الجملة فإن تعدد الشروط المقتضية لجزاء واحد - وكان تعددها على البدلية- من شأنها أن تقلل من تخصيص بعضها البعض للجزاء، ويصير الجزء مخصوصا ولو بأدناها، ويجري به الحكم مع إهمال غيره.

والتقليل من معنى التخصيص الذي يكون ثمرة لتعاقب الشروط على البدلية هو من الدلالات التي

يفيدها العدول عن الأصل المتمثل في تخصيص جزء بشرط على الانفراد¹. قال الرازي، في المحصول: إنهم... "اتفقوا على أنه يحسن التقييد، بشرط أن يكون الخارج أكثر من الباقي..."² ولا بد أن أقل الشرط المقيد به هو الشرط الواحد، ليكون الخارج هو الأكثر. وأما مسوغ كثرة الشروط على البدلية- في هذه الآية- فإن الغاية منه تبيين ما لله من فضل على عباده المحسنين، يتجلى في تكثير الفرص المفضية بهم إلى الفوز بعفو الله تبارك وتعالى.

وفي هذا الجدول المزيد من التقريب والتلخيص لما تقدم في تحليل الأنموذج المتقدم:

1 - ذلك لأن الأصل في العدد هو الواحد، فما زاد أو نقص فرع عنه.

2 - الرازي، المحصول في علم الأصول، 3/ 89.

أداة الشرط	الشرط	الجزء
إِنْ	تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ	فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا
هيئة التركيب	ثلاثة شروط عطف بعضها على بعض بـ "أو"	الجزء واحد، وهو نيل العفو من الله.
صفة التركيب	متعدد على البدل	متحد.
صفة التعليق	يقوم التعليق على الثلاثة الشروط على سبيل الخيار والجمع على السواء . وإذا اختل بعضها لا يختل المشروط.	يختل الجزء باختلال الشروط الثلاثة جميعا. ولا يختل باختلال بعضها.
كمية التخصيص	رفع عطف الشروط على بعضها بـ "أو" من معنى التخصيص؛ الشيء الذي ينبئ عن التساهل في منح المشروط.	XXXXXXXXXX

الجدول 5: كمية التخصيص في آية 149 من سورة النساء.

وقل تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة: 5.

واو الجماعة في (أقاموا) عائد الى المشركين، وقد أمر الله المؤمنين بهم أن يقتلوهم حيثما وجدوهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم. فإن هم اختاروا الإسلام وتابوا عن كفرهم وأدّلوا على توبتهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، كان على المؤمنين أن يتركوا سبيلهم لأن الله غفور لمن تاب.

تعددت الشروط على الجمع وهي: التوبة من الكفر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة مقتضية جوابا معنا مفردا هو تخلية سبيل من أريد قتلهم. فيكون المشروط الوحيد مخصّصا بالشروط الثلاثة مجتمعة، ويختل

هذا المشروط بسقوط بعض هذه الشروط ، أو سقوطها مجتمعة؛ إذ هي كالشرط المتحد، لا تنفك من بعضها البعض. والشرط الإجمالي في الآية زيد في تخصيصه بسبب الزيادة المترتبة على العطف على

الأول بنان، ثم العطف على الثاني بنالث. والزيادة في تخصيص الجزء بالشرط تنبئ عن أهمية المشروط، ألا وهو حصول الخطوة بعفو الله بعد كفر شديد.

قال عز من قائل: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ البقرة: 106.

جاء في مناسبة نزول هذه الآية أن كفار مكة ويهود المدينة طعنوا في تغيير القبلة، وقالوا إن محمدا يأمر أصحابه بشيء وينهاهم عنه، ويقرر شرعا ثم يرجع عنه فما هو إلا من تلقاء نفسه. فأنزل الله: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ وأنزل ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ .

أراد الله أنه قادر على إنفاذ قضائه وقدره، فيقدم ما أراد من أحكامه، ويؤخر منها ما أراد، ويثقل الحكم على من شاء، ويخففه على من شاء، وأنه إليه التيسير والتعسير، وبيده التقدير والتقدير، ولا مجال لأحد في الاعتراض والتغيير.¹

ومعنى النسخ إزالة حكمها والعمل بها ، ونُسِها معناه لا ننسخها وإنما نُؤخر العمل بها إلى مدة معلومة.

في هذا النص اشترط الله رفع العمل بالآية معلّقا بأن يأتيها بخير منها أو مثلها. ومعنى بخير منها، خير منها لعباده لأنها أكثر أجرا أو سهولة. وأمّا كلام الله فلا يتفاضل في ذاته.²

ورد الشرط في الظاهر متعددا على البدل، وهو في الحقيقة شرط واحد لأن الشرط المعطوف لا يتلاءم مع الجزء إلا في حال صيرورته إلى معنى الشرط المعطوف عليه. وبعبارة أخرى هناك ملاءمة بين نسخ حكم الآية وإتيانها بخير منها أو مثلها، وليس ثمة ملاءمة بين تأخير العمل بها إلى مدة معلومة وإتيانها بخير منها أو مثلها، بسبب أنها في هذا الحال تكون غير منسوخة ، ولكن قد يقع نسخها في المستقبل. ورفع الجزء الثاني من تخصيص الجزء بالشرط، لأن كلا من الجزئين مختصّ بالشرط على حدة.

1 - الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت لبنان، 1/ 122.

2 - ينظر: ابن حزم الأندلسي (علي بن أحمد أبو محمد) ، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث - القاهرة، ط الأولى، 1404، 4/ 480.

الفصل الثالث: دلالات العدول بالزيادة في التركيب الشرطي

وأما الجزاء فجاء متعددًا على البدل. وهو محل تخصيص بالشرط الأول في واحد من الأمرين: إتيان الله بخير من حكم الآية المنسوخة، أو إتيانه بمثلها.

والجدول التالي يحمل مزيد إيضاح:

أداة الشرط	الشرط	الجزاء
ما	نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا	نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا
هيئة التركيب النحوية	شرطان عطف ثانيهما على الأول بـ "أو"	جزاءان عطف ثانيهما على الأول بـ "أو".
صفة التركيب	متعدد على البدل في الظاهر. وفي الواقع هو شرط واحد.	متعدد على البدلية
صفة التعليق	يقوم التعليق على الشرط الأول فقط . وإذا احتل اختل المشروط.، وهو أحد الجزاءين.	يختل الجزاء باختلال الشرط.
كمية التخصيص	XXXXXXXXXXXXXXXX	قلل الجزاء الثاني من تخصيص الجزاء بالشرط، أي أن كلا من الجزاءين مختصّ بالشرط الوحيد الذي هو النسخ.

الجدول 6: كمية التخصيص في آية 17 من سورة البقرة

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾

البقرة: 270.

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمندورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء، إذا كان ذلك العمل ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بالعذاب يوم القيامة، حيث لا ينقذهم أحد من عذاب الله ونقمته.¹

وفيما يلي جدول بأنماط تخصيص الشرط والجزاء، يكون بمثابة الفهرس لما تقدم من نماذج مدروسة، ولأخرى شبيهة بها:

أنماط تخصيص الشرط والجزاء:

كمية العدد في الشرط والجزاء	نوعية التعدد في الشرط	نوعية التعدد في الجزاء	النموذج النصي القرآني
تفرد الشرط / تفرد الجزاء	”	”	﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ البقرة 197.
تفرد الشرط / تعدد الجزاء	الشرط مفرد	الجزاء متعدد على الجمع	﴿ إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد: 7. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال: 29. ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ نوح: 7. ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: 97.

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2 / 472.

<p>﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ المائدة:95.</p>	<p>الجزاء متعدد على البدل</p>	<p>الشرط مفرد</p>	
<p>﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: 55. ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة يوسف: 90. ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة: 5. ﴿ وَمَنْ يَتْرُدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ البقرة: 217.</p>	<p>تفرد الجزاء</p>	<p>الشرط متعدد على الاجتماع</p>	<p>تعدد الشرط / تفرد الجزاء</p>
<p>﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا ﴾ النساء: 149. ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ البقرة: 270. ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ آل عمران: 157.</p>	<p>تفرد الجزاء</p>	<p>الشرط متعدد على البدل</p>	
<p>﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ النساء: 112.</p>	<p>الجزاء متعدد على الجمع</p>	<p>الشرط متعدد على البدل والجمع</p>	<p>تعدد الشرط / تعدد الجزاء</p>
<p>﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾</p>	<p>الجزاء متعدد على</p>	<p>الشرط متعدد</p>	

على البدل	البدل	أَوْ مِثْلَهَا ﴿ البقرة: 17.
-----------	-------	------------------------------

الجدول 7: جامع لأنماط تخصيص الشرط والجزاء مع امثلتها.

ويجب أن نلاحظ أن النماذج التي تم تقديمها وتحليلها تنتمي إلى صور الشرط والجزاء في حال كون الارتباط بينهما سببياً؛ أي حينما يرد الجزاء معلقاً بالشرط على وجه السببية لا على وجه الملازمة فقط، ولا على وجه التقابل.

ولعل ضرب أمثلة لأوجه الارتباط بين الشرط والجزاء تساعد على فهم أن تخصيص الجزاء بالشرط ينحصر في صورة الارتباط السببي بين جملي التركيب الشرطي.

قال عز وجل: ﴿ وَإِنْ تَبُدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُورُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ البقرة: 284.

إن محاسبة الله للعباد ليست متخصصة بأن يبدي الناس ما في أنفسهم أو يخفوه، ولا هي متوقفة على هذين الفعلين بوصفهما سبباً، ولكن ارتباط المحاسبة بالإبداء أو الإخفاء ارتباط تلازمي؛ فإذا وقع من العبد أحدهما أو كلاهما، كانت المحاسبة ملازمة له. والله يحاسب على كل كبيرة وصغيرة، أسرها صاحبها أو أعلنها. ومن هذه الأمثلة قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يونس: 104. فيونس عليه السلام لا يعبد غير الله، سواء أشكوا أم آمنوا. ولا معنى للقول بأن عبادته لله وحده قد خُصِّصَتْ بشكهم في دين يونس عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ بَجَّهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ طه: 7.

وكذا في هذه الآية، لا يختص الجزاء بأن يجهر العبد بقوله، ولا هو متسبب عنه، ولكن الارتباط بينهما قائم على المقابلة بين الجهر والسر؛ فالجهر صفة بشرية تشير إلى ضعفه إزاء عظمة الخالق وعلمه الممتد إلى خفايا الأشياء والنفوس.

المبحث 5- الزيادة بدخول الاستفهام:

يدخل أسلوب الاستفهام على هذا التركيب فتكون له بعض الأحكام النحوية الخاصة، كتقدير الاستفهام مقدا من تأخير في نحو قوله عز وعلا: ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْحَالِدُونَ ﴾ سورة الأنبياء: 34. وكتكرار الاستفهام في الشرط والجزاء من نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّذَا كُنَّا تُرَابًا وَ آَبَاؤُنَا أَتِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ النمل: 67.

همزة الاستفهام ودلالاتها:

يقول ابن هشام عنها: إنها أصل أدوات الاستفهام ولذلك اختصت بأمر. منها أنها تجمع بين التصور والتصديق. وغيرها إما للتصديق كـ "هل"، أو للتصور كبقية الأدوات.

وإذا كانت الهمزة في جملة معطوفة بالواو أو "ثم" أو الفاء جيء بالهمزة مقدمة من تأخير¹، وذلك تنبيها على أصلتها في التصدير، مثل: ﴿ أُولَمْ يَسِيرُوا ﴾ غافر: 21، ﴿ أُنْتُمْ إِذَا مَا وَقَع آَمَنْتُمْ بِهِ ﴾ يونس: 51، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ يوسف: 109، وغيرها يتأخر مثل: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ الأنبياء: 108. وعلى هذا فتكون الجملة التي بعد العاطف معطوفة على ما قبلها، هذا مذهب سيبويه والجمهور، وخالف الزمخشري وجماعة، فقالوا الهمزة في موضعها والمعطوف عليه جملة محذوفة بين الهمزة والعاطف تقدر بحسب المقام.²

وإنما خصوا التقديم بالهمزة دون غيرها من كلمات الاستفهام لأن الهمزة متأصلة في الاستفهام إذ هي الحرف الموضوع للاستفهام، والأكثر استعمالا فيه، وأما غيرها فكلمات أشربت معنى الاستفهام. منها ما هو اسم مثل "أين"، ومنها حرف تح وهو "هل" فإنه بمعنى "قد"، فلما كثر دخول همزة الاستفهام عليه حذفوا الهمزة لكثرة الاستعمال فأصل هل فعلت أهل فعلت...

قال الفراء: "كل استفهام دخل على جزء فمعناه أن يكون في جوابه خير يقوم بنفسه، والجزاء شرط لذلك الخبر، فهو على هذا. وإنما جزمته ومعناه الرفع لجيئه بعد الجزاء..."³

يرى الفراء أن كل استفهام داخل على تركيب شرطي، لا يكون جوابه إلا خبرا. وما بعد الأداة شرط فيه. وإنما يكون الجواب مجزوما وأصله الرفع مراعاة لمجاورته الشرط وهو مجزوم.

1 - أي مقدمة عن العاطف، وليس المقصود مقدمة عن صدارة الجواب.

2 - ابن هشام، مغني اللبيب، 1/ 11-14.

3 - الفراء، معاني القرآن، 1/ 236.

وخبرية الجواب كما يبدو لا مفر من أن تأتي في الكلام على هذه الصورة لأن الاستفهام مسلط على الخبر. ولا يدخل الاستفهام على طلب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبْتُ قَوْلُهُمْ: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَىٰ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟﴾ الرعد:5.

في هذه الآية الكريمة خاطب الله جل وعلا محمدا صلى الله عليه وسلم. وبين أن إنكار الكفار للبعث، جامع بين أمرين:

الأول منهما: أنه عجب من العجب لكثرة البراهين القطعية الواضحة الدالة على ما أنكروه.

والثاني منهما: وهو أن إنكارهم البعث المذكور كفر مستوجب للنار وأغلاها الخلود فيها. ومعلوم أن إنكار البعث إنكار للساعة وما يتعقبها من الحساب والجزاء¹.

والأصل في الاستفهام في مثل هذا الموضوع أنه عن الثاني، والهمزة معناها الإنكار؛ وإنما أنكروا أن يكونوا خلقاً جديداً ولم ينكروا أن يكونوا تراباً، فمن قرأ بالاستفهام في الجواب فقط فهو على الأصل، ومن قرأ بالاستفهام داخلاً على الشرط، فالقصد بالاستفهام عن الجواب، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فذلك للتأكيد².

جاء بالأداة "إذا" لما في صيرورتهم إلى ترابٍ من يقين لا يشك في حقيقته أحد منهم. ودخلت همزة الاستفهام على الشرط والجزاء، كما تدخل على الجملة الواحدة، فجعلت نسبة الخلق الجديد إلى المتكلمين - بعد كونهم تراباً - محل شك يُطلب إزالته بالإيجاب أو النفي. وقد دل السياق على أن الهمزة هنا ليست لطلب التصديق لسبق التعجب من قولهم، ولكن يراد بها كمال الإنكار والاستبعاد. وتكرار الهمزة في الجواب لتوكيد الإنكار، أي إنهم يمحذون البعث. والعامل في "إذا" يتصيد من جوابها وهو "أنبعث؟".

وقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ القصص:61.

1 - الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد المختار الجكني)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995، 23/6.

2 - محمد بن أحمد بن جزى الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 3، 1981، 2/130-131.

يقول تعالى ذكره: أَمِنَ وَعَدَنَاهُ عَلَى طَاعَتِهِ إِيَّانَا الْجَنَّةَ، فَأَمِنَ بِمَا وَعَدَنَاهُ وَصَدَّقَ وَأَطَاعَنَا، فاستحقَّ بطاعته إِيَّانَا أَنْ نَنْجِزَ لَهُ مَا وَعَدَنَاهُ، فَهُوَ لَاقٍ مَا وَعَدَ وَصَائِرُ إِلَيْهِ، كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا مَتَاعَهَا، فَتَمَتَّعَ بِهِ، وَنَسِيَ الْعَمَلَ بِمَا وَعَدْنَا أَهْلَ الطَّاعَةِ، وَتَرَكَ طَلِبَهُ، وَآثَرَ لَذَّةَ عَاجِلَةٍ عَلَى آجِلَةٍ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا لَاقَى اللَّهَ كَانَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ، وَهُمْ الْمُشْهَدُونَ وَعَذَابُ اللَّهِ، وَعِقَابُهُ الْأَلِيمُ¹.

المعنى الوظيفي لهزمة الاستفهام في هذه الآية طلب التصور وهو تعيين فيما إذا كان المؤمن المصدق المأجور بالجنة خير، أم من تمتع في الدنيا وكذب فجوزي بعذاب النار. على أن هذا الاستفهام لا يقصد به -في هذا السياق- حقيقة الطلب، ولكن يتوجه إلى الدلالة على معنى التسوية المنتفية بين الصنفين من البشر وهما: المؤمنون والكافرون فيما يصدر عن كل منهما من عمل، يلحقه لأجله جزاء مستحق.

ويهدف الاستفهام إلى تقرير أن الصنف الأول خير؛ لما ذكر في شرط الصنف الأول من تقييد الوعد بصفة الحسن "وَعَدْنَا حَسَنًا"، وفي وصف الصنف الثاني بأنه يوم القيامة من المحضرين.

قال تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ: نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾
الصفات: 16-17-18.

الآيات تشمل إنكار الكافرين لبعث الأموات بعد أن يتحولوا إلى تراب وعظام. إنهم لا ينكرون الموت وما يليه من تحول أجسامهم إلى تراب، ولكن الذي يستبعدونه وينكرونه هو أن يكون في المستقبل بعث لهم أو لآبائهم.

والأصل في الاستفهام بالهزمة - في هذا الموضع - أن يطلب بها التصديق فيكون جواب الاستفهام بالإيجاب أو النفي. وقد كان الجواب عندهم الاعتقاد في الانتفاء الأكيد، ولذا تعقب إنكارهم ذلك الجواب الذي لقنه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، "وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ" أي: حقيرون أذلاء، خاضعون تحت القدرة العظيمة.

قال عز وجل: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ آل عمران: 144.

دخل حرف الاستفهام على حرف الشرط؛ لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا. والمعنى: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟

والاستفهام في هذه الآية لا يقصد به الأصل الذي هو طلب التصديق على ما وقع في حيز الجواب، أي إيجاب أو نفي نسبة الردة إليهم. وهي المكنى عنها بالانقلاب على أعقابهم. والسياق يدل على أن هذه النسبة قد وجبت. وقام عتاب الله لهم لأجل ثبوتها في حقهم، وكأنه يقول لهم: لا تنبوا على موت محمد صلى الله عليه وسلم أو قتله قرارا بالردة عن دينه، أو لا ترتبوا على موته أو قتله لازما بالانقلاب على أعقابكم.

وقال: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الزمر: 22.

دخلت ألف الاستفهام على أداة الشرط "مَنْ" فصار الجزء المتعلق بالشرط موضع سؤال يراد الإجابة عنه بتعيين أي النسبتين خير: هل هي النسبة الواردة بعد فاء المجازاة "هُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ" أم النسبة المعادلة لها، وهي متروكة من الكلام وتقديرها "أَمْ مَنْ قَسَا قَلْبُهُ" لدلالة قوله: "فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ". وسياق الكلام يهدي إلى أن النسبة الأولى خير؛ لما في ارتباط معادلتها الثانية بالوعيد. والتركيب الشرطي يرمته معطوف على ما قبله بالفاء.

وقال عز من قائل: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: 87.

الفاء الأولى عاطفة، والثانية للسببية، والاستفهام للتوبيخ أو التعجيب من طغيان اليهود ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة ساوى فيها الخلف السلف، مما دل على أن ذلك سحبة فيهم جميعا. و"كلما" ظرف زمان متضمن معنى الشرط، يفيد التكرار.

إنه متى ما حدث فعل الشرط المقيد بالجار والمجرور ارتبط به حدوث فعل الجواب المبين بما بعد فاء السببية، أي متى ما حدث مجيء الرسل إليكم بالذي لا تهواه أنفسكم، وقع منكم فعل الاستكبار الذي ينشأ عنه تكذيبكم فريقا من الرسل مثل عيسى ومحمد وسليمان، وقتلكم فريقا منهم مثل زكرياء ويحيى عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وبسبب التكرار الذي تدل عليه "كلما" صار الشرط بمنزلة السبب الحقيقي للجواب، وليس مجرد علاقة بين ملزوم ولازم له، تحمل معنى السببية تارة ولا تحمله تارة أخرى.

لقد تجاوز الاستفهام بالهمزة وظيفته الأصلية - كما في هذه الآية - ألا وهي طلب التصديق، ليدل على أن تعلق الجواب بالشرط شيء مستنكر وقبيح جدا ليس من بعده بقية في ظلم البشر وأصفياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

قال تعالى: ﴿ أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة: 100.

تقتضي "كَلَّمَا" تكرار جوابها تناسبا مع تكرار شرطها. و الهمزة في قوله: "أَوْكَلَّمَا" للإنكار، وهي مسلطة على التركيب الشرطي بأجمعه، وإن كانت في المعنى مقتصرة على الدخول على الجواب. والواو لعطف هذا التركيب على ما تقدمه عند الجمهور.

وهي لعطف محذوف - بعد الهمزة - يقتضيه المقام: أي أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا عهداً نبذوه فریقاً منهم؟ وهو مذهب الزمخشري.

لقد تحقق العدول في هذه الآية بزيادة معنى الاستفهام الإنكاري إلى معنى الشرط والجزاء. كما أن معنى الاستفهام ذاته خرج عن أصل معناه والذي هو طلب التصديق، ليجعل المخاطبين اليهود في حرج من الجواب؛ وذلك حين لا ينتظر منهم جواب لأن أفعالهم التي ذكرت شاهد عليهم. ولعل هذه الطريقة في الخطاب كانت الأنسب في فضح بعض اليهود، وحمل بعضهم الآخر على الوفاء بما عاهدوا الله عليه في التعامل مع الأنبياء.

وقال جل وعلا: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلٌّ: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران: 165.

يخاطب الله تعالى المؤمنين عقب معركة أحد، وبعد أن غلبهم المشركون بقتل سبعين نفرا منهم وجرحوا منهم عددا ونالوا من محمد صلى الله عليه وسلم، بينما كان المؤمنون في معركة بدر قد أصابوا من المشركين مثلي هذه المصيبة، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. والأسير في حكم المقتول؛ لأن الأسر يقتل أسيره إن أراد. وقد تعجب المؤمنون من هذا المصاب، وقالوا: "أليس هذا"، أي: من أي وجه هذا؟ لدلالة الجواب الواقع مفعول القول. أو من أين أصابنا هذا الذي أصابنا، ونحن مسلمون وهم مشركون، وفينا نبي الله صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي من السماء، وعدونا أهل كفر بالله وشرك؟¹

الهمزة الداخلة على التركيب الشرطي منحتة فضلاً معنوي التفرع والتقرير، وهما معنيان مسلمان في الأساس على جواب الشرط " قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا " . وأما الاستفهام " أَنِّي هَذَا؟ " فجوابه: " قل: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ " .

والواو عاطفة مدخولها على ما قبلها - وهو ما قبل همزة الاستفهام.

و"لَمَّا" حرف بمعنى "إِذ" فيه معنى الشرط، وتقتضي جملتين من فعلين معناهما الماضي، وجدت ثابتهما عن وجود أولاهما، وتسمى حرف وجوب لوجود أو وجود لوجود، وهذا مذهب سيويه وابن خروف. وقد رجحه صاحب الجنى الداني.¹

وليس في القرآن الكريم غير هذه الآية من حيث دخول الاستفهام على "لَمَّا".

المبحث 6- الزيادة بدخول القسم:

ومن أظهر الجهات اليقينية (القيود) توجيهها للإثبات في القرآن الكريم أسلوب القسم، وهو يؤدي وظيفة إقناعية تحمل المخاطب على التسليم والتحقق من قضايا عديدة كانت محل جدل وخصام. فالقسم يثبت القضية ويوجبها، ويقيم في الوقت نفسه الحجة على المخاطب ويلزمه بها. جاء في معترك الأقران للسيوطي نقلاً عن أبي القاسم القشيري: "أن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها. وذلك أن الحكم يفصل بإثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله النوعين حتى لا تبقى لهم حجة"، فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ آل عمران: 18. وقال: ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ ﴾ يونس: 53.²

وينبغي القسم كما هو معلوم من مقسم به ومقسم عليه. والمقسم عليه هو الدعوى المراد إثباتها. والمقسم به - وإن كان من الناحية النحوية - زائداً لتمام المعنى بدونه، فإنه ليس كذلك من الناحية الحجاجية؛ لكونه ضرورياً جداً لإنتاج الإقناع أو لاحتمال حصوله على الأقل.

1 - المرادي (الحسن ابن أم قاسم)، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1، 1992، ص 594.

2 - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: محمد البجاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط الأولى، 1988، 2/450.

ويدخل القسم على هذا التركيب الشرطي فيكسبه فضل توكيد، ويتعلق الأمر بالتخفيف من نسبة الشك التي يوصف بها الشرط وتوطيد نسبة ترتب الجواب على الشرط. ويطول الكلام بالقسم نظراً لاقضاء كل من القسم والشرط جواباً. فيستغني المتكلم عن التلطف بذكر جواب أحدهما، بذكر جواب الآخر، لتحقق أمن اللبس وطلباً للخفة.

والزيادة بالقسم الداخلة على الشرط، قد يطرأ عليها زيادة أخرى هي زيادة الاستفهام، إلا أنه ليس بالاستفهام المعبر عنه بالأدوات الموضوعية لهذا المعنى، ولا هو يتصدر هذا التركيب؛ لأنه لا يستقيم أن يدخل الاستفهام على القسم لما بين المعنيين من التعارض الدلالي: فالاستفهام هو طلب معنى غير موجود ولا قار في نفس صاحبه، والقسم هو فضل توكيد معنى قار وثابت فيها.

وأما صيغة هذا الاستفهام فمعبّرٌ عنها بفعل الاستفهام "سأل" واقعا فعل شرط، ومبدلاً منه بجملة استفهامية مصدرة باسم استفهام، وجوابه فعل القول متعدياً إلى جملة مقول القول. على أن هذا الجواب واقع شركة بين الأساليب الثلاثة من حيث المعنى، وهو محسوب للأسلوب المتصدر أي القسم ومناسب له من جهة اللفظ. ومن أمثلة هذا التركيب أبنية الآيات الآتية:

سلك العدول في مثل هذه التراكمات تراكم الأساليب المقتضية للجواب، وكان التركيب الشرطي متوسطاً بين القسم والاستفهام. وفي الآن معاً، صار ذلك الجواب المقسم عليه، وموضع الجزاء، وإجابة عن الاستفهام المراد به طلب التصور. وتولد عن هذا التراكم الأسلوب طويل مسافة الكلام، الشيء الذي جعل النظم القرآني يلجأ إلى الحذف من أجل الإيجاز، مع أمن اللبس. ولا بد أن القارئ والسامع يدركان مدى الكثافة الدلالية التي اكتسبها الجواب "ليقولن الله" لأنه صار مستهدفاً من قبل ألوان من الأساليب، وعليه يحسن سكوت المقسم والمشتراط والسائل.

المبحث 7- الزيادة بدخول الشرط على الشرط:

من العوارض التركيبية للتركيب الشرطي دخول الشرط على شرط آخر واحد أو متعدد، فيزداد معنى التعقد والتعلق في هذا التركيب كلما ازدادت الشروط. وقد حظيت هذه الظاهرة الكلامية بوقفات من النحاة والأصوليين في مؤلفاتهم.

ودخول الشرط على الشرط يختلف عن تعدد الشروط؛ فإذا كان تعدد الشروط هو عطف بعضها على بعض معتمدة على أداة واحدة، نحو: إن تأتني وتحسن إليّ أكرمك، ونحو: إن تأتني أو تحسن إليّ

أكرمك، فإن دخول الشرط على الشرط يتمثل في عدد من أفعال الشروط، كل واحد منها معتمد على أداة شرط غير معطوفة على أداة قبلها، أو معطوفة نحو: إن تأتي إن تحسن إليّ أكرمك، وإن تأتي فإن تحسن إليّ أكرمك.

والأصل الذي تقرره القاعدة عند النحاة، أنه إذا توالى أداتان أو أكثر من أدوات الشرط، بغير اتصال مباشر(أي بغير عاطف)، فالجواب للأداة الأولى، ما لم تقم قرينة تعيّن غيرها. أما باقي الأدوات التالية فجوابها محذوف لدلالة جواب الشرط الأول عليه.¹

والزيادة على التركيب الشرطي بإدخال شرط أو أكثر عليه، يوجب استطالة في الكلام، فيلجأ المتكلم إلى حذف جواب الشرط التالي اكتفاء، وللإستدلال عليه بجواب الشرط الأول.

وعلى الجملة فإن هذا النوع من الزيادة يلاحظ فيه عارضان عدوليان من العوارض التركيبية هما العدول بالزيادة والعدول بالحذف.

وأكتفي بهذه الإشارات النظرية لدخول الشرط على الشرط، لأن أمثله من القرآن الكريم حللت في فصل العدول بالحذف ضمن مطلب: الاستغناء بجواب الشرط الأول عن جواب الآخر.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الكثير من أمثلة التركيب الشرطي الواحدة، سواء في القرآن الكريم أو في سائر الاستعمال، تكون مسرحاً لأنواع من العدول مثل دخول الشرط على الشرط وحذف جواب الثاني، واستبدال الأداة والجواب، والزيادة بأسلوب القسم والاستفهام.

المبحث 8- الزيادة باعتراض الشرط على الشرط:

وهو أن يقتزن الثاني بقاء الجواب لفظاً، نحو إن تكلم زيد ا فإن أجاد فأحسن إليه . فلشَرَطَ الثاني وَجَوَابَهُ جَوَابَ الأول.²

1 - عباس حسن، النحو الوافي، 4/488.

2 - ابن هشام (عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين) اعتراض الشرط على الشرط ، تح: عبد الفتاح الحموز، دار عمار ، الأردن، ط1، 1986، ص32.

ومثاله قول الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة:38.

الجواب هو قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وشرطه: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾، وأما الشرط: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ فجوابه الشرط الثاني وجوابه.

الشرط الأول بمنزلة التمهيد والتوطئة للشرط الثاني، فلا يمكن تصور وجود الشرط الثاني بدون أسبقية وجود الشرط الأول. وهذه المنزلة هي الزيادة في هذا التركيب. وتكمن فائدتها في التلميح إلى العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدا من عباده، ولكن يقيم الحجة ببعث الكتب والأنبياء والرسل قبل أن يحاسب خلقه.

المبحث 9- التراكيب الطلبية المجازاة:

يستعمل المتكلم تراكيب لغوية معينة، تشبه التركيب الشرطي في أنها مكونة من عبارتين بينهما تلازم كالتلازم الذي يكون بين عبارتي هذا التركيب، ويكون الفعل المضارع في العبارة الجوابية مجزوما على نحو ما يكون في جملة الجواب. كما أنّ لهذه التراكيب وظيفة تعبيرية تشابه وظيفة هذا التركيب. ولأجل التشابه الذي بينهما، ذكر سيبويه أن الخليل يعتبر أن العبارة الأولى من هذه التراكيب متضمنة معنى أداة الشرط وفعله. قال سيبويه: "وزعم الخليل: أنّ هذه الأوائل كلّها فيها معنى "إن"، فلذلك انجزم الجواب؛ لأنه إذا قال: ائني آتك، فإنّ معنى كلامه إن يكن منك إتيان آتك، وإذا قال: أين بيتك أزرك؟ فكأنّه قال: إن أعلم مكان بيتك أزرك؛ لأنّ قوله أين بيتك؟ يريد به: أعلمني. وإذا قال: ليته عندنا يحدّثنا، فإنّ معنى هذا الكلام: إن يكن عندنا يحدّثنا.¹

وقد وثّق السيرافي بيان أن هذه الصور الطلبية ينجزم جوابها بإضمار "إن" وفعل الشرط؛ ذاهبا إلى أنّ الدليل على ذلك هو أن الأفعال الواقعة بعد تلك الصور (أي الأجوبة) إنما هي عبارة عن ضمانات يقدمها ويعدّها بها المتكلم الطالب. وهي ليست ضمانات مطلقة ولا وعود واجبة، ولكنها معلقة بمعنى "إن" كان ووجد المطلوب، كان ووجب الضمان والعدة، وإن لم يوجد لم تجب.²

1 سيبويه، الكتاب 3/ 93،94. وينظر: المرشد، المقتضب، 80/2، 81. وأبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي)، كتاب الإيضاح، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط 2، 1996، ص 253.

2 ينظر: هامش الصفحة 94 من المصدر نفسه.

من النكت البديعة التي يجدها ابن القيم في وقوع الفعل المستقبل بلفظ الأمر في باب الشرط، نحو قم أكرمك: أي إن تقم أكرمك، أن صيغة الأمر تدل على فائدتين: الأولى أن الطلب (من أمر أو نهي أو عرض أو تمن أو استفهام...) كالشرط من حيث أن الجزء الأول يقتضي الجزء الثاني اقتضاء السبب للمسبب، وأن الجزء الثاني مترتب في وجوده على وجود الأول. والثانية أن الطلب يدل على أن المتكلم طالب لفعل الطلب مرید لتحه، لا أنه مجرد معلّق عليه الفعل الثاني. وهذه الفائدة لا يدل عليها الفعل المستقبل إن يقم وغيره مثل (سيقوم وسوف يقوم ولن تقوم وأريد أن يقوم)، ولذا عدل عنه إلى لفظ الأمر.¹

وتؤول صورة التركيب الشرطي بعد أن يدخل عليه الطلب، إلى بنية أكثر تعقيدا وإلى نص غني بالجميل المترابطة، متمثّل في الجملة الطلبية متضمنة أو نائبة عن جملة الشرط وأداته، والجملة الجوابية. إن قوله عليه الصلاة والسلام: "صوموا تصحوا" ينبي - من حيث البنية العميقة - من الجمل التالية: صوموا، فإن تصوموا تصحوا.

وأعتبر هذا التركيب المعقد المتمثل في تداخل الجملة الطلبية مع التعليق الشرطي، تركيبا شرطيا محولا بزيادة أسلوب الطلب إليه في أوله² فصارت بنيته بين الظاهر والمضمر كما يلي: طلب ظاهر (أمر أو نهي أو عرض أو تمن أو استفهام...)، يتلوه شرط محذوف مدلول عليه بالطلب السابق له، مقترن بالفاء مأخوذ من لفظ الطلب ومعناه (فإن تفعل أو فإن فعلت) يتلوه جواب الطلب (تفعل أو فعلت). كما يمكن أن يقدر الشرط متلوا بالجزاء، ثم يؤتى بالطلب مقترنا متأخرا بالفاء. ومثال ذلك:

أَقْدِمْ، فَإِنْ تُقْدِمْ/أَقْدَمْتَ، تَهْنُ/هَانَتْ عَلَيْكَ الصَّعَابُ.
 إِنْ تُقْدِمْ/أَقْدَمْتَ، تَهْنُ/هَانَتْ عَلَيْكَ الصَّعَابُ، فَأَقْدِمْ.
 لا تفرط في حَقِّكَ؛ فَإِنْ لم تفرط حُمِدْتَ/ تُحَمَّدُ.
 إِنْ لم تفرط في حَقِّكَ، حُمِدْتَ/ تُحَمَّدُ؛ فلا تفرط.³

1- ابن القيم، بدائع الفوائد، 1/183.

2 - بنيت هذا الاعتبار على ما وضحه ابن القيم من أنّ الفرق بين بنيتي الطلب وجوابه والشرط وجوابه هو أنه في الأول يكون المتكلم الطالب يريد تحقق المطلوب من أمر أو نهي... أو بعبارة أخرى له موقف من المطلوب، بخلاف الثاني فإن المتكلم يكون معلقا أمرا على أمر فقط. وفيما عدا ذلك يستويان.

3 _ الأستاذ الدكتور فيصل إبراهيم صفا، مقال بعنوان: التعليق الشرطي: أسلوب للربط التركيبي والدلالي بين الجمل في النص، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، 62، 63.

ومن جهة الدلالة، إذا كان التركيب الشرطي القياسي يخلو من الإشارة الدالة على موقف المتكلم من ترتيب أمر على أمر آخر، فإنّ هذا التركيب الذي تتداخل فيه الجملة الطلبية مع التعليق الشرطي، ينطوي على هذا الموقف.

ولم يرد في القرآن ما يمثل اتحاد الشرط والجزاء لفظاً مع الاختلاف معنى، بالتعويل على سياق الحال كما هو قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -: " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ " فَإِنَّ نَفْسَ الْجَوَابِ هُوَ نَفْسُ الشَّرْطِ، وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ تَقْدِيرٍ تَحْصُلُ بِهِ الْمَغَايِرَةُ، فَقَالُوا: " تَقْدِيرُهُ: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ نِيَّةً وَقَصْدًا فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ حُكْمًا وَشَرْعًا.

المبحث 10- الزيادة بعطف المقابل للتركيب الشرطي:

المطلب 1- الزيادة بعطف المقابل

كما تدخل على الجملة ألفاظ تبدو زائدة فتؤكد ما قلها أو تؤكد بعض أجزائها وتجعلها مؤهلة للاضطلاع بوظائف حجاجية، يمكن أيضاً أن تدخل الجملة على الجملة فتؤكد معناها وتحققه وتقرره، بينما يبدو أن هذه الجملة المؤكدة مما يمكن الاستغناء عنه لحصول كمال المعنى في الجملة المؤكدة. ومن أجل أن الاستغناء عن هذه الجملة قد يبدو ممكناً، أدرجنا الجملة الشرطية المؤكدة تحت مفهوم العدول الكمي بالزيادة.

ويشمل مفهوم العدول الكمي بالزيادة ظواهر أسلوبية متعددة تناولتها بالدرس كتب البلاغة وعلوم القرآن ومنها التكرار والتتميم والتذييل...

والتَّذْيِيلُ من المفاهيم التي عالجها جلال الدين السيوطي في البرهان، وجعله داخلاً في باب الإطناب. فقال في حده إنه: " اصْطِلَاحًا أَنْ يُؤْتَى بَعْدَ تَمَامِ الْكَلَامِ ، بِكَلَامٍ مُسْتَقِيلٍ فِي مَعْنَى الْأَوَّلِ تَحَا لِدَلَالَةِ مَنْطُوقِ الْأَوَّلِ أَوْ مَفْهُومِهِ لِيَكُونَ مَعَهُ كَالدَّلِيلِ لِيُظْهِرَ الْمَعْنَى عِنْدَ مَنْ لَا يَفْهَمُ وَيَكْمُلُ عِنْدَ مَنْ فَهَمَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكْ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ سبأ: 17، ثُمَّ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾، أَي هَلْ يُجَازِي ذَلِكِ الْجَزَاءِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْكُفُورُ إِلَّا الْكُفُورَ ، فَإِنْ جَعَلْنَا الْجَزَاءَ عَامًّا كَانَ الثَّانِي مُفِيدًا فَائِدَةً زَائِدَةً. وَقَوْلِهِ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء: 81.

وكالتذييل الاعتراض، والتميم، و الطرد والعكس، في أنها ظواهر أسلوبية يحصل بها التح والتوكيد وإظهار المعنى. وبعضها يحصل بالكلمة كما يحصل بالجملة. وما يعيننا في البحث هو الجملة التي تضيف إلى جملة قبلها هذه الدلالات الزائدة.

وقد غدت الظواهر المذكورة وغيرها من خصائص القرآن الأسلوبية ؛ نظرا لتواترها الشديد فيه . وذلك ما حقق للأسلوب القرآني حجاجا سواء من جهة المنطوق أو جهة المفهوم.¹

ونقتصر على درس ما عرف بالطرد والعكس، وهو ما تحقق في كثير من التراكيب الشرطية الماثرة في القرآن الكريم. وقد درس السيوطي هذه الظاهرة في باب "الإطناب"، وحدّ الطرد والعكس نقلا عن بعضهم بالقول: "هو أن يؤتى بكلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس".² وتحقق هذه الظاهرة بأن يكون التركيبان في الجملتين متناظرين، بحيث تكون بعض الوحدات المعجمية فيهما من المتضاد معجميا أو دلاليا، فينعكس ذلك على الجملتين في مجملهما؛ إذ يكون المنطوق في إحداهما مفهوما من الأخرى وبالعكس. وأكثر حصول التقابل المعجمي يكون بين الجملتين الشرطيتين اللتين يجمع بينهما العطف.

وهذا الذي يعده بعض رجال البلاغة وعلوم القرآن من باب الاطناب، اعتنى بدراسته علماء الأصول في مباحث الدلالة، وبالضبط في "دلالة المفهوم" للجمل، بما فيها الجملة الشرطية أو التركيب الشرطي.

المطلب 2- دلالة المفهوم في التركيب الشرطي:

من طرق الدلالة على القصد التي تطرق إليها علماء الأصول ما يعرف بدلالة المفهوم. وهي دلالة تعتبر من تمام معاني الجمل، وقد تكون العبارة المسكوت عنها، المدلول عليها بالعبارة المنطوقة تحمل حكما شرعيا³. ولهذا حظي هذا النوع من الدلالة باهتمام علماء الأصول. فما هي دلالة المفهوم؟

1 - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط 2، 2007، ص 337، 342.
2 - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، 1/ 368.
3 - وذلك كما في الحديث النبوي: "في الغنم السائمة زكاة"، فإن تقييد المنطوق به أي الغنم، بتقييد الصفة (السائمة) دل بدوره على المفهوم المخالف المنفي، وهو أن الغنم المعلوفة لا زكاة فيها. ولو كانت الغنم السائمة والمعلوفة في الزكاة على صفة واحدة لم يكن لتقييد الكلام بالسوم فائدة. وهذا الحديث هو نفسه الذي تمثل به الأمدي في "الإحكام".
ينظر: الأمدي (علي بن محمد)، الإحكام في أصول الأحكام، تح: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، الطبعة 2، 2003، 2/ 92.

ورد حدّها عند الشيرازي (ت 476هـ) حيث قال: "مفهوم الخطاب (أي دلالة المفهوم) كل ما فهم من الخطاب مما لم يتناوله النطق وفهم معناه".¹

وعرفها الآمدي (ت 631هـ) قائلاً بأنها: "ما فهم من اللفظ في غير محمل النطق"²

ويوافقنا هذان التعريفان بأن دلالة المفهوم تكمن فيما هو مسكوت عنه، وهذا المسكوت عنه يمكن للعقل إدراكه وفهمه من خلال مدلول الوحدة الكلامية على مدلول آخر. وبعبارة أخرى فإن مدلول العبارة المنطوقة يتحول إلى دال، مدلوله هو مضمون العبارة المسكوت عنها.

وقد ذهب جمهور الأصوليين إلى تقسيم دلالة المفهوم إلى قسمين هما:

1 مفهوم الموافقة: وتسمى أيضاً دلالة النص عند الأحناف، وفحوى الخطاب ولحن الخطاب (أي معنى الخطاب) لدى الشافعية. وينطلق الأصوليون في تعريفهم لمفهوم الموافقة من أمرين:

الأول- أن هذا المفهوم يجمع بين المعنى المباشر والمعنى الإيحائي، وأن هذا الجمع مراد من قبل المتكلم المثالي.

الثاني- أن العلة التي تجمع بين المعنيين، علة لغوية تدرك بمجرد الفهم اللغوي للوحدات الكلامية.

وفي هذا النوع من الدلالة قد تكون دلالة المسكوت عنه أعم وأشمل من اللفظ المصرح به وذلك مثل ما جاء في قوله تعالى من تحريم التأفف للوالدين، حيث سكت عما هو أعم وأشمل وأدخل في الحكم كالشتم والضرب والعقوق. كما قد يكون حكم المسكوت عنه أدنى من اللفظ المصرح به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ﴾ آل عمران: 75.

فالمنطوق هو تأدية المؤمن القنطار، وهذا يفهم منه بالضرورة أنه يؤدي ما هو أدنى من القنطار كالدينار مثلاً، فالذي يؤتمن على تأدية القنطار يؤتمن على تأدية الدينار، والنتيجة واحدة هي تأدية الأمانة. وهذا بخلاف تصريحه بالدينار، فإن ما سكت عنه هو أعظم من الدينار وهو القنطار مثلاً، فمن لا يؤتمن على الدينار لا يؤتمن على القنطار من باب الأولى.

1- الشيرازي، أبو اسحق إبراهيم بن علي بن يوسف، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1/424/1988.

2- الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 2 / 74.

وأما عن علاقة "الدلالة الموافقة" ببحثنا، فهي أن بحثنا تناول نماذج التركيب الشرطي التي تحمل مدلول الموافقة، فقط بوصفها تركيباً واحداً أو جملة واحدة هي الجملة الشرطية، وقد جرت عليها عوارض تركيبية، تنجر عنها دلالات ما. ولم يكثر بحثنا لما تحمله من مدلول الموافقة؛ لأنه لا يوجد أي ملمح من ملامح العدول عن الأصل في العناية بجانب المعنى الموافق.

2. مفهوم المخالفة: يؤسس الأصوليون هذا المفهوم على أساس علاقة التناقض بين طرفي الجملة الظاهر، وهو المنطوق المثبت، والباطن المنفي. وقد عرف الشيرازي هذا المفهوم بقوله: "هو أن يعلق الحكم على أحد وضعي الشيء فيدل على أن ما عدا ذلك بخلافه".¹ وعرفه الغزالي بأنه: "الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم عما عداه".²

والجامع بين هذين التعريفين وغيرهما مما أثبتته كتب الأصول هو وجود علاقة التناقض بين وجهي الجملة المنطوق به والمسكوت عنه، كما يقول الله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾³ الحجرات:6، فإن تعليق المدلول المثبت بالشرط، أي تعليق وجوب التبين بالفاسق، دل على المدلول المخالف المنفي، وهو: إذا جاء عدل نبأ لا نتبين.

والتعليق أو القيد قد يكون بالشرط أو بغيره كالصفة، وهو ما اعتمد عليه القائلون بحجية مفهوم المخالفة، وهم جمهور الأصوليين من غير الأحناف.³

وفي علم اللغة المعاصر يدرس مصطلح "المخالفة" تحت عنوان

"التضارب" Incompatibility. قال جون لا يونز في توضيح مصطلح التضارب: "يمكن تعريف التضارب على أساس علاقات التناقض contradiction بين الجمل، فإذا كانت جملة ما ج 1 تنفي صراحة أو ضمناً جملة أخرى ج 2، فإن ج 1 وج 2 متناقضتان صراحة إذا كانت ج 1 تنفي ج 2 نحوياً، وإلا

1- الشيرازي، شرح اللمع 1/ 428.

2- الغزالي المستصفي من علم الأصول، 384.

3- ربما كان السبب عندهم أن مفهوم المخالفة كما في هذه الآية لا يتمتع أن يكون: "وإن لم يجتكم فاسق نبأ فلا تتبينوا"، والحكم المخالف - أي عدم التبين - واقع هنا كما هو واقع، في مفهوم المخالفة عندما يكون: "وإذا جاءكم عدل فلا تتبينوا". وعلى افتراض أن يكون الكلام المخالف للمنطوق هو: "وإن لم يجتكم فاسق نبأ فلا تتبينوا"، وهذا كلام نحكم عليه بأنه عبث ولغو، لا يتعقد من أجله كلام، ولا يُنوى لأجله قصد. وبالتالي لا يعتد إلا بما هو منطوق، أو بمفهوم الموافقة.

فإنهما متناقضتان ضمناً،... " ويقدم مثاله الآتي: كانت ماري ترتدي قبعة حمراء، فإن هذه الجملة ستفهم على أنها تنفي ضمناً: كانت ماري ترتدي قبعة خضراء أو زرقاء...¹

واحاول أن أتعرض لنماذج من التركيب الشرطي التي لم يُكتفَ فيها بذكر الجملة الشرطية الأولى، على ما توحى به من دلالة المفهوم المخالف. ولكن عمد الأسلوب القرآني إلى أن يعطف عليها جملة شرطية أخرى صراحة، تشكل مع الأولى ثنائية تقابلية فتتفي الثانية مدلول الأولى، بعد أن كانت الأولى تنفي الثانية. كما أعتبر أن عطف الجملة الثانية على الأولى يعد زيادة، أو توسيعاً واقعاً من خارج نطاق التركيب الشرطي نفسه. بما يعني أن الأصل هو أن ينظم المتكلم التركيب الشرطي معبراً به على تعليق شيء بشيء، ويكون لهذا التركيب مدلول مخالف موحى به، وباستطاعة عقل المتلقي أنه يتمثله، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المائدة: 47، فإن مفهوم المخالفة له هو: "ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم المتقون" مثلاً. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: 7 يدل بطريق المفهوم بالمخالفة على: "وإِلَّا تَنْصُرُوا اللَّهَ لَا يَنْصُرْكُمْ وَلَا يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ".

وعليه فإن لجوء المتكلم إلى ذكر المدلول المقابل يقصد به إلى نكتة ما، وأن النظم الذي توخاه المتكلم نظم أسلوبية، لا بد أنه أراد به بعض الدلالات الإضافية.

بناء على هذا الظن أجتهد في سبيل تجلّي تلك الدلالات وتحليلها.

ومن أمثلة هذه النماذج:

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ القصص: 84.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية بأنّ ثواب الله - في يوم القيامة - خير من حسنة العبد، والله يضاعفه أضعافاً كثيرة. وهذا المقام مقام الفضل. ثم ذكر بأنه يجعل جزاء السيئة سيئة واحدة، ولا يضاعفها. وهذا المقام مقام العدل.²

1- محمد علي فالج مقابلة، الدلالة التركيبية لدى الأصوليين في ضوء اللسانيات (أطروحة دكتوراه)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني 2006، ص 80. عن: جون لاينز، علم الدلالة، ص 91-92.

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، نج: مجموعة من المحققين، مؤسسة قرطبة، الجزيرة، القاهرة، ط 1، 2000، 10 / 489.

وقيل: ليس المراد بأخير التفضيل، لأن كلام الله لا يتفاضل، وإنما المعنى أن له منها خيرا وأجرا ونفعا، والحسنة هنا هي "لا إله إلا الله". ومن جاء بالسيئة أي الشرك فلا يعاقب إلا بمثله.¹

التركيب الشرطي الأول يعلق الجزاء بخير من الحسنة التي يقدمها المؤمن، بشرط الإتيان بالحسنة من دنياه، ويفهم من هذا التركيب أن الدلالة المخالفة له هي أن الذي يأتي يوم القيامة بالسيئة فإنه يجازى بشر منها. وه ذا ما يدركه عقل البشر انطلاقا من مسلمة أن لهذه الجملة مفهوم مخالفة. ودفعنا لهذا الظن والقياس المخطئ، كان لا بد أن يذكر المولى تبارك وعلا أن مقابل الدلالة السابقة هو مختلف عن ظن الإنسان، وليعلمه أن الله صاحب فضل عظيم؛ يجازي المحسن بأكثر مما يستحق، والمسيء لا يجازيه إلا بمقدار ما أساء، عدلا منه. وعليه، فإن الزيادة المتمثلة في العطف على التركيب الشرطي الأول عكست:

1. عجز العقل البشري عن إدراك الأحكام والتشريعات وأنه لا يملك القدرة على تصور ما في يد الله وعلمه وحكمته. وعلماء المعتزلة على الرغم من اعتدادهم بقدرات العقل في الاستنتاج، وتسييقهم له على النصوص والسمعيات في تقرير المعرفة والوصول إليها، إلا أنهم يضعون له الأسبقية في أمور العقيدة فقط، ويدعون معرفة الأحكام والتشريعات إلى أدلة النصوص؛ إذ أن النصوص وسائر السمعيات هي مصادر التشريع التي يعتمد عليها الناس بعد أن تستوثق عقيدتهم في الله بدليلي العقل والنقل.
2. أن العطف بتركيب شرطي مقابل على تركيب مثله، أضاف إلى الشرط والجزاء بعض المعاني العلية المتصلة بذات الله تبارك اسمه تمثلت هنا في فضله على المحسنين، وعدله مع المسيئين لأنفسهم، الظالمين لها.
3. والعطف زاد شيئا آخر هو الاحتراز من أن ينساق العقل وراء احتمال أن تكون الدلالة المخالفة دلالة عبثية لا معنى لها، وهي دلالة هذه الجملة: "ومن لم ينجى بالحسنة فليس له خير منها" أو غلط هذه "ومن جاء بالسيئة فله شر منها".
4. الدعوة إلى سبيل الله بطريق الترغيب، وبالموعظة الحسنة التي لا تكاد تلمح إلى العذاب في هذه الآية.

1- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، 16/ 328.

وقال جل من قائل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النمل: 89-90.

يقول الطبري في تأويل هاتين الآيتين: إنه من جاء الله بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا الله موقنا به قلبه فله من هذه الحسنه عند الله خيرٌ يوم القيامة، وذلك الخير أن يشبهه الله منها الجنة، ويؤمنه من فزع الصيحة الكبرى وهي النفخ في الصور. وأما من جاء بالشرك به يوم يلقاه، وجحود وحدانيته فكبت وجوههم في نار جهنم.¹

وقد جاء الغرض إلقاء الرعب في نفوس الكافرين، وإخبارهم بأن جزاءهم أصعب مما تتصوره عقولهم. وقد يكون الغرض الرئيس إستيفاء وصف الجزاء المنتظر للمؤمنين، لأن هذا الوصف يكمل بيانه بذكر مقابله الذي هو وصف جزاء أهل الشرك. وهذا الذكر أبلغ من الحذف الذي يدرج عليه المتكلم في كلامه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأنعام: 160.

مفهوم المخالفة لهذه الآية يوهم أنه "ومن جاء بالسيئة فله عشر أمثالها"، ودرءا لما قد تدركه العقول من تقديرات مغلوطة، وقياسات فاسدة على الرغم من قيامها على أساس صحيح منطقيًا، عطف الأسلوب القرآني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقريرًا لحكم الله، وإظهارًا لما في حكمته تعالى من فضل وعدل ولطف بعباده، الشيء الذي يغري العبد بتجنب السوء والإقبال على الإحسان، تجنبًا وإقبالًا صادرين عن وعي بفضل الله واقتناع وانبهار بعدله.

وقوله عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فاطر: 2.

أي أنّ ما يفتح الله للناس من رزق ومطر وصحة وعلم وغير ذلك من النعم، فلا أحد يقدر أن يمسك هذه الرحمة، وما يمسك من هذه النعم فلا أحد يستطيع أن يرسلها بعد أن يحكم سبحانه وتعالى بإمسакها. وهو العزيز القاهر لكل شيء، الحكيم الذي يرسل الرحمة ويمسكها وفق حكمته.

المعنى المفهوم المخالف للتركيب الشرطي الأول، يقضي أن يكون على نحو ما ورد في التركيب المعطوف الذي نطق به الآية؛ ذلك أن القادر على المن والفضل بغير حدود قادر على حجب نعمه. ولو

1 - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 507.

اقتصر الكلام على ما جاء في التركيب الشرطي المعطوف عليه، لفاتت تلك الدلالة المسكوت عنها بعض العقول، أو لظنت أن الله ذو أفضال فقط، وليس بقادر على منع أنعمه المخلوقات. ويؤدي بها ذلك إلى عدم شكر أنعم الله لأجل أنها دائمة، غير مقدور على منعها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَصُورًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.﴾ يونس: 86.

أي: يا أيها الإنسان، إن يصيبك الله بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا هو جلّ وعلا ، وإن يُرِدْكَ برحمة أو نعمة لا يمنعك أحد . يصيب الله عز وجل بالسراء والضراء من يشاء من عباده، وهو الغفور لذنوب من تاب، الرحيم بمن آمن به وأطاعه . والآية واضحة في أن الأصنام لا تملك للإنسان نفعا ولا ضرا، وأنها لا تصح وسيطا أو وسيلة بين البشر والله، وأن الله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون لا راد لقضائه. ولا يستطيع غير الله أن يصرف عن الإنسان الضر أو يعترض عن خير يريد الله له، إلا من جعل الله له ذلك بدعاء أو شفاعاة.

إن الاقتصار على ذكر التركيب الشرطي الأول، قد يوحي مقابله في الدلالة بأنه "إن أراد الله بالبعد خيرا فقد يوجد له مانع"، وإبطالا لهذا الظن، عطف كلام الله التركيب الشرطي الثاني: "وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ"، إضافة إلى أنه بهذا العطف يكتمل وصف الله بالشدة والعزة واللفظ، ومطلق الإرادة والعدالة والفضل. وهي صفات تهب بالمتدبرين لكلامه أن يخضعوا ويقبلوا على أمر الله ويقبلوا عن عقيدة الشرك، وابتغاء الوسيلة إلى الله بغير الله والأعمال والدعاء والشفاعة.

وقوله عز وعلا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة: 6-8.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ يوحي بدلالة مخالفة مفادها أنه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أيضا. ولكن مفهوم المخالفة الذي يأتي مسكوتا عنه في الأصل، صرح به. فيعتبر ذلك التصريح زيادة أو توسيعا بالنظر إلى التركيب الشرطي الأول، أي عدولا عما هو مألوف في الجمل بما فيها التركيب الشرطي.

وأرى أن هذه الزيادة جاءت لتبين أن الحكم المخالف الذي لا فائدة تجني منه غير وارد في قصد المتكلم، وهو "ومن لا يعمل مثقال ذرة خيرا لا يره". ولتبين أن الدلالة الملاقضة هي التي تدخل في القصد. وبهذه الزيادة يتضح:

1. تفصيل الجمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ففيه أن الناس يوم القيامة يبعثون متفرقين، من أجل أن يرى كل فريق جزاء عمله في الدنيا، إن خيرا كان يراه، وإن شرا كان يراه. ولا مناص من المقابلة بين التركيبين وذكرهما معا، لأن العامل خيرا في التركيب الأول، قد يكون عمِلَ بعض الشر، فيكون أيضا مما يتناوله التركيب الثاني.
2. العدل الإلهي المتناهي في الأخذ بالدقة، المحاسب على كل صغيرة وكبيرة، وهذا العدل هو من الصفات التي حرص القرآن الكريم والحديث النبوي، على تفصيلها لما لها من أثر في ترسيخ عقيدة التوحيد، وطمأننة نفوس العاملين المحسنين، وترهيب نفوس المقصرين والمسيئين، بأن كلا يلقي جزاءه كاملا غير منقوص يوم القيامة ﴿وَأَمَّا تُوفِّونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران: 185.
3. الترغيب والترهيب، وهما عاملان أساسيان في الدعوة إلى الإيمان ونبذ الكفر، ويكون لهما حضور قوي كلما اقتضى الأمر الدعوة إلى تمتل يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء. وتكون الدعوة عرجاء لو اقتصر فيها على جانب الترغيب وحده. وهذا ما يفسر زيادة التركيب الشرطي المعطوف.

وقوله عز من قائل: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ البقرة: 271.

"ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات. قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل، لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده. قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا. قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها."¹

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4/ 259.

الصدقة زكاة والزكاة صدقة، وإنما يعرف أيهما بما يصاحب لفظ "الصدقة" من قرائن. وقد دلت قرينة استحباب إعلانها أنها الزكاة المفروضة، ودلت قرينة تفضيل إخفائها على أنها الصدقة النافلة.

التركيب الشرطي الواقع معطوفا عليه، يدل بمفهوم المخالفة على أنه: "وإن تخفوها فبئس العمل". ولكن شاء الله للعقل البشري أن يقف عاجزا عن إدراك الأحكام ما يعلمها إلا من طريق النص والنقل. ولعلّه لعله عجز عقل الإنسان عن معرفة الأحكام كان لازما أن يتلفظ بالتركيب الشرطي الثاني الذي يحمل خبرا أو حكما إلهيا، يقضي بعكس أو بخلاف الحكم الذي يستنتجه العقل.

وفي القرآن كثير من الآيات التي يتقدم فيها ما يراد تفصيله وبيان ما في قسميه أو أقسامه من فروقات، ويتقدم أيضا اللفظ الدال على وجود اختلاف مثل "أشتات، لا يستون، يتفرقون..."، أو يتأخر عنه ما يدل على التمايز بين مضموني التركيبين. ويأتي فيها التركيب الشرطي الأول وقد حدد حكما مقيدا بشرط ما، ويفهم من طريق المخالفة الحكم المقابل له، حتى مع السكوت عنه. ولكن الأسلوب القرآني يحرص على النطق به لأجل الأغراض التي تقدم بيانها.

وقال جل ذكره: ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ المائدة: 42.

ذكر الطبري في قوله تعالى ذكره: ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾، إن جاء هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوك بعد - وهم قوم المرأة البغيّة - محتكمين إليك في حكمها، فاحكم بينهم إن شئت بالحقّ الذي جعله الله حكماً له في التوراة فيمن فعل فعل المرأة البغيّة منهم وهو الرجم. أو أعرض عنهم فدع الحكم بينهم إن شئت، واتركهم يحكمون بما شاؤوا أو بما حكمت التوراة. والخيار إليك في ذلك.

وكان اليهود إذا زنى رجل منهم له نسبٌ حقير رجموه، وإذا زنى منهم شريف حمّموه، ثم طافوا به . ثم استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوافقهم ، فأفتاهم فيه بالرجم، فأنكروه، فأمرهم أن يدعوا أحبارهم وربانهم، فناشدهم بالله: أتجدونه في التوراة؟ فكتموا، إلا رجلا من أصغرهم أعور، فقال: كذبوك يا رسول الله، إنه لفي التوراة!¹

1 - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 326/10.

وقع التركيبان الشرطيان الثاني والثالث تفصيلا للخيار الذي أجمل طرفاه في التركيب الشرطي الأول السابق لهما. كما اختار التعبير القرآني أن يبتدئ التفصيل بما هو مؤخر في الإجمال، ويؤخر ما ابتدئ به فيه؛ لأن المبتدأ به وهو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن حكم القضية الذي تتفوق نفوس المخاطبين المسلمين الى معرفته، فجعل ذكره أولا من أجل التنبيه الى أهميته، وجعل ذكره مؤخرا في التفصيل لأجل أن يكون آخر ما يستقر في الأذهان وتشتغل به النفوس.

ولأن نفوس المؤمنين كانت تجهل معرفة الحكم في القضية، وشاء الأسلوب القرآني أن يزيدا توقا وشوقا الى تلك المعرفة، جاء بالتركيب الشرطي: ﴿ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ ليلفت الانتباه الى أن ما يتبادر إلى الذهن من أمر مخلف له دلاليا سيكون غير مخالف من حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يكون مؤاخذا فيه كالأول، ثم جاء تفصيل الخيار الأول وهو قوله: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ وهو حكم لا عهد للمؤمنين به ولا يحق أن يترك شأنه لحكم بشر، أي الحكم بالرجم على البغية، وقد عبر عن ذلك بالحكم بالقسط، وهو قسط يعرفه اليهود أنفسهم انطلاقا من التوراة التي حرفوها.

الفصل الرابع:

دلالات العدول بال حذف

في التركيب الشرطي

المبحث 1- الحذف في اللغة والاصطلاح

المبحث 2- الحذف في التركيب الشرطي

تمهيد...

يعالج هذا الفصل أحد أساليب التحويل الذي يتجسد في إسقاط بعض عناصر الكلام، فيتحول بذلك إلى كلام أبلغ وأغنى في الدلالة وأقل كلفة في الأداء، وأدل على ما للمتكلم من قدرة على الاستغناء عن بعض الكلام؛ لعلمه بخواص التراكيب وطرق الدلالة، وتوفر السياق على ملاحظة أو ملح الجزء المسقط، فتزيد هذه المهارة والحذق في علو منزلته ورفعة شأنه في نظر المتلقي المثالي، الخبير بطرق النظم وما تكنه من سحر وجمال ودلالات تشيع نهم النفس والعقل. إنه أسلوب الحذف الذي أثنى عليه الجرجاني بقوله: "هذا باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجد أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين. وهذه جملة قد تنكرها حتى تحبب، وتدفعها حتى تنظر."¹

المبحث 1- الحذف لغة واصطلاحاً

المطلب 1- الحذف في اللغة:

الحذف لغة هو القطع من طرف. " حذف الشيء يحذفه حذفاً: قطعه من طرفه، والحجاء يحذف الشعر، من ذلك".² وهو الإسقاط؛ ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه.³ فالتعريف الأول يذهب إلى أن الحذف هو القطع على هيئة خاصة بحيث يقع القطع من طرف الشعر، وأما التعريف الثاني فيبين منه أن القطع يقع بلا كيفية مخصوصة، فيكون قطعاً أو إسقاطاً مطلقاً. وبما أن المصطلح يأخذ مدلوله من المعنى الأول للفظ ويكون منقولاً عنه لعلاقة المشابهة، فإن لفظ الإسقاط يكون أقرب إلى "الحذف" الاصطلاح ي منه إلى لفظ القطع، لما في إشارة الإسقاط من أخذ من الشيء أخذاً من طرفه أو غير طرفه أو أخذه كله. وأن المحذوف من الكلام ليس من الضروري أن يكون قطعاً من الطرف، أي أنه يقع في أول الكلام أو وسطه أو آخره.

المطلب 2- في الاصطلاح:

وفي الاصطلاح إسقاط بعض أجزاء الكلام أو كله شريطة وجود دليل على ذلك الإسقاط.

1 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 146

2 - ابن منظور، لسان العرب، 39/9.

3 - الزركشي، البرهان، 102/3.

كما يورد الزركشي أنه قد يلتبس بالحذف الإضمار والإيجاز . ويفرق بينهما بلذ شرط الحذف والإيجاز أن يكون في الحذف ثم مُقَدَّر نحو : «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» يوسف:82، بخلاف الإيجاز، فإنه عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجملة بنفسه .

وأما الفرق بينه وبين الإضمار ، فكون المضمّر مشروطاً فيه بقاء أثر المقدر في اللفظ نحو ... «لِيُخْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ» الأحزاب: 24. ونحو: «انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ» النساء:171، أي: "انتوا أمرا خيرا لكم" وهذا لا يشترط في الحذف . ومما يدل على أنه يجب ملاحظة المقدر في الإضمار، أن الإضمار هو بمعنى الإخفاء، فالمضمّر مخفي وبق أثره. وأما الحذف فهو قطعّ مشعر بالطرح والإسقاط، وقالوا تعمل "إن" ظاهرة ومضمرة.¹

التحويل بالحذف: عنصر من عناصر التحويل، نقيض للزيادة . وهو نقص يعتري الجملة التوليدية النواة لغرض في المعنى، مع محافظة الجملة على فائدتها ونوعها من حيث الفعلية أو الاسمية أو الشرطية. وجميع صور الحذف تحقق الإيجاز، الذي هو وجه من وجوه الاقتصاد اللغوي، و أحد الجوانب البارزة في بلاغة الكلام، حتى أن بعض من عرف البلاغة قال: "البلاغة الإيجاز".²

الإضمار إخفاء للعامل الباقي أثره في المعمول، وليس يرتجى من إخفائه طلب بلاغة في الكلام؛ لأنه حاضر في الكلام بأثره. والحذف يكون بخلافه، لأن إخفائه إسقاط من الكلام وطرح من التركيب النحوي، وهو مشعر بفائدة أقل ما يقال فيها طلب الإيجاز، الذي هو اقتصاد في الكلام، ناهيك عما يجلبه من مدلولات تجتنى بهذا السحر التعبيري.

وليس الحذف إجراء اعتباطيا. ولو كان كذلك لأدّى بعضه إلى اللبس، وتعطيل دورة التواصل بين طرفي الخطاب. ولكنه محكوم بأصل كثير التداول في الدراسات اللغوية العربية، مفاده ألا حذف إلا بدليل.³

وتكلم ابن جني عن الحذف بإسهاب في باب شجاعة العربية ذاكرا أنه إجراء يلجأ إليه المتكلم اقتصادا في اللغة، أو لأجل زيادة في المعنى على لفظه. ولا يصح الحذف أيّا كان إلا بدليل من المقال أو دليل من المقام. قال في ما يختص بحذف الصفة: "وقد حُذفت الصفة ودلت الحال عليها . وذلك فيما

1- نفس المصدر والجزء، ص 103-104.

2 - الجاحظ، البيان والتبيين، 96/1.

3 _ ينظر على سبيل المثال: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث القاهرة، ط 20، 1980، الصفحات 243 - 246.

حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل، وهم يريدون : ليل طويل . وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها . وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك . وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملتته . وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول : كان والله رجلاً ! فتزيد في قوة اللفظ بـ "الله" هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك . وكذلك تقول : سألتناه فوجدناه إنساناً ! وتُمكن الصوت بـ "إنسان" وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك.

وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت : سألتناه وكان إنساناً ! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك : إنساناً ليئماً! أو لِحِزًّا أو مُبِحِّلاً أو نحو ذلك.

فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة . فأما إن عُرِّيت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لا يجوز . ألا تراك لو قلت : وردنا البصرة فاجتزنا بالأبلة على رجل، أو رأينا بستاناً وسكت، لم تفد بذلك شيئاً؛ لأن هذا ونحوه مما لا يَعْرِى منه ذلك المكان، وإنما المتوَقَّع أن تصف من ذكرت أو ما ذكرت . فإن لم تفعل كلفت عِلْمَ ما لم تدلُّ عليه؛ وهذا لغو من الحديث وجورٌ في التكليف.¹

إن هذه اللفتة من ابن جني تحمل دلالة قاطعة على أن التحويل بالحذف لا يكون بلاغة في كل حال، بل قد يبعث على الكلام لبس، أو لغو يحتمل المخاطب ما لا يقدر على تصوره لعدم امتلاكه القرينة اللفظية أو الحالية التي تهدي إلى المحذوف وتسهل تقديره.

ولابن جني في هذا الكتاب توضيحات ضافية لما تقدمه أدلة التنغيم وحركات المتكلم بشفثيه أو بوجهه أو بعينه أو بيديه... من دلالات تغني عن بعض عناصر الجملة أو الجملة بأسرها.

وحرص ابن هشام على توضيح ما يمثلها السياق اللغوي، والمقام الذي يُلقى فيه الكلام من تحليل قوي على تحديد العنصر المحذوف. هذا ما أكده وشرحه في المغني حين ذهب إلى أن دليل الحذف نوعان: أحدهما غير صناعي، وينقسم إلى حالي ومقالي: أما الدليل الحالي فنحو قولك لمن رفع سوطاً: "زيداً"، بإضمار "أضرب". ومنه قول الله عز وجل: ﴿ فَتَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أي "سلمنا سلاماً". والدليل المقالي كقولك "زيداً" لمن قال: من أضرب؟، ومنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ وإنما يُحتاج إلى ذلك الدليل إذا كان المحذوف الجملة بأسرها كما تقدم، أو أحد ركنيها نحو

1 - ابن جني، الخصائص 360/2، 371، 371.

قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أي سلام عليكم أنتم قوم منكرون، فحذف خبر الجملة الأولى ومبتدأ الثانية ...

والثاني صناعي وهذا يختص بمعرفته النحويون؛ لأنه إنما عرف من جهة الصناعة.¹ وقدّم ابن هشام شواهد عن نوع الحذف الصناعي بقولهم في: "إنها لإبل أم شاء، إن التقدير أم هي شاء لأن "أم" المنقطعة لا تَعَطِفُ إلا الجملة. وفي قوله:

إِنَّ مَنْ لَامَ فِي بَنِي بَنَتِ حَسَنًا	نَ الْأُمُّ وَأَعَصِيهِ فِي الْخُطُوبِ ²
---	---

إِنَّ التقدير "إنه" أي الشأن، لأن اسم الشرط لا يعمل فيه ما قبله...³ وذكر غير ذلك من المواضع التي يفترض فيها النحاة محذوفاً يقدرونه، من أجل أن يصحّ التركيب، ويستقيم المعنى، وتتم الفائدة، وتطرّد القاعدة.

وقد أشار علماء البلاغة إلى أن الحذف قسمان⁴ من حيث إسهامه في مزية توسيع المعنى وإطلاقه، أو لا. أما قسم الحذف الذي لا يسهم في إثراء المعنى وتكبير دائرته فهو الحذف الذي يجري في الكلام وقد تيسر تحديد المحذوف منه، وأمكن تعيينه من سياق الحال أو سياق المقال ومنه الأمثلة التي تقدمت.

وهناك قسم آخر من الحذف تظهر فيه دقائق البلاغة وأسرارها وروعيتها؛ بفضل ما يؤدي إليه الحذف من التوسع في المعنى. وهذا يحتمل عدة تقديرات، قد يكون بعضها مراداً، وقد تكون كلها مرادة بقدر ما يحتمل السياق. وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ الأعراف:44. قال تعالى على لسان أصحاب الجنة ﴿ ما وعدنا ربنا ﴾ بأن جاء بالتخصيص لهم، ولم يقل ﴿ ما وعدكم ربكم ﴾ مع أصحاب النار؛ وذلك لأن الكافرين لا ينكرون ما وعدهم ربهم بعذاب النار فقط، لكنهم ينكرون ما وعدهم وما وعد غيرهم وكل ما يتعلق بالساعة والبعث والحساب والقيامة، فهم ينكرون ما يتعلق بهم وبغيرهم وبعمامة ما وعد الله به، لذا قال تعالى ﴿ ما وعد ربكم ﴾ بحذف المفعول به، ولو قال: "ما وعدكم" لكان جزءاً من المعنى المراد

1- ابن هشام، مغني اللبيب، 156/2، 157.

2 _ البيت منسوب للأعشى، هكذا في كتاب سيبويه 72/3، وفي الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات بن الأنباري، ص156.

3 _ ابن هشام، مغني اللبيب، المصدر السابق 157/2.

4 - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1999، ص103.

وليس كله. إذن الحذف هنا أدى إلى توسع في المعنى لأنه شمل ما وعدهم ووعد غيرهم والوعد العام بالبعث والحساب.¹

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ الضحى: 06، احتملت المعاني آواك وآوى بك خلقاً كثيراً، وهم المؤمنون نصرهم وأيدهم الله تبارك وتعالى باتباعهم صلى الله عليه وسلم². كما أن لهذا الحذف فائدة لفظية، من حيث أنها تمكن من توافق رؤوس الآيات من أول السورة.

وهذا النوع من الحذف هو الذي أثنى الجرجاني على بلاغته: " هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهه بالسَّحر، فإنَّكَ ترى به تركَ الذِّكرِ أفصحَ من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذُّك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبرِّ. وهذه جملةٌ قد تنكرها حتى تُخَبِّرَ، وتدفعُها حتى تنظُرَ"³

و نقل الزركشي عن صاحب منهاج البلغاء وسراج الأدباء أنه حصر حسن الحذف في أمرين، الأول ألاّ يتسبب الحذف في إشكال المعنى بأن تكون الدلالة عليه قوية، والآخر أن يقصد بالحذف تعديد الأشياء، فيكون في تعددها طول وسامة، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال عليه، ثم تترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها.

ونظراً لمراعاة هذا القصد كان الحذف " يُؤثِّر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس، ومنه قوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ الزمر: 73، فحذف الجواب؛ إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شأنه، ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: " لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"⁴.

إن الحذف قد يكون أبلغ من الذكر إذا كان يفسح المجال للدلالات المتتالية من أدراج الخيال والوهم، الموجهة من قبل السياقات المهولة.

1. الزمخشري، الكشاف، 2/ 444.

2. الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري) (450هـ)، النكت والعيون، نج: السيد عبد المعصوم بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 6/ 293.

3. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 146.

4. الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، نج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391، 3/ 105، 106. وحازم القرطاجني (أبو الحسن)، منهاج الأدباء وسراج البلغاء، ص 391.

المبحث 2- الحذف في التركيب الشرطي:

التركيب الشرطي أسلوب تعبيرى، يتعرض كغيره من الأساليب لألوان من حذف بعض أجزائه؛ لأن المتكلم قد يستوفي به التعبير عن مقاصد لا يتأتى له التعبير عنها بالذكر. وقد اهتم النحاة وعلماء البلاغة والمفسرون بهذه القضية كثيرا، وحاولوا تفسير أشكال الحذف، والوقوف على الدلالات والقيم الجمالية التي تترتب عليه. وأحاول في هذا الفصل حصر مستويات الحذف التي تقع في حيز التركيب الشرطي، ثم يعقب عليها مستفراغا جهوده من أجل التوصل إلى استجلاء مواطن الجمال التي تفضي إليها أنواع الحذف.

المطلب 1- حذف الأداة:

لا تحذف أداة الجزم في المشهور، ورغم هذا فقد ذكر السيوطي أن بعضهم قد أجاز ذلك ولم يذكر من الذي أجازها. قال: " لا يجوز حذف أداة الشرط ولو كانت "إن" في الأصح، كما لا يجوز حذف غيرها من الجوازم ولا حذف حرف الجرّ، وجوز بعضهم حذف "إن"، فيرتفع الفعل وتدخل الفاء إشعارا بذلك. وخرج عليه قوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ المائدة: 106¹. أي إن تحبسوا الشاهدين غير المسلمين بعد صلاتهما، يقسما بالله لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قرى ولا نكثم شهادة الله إننا إذا لمن الآثمين.

وكان مكي بن أبي طالب القيسي² رأى في إعراب هذه الآية ما يتوافق معه تخرج السيوطي، حيث قال في مشكل إعرابها: "... فيقسمان بالله، الفاء عطف جملة على جملة، ويجوز أن يكون جواب جزاء؛ لأنّ "تحبسوهما" معناه الأمر بذلك، فهو جواب الأمر الذي دلّ عليه الكلام، كأنه قال إذا حبستموهم أقسما..."³.

ولم أجد في ما تيسر من تفاسير ما يساعد على اكتناه السر الجمالي الذي يكمن وراء حذف أداة الشرط. وربما كان هذا الأسلوب أقرب إلى الأمر وجوابه منه إلى التركيب الشرطي؛ لأن قوله " تحبسوهما" خبر في معنى الطلب مثل " يتَرَيَّصَنَّ " في قول الله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَيَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾

1 - السيوطي، همع الهوامع، 63/2.

2 - مكي بن أبي طالب القيسي (355هـ - 437هـ) أصله من القيروان وسكن قرطبة، وكان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، كثير التأليف. ومنها إعراب القرآن والموجز في القراءات والهداية في التفسير... الخ.

ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 298/2.

3 - مكي القيسي (أبو محمد بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي)، مشكل إعراب القرآن، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1405 هـ، 242/1.

البقرة:228. وعليه يكون القول بحذف أداة الشرط في هذه الآية ضرب من التمثل المستبعد، الذي لا يثمر زيادة في الدلالة. وأنّ الفاء في "فيقسمان بالله" للعطف.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ العنكبوت: 12.

جاء في تفسير محمد بن جرير الطبري (224-310هـ) لهذه الآية أن الذين كفروا بالله من قريش قالوا للذين آمنوا بالله منهم: "اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا"، أي كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالبعث بعد الممات وجمود الثواب والعقاب على الأعمال، "وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ" أي فإنكم إن اتبعتم سبيلنا في ذلك، فبعثتم من بعد الممات، وجوزيتم على الأعمال، فإننا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ.¹

قال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء، أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال الشاعر مدثار بن شيبان النمري:

فقلت أدعي وأدعُ فإنّ أندی لصوت أن ينادي داعيان

أراد: أدعي وأدعُ فإنّ أندی... فكأنه قال: إن دعوت دعوت². والمعنى الذي تدل عليه هذه الآية، هو كما ذهب إليه علماء القرآن الذين تقدم ذكرهم في تفسير هذه الآية. وصفة العبارة الدالة عليه هي صفة الكلام كما هو في بنيته العميقة أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم. ولكن الكلام جاء في الصورة المنطوقة له محذوف الأداة التي تربط بين الفعلين "اتبعوا-ولنحمل" ربطا شرطيا، فتحوّل الشرط إلى فعل أمر يراد به إغراء المؤمنين والتغريب بهم، وتحوّل الجزاء إلى فعل أمر، يُظهر الكافرين ضامنين بأنهم موفون بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام المؤمنين.

وربما اختار الكافرون هذا النحو من التحويل الأسلوبي لإدراكهم أن التركيب الشرطي يستفاد منه معنى التعليق في المستقبل، وهو معنى يتزدد بين التحقق وعدمه، أو هو أقرب إلى الندرة والاستبعاد. كما أنهم يدركون أن المؤمنين على درجة عالية من اليقين والإيمان بالبعث بعد الموت، وب الثواب والعقاب على الأعمال في الآخرة. ولذا اختار الكافرون أسلوبا محوّلًا عن أسلوب الشرط والجزاء، يكون أكثر ثبوتا في

1 - الطبري(محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر)، جامع البيان في تأويل القرآن تج: أحمد محمد شاكر، 14/20.

2 - الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة 3، 1983، 2/314. والزجاج(ابن اسحق إبراهيم السري)، معاني القرآن، تج: عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة 1، 1988، 161/4.

تأدية معنى تبادل المنافع، وألصق بمنطق التجارة التي كانت قريش تعرفها وتمارسها، فعبروا بفعل الأمر الذي يضطلع بإنجازة المؤمنون "اتبعوا سبيلنا"، كما عبروا بنفس الصيغة في إبدائه م للفعل الذي يردون به ذين المؤمنين في زعمهم "ولنحمل خطاياكم". وفعل الأمر في مثل هذا السياق يعبر عن موقف المتكلم وإرادته للفعل. وهكذا يكون تعليق الحمل بالاتباع للمبالغة، والداعي لهم إلى المبالغة التشجيع على الاتباع. ولا يؤدي التعليق الشرطي المحض تلك المبالغة.

ولفظ الجزاء "ولنحمل خطاياكم" وإن جاء على صيغة الأمر، فهو في معنى الخبر؛ لأنه وُصِفَ بالكذب عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

وقال: ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ طه:39.

يقول تعالى ذكره: ولقد مننا عليك يا موسى مرة أخرى حين أوحينا إلى أمك، أن اقذفي ابنك موسى حين ولدتك في التابوت. يقول: فاقذفيه في اليم، يلقيه اليم بالساحل.

جاء في تفسير محمد بن جرير الطبري أن قوله تعالى: ﴿ يُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ جزاء أُخْرِجَ مُخْرَجَ الأمر، كأن اليم هو المأمور. وفعلت ذلك أمه به فألقاه اليم وهو النيل، بالساحل حيث مَشْرَعَةَ آل فرعون وهي المكان الذي يصدرون عنه.¹

وقال الفراء: ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أمر وفيه معنى المجازاة، أي اقذفيه يلقيه اليم، كأن البحر أمر. وهو مثل قوله: ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ ﴾. والظاهر أن البحر ألقاه بالساحل فالتقطه منه.²

لقد اقتضت مشيئة الله أن تقذف أم موسى عليه السلام ابنها - وهو في التابوت - في اليم. فكان أن ألهمها أن تفعل ذلك، فجعل فعلها المكتسب "وهو قذف التابوت في اليم" مَعْبَرًا لفعل آخر يتلوه ويجاوره "وهو إلقاء اليم التابوت بالساحل".

ولو جرى هذا التعبير على طريقة الشرط والجزاء كما هو مألوف، لقال في غير كلام الله: "فَلْيُقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ يُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ". ولكانت دلالاته على ترتب إلقاء البحر التابوت بالساحل على قذف أم موسى له في اليم، أقول لكانت دلالة إمكان، أي يتراوح بين الوجود والعدم، وليس فيه ما يُلْزِمُ وجود

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 302/18.

2 - الفراء، معاني القرآن، 179/2.

الفعل الأول ليووجد على إثره الفعل الثاني. ولكن الغرض من نظم العبارة القرآنية توجهه إلى أن إظهار وجود الإرادة الإلهية متحكمة في المخلوقات؛ فأمر موسى يلهمها الله كسب الفعل الذي يكون بمنزلة الشرط، والبحر يأمره الله كسب الفعل الذي يكون جزءاً تالياً للأول. وليس لمخلوق من الاثنين أن يتخلف عن تحقيق الفعل الذي أسند إليه، من أجل أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وحدثاً كان قد كتب في اللوح المحفوظ. ولا يؤدي هذا الغرض إلا بالعدول عن التركيب النمطي لأسلوب المجازاة، وإيثار الصياغة التي جاءت عليها الآية. وأول ما ميزها حذف أداة الشرط. ومع ذلك ظل التركيب متضمناً لمعنى الشرط والجزء، وذلك ما لاحظته الطبري والفراء.

المطلب 2- حذف فعل الشرط:

"إن": هي من عوامل الفعل لا تدخل على غيره ، فيكون "أحد" فاعلاً مرتفعاً بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر ، تقديره : وإن استجارك أحد استجارك . يقول برهان الزركشي: "... إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم مما إذا لم يتقدم إضمار ؛ ألا ترى أنك تجد [في الإضمار] اهتزازاً؟" وأضاف في تعليل فخامة المضمّر: "... إذ الفعل المفسّر في تقدير المذكور مرتين¹ ولعله يقصد أن في إضمار فعل الشرط ثم في ذكره مفاجأةً للمتلقي، وذلك حينما تهتز نفسه باحثة عن الفعل الذي كان يجب أن تدخل عليه أداة الشرط، فيحصل شيء من الاهتمام به والتطلع إليه، حتى إذا ذكر ما كان مضمراً، تمكّن معناه في النفس.

والشيء الذي تحورت الآية حوله هو أهمية المشركين عند المسلم إذا ما طلبوا الإجارة ، فنبهت الآية بإلحاح إلى إمكان إجارتهم حتى لا تكون لهم حجة على محمد صلى الله عليه وسلم ولا على أتباعه.

وقال: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الحجرات: 9

"إن" حرف شرط يخلص الماضي للاستقبال فيكون في قوة المضارع. وإنما عدل عن المضارع بعد كونه الأليق بالشرط، لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام بالمسند إليه جعل الفعل ماضياً على طريقة الكلام الفصيح في مثله مما أوليت فيه "إن" الشرطية الاسم نحو ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة: 6 ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ النساء: 128.² فاستبدال صيغة المضارع بصيغة الماضي ضرورة أملاها غياب التماس بين أداة الشرط الجازمة والفعل المضارع الذي اختصت بالعمل فيه ويكون موالياً لها. وذلك بعد أن فصل بينهما الاسم الواقع فاعلاً مقمداً للاهتمام به.

1 - الزركشي، البرهان، 90/3.

2 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 139/26.

تشير "إن" إلى أن ما تدخل عليه من شرط قد يحدث قليلا أو نادرا أو مما يجب أن يكون كذلك، ثم إن فعلها الأول قد يأتي مضمرا مفسرا بعد فاعل، ولا يكون لفظه إلا ماضيا؛ لفصل الفاعل بينه وبين "إن" الجازمة. قال الرضي: "وحق الفعل الذي يكون بعد الاسم الذي يلي "إن" أن يكون ماضيا، وقد يكون مضارعا على الشذوذ، وإنما ضعف مجيء المضارع لحصول الفصل بين الجازم وبين معموله".¹

والوجه أن يكون في الفعل "اقتتلوا" مستعملا في إرادة الوقوع مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ المائدة:6، لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال وذلك عند ظهور بوارده. وهو أولى من انتظار وقوع الاقتتال، ليتمكن تدارك الخطب قبل وقوعه، على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ النساء: 128، أي إن خافت من بعلها إرادة نشوز أو إعراض.

وما علمناه من بعض الآيات القرآنية التي نظمت على النمط المذكور، أنه لا يأتي الفاعل إلا نكرة منونة. وفي هذا التأكيد معنى عظمة الشأن. والتبنيه إلى أن ثمة حكما بالغ الأهمية، يحتويه جواب الشرط مثل: "فأجره حتى يسمع كلام الله-فأصلحوا بينهما- فلا جناح عليهما أن يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا".²

وكما يصلح أن تدخل هذه الآية ضمن ما حذف منه الشرط ثم فسر في سياق الكلام، يمكن اعتبارها من الآيات التي استبدل فيها فعل الشرط الذي هو إرادة الفعل بالقيام بالفعل.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ آل عمران: 106.

1 - الرضي الأسترباذي، شرح الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، الطبعة 2، 1996، 93/4. ومن المضارع الذي جاء شاذًا في الشعر قول الشاعر القرشي الجاهلي هشام المري:

يثنى عليك وأنت أهل ثنائه	ولديك إن هو يستزدك مزيد
--------------------------	-------------------------

وقول عبد الله بن عنمة الضبي:

ص-عدة ندابعت في حائر	أي-نم-ال-رييح-تميلها تمل
----------------------	--------------------------

ينظر: نفس المصدر، ونفس الجزء والصفحة.

2 - من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ النساء:128. لا

المعنى الإجمالي المتقدم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. ثم فصل بأداة الشرط والتفصيل والتوكيد: "أما".

قال سيبويه في تفسير معنى "أما": "مهما يكن من شيء" ¹ فيقوم مقام اسم الشرط وفعل الشرط المحذوف. كما ترافقه الدلالة على التفصيل والتوكيد.

فعل الشرط: محذوف مقدر. وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ مبتدأ واقع في جواب "أما"، قدّم عن فاء الجواب، التي سقطت مع سقوط القول لدلالة سياق الاستفهام عليه. وتقدير الكلام: "فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ فيقال لهم أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ". ² وفي حذف القول توجيهاً لعناية إلى المقول، واهتمام به؛ لأنه -أي الكفر بعد الإيمان- العلة في أن يقال لهم يوم القيامة ذلك القول تبكيتاً وتقريعاً.

وأجمع أهل العربية على أنه لا بد من الفاء في جواب "أما" لأن المعنى في قولك: "أما زيد فمنطلق، مهما يكن من شيء فزيد منطلق"، إلا في ضرورة الشعر. ³

وحصيلة ما كان من الحذف في هذه الآية: حذفٌ دلّت عليه صناعة النحو، فقابلت الأداة "أما" اسم شرط وفعله. وحذفٌ: تعلقٌ بخبر المبتدأ الواقع بعد فاء الجواب. وهو حذف الفاء لاتصالها بالقول المحذوف. والحذف الثاني، وهو حذف القول، كثير أيضاً. وهو إجراء نحوي يسهم في توجيه عناية المتلقي إلى ما هو أهم في الكلام وهو: المقول؛ إذ هو الغرض المقصود.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ الواقعة: 88-94.

1 _ سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة، الطبعة 3، 1988، 137/3.

2 - الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، الطبعة 3، 1980: 1/228.

3 _ البيت الشعري الذي تداولته كتب النحو واشتمل على الشاهد، من كلام الحارث بن خالد المخزومي:

فَأَمَّا الْقِتَالُ لَا قِتَالٍ لَدَيْكُمْ وَلَكِنْ سِيرًا فِي عَرَاضِ الْمَوَاكِبِ

أي: فلا قتال لديكم. ولكن سيرا في عراض المواكب لديكم.

ينظر على سبيل المثال: ابن جني، الخصائص، 3/312. وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 4/53. والسيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر

جلال الدين)، مع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1998، 2/

قال سيبويه: "وأما "أما" ففيها معنى الجزاء. كأنه يقول [في: أما عبد الله فمنطلق]: عبد الله مهما يكن من أمره فمنطلقاً. ألا ترى أن الفاء لازمة لها أبداً."¹

وقد تكون "أما" مفيدة لمعاني الشرط والتوكيد والتفصيل جميعاً، وذلك إذا سبقها إجمال أريد تفصيله فيما بعدها، كما هو حالها في هذه الآيات.

ولا تدخل "أما" على فعل لأنها قائمة مقام أداة الشرط وفعله، فلا يدخل فعل على فعل. وهذا يعني أن فعل الشرط محذوف دوماً. كما أنه في التقدير لا تضم إليه "أما"، ولكن يقدر معنى "أما" بـ"مهما يكن من شيء". ولهذا فإننا نعتبر الاشتراط بـ"أما" من قبيل ما حذف فعله فقط لا أدواته وفعله.

والدلالة الخاصة التي تؤدّيها "أما" هي توكيد نسبة ما بعد الفاء -وهو الخبر- إلى ما قبل الفاء، والإلحاح على هذه النسبة، وذلك إذا كانت حرف شرط وتوكيد فقط. كما يدخل تحت وظيفتها النحوية إبراز أقسام المعنى المحمل، وربطها وترتيبها ترتيباً مبنياً على مبدأ ما، مع الإتيان على جميع أقسام المحمل، وفي ذلك جمال للمعنى يسميه علماء البديع "حسن التقسيم".

إن المعنى المحمل الذي سبق "أما" هو الأحوال الثلاثة للناس عند احتضارهم. ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ الواقعة: 83. أي إذا بلغت الروح الحلقوم عند خروجها من جسد المحتضر. وتفصيلها: إما أن يكون المحتضر من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذابين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله. وذكرت الآيات لكل من هؤلاء جزاءه المستحق، الذي يناله - لا محالة - عند دخوله القبر.

وحذف فعل الشرط وحده في الكلام قليل، وهو مقصور - في دراستنا وفي اجتهادنا - على نمطين من التراكيب الشرطية. هاتان صورتاهما المجردتان:

أداة الشرط	عبارة الشرط	عبارة الجواب
إن	فاعل مقدم نكرة+فعل مفسر لفعل الشرط المضمّر	الفاء+عبارة الجواب
أما(=مهما يكن)	فعل الشرط محذوف+ شيء مقدم من جوابها	الفاء+بقية جوابها

وأما حذف الشرط مع الأداة فهو كثير.

1 - الكتاب، سيبويه(أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1982، 236/4.

المطلب 3- حذف الأداة وفعل الشرط معا:

الصورة 1:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الشورى:9. معنى الاستفهام الإنكار. والفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا ولياً بحق، فالله هو الوليُّ بالحق، لا ولي سواه.¹

إن العدول عن ذكر الأداة وفعل الشرط؛ لكونهما ملحوظين في سياق الإنكار ر على المشركين، أمكن من المزوجة في عبارة واحدة بين غرضين: الأول، استنكار فعل المشركين في اتخاذهم أولياء من دون الله، دون أن يكون لهم برهان في ذلك. والثاني، هدي بقية البشر إلى ما هو حق يقضي به العقل السليم ويقود إليه، وهو أن الله وحده حقيق بأن يتخذ ولياً؛ لأنه هو الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

تحملت الآية القرآنية موقفين مختلفين يفهما الله من البشر: موقف ينكر فعلة المشركين الذين لا يفقهون آية ولا يدركون حقا. وموقف يهدي سائر الناس إلى الحق ويوجههم إلى التفكير في قدرة الله التي تقودهم إلى التسليم له بالولاية وحده، ويحذرهم مغبة التمرد؛ إنه هو الذي يحيي الموتى وهو القدير على كل شيء. وإن شحن اللفظ بأكثر من غرض، وجعله يصلح لمخاطبة مخاطبين مختلفين هو من الإيجاز المشكور، الذي يستوجب غير القليل من التباهة من أجل صيد المعاني الشاردة، وإدراك المقاصد المخفية من خلال ما يلمح به السياق.

الصورة 2:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال: 17.

الفاء في قوله: "فلم تقتلوهم" واقعة في جواب شرط محذوف. وإذا نظرنا في سياق الحال الذي ارتبط نزول الآية به، أو في سياق المقال الذي سبق الآية، أمكننا تقدير الشرط المحذوف على أكثر من إمكان:

1 - الزمخشري، الكشاف، 396/5.

روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن معركة بدر، ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتل كذا، أسرت كذا. فجاء من ذلك تفاخر بينهم ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده¹.

وبالاعتماد على مناسبة النزول هذه، يكون تقدير الشرط المحذوف: "إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم."

وقد يكون الشرط مقدرًا، يستدعيه ما مرّ من ذكر إمداده تعالى وأمر بالثبوت وغير ذلك²، كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم، ولكن الله قتلهم بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

ويجوز أن يكون التقدير: "إذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم"، على معنى الإعلام والإخبار بالجزاء، أي: فأخبركم أنكم لم تقتلوهم. وهذا نظير قولنا: "إن تكرمي فقد أكرمتك أمس". فإكرامك إياه أمس ليس جزء ولكنه إخبار عن الجزء.

وأبًا من هذه التقديرات كان الأصحّ فجميعها مرادة، ولا أحد منها يتعارض مع الآخر. الشيء الذي يؤكد أهمية حذف الأداة والشرط، وأنه لو ذكر المحذوف ما كان لهذا الزخم الدلالي أن يظهر، أو يعبر عن غنى العقول وتنوعها في استقبالها وفهمها للخطاب القرآني.

الصورة 3 :

قال عز وجل: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنفال: 56.

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم³.

والغناء في "فاعبدون" واقعة في جواب شرط محذوف، يفهم من خبر "إن أرضي واسعة"؛ لأن في هذا الخبر إشارة إلى اختيار الهجرة. وتقدير الكلام يصبح: فإن لم يتأت لكم أن تخلصوا العبادة لي في أرض

1 - القرطبي، الجامع لحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 476/9.

2 - قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الأنفال: 12.

3 - ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم، تح: مصطفى السيد محمد وغيره، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، 525/10.

فإيائي في غيرها فاعبدون ؛ لأن أرضي واسعة. والفاء في "إيائي" استثنائية. ولما حذف الشرط عوض من حذفه المفعول به المقدم، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص¹.

وقد تقاربت كتب التفسير في إعطاء تقدير مماثل لما ذكر. وفي هذا ما يدل على أن النظم القرآني تفتق أعطافه على المعاني كلما تأملنا عبارته، وكلما تعرفنا على مقامات نزوله. الشيء الذي يتأكد معه قيمة التعرف على مناسبات النزول. إنها عنصر غير لغوي يساعد على تعيين الدلالة المقصودة.

الصورة 4 :

قال عزّ من قائل: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيبْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: 139.

إن قوله تعالى: ﴿ أَلِيبْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ إنكارٌ لرأيهم وإبطالٌ له وبيانٌ لخبية رجائهم وقطعٌ لأطماعهم الفارغة أي يطلبون بموالة الكفرة القوة .

ثم قال: ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ تعليلٌ لما يفيد الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم وخبية رجائهم، كما هو جواب شرطٍ محذوفٍ كأنه قيل إن يبتغوا عندهم عزة فإن العزة لله وجميعاً.

وبهذا النحو من التعبير سلك الأسلوب القرآني مسلوكاً جمع فيه بين النفي والإنكار والإشارة إلى الشرط. ولو أنه سلك التصريح بالشرط، لفقد الكلام الكثير من الشحنة الدلالية والجمالية. وكان القصد من الشرط، غير موفٍ بحقيقة أن العزة هي في جهة الله ورسوله والمؤمنين.

قال عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: 80.

قال صاحب الكشاف: "فلن يخلف الله عهده" متعلق بمحذوف، وتقديره "إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده"².

1 - الزمخشري، الكشاف، 558/4.

2- المصدر نفسه، 580/1.

وقريب من هذا الرأي، ما فهمه محمد الطاهر بن عاشور حين ذهب إلى أنّ الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه. وأما ما بعد الفاء فهو علة الجزاء. وقدّر عبارة "فلن يخلف الله عهده" بقوله: فإن كان ذلك فلکم العذر في قولكم؛ لأن الله لا يخلف عهده.¹

وفي تقديرنا الأكثر تفصيلاً: فإن اتخذتم عند الله عهداً فلن تمسكن النار إلاّ أياماً معدودة؛ لأن الله لا يخلف عهده.

وورد هذا التركيب الشرطي ضمن سياق استفهام تقريري لوجود المعادل له وهو أم تقولون، والغرض منه إلقاء المخاطبين اليهود إلى الاعتراف بأصدق الأمرين².

ولأنه لا يجوز أن يجعل الله تعالى حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إبطال قول اليهود أن يستفهمهم، سعى إلى تحديد أصدق الأمرين بقوله: ﴿بَلَى، مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: 81. فإن حرف الجواب "بلى" يبطل قولهم "لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة"، ومن ثمّ كان أصدق الأمرين أنهم يقولون على الله ما لا يخلمون.

وقد مكن حذف الأداة والشرط، بل وحتى الجزاء قبل الفاء الفصيحة- حسب تقدير ابن عاشور- من إظهار الدعوى التي كان بعض اليهود يدعونها وكأنهم أخذوا عهداً من الله كذبا من عند أنفسهم، كما أن الشرط وجوابه يتوفر لهما من خواص الكلام ما يمكن من لحظهما، كالفاء الفصيحة

الصورة 5:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الروم: 56.

يقول المؤمنون من ملائكة وأنبياء وعلماء الأمم وعلماء هذه الأمة، يقولون للكفار يوم القيامة رداً عليهم: لقد لبثتم في حكم الله وقضائه، في قبوركم إلى يوم البعث. والفاء في قوله: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام، مجازة: إن كنتم منكبين البعث فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم في الدنيا لا تعلمون أنه الحق.³

1 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 580/1.

2 - نفس المصدر السابق والصفحة.

3 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تج: عبد اله بن عبد المحسن التركي، 452/16.

والكلام الذي جاء مشيراً إلى وجود شرط مقدر، كلام خبري هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾. ومضمون هذا الخبر واقع وصادق في الخارج، ولكنه في عقيدة الكفار كان قبل البعث خبراً كاذباً منفيًا، ليس في الخارج ما يصدقه ويثبتته، أو كان خبراً مشكوكاً في صدقه يحتمل الإمكان وعدمه. فكان الخبر بالنسبة إليهم - من جهة المعنى - كالمعنى المنفي أو ما يحتمل فيه الشك. وكل ذلك بمنزلة الشرط من حيث أنه شيء غير حاصل في حال التكلم، أي حدث مفترض يعلق عليه جواب.

إن الخبر في هذه الآية بمثابة الصور السابقة التي سبق الفاء فيها النفي أو الطلب. كما أن هذا الأسلوب المطروق من قبل التعبير القرآني يجعل الكلام الواحد عامراً بالدلالة، فمن ناحية يحمل الدلالة على جهل وغيباء ومطال الكفار وتكذيبهم بالبعث، ومن ناحية يعبر عن توبيخهم وتغليظ القول لهم يوم القيامة.

إنه في بعض الأساليب، يكون لفاء الجواب أو الفاء الفصيحة دوراً دلاليًا مفصليًا؛ يجعل المتلقي يتنبه إلى أن ما بعدها مترتب على محذوف مقدر قبلها. ويتم تقدير هذا المحذوف بأن يُتصيد من أساليب الخبر أو الطلب المتقدمة. وبذا يتسنى للنظم القرآني أن يكون وافر الدلالة، خصب المعاني، يدل على الكثير من الفكر بالقليل من العبارة.

والفاء الفصيحة فاء تفصح عن محذوف في نص قبلها، يكون لم ا بعدها علاقة منطقية به، يتوصل إليها المتلقي بإعمال نظره الفكري وتأمله في اللوازم الذهنية التي تربط بين السبب والمسبب أو العلة والمعلول. كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة: 19.¹

إن الفاء في قوله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقدير هنا: لا تعتذروا فقد جاءكم. وهذا النهي في المعنى هو جواب شرط مقدر، سواء صرح بتقديره أم لا ؛ لأن الكلام إذا اشتمل على مترتين أحدهما على الآخر ترتب العلية كان في معنى الشرط والجزاء فلا تنافي بين التقادير ، أي: إن تعتذروا فلا عذر لكم، فقد جاءكم بشير ونذير.

1 - ينظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وفنونها وعلومها، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1996، 45/2. والألوسي، روح المعاني، 6/104.

الصورة 6:

قال الله تعالى: ﴿ اذْعُوْنِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر: 60.

أي: أيها الناس اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك ﴿ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.¹

الاستجابة مجزوم بها وهي واقعة لا محالة في الدنيا أو الآخرة، لأنها وعد من الله. ولم يقل: " استجب لكم في الحال"، فإذا استجاب لنا ولو في الآخرة كان الوعد صدقاً. وجاءت الاستجابة فعلا مضارعاً مجزوماً لوقوعه في جواب الطلب، وجازمه الشرط الضمني المقدر "فإن تدعوني" مأخوذ من لفظ الطلب. وتقدير الكلام: "ادعوني، فإن تدعوني أستجب لكم". واستعمال أسلوب الطلب وجوابه طريق من طرق الإيجاز الذي يضطلع بالتعبير عن الإغراء بإتيان الفعل "وهو الطلب بصوره"، وذكر الغرض المراد منه (جواب الطلب)، وفيه إقناع يدفع بالمتلقي إلى الإقبال على الفعل. ويتضمن اختياراً ممنوحاً للمتلقي العاقل الحر، يتمثل في الشرط الملحوظ خلال السياق.

قال عز وعلا: ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران: 31.

الطلب: " اتبعوني"، وهو أمر انجزم بعده المضارع لما سقطت الفاء وقصد به الجزاء. والأمر صادر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو السبب المباشر لتحقيق الجزاء. أداة الشرط "إن": مقدره بعد الطلب على مذهب الجمهور. ولا يقدر بعده غيرهما من أدوات الشرط، وتقترب بفاء السببية، أي: فإن... فعل الشرط: مقدر على مذهب الجمهور أيضاً، ويصاغ من لفظ ومعنى الطلب أو من معناه فقط. وتقديره هنا: "تتبعوني" المجزوم بـ "إن" وتقدير الكلام: "...فإن تتبعوني..."

جواب الشرط الضمني: هو الفعل المضارع "يحببكم" المجزوم اقتضاء لـ "إن" المضمرة، وأظهر الفاعل تنبيهاً إلى عظمة الجزاء. وعطف عليه بالواو قوله عز وعلا "يغفر لكم ذنوبكم" إظهاراً لتوفية الجزاء من الله ذي الفضل العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠٣﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 406/21.

﴿ دُنُوبِكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾
الصف: 10 - 12.

جاء بفعل " أدلكم " لإفادة أن ما يذكر بعده من الأشياء ، هي مما لا يهتدى إليها بسهولة.
والاستفهام لأجل التشويق إلى ما يأتي بعده أو يكون مفسرا له.

" تؤمنون " عند المبرد والزجاج¹ في معنى " آمنوا"، ولذلك جاء " يغفر لكم " مجزوما على أنه جواب الأمر.

وفي قراءة عبد الله " آمنوا بالله ". وقال الفراء " يغفر لكم " جواب الاستفهام، وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى، وذلك أن يكون " تؤمنون بالله، وتجاهدون " عطف بيان على قوله: " هل أدلكم على تجارة تنحيكم من عذاب أليم " كأن التجارة لم يُدر ما هي، فبينت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. كأنه قيل: " هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم... " ²

وإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة، لأن التقدير يصير " إن دلتكم يغفر لكم"، وإنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا.

وتقدير الكلام على الجملة هو: آمنوا وجاهدوا، فإن تؤمنوا وتجاهدوا، يَغْفِرْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ: "اللَّهُ" فَعَلَّ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: 31.

الفاء في قوله " فسيقولون الله " فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط ، وذلك أنه قصد تسبب " قولهم: الله " على السؤال المأمور به النبي عليه الصلاة والسلام، فنزل فعل " قل " منزلة الشرط فكأنه قيل : قل، فإذن تقل من يرزقكم من السماء والأرض ... فسيقولون الله.

1 - هو أبو إسحق إبراهيم بن السري بن سهل، المشهور بالزجاج؛ إذ كان يخرط الزجاج، لازم المبرد وأخذ عنه، ثم صار معلما للنحو. توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة من الهجرة (311هـ) عن سبعين عاما من العمر. وله من التصانيف: معاني القرآن، الاشتقاق، خلق الإنسان، فعلت وأفعلت، شرح أبيات سيويه، القوافي، النوادر إلى غير ذلك.
ينظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، 1/ 412-413.
2. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 2/ 446.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ إبراهيم : 31. التقدير: قل، فإن تقل لهم أقيموا الصلاة يقيموا . فتخرجه على حذف شرط مقدر دل عليه الكلام . وإذا كان لا يلزم من قوله لهم: "أقيموا" أن يفعلوا. فإنه يلزم في هذا المقام لان المراد بالعباد المؤمنون، ومتى أمرهم امتثلوا.

وحذف الأداة والشرط في هذه الأمثلة لا يخلو أسلوبياً من إيجاز في العبارة، ومزيد في المعنى على مجرد الشرط يتجلى في أن المتكلم يطلب إيجاز الفعل المعلق عليه الجزء التالي له، فهو إغراء على القيام بالفعل الذي هو سبب لأجل تمكين الفعل الذي هو جزء.

ولو لم ينزل الأمر بمنزلة الشرط ما جاءت الفاء كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ المؤمنون: 84-85.

قال تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ البقرة:152.

جاء في تفسير القرطبي (671 هـ) أن قوله تعالى: " فادكروني أذكركم " أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم.

وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم. ومعنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة.¹

إن كلاً من فعلي الأمر والجواب مشتق من الذكر. بينما تقضي أحكام التركيب الشرطي أن يغير كل منهما الآخر، حتى لا يكون الشرط والجزء الفعل نفسه؛ لعدم انعقاد أية دلالية من ترتيب فعل على نفسه. ولكن التفرقة بينهما هاهنا حصلت من جهة اختلاف المسند إليه، فكان جماعة المؤمنين، ثم كان الله جل وعلا. كما تغاير الفعلان بتعلق كل منهما بجهة يختص بها ولا يشاكلة الآخر فيها، وذلك نحو ما قدمه القرطبي في معنى الآية، حيث جعل كل ذكرٍ بمعنى. وجميع كتب التفسير تفرق بين الفعلين من جهة الدلالة التي يقتضيها السياق؛ لأن الله ليس كمله شيء، ولا يجاربه مخلوق في أفعاله. ولنا أن ننظر ما قدمه أيضاً محمد الطاهر بن عاشور في تقدير قوله " اذكروني ": "... فالتقدير اذكروا عظمي وصفاتي وثنائي وما ترتب

1 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 459/2.

عليها من الأمر والنهي أو اذكروا نعمي ومحامدي ... وأما "أذكركم" فهو مجاز أي أعاملكم بزيادة النعم والنصر والعناية في الدنيا وبالثواب ورفع الدرجات في الآخرة.¹

والمحذوف في هذه الآية أداة الشرط وفعله، وكان حذفهما جائزاً لإمكان تقديرهما من سياق المقال أي: اذكروني فإن تذكروني أذكركم. وإضافة إلى الإيجاز المحقق فيها، فإنها عبرت عن موقف المتكلم الذي يريد أن يكون فعل الأمر منجزاً، ليتبعه بالإجابة. كما أن في الآية وجهاً جمالياً اكتسبته من التلون الدلالي لفعل الذكر، عندما استعمل استعمالين مختلفين ليناسب كل منهما ذات وصفة المسند إليه. ولهذا الإجراء سمة جمالية تسمى في علم البديع مشاكلة أو مجانسة.

ويضاف إلى ما سبق أن هذا الإجراء التركيبي يحيل الأذهان إلى فكرة أن الجزاء يكون من جنس العمل، ويذكر بالعدل الإلهي، وفضل الله على العالمين. إنه تعالى اسمه هو القائل: ﴿وَلَذَكَّرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت:45.

قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ النمل:12.

هذه إحدى آيات الله الجارية على يد سيدنا موسى عليه السلام، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله -تعالى- أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتألأل كالبرق الخاطف، سليمة من السوء كالبرص أو غيره.²

في هذه الآية حذف كثير. وإن كان الذي يعيننا منه حذف الأداة والشرط. و تقدير المحذوف بأكمله هو: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَدْخُلْ . وَأَخْرِجَهَا تَخْرُجُ ؛ فحذف "تَدْخُلْ" ؛ لدلالة "تَخْرُجُ" ، وحذف "وَأَخْرِجَهَا" ؛ لدلالة "وَأَدْخِلْ" . ودل لفظ "بيضاء" في الأواخر على عبارة "غير بيضاء" المحذوفة من الأوائل، فتم في الآية ما يسمى في البديع بالاحتباك.³

1 - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 455/1.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 392/10.

3-الاحتباك هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه. الشريف الجرجاني(علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحنفي)، كتاب التعريفات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 1، 2005، ص14.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُؤْنَ اغْتَرَبُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ التوبة:102. أي: خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا بِسَيِّئٍ وَعَمَلًا آخَرَ سَيِّئًا بصالح.

وأما الأداة والشرط المحذوفان فهما على تقدير: وأدخل يدك في جيبيك، فإن تدخلها تدخل، وأخرجها، فإن تخرجها تخرج بيضاء من غير سوء. والجدول التالي يمنح العبارات المحذوفة شكلاً أوضح:

الأمر الأول	الأداة والشرط	جواب الأمر	الأمر الثاني	الأداة والشرط	جواب الأمر
وأدخل يدك في جيبيك	فإن تدخلها	تدخل	وأخرجها	فإن تخرجها	تخرج بيضاء من غير سوء
العناصر المحذوفة من الكلام					

الجدول 8: العناصر المحذوفة في آية 12 من سورة النمل.

اشتملت الآية على أمرين ترتب عليهما شيئان، وهما: إدخال يده غير بيضاء في جيبيه، وقد ترتب عليها الطواعية لذلك. وإخراجها منه، وقد ترتب عليها خروجها بيضاء من غير سوء. وكثر الحذف فيما بين الإدخال والخروج. ولعل الحذف الذي يوفر مؤونة الكلام أنتج سرعة تشير إلى سرعة الحدث المعجز، الذي أجراه الله تعالى اسمه على يد نبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام، وانبهر به الناس من حوله.

الصورة 7 :

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ النساء: 153.

جاء في الكشاف في مناسبة هذه الآية أنّ بعض اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبياً صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى ، فنزلت. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعتت.

وأنّ قوله ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ جواب لشرط مقدر. معناه : إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألو موسى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ . وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم في أيام موسى وهم النقباء السبعون، لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم في التعتت.¹

وجاء المضارع "يسألك" لقصد استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال حتى كأن السامع يراهم ، أو للدلالة على تكرار السؤال وتجده مرة بعد الأخرى ، بأن يكونوا ألحوا في هذا السؤال لقصد الإعنت .

¹ - الزمخشري، الكشاف، 2/ 171، 172.

والفاء في قوله " فقد سألو موسى " ، فاء الجزاء كما سبق، أو الفاء الفصيحة الدالة على مقدر دلت عليه صيغة المضارع المراد منها التعجيب، أي: فلا تعجب، ولا تستكبر سؤلهم، فإن ذلك عادة قديمة لأسلافهم مع رسولهم إذ سألوهم معجزة أعظم من هذا.

المحذوف في الآية أداة الشرط وفعله، كما أن جواب الشرط جاء مستبدلاً بعبارة متضمنة لما هو أدهى من سؤالهم لمحمد صلى الله عليه وسلم. وأما المحذوف فتقديره: فإن كنت قد استكبرت ما سألوكم من إنزال كتاب من السماء، فلا تحزن، فقد سأل أسلافهم موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ثم عكفوا بعد ذلك على عبادة العجل.

والشرط وجوابه قصد بهما التسرية عن قلب محمد صلى الله عليه وسلم ودفع ما كان يلاقيه باستمرار وتحدد من عنت اليهود في المدينة.

ونضيف إنَّ التركيب الشرطي الحالي، يخرج عن التعليق الحقيقي؛ كون الشرط وما انبنى عليه من جزاء وقعا لفظاً ومعنى في الماضي، فخالف ما يجب في التعليق الشرطي الحقيقي من فعلين مستقبلين مع جزمهما. ولذا كان تقديرنا للبنية الشرطية كاملة بأن قلنا: " فإن كنت قد استكبرت ما سألوكم من إنزال كتاب من السماء، فلا تحزن، فقد سأل أسلافهم موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ... " وهذا على غرار قوله عز وجل: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة: 116.

وإذا أضفنا إلى طبيعة هذا التعليق الشرطي، كون سياق الحال يفيد أن الغرض من سوق هذا الكلام هو التسرية على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وتخفيف ضائقة الصدر عنه، علمنا أن مثال هذا التركيب عدل به عن بابه من الحيثية الدلالية العامة، ليؤدي دلالةً، يرجع الحكم الكبير فيها للسياق غير المقالي.

وتظهر البلاغة القرآنية في اللجوء إلى الإيجاز قدر المستطاع، وذلك باستغلال المعطيات السياقية الحالية؛ فقد استغني عن ذكر الأداة وفعل الشرط لعلمه عز وجل بحصول شيء هو أنّ قلب محمد يكاد ينفطر لسؤلهم المتعنت المتكرر، ولذا حذف من الكلام "فإن كنت استعظمت طلبهم إنزال كتاب من السماء..." كما يسهل تقدير هذا المحذوف بما تمنحه دلالة المقال المتقدم على المحذوف. وأما بقية المحذوف-وهو من الجواب-فهو من قبيل ما يستدل عليه بإعمال النظر الفكري والتأمل في اللوازم الذهنية التي تربط بين السبب والمسبب أو العلة والمعلول . وتقدير الجواب بين مدلول عليه، ودال على غيره: "فلا تستكبر سؤلهم، فإنهم على عادة أسلافهم في تعنت الرسل؛ إذ سألو موسى عليه السلام رؤية الله.

الصورة 8:

قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ الأنعام: 157.

يقول محمد الطاهر بن عاشور إنَّ ما جاء في الآية يعبر عن درجة استعلاء، تحسّسها العرب في أنفسهم، ودلت على ما تكنه أنفسهم من أفضلية على أهل الكتاب من يهود ونصارى، كما تعبر عن تطلعهم إلى معالي الأمور وإدلالهم بفطنتهم، وفصاحة ألسنتهم، وحدة أذهانهم، وسرعة تلقيهم. وهم جديرون بذلك كله... وقد كان الذين اتبعوا القرآن أهدى من اليهود والنصارى بيون شاسع.¹

والفاء في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فاء الجزاء. والشرط قبلها محذوف دل عليه المقام. وتقديره: فإذا كنتم تقولون ذلك ويهجم في نفوسكم فقد جاءكم بيان من ربكم وهو القرآن، أو إن كنتم صادقين فيما تعدّون، فقد جاءكم بينة من ربكم.

ولا شك أن في الكلام المحذوف اختباراً للمتلقي يجد معه نفسه موكولاً إليه التفطن إلى ما هو كامن في ضمير المقام، مسؤولاً عن ملح وتقدير المحذوف، حريصاً على أن يكون في درجة النباهة التي قدرها له المتكلم.

وإنَّ قريشا كانوا يتوسمون في أنفسهم بلاغة ليست لغيرهم، وقدرة على الفهم ليست لليهود ولا النصارى، فكلمهم الله بهذا النظم المسابير لحلمهم، وهم أولى الناس بفهمه، والاتصاف به.

الصورة 9 :

قال جل وعلا: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ المؤمنون:

91.

أي: تقدس الله عن مماثلة أحد من مخلوقاته، وما كان أن يساهمه في الألوهية أحد. وقوله: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جواب محاجة المشركين، وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه؛ أي لو كان معه آلهة - كما يتعمون - لذهب كل منهم بما خلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم

1 - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 8/181.

التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا . واللازم باطل بالإجماع والاستقراء وقيا م البرهان¹، فيكون المزموم باطلا أيضا، وبعبارة أخرى يكون الشرط -وهو زعمهم- فاسدا لقيام الدليل على بطلان الجزاء.

وإن ما أشير إليه من ان فهم قضية شرطية من الآية ظاهر على ما ذهب إليه الفراء فقد قال : إن "إذا" حيث جاءت بعدها اللام فقبلها لو مقدره إن لم تكن ظاهرة نحو ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ فكأنه قيل: لو كان معه آلهة كما تزعمون لذهب كل بما خلق².

وقال تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هود:31.

قال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: أي لا أقول عندني خزائن الله، فأدعي فضلا عليكم في الغنى، ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، ولا أقول إنني ملك حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه - كما تقولون - مساعدة لكم ونزولاً على هواكم . إنني إذا لَمِنَ الظَّالِمِينَ إن قلت شيئاً من ذلك . وإلى نفس التفسير ذهب القرطبي حيث قال في تأويل الآية: أي إن قلت ذلك الذي تقدم، و"إذا" ملغاة، لأنها متوسطة. وهو يقصد أن تقديمها: إن قلت ذلك الذي تقدم فإنني من الظالمين.³

جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، أنه نفى عن نفسه جملة من الأقوال ما قالها ولا هو يقولها تأدبا منه وتخلقا بأخلاق القرآن. وأنه لو صدر منه شيء من تلك الأقوال لاستحق لأجل ذلك أن يكون في زمرة الظالمين، فعبارة "إنني إذا لمن الظالمين" عبارة جزائية، وأداة الشرط وفعل الشرك محذوفان، ملحوظان خلال السياق السابق. وهو سياق نفيت فيه الأفعال التي تؤول بالشرط لأن النفي والشرط يشتركان في أن الفعل غير واقع، ومن شأنه أن يعلق عليه.

وفائدة الحذف هاهنا أن الأفعال المنفية دلت على عدم الوقوع في الماضي والحال واستعملت الصيغ الدالة بذاتها على هذا المعنى، مع إمكان استمرارها في المستقبل، وهو المعنى الذي يدل عليه تأويل الآية بالتركيب الشرطي.

1- البيضاوي، تفسير البيضاوي، مكتبة الحقيقة، دار الشفقة، استانبول، تركيا، 1993، 3/ 409.

2 - الفراء، معاني القرآن، 1/ 274.

3 - الزمخشري، الكشاف، 3/ 82. والقرطبي، تفسير القرطبي، 9/ 27.

المطلب 4- حذف الفاء:

وأقصد من وراء قولي بحذف الفاء استكمال منهجي في حذف عناصر التركيب الشرطي ملتزما بالترتيب. وسنتبين عدم ورود هذه الحالة في القرآن الكريم. كيف ذلك وقد قال بعض النحاة كالمبرد إن حذفها لم يأت حتى في الضرورة الشعرية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾ البقرة: 180. ذهب الأخفش (215هـ) إلى أن "الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ" جواب على إضمار الفاء والتقدير: "إن ترك خيرا فلوصية للوالدين"¹ وهذا القول مردود عند النحاة بأن الفاء لا تحذف إلا ضرورة كقوله:

والشر بالشر عند الله مثلان

من يفعل الحسنات الله يشكرها

فالتقدير: فالله يشكرها، لأن الجواب جملة اسمية. وهذا ما يمنعه المبرد حتى في الشعر، ويرى أن رواية البيت: من يفعل الحسنات فالرحمن يشكره...

والمانعون لجواز حذف الفاء في النثر يتأولون الآية الكريمة على غير حذف الفاء². كأن يتأولوها: إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا فَقَدْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ...

لعل هذه المخالفة التي جاءت على يد الأخفش سببها أن الآية كان ينبغي أن ينظر إليها في إطار سياق أوسع، وهو قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: 180.

واعتباره "الوصية للوالدين" جوابا لـ "إِنْ تَرَكَ خَيْرًا" يفهم منه أنه اعتبر "إذا" قبلها ظرفا غير متضمن لمعنى الشرط، فلا يقتضي جوابا.

والآية كاملة تنضوي تحت بعض الصور الأخرى من العدول كتقديم الجواب الذي منه توسط الشرط لعبارة الجزاء، والزيادة بالقيود الشرطي.

1 - معاني القرآن، الأخفش(أبو الحسن سعيد بن مسعدة-الأوسط)، تح:هدى محمود قراة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1990، ص168.

2 - ابن هشام، المغني، دار الفكر للطباعة والنشر، 1/91، 141.

المطلب 5- حذف جواب الشرط:

حذف الأجوبة: منه المتقدم على الأداة والشرط، وهذا غير معتبر بهذه الصفة في منهج بحثنا، ولكنه من قبيل المقدم من تأخير، ولذا نقتصر في هذا البحث على نوعين من الحذف، وهما: ما لم يذكر لفظاً وترك فهمه من السياق، وما كان حذفه للاستغناء عنه بجواب القسم أو جواب شرط آخر.

1- حذف الجواب المفهوم من السياق:

قال عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة: 17.

معنى هذا المثل: أن الله سبحانه، شبّه المنافقين في اشتراطهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة (الإيمان) إلى العمى (الكفر)، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما حوله، وتأنس بها، وبيّن ما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فلماذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك . فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم العي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا.¹

قال الزمخشري في تفسير الآية: فإن قلت : أين جواب لِمَا؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن جوابه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. وليس في هذا حذف.

والثاني : أنه محذوف تقديره: "خمدت". وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام من جهة، مع أمن الإلباس لوجود الدال عليه وهو ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ من جهة أخرى، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل : فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام ، متحيرين متحسرين على فوت الضوء ، خائبين بعد الكدح في إحياء النار . وعلى تقدي الجواب محذوفاً يكون: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ كلاماً مستأنفاً . كأنهم لما شبّهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقيل له : ذهب الله بنورهم . أو يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان.²

وبعبارة أخرى يحقق الحذف الفوائد الدلالية والبلاغية التالية:

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 296/1.

2 - الزمخشري، الكشاف، 192/1.

1. تحقيق إيجاز الكلام؛ لأن في الكلام طولاً استوجبه وصف المنافقين المتظاهرين بالإيمان المضميرين للكفر والعائدين إليه، وعاقبة كل ذلك.
2. أن حذف الجواب يؤمن معه اللبس لوجود الدليل على المحذوف، وهو "ذهب الله بنورهم" وهذه الجملة بيان لما حذف.
3. أنّ الجملة البيانية أبلغ من جملة "خمدت" المحذوفة، من جهة أن مضمونها لازم لمضمون المحذوفة، وأكثر إيجاء بالحيرة والتخبط في الظلمات والحسرة على ما فاتهم من ضياء ونور، وفشل بعد محاولات استرجاع النور.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يوسف: 15.

جواب لما محذوف إيذاناً بظهوره ، وتقديره: جعلوه فيه. وبلاغة هذا الحذف ليست محصورة في هذا القدر من الإيجاز الذي يفوّت مشاهد وأحوال نفسية شديدة، ولكن تتجلى بالخصوص في الإيحاء شعاعاً بأن تفصيل الجواب مما لا يحويه فلك العبارة. ومجمله: عظمت فتنتهم، أو فعلوا به ما فعلوا من أشياء شنيعة لا يجروا إحوه على إيقاعها بأخيهم.

وعلى رأي الكوفيين لا حذف، والجواب أوحينا، والواو مقحمة زائدة. وليس في القرآن زائد إلا لزيادة في المعنى، الشيء الذي ينتقص من رأيهم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُمُ الْعَهْدَ مِنْكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لَكُمْ إِذْ أَخَذْتُمُ الْعَهْدَ فَذَكَرْتُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَفِيٌّ ﴾ آل عمران: 152.

قوله: ﴿ حتى إذا فُشِلْتُمْ ﴾ شرط. وجوابه على قول البصريين محذوف، والتقدير: حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منعكم الله نصره، وإنما حسن حذف هذا الجواب لدلالة قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ عليه.

ومن المحتمل أن يكون تقدير الجواب المحذوف: "أراكم ما تكرهون" وهو في مقابل قوله: "أراكم ما تحبون" الذي كان جزاء مناسباً للمؤمنين عندما كانوا يجاهدون في سبيل الله مطيعين ملتحمين في معركة بدر التي انتصروا فيها.

وتقدير الجواب المحذوف متلائم مع سياق الحال والمقال، كما أنه لا يوجد أدنى تعارض بين التقديرين، وإنما هما متلازمان مترادفان. كيف لا، ومنع النصر يتعلق به كراهة نفوسهم له، أو أن نفوسهم تكره منع النصر الذي أصيبوا به في معركة أحد؟

قال جل وعلا حكاية على لسان لوط عليه السلام ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هود:80.

جاء في تفسير محمد بن جرير الطبري في ظرف نزول هذه الآية أن لوطا عليه السلام قال لقومه، حين أبوا إلا المضي فيما جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم، قال لهم: ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾، بأنصارٍ تنصرتني عليكم وأعوان تعينني، ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ أي: أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، لَحُلْتُ بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيائي. وحذف جواب "لو" لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم.¹

وقد يقدر الجواب المحذوف بما هو قريب من ذاك نحو: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم ما فعلت، من العذاب والنقمة وإحلال البأس بكم بنفسي وعشيرتي. وسياق المقال والمقام كفيلا بتحديد الأجوبة المقبولة المتلائمة دلاليا مع للشرط.

كما يمكن اعتبار "لو" للتمني، فيكون مدخولها طلبا لما لم يكن حاصلًا في زمن القول الصادر من لوط عليه السلام، ولكن الله استجاب له على الفور، وأمدّه ببشارات في الحين، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود: 81.

إنهم ملائكة جاؤوا لنصرة الحق، وطمانوه بأن قومه لن يصلوا إليه، وأن الله منتقم منهم عن قريب عاجل.

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: 41.

يشير هذا المثل إلى أن كل بيت فيه فائدة الاستظلال أو غير ذلك، وبيت العنكبوت يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون.

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 418/15.

وحذف جواب لو، وتقديره: لو كانوا يعلمون أن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة ما عبدوها. أو: لو كانوا يعلمون باطل ما يفعلون ما أبطأوا في الاستجابة لك. أو: لو كانوا يعلمون ما صدوا عن دين الله. وغير ذلك من التقديرات. فحذف الجواب ليتناول كل هذه المعاني ونحوها.

قال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ البقرة: 165.

أي لو يعلمون حقيقة قوة الله عز وجل وشدة عذابه. ف" يرى " واقعة على "أن القوة لله"، وسدت مسد المفعولين.

وجواب " لو " محذوف، أي لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة، أو لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، فحذف الجواب ليذهب السامع كل مذهب، فلا يتصور مكروهاً إلا وهو داخل في حالهم، ولو ذكر جواب لاقتصر عليه دون غيره.¹

إن إضمار الجواب في الشدة والوعيد أكثر فاعلية في المعنى من الذكر، لأنه يفتح على الأذهان والنفوس سبل التقديرات التي يوحي بها مقام اليقين الذي يفاجئ الظالمين والمكذبين، يوم القيامة. وذلك طريق من طرق الثروة الدلالية التي يمنحها الحذف. وهو الحذف البلاغي الذي يمدحه علماء البيان.

ولو أن نظم التركيب الشرطي هاهنا جرى على الصورة المعيارية، لاقتضى ذكر الجواب. وفي الذكر قيد له، وحدّ لما تتوهمه النفوس من تفاصيل العذاب وأشكال الهوان التي يخضع لها الظلمة، وتقليل من جملة دقائق النكال المحيط بهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يس: 45-46.

المعنى: أن الله يصور تمادي الكافرين في كفرهم، فلا ينفع معهم التحذير بم. ا بين أيديهم من أمر الآخرة، ولا بم خلفكم من أحوال الأمم في الدنيا أن يصيبهم ما أصابهم.

1 - مصطفى عبد السلام أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مطبعة القرآن، القاهرة، د.ط، د.ت، ص113.

حذف جواب "إذا" من الكلام، لأن في الكلام بسطاً يراد منه بيان أن هذا الصدود والتمادي في الغي وعدم الانتفاع بما يبلغهم رسول الله من الآيات، كل ذلك من شأنهم ودأبهم. وأنه يدخل جواب "إذا" في هذا الإجمال الذي أثبتته الكلام التالي لشرطها، وتقدير الجواب: "يعرضون". وفائدة هذا الإجراء توفير المزيد من التأكيد على إعراضهم؛ لأن الجواب المحذوف كان بمنزلة المذكور للعلم به من السياق، ثم أعيد بعبارة أخرى هي عبارة التعميم، كأنه قال: "ودأبهم الإعراض عن كل آية".

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سَيَّرَتْ بِهِ الجبالَ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ أَوْ كُئِلمَ بِهِ الموتى بَلْ لَلَّه الأمرُ جَمِيعًا ﴾ الرعد:31.

روي أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة، فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي: سِيرَ لنا جبال مكة حتى ينفس ح المكان علينا، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها، أو أحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو باطل، فقد كان عيسى يحيى الموتى، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ، فلست بأهون على ربك من سليمان. وحذف جواب "لو" لكونه معلوماً، وتقديره: "لكان هذا هو القرآن الذي أنزلناه عليك".¹

على أن معنى كلمة "قرآنا" هنا تنصرف إلى معنى الكتاب السماوي. أي ولو أن كتابا مما أنزل الله سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وبعبارة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: " لو أن كتابا من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك ولكن لم يكن قرآنً كذلك ، فهذا القرآن لا يتطلب منه الاشتمال إذ ليس ذلك من سنن الكتب الإلهية".²

وأضاف فخر الدين الرازي قول الزجاج، وهو أن المحذوف هو: "لما آمنوا به"،³ كقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكةَ وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمُ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ الأنعام : 111.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ لَلَّه الأمرُ جَمِيعًا ﴾ "بل" عطفٌ على "ولو أن قرآنا" بحرف الإضراب يعني : ليسرت تلك العجائب من شأن الكتب ، بل الأمر لله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وليس لأحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه.

1 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 54/19.

2 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 143/13.

3 - نفس المصدر، والجزء والصفحة.

وقدّر الفراء أن يكون جواب "لو" من هذه الآية متقدّماً، وهو: "وهم يكفرون به ولو أنزلنا عليهم الذي سألوا." أو يكون متروكاً لأن أمره معلوم: والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز.¹

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: 27.

في هذه الآية أخبر الله عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، وأنه لو كتبت كلماته بما في الأرض من شجر جعل أقلاماً، ومدادها بحور الأرض لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، وما نفذت كلماته.

وفي هذا الكلام حذف جواب "لو" واستغنى بدلالة الظاهر عليه، وتقديره: لتكسرت تلك الأقلام، ولنفذ ذلك المداد، وما نفذت كلمات الله.

كما يحتمل أن يكون قوله "ما نفذت" هو الجواب، وذلك قصد المبالغة في نفي النفاذ؛ لأنه إذا كان نفي النفاذ لازماً على تقدير كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً والبحر مداداً، لكان هذا اللزوم أوكد وأولى على تقدير عدم كون ما في الأرض من شجر أقلاماً والبحور مداداً.

و"لو" على هذا الاعتبار هي لو غير الامتناعية، وهي التي يثبت جوابها مع الشرط المذكور قبلها، ويزداد هذا الثبوت توكيداً في حال افتراض عكس الشرط السابق لها.

و"لو" هذه هي خلاف "لو" الامتناعية التي تقضي أن يكون امتناع لازمها دليلاً على امتناع ملزومها، كقولنا: "امتناع الإكرام دليل على امتناع المحييء في: لو جئتني لأكرمك، كما أن امتناع المحييء يترتب عليه امتناع الإكرام.

بينما لا يصح في هذه الآية ومثيلاتها- حيث تكون "لو" غير امتناعية- جعل امتناع الملزوم (الشرط) مفضياً إلى امتناع اللازم (الجواب)؛ أي لا يصح المعنى إذا اعتبر عدم كون الأشجار أقلاماً والأبحر مداداً، مؤدياً إلى نفاذ كلمات الله. كما أن امتناع لازمها ليس دليلاً على امتناع ملزومها.

تعددت تقديرات المحذوف، وجميعها يتناسب مع السياق، وتلونت حسب فهم المتلقي للقرائن التي يتيحها هذا السياق. والاطلاع على بعضها ينكشف معه الاختلاف بين مدارك العقول في تدبر المعاني

المضمرة واستنباطها ؛ فبعضها يرى الجواب مدلولاً عليه بالنظر إلى ما قبل "لو"، وبعضها يراه فيما بعدها، وبعضها يراه في خارج سياق الآية، فيقدره مقيساً على آية أخرى من القرآن الكريم، فيتناسب عمله مع القول: إنَّ القرآن يفسر بعضه ببعض. ولو أن الجواب ذكرته الآية لتحديد، وتلاشت التقديرات الكثيرة ومعها الانثيال الدلالي.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ السجدة: 12.

لما ذكر الله أنهم يرجعون إلى ربهم في الآية السابقة، وهي: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله: " وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ ".

وحذف جواب "لو" لدلالة الكناية المرافقة للشرط عنه، وهي كناية عن صعوبة حالهم وشدّة استخجالهم وفرط حسرتهم وندمهم، وتمنيهم من الله إعادتهم إلى الدنيا . ويمكن اختصار الجواب المكنى عنه، في قولنا: "الرأيت عجباً"، أو "الرأيت أمراً فظيماً" أو "الرأيت سوء منقلبهم"... وأما السعي في تحصيل أغلب أو كل ما هو محذوف من المعاني التي يشملها الجواب، فإنه يقود إلى التفكير في الدلالات التي تحيل إليها هيأتهم وهم ناكسو رؤوسهم بين يدي الرب لا يجروون على رفع أبصارهم، مقربين بأنهم يبصرون بعيونهم ما كانوا يشكون فيه عند سماعه، يتضرعون إلى الله أن يمنحهم كرة أخرى ليعملوا الصالحات... وغير ذلك من مفردات الوعد والوعيد التي كانوا يكذبونها عند سماعها من الرسل، ثم حاق بهم ما كانوا به يكذبون.

وإنما وقع هذا الحذف قصد المبالغة ، لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب . ولو صُرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به فلا يكون له ذلك الوقوع . وكلما كان الشعور بالمحذوف أبعد وأعسر كان الالتذاذ به أشد وأحسن.¹

كما يرتبط بالحذف فضل اجتهاد ولذة، بسبب استنباط الذهن للمحذوف واكتشاف المعنى المخفي. وأقل ما فيه من المزايا الأسلوبية أنه يتحقق به الإيجاز، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ الزمر: 73.

1_ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، 104/3، 105.

بالاطلاع على ما عرضه أبو إسحاق الزجاج في معنى هذه الآية وإعرابها ، يتكشف لنا احتمالها

لعدد من إمكانات الأجوبة المحذوفة، مع اختلاف مواضعها، وبيان ذلك:

- 1) أن الزجاج سمع عن المبرد أن جواب "إذا" محذوف ومقدر بعد نهاية الكلام، وأن المعنى: "حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، سعدوا"
- 2) أن الجواب محذوف ، عطف عليه قوله " وفتحت" كأنه قال حتى إذا جاءوها وجاءوها وفتحت أبوابها. وفي هذا حذف المعطوف عليه، وإبقاء المعطوف. والمعنى حتى إذا جاءوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها.¹
- 3) أن الجواب محذوف من آخر الكلام، كأنه قال بعد الفراغ منه: استقروا أو خلدوا أو استوفوا مما يقتضيه المقام.
- 4) أن يكون التقدير: حتى إذا جاءوها أذن لهم في دخولها وفتحت أبوابها ؛ لأن الجيء ليس سببا مباشرا للفتح، بل الإذن في الدخول هو السبب فيه.
- 5) والذي قاله أبو إسحاق الزجاج أن معناها: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، دخلوها. وحذف الجواب "دخلوها" لأن في الكلام دليلا عليه.²
- 6) ويكون الشرط في هذا التخريج عددا من الأفعال المتعاطفة، وهي: الجيء وفتح الأبواب وترحيب خزنة الجنة وإذئهم لهم بالدخول، ويكون الجواب فعلا محذوفا معلوما من سياق المقال.
- 7) وعلى اعتبار أن الواو للحال، تكون الجملة حالية بتقدير "قد"، أي جاءوها وقد فتحت لهم أبوابها، وهذا الاعتبار يعضده قوله تعالى: ﴿ جَنَاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَّهُمْ الْأَبْوَابُ ﴾ ص: 50.

1 - وهذا التقدير، عَقَّب عليه الألوسي بأنه ليس شيئا. (ينظر تفسيره روح المعاني: 34 / 24). ولعل ذلك راجع إلى أن هذا التقدير يوجب، من جهة الدلالة، أن يكون فعل الجزاء هو نفسه فعل الشرط. ولا دور للحال (وفتحت أبوابها) في تخصيص فعل الجزاء، لأنه مستقل الدلالة عن الفاعل الذي هو صاحب الحال، فهو لا يصف الفاعل، وهم أصحاب الجنة، في شيء. وليس من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ الشعراء: 130. أو قوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَى ﴾ النساء: 142. أو قوله: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ الفرقان: 72. إن فعل الجزاء في الآيات الثلاث يغير فعل الشرط بقيد الحال فيه، كما أن الحال هاهن (أي الجبروت، والكسل، والكرامة) غير مستقلة عن الفاعلين؛ إذ هي صفات طارئة فيهم.

وإلى ذلك يمكننا أن نعتبر الحال في الآيات الثلاث هو الجزاء في المعنى؛ أي: وإذا بطشتم تجزئتم، وإذا قاموا إلى الصلاة تكاسلوا، وإذا مروا باللغو كرموا نفوسهم عنه. وهذا بخلاف الحال في الآية المدروسة؛ فإنه لا يستقيم الكلام بتقديره جزاء، إذا قلنا: إذا جاؤوها جاؤوها وقد فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.

2 - الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 4 / 363-364.

الفصل الرابع: دلالات العدول بالحذف في التركيب الشرطي

ويشعر ذلك بتقدم الفتح على الجيء، كأن خزنة الجنات فتحو أبوابها ووقفوا منتظرين لهم احتراماً وإكراماً، على ما هو في العادة المعروفة في الدنيا.

وجواب "إِذَا" محذوف مقدر بعد "خالدين" للإيذان بأن لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما يقصر عنه البيان، ولا يحيط به نطاق العبارات، أي: فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم.¹

وفي الجدول التالي عرض مجمل لما تقدم من التقديرات المحتملة:

التقديرات المحتملة	الأداة وفعل الشرط	جواب الشرط المقدر	موقعه من الكلام	صفة الواو
1	...إذا جاءوها	سعدوا	بعد الفراغ من الكلام	عاطفة
2	= =	جاءوها وفتحت أبوابها	قبل الواو، وبتقدير "قد" بعدها.	حالية
3	= =	استقرُّوا أو خلدوا أو استووا	بعد الفراغ من الكلام	عاطفة
4	= =	أُذِنَ لهم في دخولها وفتحت أبوابها	بعد فعل الشرط	عاطفة
5	= =	دخلوها	بعد الفراغ من الكلام	عاطفة
6	= =	فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم	بعد الفراغ من الكلام	حالية

جدول 9: التقديرات المحتملة للمحذوف في آية 73 من سورة الزمر.

إن العدول الذي طرأ على هذه الآية، وهو حذف جواب "إذا" أدى إلى تعدد احتمالات الأجوبة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ التوبة: 59.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: ولو أنّ هؤلاء الذين يلمزونك - يا محمد - في الصدقات، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء، وقسم لهم من قسم، وقالوا حسبنا الله هو كافينا، سيعطينا الله من

فضل خزائنه، ورسوله من الصدقة وغيرها . وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من صلوات الناس والحاجة إليهم.¹

جملة جواب الشرط محذوفة. وبنيتها العميقة هي " لكان خيرا لهم " ولعل في ترك الوحدة الإسنادية الممثلة لجواب الشرط ، والاكتفاء بالجملة الفعلية التي للشرط مزيدا من توجيه العناية إلى الشرط.

من الأغراض التي يرمي إليها حذف الجواب، وهو متفق مع الخصوصية التركيبية لهذه الآية: توجيه العناية والاهتمام إلى ما في العبارة المذكورة، وكأنها معقد النكتة، ومركز الكلام، ومحمل المعنى المراد التنبيه إليه والعمل به. وفي هذه الآية ينبههم الله ويدعوهم إلى الرضا بما آتاهم الله ورسوله واثقين من رزق الله وفضله وقسمة رسوله، راغبين في أن يغنيهم الله عن الصدقات.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ النور:10.

هذه الآية مسبوقة بالملاعنة وذلك أن يقذف القاذف امرأته وليس له شاهد إلا نفسه. فيتلاعنان ويفرق القاضي بينهما.

يقول الطبري في تفسيره للآية إن الله تعالى ذكره يقول: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفصح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم وترك فضيحتكم بما عاجلا رحمة منه بكم، وتفضلا عليكم... وترك الجواب في ذلك، اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه.²

وبالإمكان تقدير المحذوف بقولنا: "هلكتكم، أو لم يبق لكم باقية، أولم يصلح أمركم..."، ونحوه من الوعيد الموجع، الذي لا يشكّل حذفه.

وقال الزجاج: "هاهنا جواب لولا متروك، والمعنى- والله أعلم- ولولا فضل الله عليكم لنال الكاذب عذاب عظيم، ويدل عليه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور:14.³

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 304/14.

2 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 115/19.

3- الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 33/4.

إن حذف الجواب عبارة عن كفاءة لغوية يوظفها المتكلم في كلامه، وفي نفس الوقت يعول على نباهة السامع في امتلاكه نفس الكفاءة، مقدرا فيه الاستطاعة على إدراك المحذوف من ثنايا المقام. وقد يتموقع الدليل على المحذوف بعيدا بعد الموضوع الذي هو محل الحذف، وهو حال الآية المدروسة.

2 - حذف الجواب استغناء عنه بجواب غيره:

الصورة 1: الاستغناء بجواب قسم مقدر

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 103.

أي: ولو أن اليهود آمنوا وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خير لهم من السحر وما اكتسبوه به، لو كانوا يعلمون ما يحصل بالإيمان والتقوى من الثواب والجزاء علما حقيقيا لآمنوا.

يقول السيوطي في الهمع: إذا وقع جواب "لو" في الظاهر جملة اسمية فهو جواب قسم محذوف مغن عن جوابها ولئس بجوابها.¹

كما يقول صاحب المغني: إن لام الجواب في الآية لام جواب لقسم محذوف وليست لام جواب "لو" بدليل كون الجملة اسمية، والاسمية قليلة من جواب "لو".² وجوابها مستغنى عنه بجواب القسم المقدر. ولتقدمه على الشرط، كان الجواب له. وأما جواب "لو" المحذوف فتقديره "لأثبوا".

وتكمن فائدة هذا الحذف في توكيد معنى جزاء "لو"، مع الحرص على توفير إيجاز الكلام. وربما كان هذا التوكيد حافزا للمخاطبين على أن يكفوا عن السحر والتكسب به، وأن يرجوا الثواب من الله متوسلين بالإيمان والتقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَعِنَّا لَمَنْ تَبِعُوا الْقِبْلَةَ الْأَيْمَنَ أَوْ تَبِعُوا الْقِبْلَةَ الْشَّرْقِيَّةَ﴾ البقرة: 145.

ولئن: اللام موطنة لقسم متقدم، أي والله لئن...، و"إن" شرطية، و"أتيت" فعل لشرط، و"ما تبعوا" جواب القسم، سد مسد جواب الشرط. ولو كانت جملة "ما تبعوا قبلك" هي جواب الشرط، لاقتربت بها الفاء لأنها مصدرية ب"ما" نحو قوله الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يونس:

.72

1 - السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، 2/ 474.

2 - مغني اللبيب، ابن هشام، 1/ 193.

والمعنى : ما يتبعون قبلتك على أي حال؛ لأن الشرط قيد في جملة الجواب. والشرط مستقبل، وفعله وإن كان ماضياً لفظاً فهو مستقبل معنى. والآية خير بصور أهل الكتاب فيما يكونون عليه من عناد إزاء دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة. وكان للحذف مزية الإيجاز الذي تحلت به العبارة مع ضمان امن الالتباس لما في جواب القسم من إغناء عن جواب الشرط.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّمْتُمْ لِمَنْ لَمْ يَغْفِرْهُ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ آل عمران: 157.

حذفت جملة جواب الشرط الاسمية، ودلت عليها جملة جواب القسم. وهي قوله تعالى: " لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " لأن الصدارة للقسم لا للشرط، ويظهر ذلك في بناء قوله تعالى على اللام الموطئة للقسم المقترنة بأداة الشرط، ثم المجيء بالجواب مقترنا بلام القسم المؤكدة للحكم الذي تضمنه الجزء، وهو وعد الله القتلى أو الأموات في سبيله، بأن لهم عند ربه ما هو خير من حطام الدنيا الذي يحرص المتخاذلون على جمعه متخلين عن الجهاد والموت في سبيله تعالى، ويكون الكلام بظاهره ومقدّره - في غير كلام الله - : " إن قتلتم في سبيل الله أو متمم فلکم مغفرة من الله وأجر خير مما يجمعون ". ومن حسنات هذا الحذف أنه مكن الجزء المقدر بأن يطعم معناه بشيء من التوكيد، وهو معنى لا يتناسب مع التعليق الشرطي في الأصل؛ لأنه يقتضي عدم الجزم بالوقوع فضلاً عن توكيده. كما لا يخفى ما في الحذف من إيجاز، وتخفيف المؤونة على المتكلم والسامع طالما أنّ اللبس مأمون بما في سياق المقال من ذكر لمضمون الجزء.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. ﴾ آل عمران: 81.

قرأ جمهور السبعة " لَمَا " بفتح اللام وتخفيف الميم. وعليه تكون:

ما: شرطية منصوبة على المفعول بالفعل بعدها، واللام قبلها موطئة للقسم، وجواب القسم

" لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ "، والقسم: هو أخذ الله ميثاق.

و" مِنْ "، في قوله: " من كتاب "، مثلها، في قوله: " ما ننسخ من آية " والفعل بعد " ما "، ماضٍ

معناه الاستقبال لتقدم، ما الشرطية عليه.

وقوله: "ثم جاءكم"، معطوف على الفعل بعد "ما"، فهو في حيز الشرط، و"لتؤمنن به..."، جواب للقسم الذي هو قوله "أخذ الله ميثاق النبيين".

وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، والضمير في "به"، عائد على: رسول. وهذا القول الذي يذهب إلى أنّ "ما"، شرطية هو قول الكسائي¹.

ولتقريب هذا التحليل نقدم هـ ضمن جدول بياني:

جواب القسم		جملة القسم		أسلوب القسم
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ (أي محمد صلى الله عليه وسلم)	لَ:الموطئة للقسم	أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: في معنى جملة القسم، والمقسم به ميثاق الله للنبيين		
جواب الشرط		اسم الشرط	فعل الشرط	أسلوب الشرط
محذوف، أغنى عنه جواب القسم. وتقديره: "آمنوا به وانصروه".		مَا	أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ	

الجدول 10: تقدير الجواب المحذوف في آية 81 من سورة آل عمران.

قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المائدة:

.73

إنّ معنى مجيء "إنّ" الشرطية بغير جزم الجواب، وبغير فاء، دليل على أنه قبل "إنّ" قسّم محذوف؛ إذ لولا نية القسم لقال: "يَمَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أو فسوف يمسّ...". وتكون هذه العبارة هي عبارة جواب الشرط، ولكن حذفت هذه العبارة لدلالة جواب القسم عليها، وفي ذلك إيجاز بالحذف يغني بالقليل من اللفظ عن الكثير من المعنى؛ جعل الجزاء ينصرف إلى أسلوبين متغايرين ومتداخلين يطلب كل منهما جواباً، فكان واحداً لهما معاً. وإن كان لا بد أن ينتسب الجزاء لأحدهما وينتظم في لفظه، ويغيب لفظاً من النظام النحوي للأسلوب الآخر.

1 _ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، .تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1993، /2 .532

الصورة 2: الاستغناء بجواب الشرط الآخر عن جواب الأول:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هود: 34.

جملة الشرط في قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، وجوابها في قوله: ﴿لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ هلم المقصود من الكلام، ولما كان نظم الكلام مبنياً على الإخبار بعدم نفع النصح اهتماماً بذلك، قدم الجواب، وحيء بالشرط قيده له. وأما قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ فهو شرط معترض بين الشرط وبين جوابه، لأنه ليس هو المقصود من التعليق ولكنه تعليق على تعليق.

أي إن قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ كل من الشرطين مقصود التعليق به. وقد حذف جواب الأول لدلالة جواب الآخر عليه.¹

والأصل الذي تقرره القاعدة أنه إذا توالى أداتان أو أكثر من أدوات الشرط، بغير اتصال مباشر (أي بغير عاطف)، فالجواب للأداة الأولى، ما لم تقم قرينة تعين غيرها. أما باقي الأدوات التالية فجوابه محذوف لدلالة جواب الأول عليه.²

وفي هذه الآية قامت القرينة المعنوية لتعين أن الجواب للشرط الثاني؛ لأن الجواب الذي هو انتفاء أن ينفعهم نصح نوح عليه السلام، ليس معلقاً بإرادته، لكن بمشيئة الله إن أراد بهم نفعاً أو ضراً، وهو نفسه قول الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: 272، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ القصص: 56.

الصورة 3: الاستغناء بجواب الشرط الأول عن جواب الآخر:

قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ... وَأَمْرًا مُمْنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأحزاب: 50.

أحل الله محمد صلى الله عليه وسلم ولأتمته الزواج من اللواتي ذكرتهن الآية، وأما المرأة المؤمنة التي وهبت نفسها للنبي بغير صداق ولا شهود ولا مهر، فقد أحلت له خاصة من دون سائر المؤمنين، إن أراد

1 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 62/12.

2 - عباس حسن، النحو الوافي، 488/4.

أن ينكحها فحلال له أن ينكحها. وليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير أمر ولي ولا مهر، إلا للنبي .
ويزعمون أنها نزلت في ميمونة بنت الحارث أنها التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم.¹

الشرط الأول ﴿ إِنَّ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ جوابه (إنا أحللناها لك)، والشرط الثاني ﴿ إِنَّ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ جوابه محذوف لدلالة جواب الأول عليه. قال الزمخشري: " فإن قلت : ما معنى الشرط الثاني مع الأول؟ قلت: هو تقييد له ، شرط في الإحلال هبتها نفسها ، و شرط في الهبة : إرادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها؛ لأنَّ إرادته هي قبول الهبة وما به تتم² . " ومن معنى العبارة أيضا -وهو مفهوم المخالفة- " وإن لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلزم - من مجرد هبتها نفسها له- ذلك الإحلال. "

ويحذف جواب الشرط الثاني توفر إيجاز الكلام القائم على بتر الجملة المعلومة لدى السامع، ويقوم هو بتقديرها ذاتيا. شرط أن يكون من النباهة والفظنة على قدر يؤهله لفهم الكلام ومعرفة خصائصه التركيبية، وبنيته العميقة.

الصورة 4: حذف الجواب لقدرة السياق على التلميح إليه.

وقال عز من قائل: ﴿ لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعْضٌ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الفتح:25.

وصف الرجال والنساء ، يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾ بدل اشتمال، كأنه قال : رجال غير معلومي الوطاء فتصيبكم منهم معرة عيب أو إثم، وذلك لأنكم ربما تقتلوهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الإثم ، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم، وقوله تعالى : ﴿ بَعْضٌ عِلْمٍ ﴾ قال الزمخشري : هو متعلق بقوله : ﴿ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾ يعني تطوهم بغير علم . وجواب "لولا" محذوف لدلالة الكلام عليه، وتقديره : لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم ، ويجوز أن يكون ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ كالتكرير لـ"لولا رجال مؤمنون" ، لمرجعهما إلى معنى واحد.³

وفي تفسير السمين الحلبي جاء أنّ جواب "لولا" فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أنّه محذوفٌ لدلالة جواب لو عليه، والتقدير: لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَعْضٌ

1 - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 286/20.

2 - الزمخشري، الكشاف، 82/5.

3 - الزمخشري، الكشاف، 547/5.

عَلِمَ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ... لَعَدَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ والثاني: أنه مذكور. وهو "لَعَدَّبْنَا"، وجواب "لو" هو المحذوف، لدلالة جواب الأول على الجواب الثاني. والثالث: أن "لَعَدَّبْنَا" جوابهما معاً وهو بعيد إن أُرِيَّ به حقيقة ذلك 1.

جواب لولا في التفسيرين أنه محذوف لوجود الدليل من السياق وهو عند الزمخشري في معنى واحد سواء كان: لما كفنا أيديكم عنهم، أو كان: لعذبنا الذين كفروا منهم، الشيء الذي دفعه إلى القول بان لولا ولو، يصيران في سياق الآية إلى معنى واحد. ولعله يقصد أن لولا هي في المعنى عبارة عن لو لم يكن، وهي بمعنى لو تزيل أو زال. والتقديران الأول والثاني، اللذان عرضهما السمين الحلبي لا يختلفان عن تقديري الزمخشري.

الصورة 5: تعدد أوجه الجواب المقدر، انطلاقاً مما يلي الشرط أو مما تلوح به نصوص القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ الانشقاق: 1.

في جواب "إذا" الشرطية أوجه عدة، ويستحسن عرض بضع آيات تالية للأولى، حتى يظهر الموضع الذي يُظن أنه جواب لـ"إذا": ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلَقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ الانشقاق: 1-9.

ذهب الزمخشري إلى أن جواب إذا حذف ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما صرح في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، وهو قوله تعالى: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ ﴾ التكوير: 14. وقوله: ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾ الانفطار: 5.²

وورد في تفسير القرطبي مجموعة من أوجه التقدير فذكر:

(1) أن الجواب فاء مضمرة كأنه قال: "إذا السماء انشقت" في أيها الإنسان إنك كادح.³

1 - السمين الحلبي، الدر المصون في كتاب الله المكنون، تج: أحمد محمد الخراط... 715/9.

2 - الزمخشري، الكشاف، 341/6.

3 - قد يكون السبب في اختيار أن يكون الجواب بادئاً من قوله: "يا أيها الإنسان..." هو على اعتبار أن جواب "إذا" موقعه بعد قوله: "وأذنت لربها وحقت" الأولى. ثم طال العهد دون ذكر الجواب، فاقضى هذا الطول أن يكرر قوله قوله: "وأذنت لربها وحقت" ليذكر بعده الجواب. وهذا التكرار هو مقتضى طول العهد الذي نراه في عدة مواضع من القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: 89. وفيه تكرار لأداة الشرط، ولفعله عن طريق الاختصار، ومن ثم الوصول السريع إلى جواب الشرط: "كفروا". ومن نحو تكرار

- 2) وأنه ما دل عليه " فملاقيه " أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه، وهو عمله من خير أو شر.
- 3) وذكر قول المبرد: إنها ليست شرطية، ولكن ظرفية. وفي الكلام تقديم وتأخير، أي: " لي أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت ".
- 4) وعنه أيضا- وعلى اعتبار أنها شرطية-: الجواب " فأما من أوتي كتابه بيمينه... "
- 5) وأنه " يا أيُّها الإنسان "، ولكن على إضمار القول، أي: " يقال: يا أيُّها الإنسان ".
- 6) وقيل: الجواب محذوف لعلم المخاطبين به، أي إذا كانت هذه الأشياء، علم المكذبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم.
- 7) وقيل: تقدم منهم سؤال عن وقت القيامة، فقيل لهم: إذا ظهرت أشرا طها كانت القيامة، فرأيتهم عاقبة تكذبيكم بها.

والقرآن كالأية الواحدة في دلالة البعض على البعض.¹

تعددت أوجه تقدير الجواب الذي تتطلبه "إذا". وكان أغلب التقديرات يمتد قريبا أو بعيدا فيما يلي آية الشرط. ومهما كان الجواب المقدر فلم يخرج من فلك الدلالة على أن الإنسان - بعد قيام الساعة- لا ينال إلا جزاء عقيدته وعمله في الدنيا إن خيرا وإن شرا.

ولكن نباهة البعض من المفسرين كالفراء والزحشري والقرطبي قد تتجاوز حدود السورة في تقدير جواب الشرط، لنجد الجواب في سورة أخرى أو في أكثر من سورة. وهذا الانفتاح فيما بين السور يؤكد فكرة أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويدعم بعضه بعضا دلاليا. كما يرسخ فكرة أنه كالتص الواحد المتناسق المنسجم، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء: 82.

ومن أهم ما ينتج عن هذا الحذف هو ما يفعله من تخفيف على أن تذهب أوهام السامعين كل مذهب، سالكة كل السبل الدلالية التي يطمئن عندها الذهن لاعتقاده في صوابها وتلاؤمها مع معنى الشرط، وتكون لها جميعا صفة الصواب والتوافق مع التقديرات الأخرى. والفضل يعود إلى أسلوب النظم

النهي قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران: 188.

القرآني الذي يجعل من الحذف جسرا إلى التنوع والغنى الدلالي، مع الإيجاز في صوغ العبارة، وحسن الملاءمة بين ما يقتضيه المقام والمقال.

وقال عز وجل: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الأنبياء: 39.

﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾، جوابها مقدّرٌ، وجاء محذوفاً لأجل أنه أبلغ في الوعيد. وقد راح المفسرون يقدرّون أجوبة متعددة، ولكن تتحد في تماشيها مع سياق الوعيد وملاءمتها لغرض واحد هو حمل العقول على النشاط والخوض في تصور ردة فعل هؤلاء الكافرين. فقدّره الزمخشري: "لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكنّ جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم". وقدّره ابن عطية: "لما استعجلوا". وقدّره الحوفي "لسارعوا". وقدّره غيرهم "لعلّموا صحة البعث".¹

إن أداة الشرط وفعلها "لو يعلم"، يدلان ابتداءً على أن العلم منتف، وأسند الفعل المنتفي إلى الذين كفروا. وفي هذه العبارة ما يدل على هجائهم لسفاهة أحلامهم، التي لا يتوصلون بها إلى الإيمان، كما تدل على أن إيمانهم بما يوعدون به لن يكون إلا حينما يشاهدون جزاءهم في النار بأعينهم، وهو حين لا ينفعهم فيه علمهم.

والإشارة إلى عدم علم الكافرين، يحمل المتلقي للعبارة القرآنية على التدبر في الآية، محاولا التوصل إلى ما قد يكون جواب الأداة "لو"، رابطا مضمون هذا الجواب بما يتلاءم مع نهاية الآية، وهي تلمح إلى ما سيتلقى الكافرون من عذاب الهون. واقتصرت هذه النهاية على الإشارة إلى العذاب الأليم، ولم تشر الآية إلى أنهم سيعلمون أن وعد الله حق، لأنه علم من قبيل تحصيل الحاصل، ولا يكون نافعا لهم في ذلك الحين.

وإذا حملت "لو" على أنها للتمني فإن جوابها يكون محذوفاً أصالة. ومع ذلك فإن هذا الطلب يقصد به حصول ما قدّر من الأجوبة المتعددة.

المطلب 6- حذف التركيب الشرطي بجميع عناصره:

يحذف في العربية الكلمة والكلام، وذلك إذا أمن اللبس بأن يتوفر السياق على القدرة التي تساعد على تقدير المحذوف؛ لأن الحذف ينتج عنه الاختصار، وهو مقتضى حال يوجبه مقام الاستفهام، فلا فائدة دلالية يجنيها المخاطب من وراء الذكر. وكما يتحقق الحذف على مستوى الكلمة الواحدة، يتحقق على مستوى التركيب الشرطي الأعقد من الجملة.

ولم أجد في المدونة القرآنية إلا هذا المثال، وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ الشعراء: 41-42.

أي قال السحرة لفرعون بعد أن أتوا إليه عن دعوة منه إليهم: "إن لنا عندك ثوبا إن نحن غلبنا موسى؟" فقال لهم: "نعم، لكم ذلك، وإنكم لمن أقربه وأدنيه مني."

دخلت همزة الاستفهام المراد به طلب التصديق على التركيب الشرطي: "إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين" والمراد به طلب التصديق على الجواب، ولما جاء جواب الفرعون بالإيجاب على الطلب وهو قوله: "نعم"، حذف من بعد حرف الجواب التركيب الشرطي برمته، لأن معنى الإيجاب تسلط على المحذوف. ثم أكد الجواب بما يزيد على مجرد الأجر، وهو أن يجازيهم بتقريبه إياهم منه.

ومن الواضح أن هذا الحذف أدى إلى إيجاز الكلام، لأن الإيجاز يشكل حاجة المخاطب في هذا المقام من التخاطب، ويزداد حسن هذا الإيجاز إذا علمنا أن المحذوف تركيب معقد هو التركيب الشرطي.

الفصل الخامس:

العدول بالاستبدال

والتقديم، والخروج من

المجازاة

المبحث 1- العدول بالاستبدال على كافة مستويات التركيب

المبحث 2- العدول بتقديم الجواب

المبحث 3- خروج الشرط والجواب من باب المجازاة

تمهيد

أقوم في هذا الفصل بجمع ثلاثة مباحث هي العدول بالاستبدال وبالتقديم من تأخير وبالخروج من باب المجازة. وليس هناك جامع بين هذه المباحث غير الرغبة في إقامة التوازن بين الفصول؛ لأن فصلي العدول بالزيادة والعدول بالحذف تطلبا كما كبيرا من الصفحات، وبقي من الدراسة استيفاء العدول بالأنماط الثلاثة المذكورة أعلاه. وهي أنماط بعضها حالته واحدة وإن تعددت أمثلته كالتقديم، وبعضها حالاته قليلة وكذا نماذجه كالخروج من باب المجازة، وبعضها كثير الحالات والنماذج وهو العدول بالاستبدال، غير أنه يمكن اختصاره.

نظرا لهذه الحقائق المتصلة بهذه الأنماط الثلاثة من العدول، رأيت أن يجمعها في فصل واحد، طلبا للتعادل الكمي بين الفصول.

المبحث الأول - العدول بالاستبدال

من الظواهر النحوية التي تطرأ على الحمل والتراكيب أن بعض مفرداتها المكونة لها يقف عندها المنشئ لأجل أن يختار أي المفردات أكثر تأدية للمعاني التي تختلج في صدره، وترجم قصده على أقوى ما يكون التعبير عن المقاصد، وعلى أقوى ما يكون التأثير في المخاطب.

ويشمل استبدال المفردات بعضها ببعض في التركيب الشرطي على مواطن عدة هي: استبدال أداة الشرط بأداة أخرى، واختيار فعل مختلف عن فعل الشرط المباشر، و نيابة الجزم وهو رابط صوتي للجواب بالشرط بالفاء، أو نيابة إذا الفجائية للفاء في بعض الأحيان، وإيقاع الجملة التي يجوز الابتداء بها موقع الجواب.

وقبل الشروع في تحليل النماذج المجسدة لهذا المبحث، يحسن بنا أن نعيد إلى الأذهان الفروق الفاصلة بين هاته المفاهيم اللغوية الثلاثة وهي الحذف والخروج من باب المجازة والاستبدال.

فالحذف عدم ذكر العنصر التكويني الذي يدخل في بنية التركيب الشرطي، مع تقديره حرصا على تمكين المخاطب من تصور البنية الكاملة لهذا التركيب، ومن ثمّ تقريب دلالاته إلى ذهنه.

والخروج من باب المجازة إجراء يتصل بالجانب الدلالي؛ إذ يلحظ المتلقي النبيه بأن هذا التركيب لا يدل على التعليق الشرطي الأصلي، ولكنه سيق لأغراض دلالية أخرى.

ولا ينفي هذا الإجراء أن تحافظ البنية النحوية على صورتها المعيارية، أو يطرأ عليها تغيير قليل أو كثير. وخروج المعاني العامة عن أبوابها، حقيقة مقررة في علم المعاني؛ فالخبر يخرج عن مقتضى ظاهره إلى الدلالة على الطلب، والطلب بأنواعه يخرج إلى الخبر¹. وهكذا أيضا يخرج التعليق الشرطي ظاهرا إلى معانٍ آخر، يساعد على تعيينها معرفة القرائن والسياقات المصاحبة.

والاستبدال هو أن يَجَلَّ محلّ العنصر التركيبي الأصلي، عنصراً غيره تختلف مواصفاته عن مواصفات وأحكام العنصر الأصلي من حيث المعنى، أو المعنى الوظيفي. وإذّاك قد يبقى التركيبي الشرطي محافظاً على معنى التعليق الشرطي، وقد يخرج عن باب الدلالة على المجازة.

والعناصر التكوينية للتركيب الشرطي التي يتناولها الاستبدال هي الأداة وفعل الشرط والرباط والجواب.

وفيما يأتي تحليل آيات يتم فيها الاستبدال على مستوى الأداة، ومن غير التفات إلى بقية العناصر:

1. استبدال الأداة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: 2-3. أي إنه من يقف عند حدود الله فلا يقربها ولا يتعداها، يجعل الله له طريقاً ميسوراً ينجيه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة.

استبدل في هذه الآية "إِنْ" الشرطية وهي أم هذا الباب بـ"مَنْ" التي وضعت في الأصل للدلالة على العاقل غالباً، وتضمنت معناها. كما أنّها لا تدل في الغالب على الزمن.

علقت الأداة "مَنْ" جَعَلَ المَخْرَجَ من العسر والحرّج، على تقوى الله. وجعلت الشرط سبباً والجزاء مسبباً مترتباً عليه. كما جعلت علاقة المضمونين ببعضهما مقصورة على عموم أولي العلم، ومن غير تحديد زمني. وهذا النوع من الارتباط يناسب وصف الله بالكرم غير المنقطع وفضله الدائم على أهل التقوى.

1 - ينظر على سبيل المثال: السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 56، وما بعدها.

وقال عز وعلا: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن: 11.

نابت أداة الشرط "من" عن "إن" فأضافت إلى معناها الوظيفي الدلالة على عموم العقلاء من الملائكة والثقلين. وهي مثل "إن" من حيث دلالتها على مطلق الزمان. ولو أن الخطاب بالإيمان كان موجهاً إلى عقلاء معينين للزم تحديدهم بالنداء أو الضمير، وبذلك يضيق نطاق الذين يغرون بالإيمان لأجل أن يهدي الله قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿ أَئِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ النساء: 78.

جاء التعبير القرآني بـ"أينما" وهي ظرف زيدت إليه "ما" لتفيده فضل توكيد وتعميم، فهي من صيغ العموم، تفيد عموم الأمكنة مثل حيث لكنها أعم منها.

إن الموت مصير يلقي الحى في أي مكان من الأرض، وليس له مكان مخصوص يلقيه فيه، كما أنه ليس له حال معين يأتيه فيه وهو عليه. وإدراك الموت للحى يختلف عن استقبال القبلة من أي مكان؛ لأن مكان الصلاة مخصوص بالطهارة وإن كان يوجد في أي بقعة في الأرض. ولذا يعبر تعالى عن عموم الأمكنة المخصوصة بالصلاة باستعمال "حيثما" لا "أينما" فقال: ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ البقرة: 144.

ومن المناسب في هذا الموضع الإشارة إلى أن "لو" الشرطية هي بديل لفظي ودلالي للأداة "إن" لأنها لا تفيد أن شرطها لم يقع، بل محتمل الوقوع، وفي حال وقوعه يكون الجواب محققاً، أي إن تكونوا في بروج محصنة يدرككم الموت ولا تحصنكم منه.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة: 116.

ضمير النصب في "قلته" عائد إلى الكلام المتقدم ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إلهين مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

فعل الشرط (وهو القول) تعيّن مضيقه، وتعلق به الجواب "فقد علمته"، فصار تعليقا لأمر مضى بآخر مثله في المضى. وبالتالي تخرج "إن" عن وظيفتها النحوية الأصلية إلى تأدية وظيفة تشبه وظيفة

حرف الشرط الامتناعي "لو"، من حيث أنّ التعليق بها يكون في الماضي. ويجمع بين شرط إن وجوابها مطلق التعليق، أو التعليق الشرطي الناقص.

وقال عز وجل: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ البقرة: 145.

في هذه الآية استخدمت "إن" نائبة عن "لو"، إذ أن شرطها لم يقع في الماضي، وقد علقت استمرار أهل الكتاب المتعنتين على عدم إتباع قبلة محمد صلى الله عليه وسلم على أي حال كان من محمد، أي سواء في ذلك لو هو أتاهم بما طلبوه من إثباتات أو لم يأت. كما أن "لو" هذه هي في معنى "لو" غير الامتناعية، وهي التي تدل على أن جوابها متحقق في حال اعتبار الشرط المذكور موجودا، وأن جوابها يكون متحققا من جهة أولى إذا كان عكس أو خلاف شرطها هو الموجود.

وربما استعملت "إن" نائبة عن "لو" في هذا الموضع؛ لأن الموقف اقتضى فضل توكيد بالقسم، ولم يتيسر للباحث أن عرف في لغة القرآن الكريم إدخال القسم على "لو" ومدخوليتها، وإن كان ذلك جاريا في لغة الاستعمال.

المطلب 2- استبدال فعل الشرط المضارع بالماضي:

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ النمل: 89.

الأصل في فعل الشرط الذي دخل عليه الجازم أنه يجزم، ويكون الجزم في سياق الشرط دليلا على عدم التحقق ودخولا في الفرض والشك. "وكلما كان معنى الشرط أقرب إلى التحقيق منه إلى الشك والإبهام كان استخدام الماضي أولى من استعمال المضارع"¹.

ورد فعل الشرط ماضي الصيغة ليناسب دلالة الثبوت والتحقق، ولم يرد مضارعا لما في هذه الصيغة من مناسبة لمعنى الشك ومجرد الإمكان. إن صيغة الماضي تتلاءم وكون المحسن يأتي بحسناته يوم الحساب ليجازى خيرا منها، وذلك مما ليس فيه شك. فكل البشر سيبعثون ويجازون عن أعمالهم إن خيرا وإن شرا.

المطلب 3- استبدال فعل الشرط، وجوابه:

1 - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الحنفي)، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 1987، ص 241.

قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** آل عمران: 160.

فعلا الشرط في "إِنْ يَنْصُرْكُمُ" - وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ " مستعملان استعمال الفعل في معنى إرادة الفعل، كقوله تعالى: **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** النحل: 98. أي: إذا أردت القراءة، وكقوله: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** المائدة: 6. أي: إذا أردتم القيام. فيكون المعنى فيهما "إن يرد الله لكم النصر- كما أراده يوم بدر-، وإن يرد الله لكم الخذلان - كما أراده لكم يوم أحد"؛ ووجب تقدير الإرادة لأنه لو لم نقل بقصدها، ما استقام جواب الشرط الأول وهو "فلا غالب لكم"؛ «إذ لا فائدة في ترتيب عدم العَلْبِ على حصول النصر بالفعل، ولا سيّما مع نفي الجنس في قوله "فلا غالب لكم"، لأنه يصير من الإخبار بالمعلوم كما تقول: "إن قمت فأنت لست بقاعد". وأما فعل الشرط الثاني وهو "وإن يخذلكم" فيقدر كذلك حملا على نظيره. وإن كان يستقيم المعنى بدون تأويل فيه¹، أي على معنى: وإن يخذلكم الله فلا ناصر لكم.

وأعتبر أنّ حمل محمد الطاهر بن عاشور الفعلين على معنى إرادتهما ليس مفيدا لم عن ذي بال لأن فعل الله وإرادة فعله سواء، إنه "إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

فعلا الشرط في "إِنْ يَنْصُرْكُمُ" - وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ " يحتمل أنهما مستعملان في معنى سببيهما، أي إن يمددكم الله بأسباب النصر، من إعانة لكم، ومنع عدوكم عنكم كما فعل يوم بدر، فإنه يترتب على ذلك أن لا يكون لكم غالب على الإطلاق. وإن يعدمكم معونته كما فعل يوم أحد، فإن جزاء ذلك أن ينتفي نصركم.

1) جعل الجواب جملة اسمية "فلا غالب لكم"، اسمها اسم "لا" النافية للجنس، دون أن يقول: "لا تُغلبوا". وفائدة هذا العدول من الجملة الفعلية إلى الاسمية تتمثل في التنصيص على التعميم في الجواب؛ لأن عموم ترتيب الجزاء على الشرط أعلي. فأريد بإفادة التعميم دفع التوهم الذي هو بعض المغالبيين، وبعبارة أخرى حتى لا يحتمل الجزاء معنى "لا تغلبوا من بعض المغالبيين".

2) ومما يجب الإشارة إليه أنّ جواب الشرط في الأول، جاء صريح النفي ولم يجرى في الثاني كذلك، والنكته في هذا العدول التلطف بالمؤمنين؛ حيث صرح لهم بأنه لا غالب لهم، ولم يصرح بأنه لا

1 - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 153/4.

ناصر لهم، وإن كان الكلام مفيداً له¹. وهذا النموذج يظهر لنا أن تحديد المعيار في الكلام يمكن أن يكون النسق التعبيري الذي سار عليه الكلام من ذي قبل، وبينما كان المتلقي يتوقع تكرار النسق وإذا بالمتكلم أو المنشئ يراوغ توقعه بقصد تحقيق قيم دلالية وجمالية، تستأثر بلب المتلقي وتستحوذ على مشاعره.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران:20.

1) من الخروج عن الأصل أنه عبر بصيغة الماضي المصحوب بـ"قد" الدالة على التحقيق، مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى، والخروج من الظلمة إلى النور.

2) وأما الجزء المذكور للشرط "تولوا" فهو قوله: "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ"، وليس هو بالجواب المباشر، وإنما هو قائم مقام الجواب، لما بينهما من علاقة العلية؛ حيث يكون تبليغه لرسالة ربه على أحسن وجه، علة لعدم إضرارهم له. ويكون تقدير الجواب على سبيل المثال: "لم يضررك، فإنك رسول منبئ عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى."²

ويُحتمل أن يكون جواب الشرط المباشر جواباً آخر مفهوماً من سياق الشرط والجزاء السابقين، المعطوف عليهما، أي: فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فقد ضلوا، وإنما عليك البلاغ.

وفي قوله: "فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ" الواقع موقع جواب الشرط، والذي هو في المعنى علة الجواب إيجازاً بديع، وسبيل إلى فسح المجال أمام قوة التخيل لدى السامع ليتصور المحذوف، ثم تأتي كل التقديرات التي يضعها مقبولة، متناسبة مع علة الجواب التي ذكرها الله جل وعلا. وهذه ميزة في أسلوب القرآن حيث يُمكنُ الحذف من تصور الكثير من الدلالات المختلفة في ذاتها، المنتظمة في سياق منطقي اجتماعي واحد. وبيان ذلك أن علة جواب الشرط المذكورة تنضوي تحتها مجموعة من المعلولات منها: فقد ضلوا، ولم يضررك، ولا تحزن فإنما عليك البلاغ.

1 - ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ج4/108.

2 - الكشف، الزمخشري، 440/1.

قال جل جلاله على لسان هايبيل المقتول في مخاطبة أخيه قابيل القاتل: لَنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ المائدة: 28.

1) في الآية عدول إلى اسمية جملة الجواب. والجملة الاسمية تحمل ثبوت نسبة المسند إلى المسند إليه، فإذا كانت الجملة الاسمية سلبية كما هو الحال في هذه الآية أفادت -بمعونة المقام- دوام انتفاء بسط اليد للقتل إلى المتكلم.

2) جاء الشرط بلفظ الفعل، وبديل الجزاء بلفظ اسم الفاعل، وهما قوله: لَنْ بَسَطْتُ - مَا أَنَا بِبَاسِطٍ. وذلك ليفيد أنه: ... لا يفعل (في أي وقت من الأوقات) ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع (وهو القتل)، ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي. ¹ ولم يقل: وما أنا بقاتل بل قال: بباسط، للتبرؤ عن مقدمات القتل فضلاً عنه.

وقدم الجار والمجرور المتعلق ب"بسطت" على المفعول به "يد"، وهي يد المبتدئ بالفعل (قابيل)، فقال: "لن بسطت لي يدك"، بينما أُخِّرَ الجار والمجرور المتعلق ب"باسط" على المفعول به "يد"، وهي يد المظلوم (هايبيل)، فقال: "ما أنا بباسط يدي إليك". ولعل فائدة ذلك التقديم هي تعجيل تذكير قابيل بالأخوة المانعة عن القتل، ليكون تقدير الكلام: لن بسطت إلى أخيك يدك لتقتله، ما هو بباسط يده إليك ليقتلك...

المطلب 4- استبدال الفاء بـ"إذا" الفجائية:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾
النور: 48.

أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه صلى الله عليه و سلم لا يحكم إلا بالحق. والجملة الشرطية شرح للتولي ومبالغة فيه حيث أفادت مفاجأتهم الإعراض عقب الدعوة دون الحكم عليهم مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاء من الدلالة على الثبوت والاستمرار على ما هو المشهور والتعبير بلفظ "بينهم" دون "عليهم" لأن المتعارف قول أحد المتخاصمين للآخر: اذهب معي إلى فلان ليحكم بيننا لا عليك وهو الطريق المنصف وقيل:

1 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1981، 11 / 212.

هذا الإعراض إذا اشتبه عليهم الأمر ولذا قال سبحانه : بينهم لا عليهم وفي ذلك زيادة في المبالغة في ذمهم.

وإن يكن لهم الحق أي لا عليهم كما يؤذن به تقديم الخبر يأتوا إليه أي إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.¹

ولما كان الشرط والجزاء متصلين بطبع المحدث عنهم وهو اليهود والمنافقون، فإنه يفهم من الأسلوب الشرطي معنى التكرار، فتكون بمنزلة "كلما".

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ الزخرف: 47.

أي فاجأهم الضحك منها أي استهزأوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.²

و"إذا" حرف مفاجأة نابت مناب الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب أي يدل على أن ما بعده حصل من غير ترقب فتفتتح به الجملة التي يفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة.

ووقعت الجملة التي فيها "إذا" جوابا لحرف "لما" وهي جملة اسمية و"لما" تقتضي أن يكون جوابها جملة فعلية لأن ما في "إذا" من معنى المفاجأة يقوم مقام الجملة الفعلية. ولذا قدرت جملة الجواب بـ "فاجأهم الضحك منها".³

قال جل جلاله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ التوبة: 58.

1) جاء رابط الجملة الجوابية بـ"إذا" الفجائية، لا بالفاء. ودلت على أن سخطهم أمر يفاجئ العاقل حين يشهده لأنه يكون في غير مظنة سخط، وشأن الأمور المفاجئة أن تكون غريبة في بابها.

1. روح المعاني، 8/195.

2. روح المعاني 18/369.

3. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 25/225.

(2) وجاء جواب الشرط الثاني مضارعاً مجزوماً (فإن لم يعطوا)، ولا يلزم منه أن يقارن الجواب الشرط أو يتعقبه، بل قد يجوز أن يتأخر نحو: إن أسلمت دخلت الجنة، فإنما يقتضي مطلق الترتب.¹ وكان يتوقع أن يأتي الشرط الثاني "سخطوا"؛ مراعاة لمجيء جواب الشرط الأول "رضوا"، لكنه جاء إذا الفجائية، فأفاد إذا لم يعطوا فاجأً سُخِطُهم، ولم يمكن تأخُّره، لما جبلوا عليه من حب الدنيا والشره في تحصيلها. والظاهرة العدولية الملحوظة في التركيب الشرطي الثاني دالة على أنه يمكن أن نعد سياق المقال معياراً للعدول.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن لِّتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن وَلَّيْن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: 7.

يقضي ظاهر السياق القبلي، أن يجيء جواب القسم الثاني "لأعذبنكم عذاباً شديداً" مراعاة لقوله في الجواب الأول "لأزيدنكم"، ولكنه عدل إلى قوله "إن عذابي لشديد" واستغنى به عنه. وفي هذا العدول فوائد:

- 1) أنه أعم وأوجز، والمعنى: إن عذابي لشديد لمن كفر فأنتم إذن منهم.
- 2) أنّ إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس.²
- 3) مجيء التركيب على ما عهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخير أسند إليه تعالى. وإذا ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال: لأزيدنكم، فنسب الزيادة إليه، وقال: إن عذابي لشديد، ولم يأت التعبير "لأعذبنكم".

قال عز وجل: ﴿يَخْلُقُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة: 96.

1 - ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 57/5.

2 - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 13/194.

(1) ورد الجزء جملة اسمية مؤكدة بـ"إن"، تبيّن وتؤكدك منها أن الله لا يرضى عن المنافقين، وفي ذلك كناية عن لوم وتحذير للمسلمين؛ إذ قد علموا أن ما لا يرضى الله، لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

(2) وقد عدل عن الإتيان بالضمير "هم" إلى التعبير بصفتهم وهي "الْفَاسِقِينَ". أي لم يقل: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ، وذلك العدول لأجل الدلالة على ذمهم بالفسق صراحة من جهة، وتعليل عدم الرضى عنهم من جهة أخرى. فالكلام المشكّل للجزء مشتمل على خبر وعلى دليله فأفاد مفاد كلامين لأنه بالتحليل يصير إلى: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.¹

ويقتضي لوم الله للمسلمين وتحذيرهم من الرضى عن المنافقين النهي عن الرضى عنهم والاعتزاز بمعاديرهم.

المطلب 5- استبدال فعل الجواب:

قال جل وعلا: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ آل عمران: 111.

جملة الجزء ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ كناية عن انهزام اليهود إذا قاتلوا المسلمين. وقد اختار التعبير القرآني بالكناية عادلا عن التصريح بفعل الجواب لما في التكنية من أداء معنى الفعل مع إقامة الشاهد الملموس عليه، وهي صورة تولية الأدبار التي يحكها محرك داخلي يجري في نفوس المنهزمين هو الهزيمة والخوف.

والمعطوف: "ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ"، فعل مضارع مرفوع، معدول به عن حكم الجزء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. ولذا جاء مرفوعا لا مجزوما. كما أنه ليس مرفوعا على تأويله جملة خبرية لمبتدأ تقديره "هم"، لئلا تكون جملة المبتدأ والخبر في محل جزم معطوفة على الجزء المجزوم "يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ".

1 - ينظر: المصدر نفسه، 10/11.

قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ. سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الزخرف: 81_82.

تقدم عن هاتين الآيتين ذكر الذين ظلموا بادعاء بنوة الملائكة ، وما توعدهم الله به من العذاب. وفي هاته الآية الواحدة والثمانين، أمر الله نبيه أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، وفيها ردّ على المشركين الذين عبدوا الملائكة، وكذا الذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى.

بعض المفسرين لا يرون في هذه القضية الشرطية أي خروج عن أصل الدلالة في الشرط والجزاء، ومنهم الفخر الرازي. فعنده أن القضية الشرطية لا تفيد إلا معنى الاستلزام، أي كون الشرط مستلزماً للجزاء، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً أو بكون الجزاء حقاً أو باطلاً، وبناء عليه يكون قوله تعالى: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل؛ لأن قولنا "كان للرحمن ولد باطل"، وقولنا "أنا أول العابدين لذلك الولد" باطل أيضاً، ومعنى "حقة" أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً، وإن كان كل واحد منهما باطلاً. ومثاله قولنا "إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين". فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، كما أن السلطان إذا كان له ولد وجب على عبده أن يخدمه وكذلك يجب عليه أن يخدم ولده. وسيق هذا التركيب على سبيل الإفحام والتبكيث.¹

والظاهر أن الفخر الرازي ينطلق من مسلمة أن الشرط باطل ليبنى عليه الجواب الباطل.

لكن الذي يراد من نبينا الكريم أن ينتقل من مقام تهديد الخصوم ووعيدهم، إلى مقام محاجتهم، واستدراجهم إلى نبد فكرة أن الله الولد بالدليل والإقناع العقلي.

ورأى البعض أن نظم هذا التركيب يعني: أنه لو يعلم رسول الله أن الله أبناء لكان أول من يعبدهم، أي أحق منهم بأن يعبدهم، لأنه ليس أقل فهما منهم من أن يعلم شيئاً ابنا لله ولا يعترف لذلك بالإلهية؛ لأن ابن الله يكون منسلاً من ذات إلهية فلا يكون إلا إلهاً، و هو يحلم أن الإله يستحق العبادة. فالدليل مركب من ملازمة شرطية والشرط فرضي يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلانه.

1 _ فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 1981، 27 / 231.

والنكتة في العدول عن الأداة الصريحة في الامتناع هنا إيهامهم في بادئ الأمر أن فرض الولد لله محل نظر، وليتأتى أن يكون نظم الكلام موجها حتى إذا تأملوه وحدوه ينفى أن يكون لله ولد بطريق المذهب الكلامي. ويدل لهذا ما روي في الكشاف أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله، فنزل قوله تعالى قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين. فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني، فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدون من أهل مكة.¹

كان في نظم الآية على هذا النحو إيجاز بديع، وإطماع للخصوم بما إن تأملوه استبان وجه الحق، فإن أعرضوا بعد ذلك عُدَّ إعراضهم نكوصا، مما يدل على تصديقه في قلوبهم ولكنهم يعاندون.

قال عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الملك:28.

جواب الشرط المباشر اللازم لدعائهم هو " لا تنتفعوا ولا تستريحوا بموت المؤمنين"، لأنهم كانوا يظنون أن هلكة محمد والذين معه تسبب لهم نفعاً وراحة، ودواماً لعقيدتهم وعزتهم اللتين يروغما مهددتين بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم. إلا أن هذا الجواب عدل عنه إلى عبارة الاستفهام الإنكاري الموضوع موضعاً، وهي: فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ أي إنه لا نفع ولا راحة لكم في ذلك، وإن العذاب الأليم غير منفكين منه، وأنه لازم لكم لثبوت موجه فيكم وهو علة الكفر.

والعبارة الجزائية الحالة محل الجزاء الأصلي انتظمت بأسلوب تشع منه بعض الدلالات الخفية، مثل الدعوة إلى نبذ الأصنام عبادة، واعتقاداً في نفعها، وفي إحارة عبدتها من عذاب الله، والدعوة إلى ترك الخوف من كبراء القوم واتباعهم في أمرهم. ومن ثم الدعوة إلى التفكير بجد في ما هو مُخْلِصٌ ومنقذ لهم من العذاب، ألا وهو توبتهم إلى الله، وإعمار قلوبهم بعقيدة التوحيد وبالإيمان بمحمد نبياً مرسلًا، وبالبعث يوم القيامة. وأن الدعاء على محمد صلى الله عليه وسلم أو على المؤمنين بالهلاك هو نفسه كفر، كما أن حبهم والدعاء لهم هو نفسه إيمان.

1 _ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 264/25، 265.

وعلى الإجمال، فقد اشتملت هذه الجملة الشرطية على خصائص تركيبية جعلتها حافلة بالمعاني الضمنية الكثيرة في الوعد والوعيد والأحكام. وذلك بلفظ يسير.

قال عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَدِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: 178.

وقوله: " فمن عفي له من أخيه شيء " أي ترك له دمه، ورضي منه بالدية " فاتباع بالمعروف " أي فعلى صاحب الدم إتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أي من غير مباطلة وتأخير عن الوقت " ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " أي أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم .

قال النحاس: " فمن عفي له " شرط، والجواب " فاتباع " . وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه إتباع بالمعروف.

ويجوز في غير القرآن " فاتباعا "، و " أداء " يجعلهما مصدرين¹.

وقوله: " فمن عفي له من أخيه شيء " أي ترك له دمه، في أحد التأويلات، ورضي منه بالدية " فاتباع بالمعروف " أي فعلى صاحب الدم إتباع بالمعروف في المطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان، أي من غير مباطلة وتأخير عن الوقت " ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " أي أن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم قال النحاس: " فمن عفي له " شرط والجواب، " فاتباع " وهو رفع بالابتداء، والتقدير فعليه إتباع بالمعروف.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: 97

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 2/255.

الاستبدال واقع في التعبير بمن المنصرف إلى اليهود، وفيها احتمال للإطلاق.

كيف استقام قوله : " فإنه نزله " جزاء للشرط؟ فيه وجهان : أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مصداقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم. والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصداقاً لكتابتهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقتهم لكتابتهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له.¹

وقوله " من كان عدوا لجبريل " شرط عام مراد به خاص وهم اليهود. قصد الإتيان بالشمول ليعلموا أن الله لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادي جبريل إن كان له معاد آخر وقد عرف اليهود في المدينة بأنهم أعداء جبريل ففي البخاري عن أنس بن مالك قال سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله وهو في أرض يخترق فأتى النبي فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي " فما أول أشراف الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال رسول الله أخبرني بهن جبريل أنفا قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة فإنهم أبغضوه لأنه يجيء بما فيه شدة وبالأمر بالقتال الحديث وفي سفر دانيال من كتبهم في الإصحاحين الثامن والتاسع ذكروا أن جبريل عبر لدانيال رؤيا وأنها وأنذره بخراب اورشليم. وذكر المفسرون أسبابا أخرى لبغضهم جبريل. ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله، ويبغضونه وهذا من أخط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة. ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام.

وقوله " فإنه نزله على قلبك بإذن الله . " والضمير المنصوب ب " نزله " عائد للقرآن إما لأنه تقدم في قوله " وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله " وإما لأن الفعل لا يصلح إلا له هنا على حد " حتى توارت بالحجاب " . و " فلولا إذا بلغت الحلقوم " .

وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط؛ لظهور أن المراد أن لا موجب لعداوته لأنه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن فهم بمعاداته إنما يعادون الله تعالى فالتقدير من كان عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاد الله تعالى. وهذا الوجه أحسن مما ذكره وأسعد بقوله تعالى بإذن الله وأظهر ارتباطا بقوله بعد من كان عدوا لله وملائكته كما ستعرفونه ويجوز أن يكون التقدير فإنه قد نزله عليك سواء أحبوه أم عادوه. ويجوز أن يكون المراد فإنه نزل به من عند الله مصداقا لكتابتهم وفيه هدى وبشرى وهذه حالة تقتضي محبة من

1. الزمخشري، الكشاف، 302/2.

جاء به فمن حمقهم ومكابرتهم عداوتهم لمن جاء به فالتقدير فقد خلع ريقه العقل أو حلية الإنصاف. والإتيان بحرف التوكيد في قوله " فإنه نزله " لأهم منكرون ذلك.

" فإنه نزله " : ليس هذا جواب الشرط لما تقرر في علم العربية أن اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه، فلو قلت : من يكرمني؟ فزيد قائم، لم يجز.

وقوله : " فإنه نزله على قلبك " ، ليس فيه ضمير يعود على من.

وقد صرح بأنه جزاء للشرط الزمخشري، إلا أنه لما كان لا يعود ضمير من جملة الجواب على اسم الشرط، ولمضي فعل التنزيل، فلا يصح أن تكون الجملة جزاء، وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه، التقدير: فعداوته لا وجه لها، أو ما أشبه هذا التقدير.

والضمير في فإنه عائد على جبريل، والضمير في نزله عائد على القرآن لدلالة المعنى عليه.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة 54

قوله تعالى: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ شرط وجوابه " فسوف... " .

وهذا من إعجاز القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم: إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيباً، فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته صلى الله عليه وسلم.¹

وجملة " فسوف يأتي الله بقوم " . الخ، جواب الشرط وقد حذف منها العائد على الشرط الاسمي. وهو وعد بأن هذا الدين لا يعدم أتباعاً برة مخلصين. ومعنى هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض وعن المنافقين وقلة الاكثراث بهم كقوله تعالى " لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا

1. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 219/6.

خبالاً " وتطمين الرسول والمؤمنين الحق بأن الله يعوضهم بالمرتدين خيراً منهم. فذلك هو المقصود من جواب الشرط فاستغني عنه بذكر ما يتضمنه حتى كان للشرط جوابان.¹

علق النص الكريم عزم الله على الإتيان بقوم يجهم ويجونه على ارتداد المحاطبين عن دينهم، وجعل المضمون الأول بمثابة السبب المقتضي لتحقيق المضمون الثاني. والأداة التي تم بها الربط الوظيفي الحالي هي "من" المتضمنة معنى "إن" وبذلك انحصر التعليق في نطاق العقلاء، مع احتمال الإطلاق الزمني، أي إن هذا التعليق لا يرتبط بزمن دون آخر.

وإجراء الاستبدال في هذا النموذج تناول عنصريين من التركيب هما الأداة والجواب.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة: 63.

" ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم " هذه الجملة تنزل من جملة " والله ورسوله أحق أن يرضوه " منزلة التعليل لأن العاقل لا يرضى لنفسه عملا يؤول به إلى مثل هذا العذاب فلا يقدم على ذلك إلا من لا يعلم أن من يحادد الله ورسوله يصير إلى هذا المصير السيئ.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتشيع لأن عدم علمهم بذلك محقق بضرورة أنهم كافرون بالرسول، ولكن لما كان عدم علمهم بذلك غريبا لوجود الدلائل المقتضية أنه مما يحق أن يعلموه كان حال عدم العلم به حالا منكرا. وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهم كقوله في هذه السورة " ألم يعلموا أن الله . والضمير المنصوب ب " أنه " ضمير الشأن وفسر الضمير بجملة " من يحادد الله " إلى آخرها.

والمعنى : ألم يعلموا شأننا عظيما هو من يحادد الله ورسوله له نار جهنم.

1 . محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 236/6

والفاء في "فأن له نار جهنم" لربط جواب شرط "من" وجيء بها لضعف الارتباط بين طرفي التركيب.

وأعيدت "أن" في الجواب لتوكيد "أن" المذكورة قبل الشرط توكيدا لفظيا فإنها لما دخلت على ضمير الشأن وكانت جملة الشرط وجوابه تفسيراً لضمير الشأن كان حكم "أن" سارياً في الجملتين بحيث لو لم تذكر في الجواب لعلم أن فيه معناها فلما ذكرت كان ذكرها توكيداً لها. ولا ضمير في الفصل بين التأكيد والمؤكد بجملة الشرط والفصل بين فاء الجواب ومدخولها بحرف إذ لا مانع من ذلك.

﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ ﴾ آل عمران: 167

الاستبدال في قوله نعلم بدل نقدر على...

في معركة أحد رجع عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه معه وهم ثلث الناس، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرصونهم على الإياب والقتال والمساعدة، فتعللوا قائلين: "لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ" قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً.

ثم قال: "يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" يعني: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: "لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ" فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، أنه كائن بينهم قتال لا محالة.

أو يكون المعنى أنهم أرادوا إننا لا نحسن القتال ولا نقدر عليه لأن العلم بالفعل الاختياري من لوازم القدرة عليه فعبّر بنفيه عن نفيها، ويحتمل أنهم جعلوا نفي علم القتال كناية عن أن ما هم فيه ليس قتالاً بناءً على نفي العلم بنفي المعلوم لأن القتال يستدعي التكافؤ من الجانبين مع رجاء مدافعة أو مغالبة ومتى لم يتحقق ذلك كان إلقاء الأنفس إلى التهلكة وقد كان رأي عبد الله بن سلول الإقامة في بالمدينة، وما كان يستصوب الخروج.

ومن الناس من جوز أن يكون المراد لو نعلم قتالاً في سبيل الله لاتبعناكم أو لو نعلم قتالاً معنا لاتبعناكم لكن ليس للمخالف معنا مضادة، ولا قصد له إلا معكم .

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التوبة: 39.

استبدل أسلوب الإيجاب بأسلوب السلب، تقوية لمعنى التهديد، ولم يقل: إن تنفروا يحسن الله إليكم.

في هذه الجملة القرآنية شرط تهديدي، يختلج القلوب من الصدور بناه على أداة الشرط "إن" الداخلة على الفعل المنفي "لا تنفروا". وأبرز لهم عاقبة الرغبة في عدم التفار: "إن لا تنفروا" حتى يتبين لهم ما إذا كانوا قادرين على تلقي ذلك الجزء المرعب الذي صرح لهم به: يعذبكم عذاباً أليماً... والنفي هنا على سبيل التنزيل، أي تنزيل المخاطب منزلة من يحسب أنه بتثاقله ضاراً دين الله عز وجل، وذلك إذا ما قلنا إن النفي لا يرد إلا على ما يصح إثباته فعلاً أو عقلاً، فلا يقال: لا تطلع الشمس ليلاً مثلاً لأنَّ طلوعها ليلاً غير محتمل تحققه فعلاً ولا عقلاً.¹

فالتصريح بما تترتب عليه المضرة أقوى في البعث من التصريح بما تترتب عليه المسرة حين تكون النفوس آنسة بما هو حبيب إليها من الدعة ولا سيما أنها قد أُعْرِيت بما هو العليُّ فلم تستقم، فأنت مفتقر إلى أن تنزعها منه إلى نقيضه المرعب، لا أن تنقلها مما هي فيه إلى ما هو أعلى منه من جنسه ولو تَوَهَّمُ أنها من جنسه، فإنها لم تستحب من قبل إلى ذلك الإغراء، فلا يبقى إلا التهديد بما يرهب ويرعب.

من أخلد إلى راحة دنية لا تنزعه منها بالإغراء إلى راحة سنية بل تنزعه منها بالتهديد والوعيد

1 - محمود توفيق محمد سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، شبين الكوم، الطبعة الأولى، 1422، ص 55.

ذلك وجه من وجوه الإتيان بأسلوب الشرط على هذا النهج : أدخل الأداة على الفعل المنفي "إن لاتنفروا" ولم يقل " إن تنفروا يدخلكم جنات...".

وهو لم يذكر لهم ما ينفرون إليه ؛لأن السياق قد قام بتعيينه، وهو النِّفَار إلى الجهاد في سبيل الله، والنِّفَار عن أرضهم وديارهم التي أحللت إليها نفوسهم الأمانة بالسوء.

والعذاب الذي هو المنع مما ينفع أو يمتع ليس مقصوداً وقوعه في الآخرة، وإن كان هذا كائناً في أعلى صور تحققه، ولكنه متحققة بعض صوره في الدنيا، فهو عذاب ممتد في الحياة الدنيا والآخرة.

في الآية معنى عظيم من التهديد الذي لا يطيقه من علم عظيم الإنعام عليه بصحبة سيد الخلائق أجمعين . صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، وكأنّ فيه من النكال فوق ما في قوله " يعذبكم عذاباً أليماً " فهو من تصعيد التهديد الآخذ بالنفوس، وهو. أي الاستبدال. من بابة التعذيب أيضاً؛ فإن منعهم من صحبته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هو من التعذيب الأليم.

وصيغة " يستفعل: يستبدل " غير دالة على الطلب، بل على تحقيق وقوع الفعل على كماله، فهذا من مسالك التوكيد لوقوع الجزاء إذا وقع الشرط، وهذا مما يزيد التهديد والوعيد تحقيقاً وإرهاها وإرعاباً.

والنفي هنا على سبيل التنزيل، أي تنزيل المخاطب منزلة من يحسب أنّه بتثاقله ضارّ دين الله عز وجلّ، وذلك إذا ما قلنا إن النفي لا يرد إلا على ما يصح إثباته فعلاً أو عقلاً .

ويمكن أن يقال : إن الضمير راجع إلى مضاف محذوف، فيكون تقدير الكلام: ولا تضروا دين الله شيئاً.

وجاء قوله : "والله على كلّ شيء قدير " تقريراً لتحقيق الجزاء المرتب على انتفاء نفارهم، وإذا ما كان الله تعالى على كلّ شيء قدير، فإِنَّه على ما توعد به وهدد أيضاً جُدُّ قدير.

المطلب 6- الاستبدال في عناصر التركيب الشرطي الثلاثة:

قال عز من قائل: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ العنكبوت: 5

هذا الكلام مسوق للمؤمنين خاصة لأنهم الذين يرجون لقاء الله، ولذا جاء التعبير القرآني بـ "من" بدل "إن" التي تفيد العموم والإطلاق.

ولقاء الله: الحشر للجزاء.

وأجل الله: الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب. والمقصود الاهتمام بالتحريض على الاستعداد للقاء الله.

وجعل فعل الشرط فعل الكون للدلالة على تمكن هذا الرجاء من فاعل فعل الشرط، 1 ولذا لم يقل: من يرجو لقاء الله، لعدم دلالة ببساطته على معنى تمكن الفعل من قلوب الفاعلين. ويصبح هذا الإجراء استبدالاً لفعل الرجاء بفعل الكينونة الممكنة لمعنى الفعل في قلوب المؤمنين.

ولهذا كان قوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ جواباً لقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ باعتبار دلالة على الجواب المقدر، أي فليستعد إلى لقاء أجل الله، فأجل الله آت. وبهذا التقدير يلتزم الربط بين مدلول جملة الشرط ومدلول جملة الجزاء. ولولا ذلك لاختل الربط بين الشرط والجزاء إذ يفضي إلى معنى من لم يكن يرجو لقاء الله فإن أجل الله غير آت. وهذا لا يستقيم في مجاري الكلام فلزم تقدير شيء من باب دلالة الاقتضاء وهو القول بالحث على الاستعداد للقاء الله.

ومختصر الاستبدالات هي كما يلي:

1. الأداة "من" في عوض "إن" لحصر الشرط في عقلاء مخصوصين.
2. فعل الشرط وهو الرجاء مستبدل بفعل الكينونة قصد تعميق وتمكين فعل الشرط.
3. والربط للجواب بالشرط حرف الفاء، لعدم مجيء لفظ الجزاء فعلاً.
4. وجواب الشرط المذكور هو العلة التي عوضت المعلول المتمثل في ما تقتضيه الدلالة.

قال عزّ وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: 24.

1) فعل الشرط والذي تلاه " لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا " كنايةان عن التحدي الذي وجهه الله إلى الكافرين، وقد تقدم التحدي قبل هذه الآية عند قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ البقرة: 23 والكناية أخصر من أن يقال: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَلَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ. كما أنها تنأى بالكلام عن عيب التكرار.

2) ولما كان امتناع معارضتهم القرآن سابقا في علم الله _ وهو سبحانه وتعالى اللطيف الخبير، كان المناسب في ذلك استعمال أداة اليقين "إذا"، لكنه خرج عن مقتضى الظاهر إلى "إِنْ" لمناسبة حال المخاطبين العُصاة المصيرين على العناد. ومسائرهم لأجل أن يستدرجهم إلى حال العجز الموجب للتصديق والتسليم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري: إنه ساق ذلك على حسب نيتهم وقصدهم، وأنهم كانوا يزعمون أنهم يقدرّون على معارضة القرآن، لانتكاهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام. وأضاف الزمخشري فائدة بلاغية أخرى لهذا الخروج، هي فهم معنى التهكم بهم، كقول الفارس التحرير لمن دونه: « إن غلبتك في كذا...»

وقوله: " ولن تفعلوا " جملة اعتراضية خبرية تقدم إعلاما غيبيا بعجز الإنس والجن عجزا مؤبدا عن معارضة القرآن.

3) وجواب الشرط مكثي عنه بقوله: "فاتقوا النار"، لما في صريحه من ذكر سلسلة طويلة من الأفعال المتتالية والمتعامدة، والتي يلزم من آخر عباراتها عبارة "فاتقوا النار"، وجميعها معلوم قد دل عليه السياق، وسلسلة الأفعال هي كما يلي: "فقد بُيِّنَ لكم العجز عن المعارضة، وصح عندكم صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم تنقادوا ولم تشايعوا، ولزمت العناد فقد استوجبتم العقاب بالنار، فاتركوا العناد. فوضع "فاتقوا النار" في موضع "فاتركوا العناد"؛ لأن اتقاء النار لصيقه ولازمه ترك العناد، من حيث إنه من نتائجه. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته: الإيجاز، الذي هو حلية القرآن، وتهويل شأن العناد، بإنبابة اتقاء النار منابه، وإبرازه في صورته.¹

ويمكننا تمثيل البنية النحوية لهذه الآية بالجدول التالي:

1 _ ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري، 1/ 223- 224.

		اتجاه الجدول	
	←	أداة الشرط الظاهرة	الأداة
	إِنْ	أداة الشرط المقتضاة	
	إِذَا	الشرط الظاهر	الشرط
	لم تفعلوا (+ لن تفعلوا)	الشرط المقدر	
	لم تأتوا بسورة من مثله	الجواب الظاهر	المجاز
	"فَاتَّقُوا النَّارَ..."	الجواب المقدر	
	"فقد بُيِّنَ لكم العجز عن المعارضة، وصح عندكم صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم تنقادوا ولم تشايعوا، ولزمتهم العناد فقد استوجبتم العقاب بالنار، "فاتركوا العناد".	ملزوم الجواب المقدر	
	"فاتركوا العناد".	لازمه وضميمه	
	"فَاتَّقُوا النَّارَ".		

الجدول 11: مواقع الاستبدال في آية 24 من سورة البقرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ آل عمران: 28.

أي: من يرتكب ما نهى الله عنه في هذا فقد برئ من الله كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ﴾ إلى أن قال: " وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ الممتحنة : 1، وقال تعالى - بعد ذكر موالاته المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال : 73.

وقوله: "إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً" أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ".

"وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ" أي ذلك الاتخاذ. وجاء التعبير عنه بالفعل كما قال شيخ الإسلام للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره، و"مَنْ" شرطية بديلة من "إِنْ" تفيد عموم العقلاء المخصوصين وهم المؤمنون. و"يَفْعَلْ" فعل الشرط، وجوابه. "فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ" والكلام على حذف مضاف أي من ولايته، أو من دينه، والظرف، وتنوين "شيء" للتحقير أي ليس في شيء يصح أن يطلق عليه اسم الولاية أو الدين لأن موالاة المتضادين مما لا تكاد تدخل خيمة الوقوع.¹

وكلما كان الاستبدال في الرابط فهو في نفس الوقت في فعل الجواب، ويكون الرابط الفاء كما يكون الجواب واحدة من الجمل التي يصح الابتداء بها؛ لأن الفاء عوض عن صوت الجزم الذي وظيفته النحوية الربط بين جملي الجواب والشرط.

قال تبارك و تعالی: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
آل عمران: 94.

"فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ" أي اخترع ذلك بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأمهم قبل نزول التوراة. ف"مَنْ" عبارة عن أولئك اليهود، ويحتمل أن تكون عامة ويدخلون حينئذٍ دخولاً أولياً، و"مَنْ" يجوز أن تكون شرطية وأن تكون موصولة وقد روعي لفظها ومعناها.

"مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ" أي أمرهم بما ذكر وما يترتب عليه من قيام الحجّة وظهور البينة.

"فَأُولَئِكَ" أي المفترون المبعدون عن عز القرب "هُمُ الظالمون" لأنفسهم بفعل ما أوجب العقاب عليهم، وقيل: هم الظالمون لأنفسهم بذلك ولأشياءهم بإضلالهم لهم بسبب إصرارهم على الباطل وعدم تصديقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما قيد بالبعدية مع أنه يستحق الوعيد بالكذب على الله تعالى في كل وقت وفي كل حال للدلالة على كمال القبح، وقيل: لبيان أنه إنما

1. تفسير ابن كثير، 2 / 30. وتفسير الألوسي، 2 / 478.

يؤاخذ به بعد إقامة الحجة عليه ومن كذب فيما ليس بمحجوج فيه فهو بمنزلة الصبي الذي لا يستحق الوعيد بكذبه.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي في أن الأكل إنفاق مما يجب لكن على نفسه وإلى ذلك أشار علي بن عيسى، وقيل: إنه لما تقدم محاجتهم في ملة إبراهيم عليه السلام وكان مما أنكروا على نبينا صلى الله عليه وسلم أكل لحوم الإبل وادعوا أنه خلاف ملة إبراهيم ناسب أن يذكر رد دعواهم ذلك عقيب تلك المحاجة.

قال الله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: 76.

سبق حرف الجواب "بلى" الجملة الشرطية. ليكون الرد على أهل الكتاب بإيجاب وإثبات ما نفوه كذبا على الله لما قالوا: ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران: 76. ثم تأتي الجملة الشرطية مستأنفة مقررة للجملة التي سدد مسددا حرف الجواب "بلى" ¹

من: ظاهر النص يصرف دلالتها إلى عقلاء مخصوصين هم أهل الكتاب، ويحتمل النص أن تعم دلالتها فتشمل كل إنسان.

الشرط: هو مجموع معنى الفعلين "أوفى و اتقى" أي أوفى بعهده بالإيمان بمحمد ﷺ و نصره، واتقى محارم الله، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله. والعدول بالعطف على فعل الشرك بفعل لآخر يأزره في المعنى، يؤدي إلى تعقيد الشرط، ويجعل الجزاء مستحقا بتحقيق الفعلين معا بدون تخلف أي منهما، ويضيق من احتمال وقوع الجزاء. الشيء الذي يدل على أن الجواب عزيز التحقق، ولا يناله إلا من كان مؤمنا أوفى للعهد، واتقى محارم الله.

1 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 47/2.

و جزم الشرط على المحل لأنه ماض، أما معناه النحوي فهو الزمن المطلق. لأن النص موجه في عمومه إلى الإنسان منذ أن أبرم العقد مع الله على الإيمان بمحمد ﷺ ونصرة دينه، ليجازى بحب الله إياه.

الرابط: الفاء وهي قرينة لفظية للمجازة بما لا يصلح أن يكون شرطاً، و يصح الابتداء به.

وقد قطعت الفاء قدرة اسم الشرط على التأثير زمنياً في الجزاء. وأصبح من الضروري استخلاص الزمن من خواص جملة الجزاء نفسها. وجاء الجزاء جملة اسمية، فأفادت ثبوت معنى المسند أي محبة المتقين، إلى المسند إليه أي الله " وهو الفاعل في المعنى " .

وعموم المتقين قام مقام رجوع الضمير.

ومن بلاغة هذه الآية دلالتها على معنى آخر يستدل عليه بمفهوم المخالفة وهو نفي محبة الله عن ضد المذكور "غير جنس الموصوف بالتقوى"، ومن ثم لا يسع العاقل إلا المسارعة إلى ما يجلب محبة الله له.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفرقان: 68 – 70

من: يراد به الفاعلون للآثام.

" ومن يفعل ذلك " يظهر أن إشارة إلى المجموع من ادعاء إله وقتل النفس بغير حق والزنا، فيكون التضعيف مرتباً على مجموع هذه المعاصي، ولا يلزم ذلك التضعيف على كل واحد منها.

ولا شك أن عذاب الكفار يتفاوت بحسب جرائمهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ " آل عمران: 28.

الاستبدال في من.

وفي الجواب الذي ورد جملة اسمية منسوخة بليس.

نهى الله المؤمنين بعد ما بين لهم بغى المخالفين وإعراضهم أن يتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين ؛ لأن اتخاذهم أولياء بعد أن سفه الآخرون دينهم وسفهاوا أحلامهم في اتباعه يعد ضعفا في الدين وتصويبا للمعتدين.

وقد يكون المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدين : مثل المراد من قوله " ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب " فلذلك كله قيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وكان من أفاضل المهاجرين وخلص المؤمنين إلا أنه تأول فكتب كتابا إلى قريش يعلمهم بتجهز النبي صلى الله عليه و سلم لفتح مكة. وقيل : نزلت في أسماء ابنة أبي بكر لما استفتت رسول الله صلى الله عليه و سلم في بر والدتها وصلتها أي قبل أن تجيء أمها إلى المدينة رغبة ؛ فإنه ثبتت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لها : صلي أملك. وقوله " من دون المؤمنين " من " لتأكيد الظرفية.¹

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ آل عمران: 19.

وهذا تهديد، وفيه وجهان : الأول : المعنى فإنه سيصير إلى الله تعالى سريعا فيحاسبه أي يجزيه على كفره . والثاني : أن الله تعالى سيعلمه بأعماله ومعاصيه وأنواع كفره بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال.²

من : اسم شرط للعاقل . والشرط : يكفر، وتقيد بالجار والمجرور، وفي التقيد تحديد لجهة الفعل . وصرفه الشرط إلى الاستقبال . والربط : فاء الجواب .

الجزاء : هو الجملة الاسمية " إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " وهي قائمة مقام الجواب، وعلته له وليست الجواب المباشر للشرط، أي ومن يكفر بآياته فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب فإنه سريع الحساب...، وإظهار لفظ الجلالة لزيادة المهابة وإدخال الروعة.³ وغرض الخبر هو التهديد.

1 . محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 1 / 739.

2 - تفسير الرازي، 4 / 148.

3 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 2 / 16.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ فَلَنُيَضِرَنَّ اللَّهُ شَيْئًا﴾ آل عمران: 144.

الواو: عاطفة أو استئنافية. أداة الشرط هي من، ووظيفتها النحوية التعليق والربط الشرطيين.
فعل الشرط: مضارع مبني للمعلوم مجزوم اقتضاء لمن. ويشكل مع متعلقه كناية عن الارتداد، وهو الرجوع إلى الكفر.

الرباط : فاء الجواب، و الجواب مصدر بالنفي ب " لن " ، التي تتولى تعيين الجهة الزمنية للجواب وهو الاستقبال.

الجواب: و هو نفي الإضرار بالله شيئاً من الضر ولو قليلاً.

و المقصود من الآية التحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد وقعت الردة فعلاً بعد وفاته، و لكن الله هدى المرتدين بعد ذلك. والآية فيها إنباء بالمستقبل.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ التوبة: 40.

جملة شرط بنيت على "إن" التي هي أم أدوات الشرط.

فهذه الأداة "إن" دخلت على فعل منفي، فأدغمت " النون " في "لام" "لا" النافية، ومجيء النفي ب"لا".

وجواب الشرط محذوف تقديره إلا تنصروه فسينصره الله تعالى جدُّه . وأقيم مقام الجواب المحذوف دليله " فقد نصره الله. "

ولما أقام " قد نصره الله " مقام "سينصره" دلَّ ذلك على كمال تحقق نصر الله تعالى له، فكان فيه جمع من الدلائل على تحقق نصر الله تعالى له : " قد " و الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة " الله " فإسناد الفعل إليه تعالى جدُّه يحمل إلى قلب المسلم فيضاً من اليقين بتحقيق ما أسند إلى اسمه جلَّ جلاله.

وفي هذا عظيم إيناس لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعصمة قلبه من أن ينشغل بتصرفات أحد من الخلق، فلا يتطلع إلى إقبال أحد أو انصرافه إلا بمقدار إشفاقه عليه لا خوفه على دين الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: 97.

" وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " يحتمل أن يراد بمن كفر من لم يحج. وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه. قال صلى الله عليه وسلم: " من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حالة شاء يهودياً أو نصرانياً ".

و " من " تحتل أن تكون شرطية وهو الظاهر وأن تكون موصولة، وعلى الاحتمالين استغنى فيما بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمرة إذ الأصل فإن الله غني عنهم. ويجوز أن يبقى الجمع على عمومه ويكتفى عن الضمير الرابط بدخول المذكورين فيه دخولاً أولياً والاستغناء في هذا المقام كناية عن السخط على ما قيل، ولهذا صح جعله جزءاً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران: 92.

كلمة الشرط هي "ما" وهي اسم موضوع لغير العاقل. وقد تضمن معنى "إن" فعلق مجازة الله تعالى على الأعمال متساوياً مع نوعية وكمية العمل الذي قدمه المخاطبون.

وجاء الجواب على وجهين :

الأول: أن فيه معنى الجزاء تقديره: وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه، فجعل كونه عالماً بذلك الإنفاق كناية عن إعطاء الثواب، والتعريض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح.

والثاني: أن الله تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه هو الإخلاص أو الرياء، ويعلم أنهم ينفقون الأحب الأجود، أم الأخص الأزدل. «¹ وأما تقديم الجارّ والمجرور على متعلقه " به عَلِيمٌ " فلرعاية الفواصل. و ينصرف الغرض الأدبي لهذا الأسلوب إلى الترغيب في إنفاق الجيد والتحذير من إنفاق الرديء، مع إخلاص النوايا في الإنفاق.

قال الله تعالى: ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ النساء : 78.

أي : أينما تكونوا في السفر أو في الحضر يدرككم الموت لأن الأجل مقدر فلا يمنع عنه عدم الخروج إلى القتال، وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم لشدة تباعدهم عن أسباب الموت وقرب وقت حلوله إليهم بمر الأنفاس والآفات كأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم لا يفتر نفساً واحداً في التوجه إليهم.

وقرئ " يُدْرِكُكُمْ " بالرفع، واختلف في تخريجه فقيل : إنه على حذف الفاء كما في قوله على ما أنشده سيبويه :

من يفعل الحسنات الله يشكرها... والشر بالشر عند الله (مثلان)

وظاهر كلام «الكشاف» الاكتفاء بتقدير الفاء، وقدر بعضهم مبتدأ معها أي فأنتم يدرككم.

وقيل : هو مؤخر من تقديم، وجواب الشرط محذوف أي يدرككم الموت أينما تكونوا.

ويمتنع أن يكون ما في الآية جزءاً لما ذكر سيبويه أن النية في المرفوع التقديم ويكون إذ ذاك دليلاً على الجواب لا نفس الجواب.²

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة:

.115

1- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت : 289/8.

2- روح المعاني، 3/ 128.

" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ " أي الناحيتان المعلومتان المجاورتان لنقطة تطلع منها الشمس وتغرب، وكفى بمالكيتهما عن مالكية كل الأرض، وقال بعضهم: إذا كانت الأرض كروية يكون كل مشرق مغرباً بالنسبة للأرض كلها.

" فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا " أي ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة، فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ " أي فهناك جهته سبحانه التي أمرتم بها، فإذاً مكان التولية لا يختص بمسجد دون مسجد ولا مكان دون آخر " فَأَيُّنَمَا " ظرف لازم الظرفية متضمن لمعنى الشرط. والتولية بمعنى الصرف منزل منزلة اللازم، و " ثم " اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبني على الفتح وهو خبر مقدم، وما بعده مبتدأ مؤخر، والجمله جواب الشرط والوجه الجهة كالوزن والزنة. والوجه بمعنى الذات مثله في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ القصص: 88، أو بمعنى الجاه، ويؤول إلى الجلال والعظمة، والجمله الشرطية على هذا اعتراض لتسليية قلوب المؤمنين بحل الذكر والصلاة في جميع الأرض لا في المساجد خاصة.¹

والأداة الشرطية في الآية قامت بمجرد التعبير عن التلازم بين تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب ووجود وجه الله في كل مكان.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ البقرة: 103.

" لَمَثُوبَةٌ " الثواب، وهي جواب " ولو أنهم آمنوا " عند قوم.

وقال الأخفش سعيد: ليس ل " لو " هنا جواب في اللفظ ولكن في المعنى، والمعنى لأتبيوا.

وموضع " أن " من قوله: " ولو أنهم " موضع رفع، أي لو وقع إيمانهم، لان " لو " لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، لأنها بمنزلة حروف الشرط إذ كان لا بدله من جواب، و " أن " يليه فعل.

قال محمد بن يزيد: وإنما لم يجاز ب " لو " لان سبيل حروف المجازة كلها أن تقلب الماضي إلى معنى المستقبل، فلما لم يكن هذا في " لو " لم يجز أن يجازى بها.

النص الكريم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ فَادُّوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ "آل عمران. 106"

المعنى الإجمالي المتقدم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

حرف الشرط: أما، وقال سيبويه في تفسر معناه « مهما يكن شيء » فيقوم مقام اسم الشرط
وفعل الشرط المحذوف. كما ترافقه الدلالة على التفصيل و التوكيد.

الشرط: محذوف مقدر.

الرابط: الفاء، وقد زحلققت إلى ما بعد الاسم الموالي لحرف الشرط "أما" لئلا يلتقي حرفان.
غير أنها حذفت.

الجزء: لا بد ل أما من الفاء في جوابها، ولما كان جوابها القول الذي سقط، سقطت معه الفاء،
والمعنى فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم¹، وإنما حسن الحذف للدلالة
الكلام عليه وهو الاستفهام.

وغرض الكلام الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر، ببيان مصير الكافرين.

قوله تعالى: "فأما الذين اسودت وجوههم" في الكلام حذف، أي فيقال لهم "أكفرتم بعد
إيمانكم" ويقال: هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا
به.

ويقال هذا للمنافقين: أكفرتم في السر بعد إقراركم في العلانية.

وأجمع أهل العربية على أنه لا بد من الفاء في جواب "أما" لان المعنى في قولك: "أما زيد
فمنطلق، مهما يكن من شيء فزيد منطلق".

وقوله تعالى: "وأما الذين ابيضت وجوههم" هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده...

1 - الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، 3، 1980: 228 / 2.

" فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ " تفصيل لأحوال الفريقين وابتدأ بحال الذين اسودت وجوههم لمجاورته " وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ " وليكون الابتداء والاختتام بما يسر الطبع ويشرح الصدر.

" أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ " على إرادة القول المقرون بالفاء أي فيقال لهم ذلك، وحذف القول واستتباع الفاء له في الحذف أكثر من أن يحصى، وإنما الممنوع حذفها وحدها في جواب أما، والاستفهام للتوبيخ والتعجيب من حالهم، والكلام حكاية لما يقال لهم...

فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ الفجر:

.15

فأما: تفسير معناها مهما يكن من شيء.

قوله: " فَأَمَّا الْإِنْسَانُ " : مبتدأ، وخبره: الجملة من قوله: " فيقول "، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ البقرة: 26، والظرف حينئذٍ منصوب بالخبر؛ لأنه في نية التأخير، ولا يمنع الفاء من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ ﴾ الواقعة: 88-93.

حدث استبدال أداة الشرط. واستبدال جواب الشرط.

ذكر الله طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم.

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما أن يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: " فَأَمَّا إِنْ كَانَ " أي: المحتضر، " مِنَ الْمُقَرَّبِينَ " وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، " فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ " أي: فلهم روح

وريجان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت . وجواب "إن" عند المبرد محذوف، والتقدير مهما يكن من شيء "فسلام لك من أصحاب اليمين" إن كان من أصحاب اليمين "فسلام لك من أصحاب اليمين" فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت، لدلالة ما تقدم عليه.

ومذهب الأحفش أن الفاء جواب "أما" و "إن"، ومعنى ذلك أن الفاء جواب "أما" وقد سدت مسد جواب "إن" على التقدير المتقدم، والفاء جواب لهما على هذا الحد.¹

"فَرَوْحٌ" أي فله روح على أنه مبتدأ خبره محذوف مقدم عليه لأنه نكرة، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أي فجزاؤه روح أي استراحة، والفاء واقعة في جواب أما، وتقدير هذا الكلام مهما يكن من شيء فروح... الخ إن كان من المقربين فحذف مهما يكن من شيء، وأقيم "أما" مقامه ولم يحسن أن يلي الفاء "أما"، فأوقع الفصل بين أما والفاء بقوله سبحانه: "إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ" لتحسين اللفظ، والفاء في "فَرَوْحٌ" وأخويه جواب "أما" دون "إن"، فاستغنى بجواب "أما" عن جوابها.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ:39.

وما أنفقتم من شيء يحتمل أن تكون ما شرطية في موضع نصب بـ"أنفقتم"، وقوله تعالى "فهو يخلفه" جواب الشرط، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي في موضع رفع بالابتداء والجملة بعد خبره، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ومن شيء تبين على الاحتمالين ومعنى يخلفه يعطي بدله وما يقوم مقامه عوضا عنه وذلك إما في الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى كما قيل وإما في الآخرة.

وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط ويجعل جملة الجواب اسمية وتقدم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله "فهو يخلفه" ففي هذا الوعد ثلاثة مؤكدات دالة على مزيد العناية بتحقيقه.

1. القرطبي، تفسير القرطبي، 232/17.

قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْنُوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: 20.

أي كلما ظهر لهم دليل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وظهرت لهم علاماته مالوا إليه، وإذا أظلم عليهم، أي إذا أصاب المسلمين محنة، كما أصابتهم يوم أحد قاموا، أي ثبتوا على كفرهم.

أفادت "كلما" عموم واستغراق حالات الإضاءة، كما تفيد أن مضمون الجواب يتكرر حدوثه بتكرر فعل الشرط.

وهي تفيد التكرار الزمني كما صرح به الأصوليون وذهب إليه بعض النحاة واللغويين، بناء على ما في لفظ "كل" من معنى العموم والاستغراق، وما في لفظ "ما" من معنى الظرفية الزمانية.

واستفادت "إذا" معنى التكرار من عطفها على "كلما". ويصير المعنى: وكلما أظلم عليهم قاموا. وبهذا تكون "إذا" قد ضمنت معنى "كلما" بتوجيه من السياق. أي أنّ تكرار الإضاءة يَسْتَلْزِمُ تَكَرُّرَ الإِظْلَامِ فكان تنويع الكلام أعذب. ولم يختار التعبير القرآني "إن" في مكان "إذا" لما في الأخيرة من معنى التحقق واليقين والظرفية الزمنية الذي تحمله "كلما" أيضا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود: 74.

أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوف، وجاءته البشيرة بإسحاق ويعقوب، "يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ" فيه إضمار، أي: أخذ وظلّ يجادلنا. وبناء على اعتبار الجواب قد أضمر فيه فعل الشروع "أخذ أو ظل، فإن التركيب الشرطي المصدر بـ"لما" يكون قد جرى على ما هو غالب فيه من تطلب "لما" جملتين فعليتين فعلهما ماض لفظا ومعنى.

وقيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربه عز وجل إنما يسأله ويطلب إليه.

وقال عامة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرايتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أهلكوهم؟ قالوا: لا قال: أو أربعون؟ قالوا: لا قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا حتى بلغ خمسة، قالوا: لا. قال: أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أهلكونها؟ قالوا: لا قال

إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.¹

قد يكون "مجادلنا" جواب لما، وكان الظاهر "جادلنا" إلا أنه عبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية واستحضار صورتها. نحو استعمال المضارع في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ فاطر:9.

وقيل: هذه الجملة في موضع الحال من فاعله أي "مجادلا لنا"، وجواب "لما" محذوف تقديره: "قلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا."

والعلاقة بين الجواب والشرط علاقة زمنية، تفيد أن جوابها وجب عند وجوب شرطها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف:55.

الاستبدال قائم في "لما" التي بمعنى "إن" على سبيل التعليق السببي، وليس على سبيل التعليق الشرطي الذي هو مناط بالاستقبال.

في قوله " فلما آسفونا " إيجاز لأن كونهم مؤسفين لم يتقدم له ذكر حتى يبنى أنه كان سببا للانتقام منهم فدل إناطة أداة التوقيت به على أنه قد حصل والتقدير: فآسفونا فلما آسفونا انتقمنا منهم.

ولما كانت "لما" ظرفا رابطا لجملتين على سبيل وجود وتحقيق مضمون الثانية لوجود وتحقيق مضمون الأولى، كان مفهوم المخالفة لا معنى له، لأن الكلام عما لم يتحقق بسبب عدم تحقق أسبابه لغو.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ الأعراف:135.

1 . أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الرابعة، 1417 هـ / 1997 م، 4/190.

والآية التي قبلها: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: 134.

فالآية 135 دالة على أن موسى دعا الله برفع الطاعون عن بني إسرائيل فارتفع.

وقوله " إلى أجل هم بالغوه " متعلق بـ " كشفنا " باعتبار كون كشف الرجز إزالة للموت الذي سببه الطاعون، وجملة " إذا هم ينكتون " جواب " لما " .

" وإذا " رابطة للجواب لوقوع جواب الشرط جملة اسمية فلما كان " إذا " حرفاً يدل على معنى المفاجأة كان فيه معنى الفعل كأنه قيل فاجأوا بالنكت أي : بادروا به ولم يؤخروه. وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكت لليمين.

في الكلام حذف دل عليه المعنى وهو فدعا موسى فكشف عنهم الرجز وأسند تعالى الكشف إليه لأنه هو الكاشف حقيقة فلما كان من قولهم أسندوه إلى موسى وهو إسناد مجازي ولما كان إخباراً من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسناد حقيقي ولما كان الرجز من جملة أخرى غير مقولة لهم حسن إظهاره دون ضميره وكان جائزاً أن يكون التركيب في غير القرآن " فلما كشفناه عنهم " ومعنى " إلى أجل هم بالغوه " إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فيعذبون فيه.¹

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ الإسراء: 97.

تقتضي "كُلَّمَا" التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها. كلما خبت أي أرادت أن تخبو، " زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا "، أي : وقوداً، أو أن المراد من قوله: " كُلَّمَا خَبَتْ " : نضجت جلودهم واحتترقت أعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه وزيد في تسعير النار لتحرقتهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: 67.

1. أبو حيان، تفسير البحر المحيط، 374/4.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ أي: وإن لم تفعل التبليغ، فحذف المفعول به ولم يقل: "وإن لم تبلغ فما بلغت" لأن الجواب لا بد أن يكون مغايراً للشرط لتحصل الفائدة، ومتى اتَّحدا اختلَّ الكلام.

فعل الشرط جاء في موضع فعل آخر معلوم من السياق هو قوله: "بَلَّغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ". وطلبنا للاختصار وتجنباً للتكرار، واجتناباً للأسلوب العنيف والقادح في مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل "الفعل" الذي هو كناية عنه.

ثم يصير ظاهر قوله تعالى: { وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ } آثلاً إلى اتحاد الشرط والجزاء، والمعنى يُؤوّل ظاهراً إلى: "وإن لم تفعل لم تفعل".¹ وقد قدم الأستاذ أبو القاسم الزمخشري جوابين في تفسير هذا التركيب الشرطي:

أحدهما: أنه إذا لم يمثل أمر الله في تبليغ الرسا لة وقام بكتّمها كلّها يكون كأنه لم يُبَعَث رسولاً، وذلك أمر شنيع لا خفاء في شناعته، وقيل: إن لم تبلغ أدنى شيء وإن كلمة واحدة. كنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلّها، كما عَظَّم قَتْلَ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ المائدة:32.

والثاني: أن يُراد: وإن لم تفعل ذلك، فَلَكَ ما يُوجِبُ كتمانَ الوحي كلّهُ من العقاب فوضِع السبب موضعَ المسبّب، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: "فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالتي عَذَّبْتُكَ".²

وعلى القول الذي جاء في الجواب الثاني للزمخشري يكون جواب الشرط بديلاً من الجزء المباشر وهو "يعاقبك ربك" إلا أنه وضع السبب وهو "ما بلغت رسالته" موضع المسبب للتلازم الذي بينهما، ولأجل ألا يكلم الله رسوله الكريم بلغة الوعيد التي لا تليق بمقام الرسول صلى الله عليه وسلم.

1. السمين الحلبي، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 4/350، 349.

2. الزمخشري، الكشاف، 2/270، 269.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
النور:33.

المخاطب بهذه الآية هو المسلمون، سواء أكانت قصة الأمتين معاذة ومسيكة حدثت بعد أن أظهر سيدهما عبد الله بن أبي الإسلام أم قبل أن يظهره. وعلى الأول يكون عبد الله بن أبي هو سبب النزول فيشملة العموم لا محالة، ويكون بذلك من جملة المسلمين. وعلى الآخر يكون هو سبب النزول ولا يشمله الحكم لأنه لم يكن من المسلمين يومئذ، وإنما كان تدمر أمته منه داعيا لنهي المسلمين عن إكراه فتياتهم على البغاء.¹

وقد أثر التعبير القرآني استعمال "إن" على "إذا"، وفي ذلك مطابقة بين اللفظ والمعنى الذي هو الشذوذ والندرة، وارتباط بالبيئة التي نزلت الآية فيها، وهي أن الزانيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن هذه الفاحشة كانت تقع منهن بكثرة. وأن ما وُجدَ من معاذة ومسيكة المسلمتين وهما جاريتان لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، هو من خبر الشاذ النادر. وكان يُكره جواريه على البغاء ليكسب بهنّ، فاشتكت الاثنتان المذكورتان لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية.²

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النور:33.

وقوله " فإن الله غفور رحيم " ليس جواب الشرط المباشر، ولكنه دليل الجواب، إذ حذف الجواب إيجازا، واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشمله وغيره. والتقدير: فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة. وفي هذا الإجراء إيجاز يتبين فيه اللفظ القليل الموحى بفضل المعنى المسترسل بسهولة من ذهن كل عاقل.

وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك التقدير في تقدير جواب الشرط قلنا: ... يَأْتِمُّ وَحْدَهُ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَأَمْثَالَهُنَّ مِمَّنْ أَكْرَهُ عَلَى فِعْلِ جَرِيمَةٍ.³

والفاء رابطة الجواب. وهي مع جواب الشرط في محل جزم.

1. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 227/18.

2. أبو حيان، البحر المحيط، 416/6.

3. قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ البقرة:173.

المبحث الثاني - العدول بتقديم الجواب.

يدخل التقديم والتأخير فيما أسماه ابن جني شجاعة العربية، حيث أرجعها إلى عدة أمور هي الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى والتحريف.¹

وهذا يعني أنه نمط من أنماط العدول عن الأصل في الترتيب الذي تنظم عليه مفردات الكلام، ويكون هذا التحويل عن القاعدة دليلاً على ما للعربية من خواص تجعلها قادرة على المغامرة التركيبية بما يزيد في جمال هذه اللغة ويوسع من دائرة استعمالها، وذلك من شجاعتها التي وصفها بها ابن جني.

ويعدّ عبد القاهر الجرجاني " أن هذا الباب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد أن سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان...".²

يري الجرجاني أنّ التقديم باب مشروع على الإبداع وحسن المعنى، ويمنح المبدع التصرف والاتساع في الكلام بما ينتج عنه لفتات أسلوبية جمّة تنضح لطفًا وجمالًا.

ويضيف بأنه لا يكفي أن يقال في ما قدم إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهمّ، من غير أن نذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهمّ.³

لا يقبل الجرجاني بتلك العبارات الجاهزة التي يرددها النقاد والمحللون للأساليب بأن ما قدّم إنما فعل به ذلك للعناية والاهتمام، وهي العبارة الموروثة عن سيبويه، ولكن عليهم أن يبحثوا في خصوصية تلك العناية والغرض الذي تجسد فيه الاهتمام.

وإذا تقدمت عبارة الجواب عن الأداة والشرط، عدّها نحة البصرة دليلاً على الجواب، أو في معنى الجواب، وليست جواباً للشرط؛ لأن الجواب لا بد أن يكون تالياً للشرط في الواقع، ولأن الأداة

1 - ابن جني، الخصائص، 2/ 362.

2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

3 - نفس المصدر والصفحة.

تعمل في الشرط والجزاء معا إعرابا وتعليقا. وهو الأمر الذي لا يراه كذلك المراد ونحاة الكوفة والأصوليون، بل يرون أن تقديم الجواب جائز، لأن التعليق باق، وهو المهم.

وأرى الأخذ بغير مذهب النحويين البصريين استكمالا لأنواع العدول التي من بينها التقديم من تأخير. وأمثلة التقديم في القرآن كثيرة جدا.

منها قول الله تعالى على لسان السحرة لفرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ الشعراء: 41.

أرادوا: إن لنا لثوابا عظيما؟ ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى عليه السلام، فقالوا: "إن كنا نحن الغالبين". قال فرعون: "نعم، لكم ذلك الأجر والجعل عندي مع زيادة عليه وهي كونكم من المقربين لدي".

إن تقديم الجواب دل على أن ظن السحرة بقوة سحرهم كان متمكنا فيهم، حتى أنهم أكدوا عبارة الجزاء على أنها أمر مفروغ من تحققه، ثم بدا لهم أن يقيدوا ذلك الجزاء بعبارة الشرط كما لو أنهم أرادوا بها أن يتباهوا بغلبتهم، وأن يُذكروا بها.

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هود: 34.

إن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ يتعين بالمعنى أن يكون هو الجزاء للشرط في قوله: ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾. وقد تقدم الجزاء لأن الكلام منعقد على نفي نصح الرسول صلى الله عليه وسلم لهم إذا كان الله قد شاء إغواءهم. فالجزاء مقدم اهتماما به، وأوتي بالشرط المذكور قيده، وهو الشرط المقصود بالتعليق عليه، وأما قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ فهو تعليق على التعليق.

وقوله عز وجل: ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: 42.

" لولا " حرف امتناع لوجود، أي امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها، والجواب هنا مقدم عن أداة الشرط عليه وهو ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آهْتِنَا﴾.

وفائدة نسج الكلام على هذا المنوال دون أن يؤتى بأداة الشرط ابتداءً متلوةً بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداءً بأنه حاصل. ثم يؤتى بالشرط بعده تقييداً لإطلاق الخبر. فالصناعة النحوية عند لبعض تعتبر المقدم دليل الجواب والجواب محذوفاً لأن نظر النحوي لإقامة أصل التركيب؛ فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه.

ولذا قال في الكشاف: " لولا " في مثل هذا الكلام جار مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى لا من حيث الصنعة. فهذا شأن الشروط الواقعة بعد كل كلام مقصود لذاته.¹ فتأخير الشرط في هذه المواضع يُظهر أنه قيد للفعل الذي هو الجواب في المعنى، وكذا ما قدم فيه على الشرط ما حقه أن يكون جواباً للشرط تقديماً لقصد الاهتمام بالجواب.

المبحث الثالث- خروج الشرط والجواب من باب المجازة.

قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء: 47.

أي وإن تكن المعصية مثقال حبة من خردل جئنا بها وحاسبنا عليها. إنَّ عمل الشر مهما تنهى في الصغر وغاب عن الناس وصاحبه، فإن الله يأتي به لسعة علمه وإحاطته بأفعال الناس وبملكوته.

إذا حكمنا بحكم الظاهر على التركيب الشرطي في هذه الآية، عددنا أن وجود معصية في مثقال حبة من خردل هو شرط في مجيء الله به ومجازاته عنه. كما يعلم من طريق مفهوم الآية أن المعصية التي تكون أكبر هي أولى بإتيان الله بها. ولكن ما ينبغي أن نلاحظه أن المقصود ليس أن وجود المعصية يكون سبباً في إظهار قدرة الله على مجيء الله بها، وكأن غياب وجود المعصية يتسبب في عدم ظهور القدرة الإلهية.

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 34 / 19.

بالتأمل في الآية نجد أن المعنى المراد إثباته هو أن الله قادر قدرة مطلقة على استقصاء وعرض جميع أعمال العباد والجزاء عليها. وبهذا المعنى يكون الشرط مسوقاً لأجل تأكيد وإثبات قدرة الله في الإحاطة بحسنات العبد أو سيئاته. وليس مسوقاً لبناء الجواب عليه، وإن كان معنى الملازمة حاضراً في التركيب.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الزمر:4.

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أن المشركين كاذبون وكافرون في اتخاذهم أولياء من دون الله.

أي: " لو أراد الله أن يتخذ ولدا " كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. " لاصطفى مما يخلق ما يشاء " أي : لاصطفى من مخلوقاته (كالملائكة مثلاً) ، الذي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ صاحبه. وقوله " سبحانه " إشارة إلى استحالة اصطفاؤه شيئاً لأجل اتخاذ الولد. وقوله " هو الله الواحد القهار " إشارة إلى البرهان على استحالة ذلك.

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد تجهيل المتكلم أو دحض حجته.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران:20.

إذا فُسر جواب الشرط "فقد اهتدوا" على المعنى الأصلي له، حصل من ذلك اتحاد الشرط والجزاء، لأن الإسلام هو عين الاهتداء. ولذا مُنع ظاهر الاهتداء وفسر باللازم له وهو النفع أي " فقد نفعوا أنفسهم"¹. ونفعهم لها هو الفوز والنجاة في الآخرة.

ويكون التركيب الشرطي قد بني على معنى أن الجواب يمثل أسمى وأؤكد ما قد يبلغه الشرط من درجات الكمال.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ المائدة: 116. ضمير النصب في "قلته" عائد إلى الكلام المتقدم ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

إن: معدول بها عن التعليق الشرطي الحقيقي وهو الذي يكون مستقبلا، إلى مجرد التعليق الذي هو الربط بين متلازمين؛ لأن فعل الشرط في هذه الآية جاء مركبا من كان يتلوها الفعل الماضي. وبما أن "كان" قوية في الدلالة على الماضي - كما يصفها المبرد - فإن فعل الشرط (وهو القول) تعيّن مضيّه ، وتعلق به الجواب "فقد علمته" ، فصار تعليقا لأمر مضى بآخر مثله في الماضي. والماضي حدث معلوم بسبب مضيّه وحصوله. ولا تحوّل "إن" دلالاته إلى الشك والاستقبال.

وبذلك يكون هذا التركيب الشرطي منصرفا إلى غير التعليق الدال على السببية إلى الاستدلال به على انتفاء أن يقول عيسى عليه السلام ذلك الكلام بدليل أن الله يعلم أنه لم يقله.

ونحو احتجاج الرسل بعلم الله في القرآن الكريم قوله تعالى على السنة الرسل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يس: 16-17. فلما كان متحققا من براءة نفسه أحال ذلك على علم الله تعالى. وهكذا يكون قد استدل بمضمون الجزاء على مضمون الشرط ، كما هو الشأن في مدخولي "لو" الامتناعية عند قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: 22.

إن فعل الشرط المركب، الماضي لفظا ومعنى (كنت قلته) يمنع من اعتبار "إن" حرفا للتعليق به مستقبلا، وبالتالي تخرج "إن" عن وظيفتها النحوية الأصلية إلى تأدية وظيفة تشبه وظيفة حرف الشرط الامتناعي "لو"، من حيث التعليق بها يكون في الماضي. واستدل بها على الشرط بالجزاء، أي أن انتفاء قوله له ثابت بعلم الله ذلك.

كما أن ما هو في ظاهره جواب لـ"إن" ليس كذلك؛ لأن مضمونه ليس مترتبا على معنى الشرط المتمكن في الماضي. أي إن كون الله عالما وشاهدا على انتفاء ذلك القول عن عيسى عليه

السلام، ليس مسبباً عن كون عيسى لم يقله، لكنّ هذا الجواب الظاهر دليلٌ على براءته عليه السلام. وقد قال الله ذلك تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً.

وفي قوله: "فقد عَلِمْتَهُ" أسند عيسى عليه السلام العلم إلى الله تعالى. وفيه غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إليه.

وهذا التركيب الشرطي برمته، مع ما صاحبه من جمل قبله وبعده، إجابة عن سؤال الله لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وكانت الإجابة كما يلي: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تَعَدَّيْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة: 116-118. وهذه الإجابة المطولة بما فيها الجملة الشرطية، عدول عن الإجابة المباشرة التي هي: "لم أقله" مثلاً. لكنه خرج بالإجابة إلى الجملة الشرطية لما فيها من إمكانات وطاقات تعبيرية لا تتأتى بجملة بسيطة مثل "لم أقله".

وفي إطالة الجواب بالجملة الشرطية وما معها، فائدة أراد نبي الله تحصيلها وهي التلذذ بكرامة الكلام مع الله، وهذا على غرار جواب موسى عليه السلام عن سؤال العصا: وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينَكَ يَا مُوسَى طه: 17، فلم يكتف بالجواب: "هي عصاي"، ولكنه عليه السلام أضاف ذكر الوجوه الأخرى؛ لأنه كان يجب المكاملة مع ربه والاستزادة من كرامة الحوار معه، فجعل ذلك الجواب الطويل الوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض. وكانت إجابته كما حكاها الله على لسانه عليه السلام: قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى طه: 18.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ آل عمران: 185.

الفوز: هو حصول الريح ونفي الخسارة. والفاء في قوله "فمن زحرح" للتفريع على "توفون أجوركم" ومعنى "زحرح" أبعاد. وحقيقة فعل زحرح أنها جذب بسرعة وهو مضاعف زحه عن المكان إذ جذبه بعجلة.

وإنما جمع بين " زحزح عن النار و أدخل الجنة " مع أن في الثاني غن يقي عن الأول للدلالة على أن دخول الجنة يشمل على نعمتين عظيمتين : النجاة من النار ونعيم الجنة

ومعنى " فقد فاز " نال مبتغاه من الخير ؛ لأن ترتب الفوز على دخول الجنة والزحزحة عن النار معلوم، فلا فائدة في ذكر الشرط إلا لهذا. والعرب تعتمد في هذا على القرائن فقد يكون الجواب عين الشرط لبيان التحقيق نحو قول القائل : من عرفني فقد عرفني وقد يكون عينه بزيادة قيد نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ الفرقان:72. وقد يكون معنى بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط كما في هذه الآية ، وفي قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ آل عمران:192، وقول العرب " من أدرك مرعى الصّمان فقد أدرك " ¹

وقد يكون معنى بلوغ أقصى غايات نوع الجواب والشرط. فمن زحزح " أي: أخرج، " عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار و لم يدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أمودج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿ وَإِنَّمَا تُؤَقِّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ آل عمران:185، أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْآخِزِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ السجدة:21.

وفي الآية تخصيص الحكم الوارد به جواب الشرط، فالفوز حكم متحقق بضرورة اجتماع الشرطين وهما الزحزحة عن النار ودخول الجنة

فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز : علق الفوز وهو نيل الحظ من الخير والنجاة من الشرّ على التنحية من النار ودخول الجنة، لأن من لم ينح عن النار بل أدخلها، وإن كان سيدخل الجنة لم يفز كمن يدخلها من أهل الكبائر.

1. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 1 / 869.

ومن نعي عنها ولم يدخل الجنة كأصحاب الأعراف، لم يفز أيضاً.

وروي في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من سره أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويأتي إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه، قيل: فاز معناه نجا »

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا بَلَغَ رِئْتَهُ لَ الْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ الأعراف: 143.

نفى الله أن يراه عيسى عليه السلام في قوله: "لن تراني". وأكد هذا النفي باستعمال أسلوب الشرط، بحيث علق الله تعالى رؤيته باستقرار الجبل، ثم جعله دكاً، ونبه بذلك على أن رؤيته لن تقع، لتعليقه إياها بأمر ووجد ضده وهو الدك المقابل للاستقرار.

وهذا أسلوب مشهور في مذاهب العرب، حيث يؤكدون نفي الشيء بما يُعلم أنه لا يقع، ويستعملون لذلك التركيب الشرطي أو غيره.¹

وفي تأكيد انتفاء رؤية موسى عليه السلام لذات الله تعالى، تسكين لقلبه ولطف به وبالناس؛ إذ أراه حال الجبل الصلب الذي أصبح مذكوكا بإرادته تعالى.

قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ. فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ النساء: 3.

بسبب فقدان دلالة المفهوم يبدو لأول وهلة أن هذا التركيب الشرطي عبثي؛ لأنه لا تظهر أية مناسبة أو ملازمة بين الشرط وجوابه، أي بين الأمر بنكاح النساء وعددهن في جواب شرط الخوف من عدم الإقساط في اليتامى.

1- ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ الأعراف: 30.

وقول الشاعر:

وصار الفار كاللبن الحليب.

إذا شاب الغراب أتيت أهلي

أما إذا علمنا من حديث عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم بأن اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بمن أعلى سنتهن في الصداق، أو يطلبوا نكاح ما طاب لهم من النساء غيرهن. أقول إذا ما علمنا هذا من حديث عائشة رضي الله عنها، ظهرت المناسبة بين الشرط والجزاء. وذلك يعني أن لفظ "اليتامى" الذي تسبب إطلاقه في حمل أسلوب الشرط والجزاء على غير معنى الملاءمة بينهما، لمّا قيد بحديث عائشة رضي الله عنها، صار محصور الدلالة، ومقصودا به اليتامى من النساء اللواتي بلغن سن الزواج وكنّ تحت وصاية أوليائهنّ. كما أن تقييد هذا الإطلاق قد فهمه بعض المفسرين من قوله في الجواب: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء" أي نساء غيرهنّ، لا يدخلن في فئة اليتامى، فكانت الملازمة بين طرفي الجملة الشرطية واضحة عندهم.

ويظهر وجه الملازمة بين الشرط والجزاء أيضا بربطهما بالمناسبة التي قدمها عكرمة على أنها سبب نزول لهذه الآية. قال: نزلت في قريش، كان الرجل يتزوج العشر فأكثر فإذا ضاق ماله أخذ مال يتيمة فتزوج منه، فنزلت الآية لتسد ذريعة أكل أموال اليتامى؛ إذ حَدَدَتْ عددا من النساء أقل مما كان يطلبه الرجل، وفي ذلك مَظَنَّة ألا تمتد يده إلى أموال أوصيائه.¹

وجاء جواب الشرط "فانكحوا" بصيغة الأمر المحمول على الندب الذي هو ضد الكراهة، وأما الحال المتعلق به وهو "مثنى وثلاث ورباع" فينتجه بالأمر إلى الإباحة.

ولو حُمِلت عبارتا الجملة الشرطية على الظاهر لكان معنى الآية أنه لا يباح النكاح مثنى وثلاث ورباع إلا لمن خاف الجور في اليتامى، لأجل تعليقه عليه، أما مَنْ لم يخف فمفهوم الشرط يدل على أنه لا يجوز له ذلك، والإجماع على خلاف ما دلّ عليه الظاهر من اختصاص الإباحة بمن خاف الجور. حيث أجمع المسلمون على أنّ مَنْ لم يخف الجور في أموال اليتامى يجوز له أيضا أن ينكح ذلك العدد كمن خاف. فدلّ إجماع الأمة على أن الآية جواب لمن خاف ذلك، وحكمها أعم.² وهذا يعني أن الاقتصار على المعنيين الظاهر والمفهوم لعباري الشرط والجزاء، يقف بنا دون الفهم الصحيح. وأن الأمر يتطلب تأويلا أو اعتبار مناسبة ما تتلاءم دلاليًا والجملة الشرطية.

1 _ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 222/3، 223.

2 _ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 171/3.

وثمة مناسبات أخرى ذكرتها كتب التفسير مُفهمة بأن هذا التركيب الشرطي معدول به عن أصل دلالاته الوظيفية العامة، ويتعلق هذا العدول بوظيفة "إن" التي صارت بمعنى "كما" التي تستعمل في الربط بين جملتين لأجل التسوية بين مضمونيهما حكما، بإلحاق الثانية بحكم الأولى، مثل قولنا: كما علّمت زيدا فأكرم عمرو، لملاحظة أن الفاعل واحد، والعلة في تعليم زيد هي الإحسان إلى الغير، وهي موجودة في الإكرام أيضا، فوجب على المخاطب إكرام عمرو.

ومن السياقات المتصلة بهذه الآية ما جاء في تفسير البحر المحيط أنّ ابن عباس وابن جبير وقتادة والسدي قالوا: "كانت العرب تتحرج في أموال اليتامى، ولا تتحرج في العدل بين النساء. يتزوجون العشر فأكثر، فنزلت في ذلك، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في أموال اليتامى، فكذلك فتخرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعُد الجور عنه."

وقال مجاهد: "إنما الآية تحذير من الزنا، وَزَجَّرَ عَنْهُ، أي كما تتحرجون في أموال اليتامى، فكذلك فتخرجوا من الزنا، وانكحوا ما حُدَّ لكم."¹

وعلى القولين يكون لفظ "اليتامى" غير مختص بالذكر ولا بالإناث.

واستنادا إلى هاتين الروايتين تكون الجملة الشرطية خارجة عما يقتضيه وجود شرطها من وجود جوابها إلى جريانهما مجرى قضية منطقية، أي أنهما خرجا إلى الدلالة على أن الشرط تضمن مسألة وحكمها وعلته، وذلك هو تخرجهم من مدّ أيديهم إلى أموال اليتامى لما فيه من علة القبح. ومسألة مدّ الأيدي إلى أموال اليتامى ظلما هي الطرف المقيس عليه. وأنه يجب حَمْلُ حُكْمِ مسألة الجواب على حكم أختها في الشرط، لجامع علة الحكم بين المسألتين، والعلة الثابتة في الثانية هي قبح الاعتداء على الغير في أموالهم أو أعراضهم. فيكون الطرف المقيس وحكمه: وجوب التحرج من الاستكثار اللامحدود من الزوجات مع عدم العدل بينهن، وكذا التحرج من الزنا، ثم الالتزام بالعدد المحدد من طبيبات النساء والعدل بينهن، أو الاكتفاء بواحدة.

وحسب هذين السياقين فإن فعل الشرط الماضي صيغة يقبل احتمال أن يكون ماضيا معنى أيضا، كما يحتمل أن يكون ماضيا لفظا ومعنى. وأما الأمر الذي صدرت به عبارة الجزاء فمستقبل على ما يجيء عليه الأصل.

1 - ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 3/ 503.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس: 94.

إذا اغتبرَ المخاطبُ سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، كان الشرط المراد، على تقدير: إن كنت في شكٍّ ما يسيرٍ مما أنزلنا إليك... وورد الشرط في الآية بالأداة "إن" الموضوعه للغرض والإمكان، بينما لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام الشك لانكشاف الغطاء له، فيكون الغرض من الشرط تهييج الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادة تثبيته، وليس الغرض إمكان وقوع الشك له عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ولذلك قال حين جاءته الآية: «لا أشك ولا أسأل».¹

وهذا يعني أن شخصية المخاطب قد تكون السبب في العدول بالجملة الشرطية المفيدة لترتيب أمر على أمر مشكوك فيه، إلى إفادة التهييج والحث على زيادة التثبيت.

وإذا اعتبرنا أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام، والمراد به أمته أو كلُّ سامع، يكون تقدير الشرط على الأصل أي: إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك فاسأل. ويكون في الآية تنبيه وتوجيه إلى أن من خالجه شبهة في الدين ينبغي له الإسراع في مراجعة من يزيلها من أهل العلم وذلك حسب ما تدل عليه الفاء الجزائية من معنى التعقيب.

وهذا يعني أن الخطاب الخاص برسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام إذا صحَّ تعميمه، وإسناده إلى سائر المؤمنين وغيرهم صحَّ جريانه على الأصل، وبالتالي يدل الشرط على الأمر المعلق عليه أمر غيره في المستقبل تعليق إمكان.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ التوبة: 40.

جملة شرطية بنيت على "إن" التي هي أم أدوات الشرط، وإذا ما كان علماء البيان يقولون: إنَّ "إن" الأصل فيها أن تكون فيما لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه من فعل الشرط، وذلك في لسان العربية، فإنما إذا ما جرى للنظر في موقعها في بيان الله تعالى جده، فما يكون لنا أن نقول إن الله تعالى جده لا يجزم بوقوعه أو عدمه وقوعه كما نقول في بيان الناس. ولكننا نقول إن الله تعالى جده إذ يأتي

1 _ الألويسي، روح المعاني، 11/189_190.

في بيانه هو غير محكي عن أحد من خلقه يفهم من ذلك الإتيان بـ"إن" حثه من يخاطبه على أن يفعل ما يغريه به، أو يحثه على أن يكف عما لا يليق به، ويحمل هذا الحث معه معنى التحذير والتهديد بما تنخلع له أفئدة العارفين لطائف البيان الإلهي الحكيم، فهو دال على أن نصره ليس بالمتوقف على مناصرتهم له، فإنه المستغنى عن ذلك فشواهد الحال قائمة بين أعينهم وفي آذانهم لم تمسها يد العفاء فتنسى فهو كما يقول " الطبري " في تفسيره :

"هذا إعلام من الله تعالى أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم أنه المتوكل بنصر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدو في قلة؟

فهذه الأداة "إن" دخلت على فعل منفي، فأدغمت " النون " في "لام" "لا" النافية، ومجيء النفي بـ" لا" من دون " لن " أو " لم " يظهر فيه أمران :

الأول : استحضار الشرط في كل زمان يقع فيه النفي أي أن هذا الحكم المترتب على تحقق عدم نصركم له ليس خاصاً بهذه الواقعة : غزوة العسرة بل هو ممتد، فـ" الألف " في "لا" تشعر بهذا الامتداد، وفي هذا إيناس عظيم لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

الآخر : الإيحاء بعدم الجرم بأن عدم النصر واقع منهم، فلا يفهم أحد أن ذلك الترك مقطوع بوقوعه منهم فيتعلل بالقدر

فاجتمع الإغراء بالإقدام على المناصرة من رافدين " إن " من دون "إذا" و"لا" من دون "لن" أو "لم".

وجواب الشرط محذوف تقديره إلا تنصروه فسينصره الله تعالى جده وأقيم مقام الجواب المحذوف دليله " فقد نصره الله "، وهذا من بدیع الإيجاز ولو قيل في غير القرآن الكريم: إلا تنصروه فسينصره الله فقد نصره إذ أخرجه لما فهم منه أن " السين " التي في " سينصره " حاملة ما تحمله : قد " في " قد نصره " من التحقيق لكنه لما أقام " قد نصره الله " مقام "سينصره" دل ذلك على كمال تحقق نصر الله تعالى له، فكان فيه جمع من الدلائل على تحقق نصر الله تعالى له : " قد " و الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة " الله " فإسناد الفعل إليه تعالى جده يحمل إلى قلب المسلم فيضاً من اليقين بتحقيق ما أسند إلى اسمه جل جلاله.

ويفهم من إقامة "فقد نصره الله" مقام "سينصره" أن نصره حينئذٍ أي حين ترغبون عن نصره سيكون من بابة نصره إذ أخرجه الذين كفروا، وهم يعلمون كيفية نصره حينذاك فقد كان من قبيل المعجزة المدهشة التي تقف أمامها العقول في غاية من الإبلاس والحيرة.

وهذا يحمل تهديدًا لمن تناقل ورغب عن النفار في سبيل الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي . وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ الكهف: 109.

قل لو كان البحر أي جنس البحر مدادا وهو ما تمد به الدواة من الحبر لكلمات ربي لتحرير كلمات علمه وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الإشراك لنفد البحر مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه قبل أن تنفد كلمات ربي لعدم تناهيهها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى الله عليه و سلم في الموضوعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى وإظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مدادا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة بمثله مدادا عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه...¹

وإن لو في هذا الاستعمال تدل على أن جواها قار وثابت سواء أكان الشرط المتقدم ما ذكر أو خلافه، فهي على نحو لو في المثال المشهور: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران: 154، لأن سبب بروزهم إلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع، وليس سببه كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية، وإلى غير ذلك من الآيات. وهذا فرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية.

1 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 562/3.

قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ آل عمران: 154.

يجري هذا التركيب على الأصل في دلالة لو على امتناع جوابها للامتناع شرطها، اعتباراً بأنه يعبر عن عقيدة المنافقين والكافرين.

وأما على اعتبار عقيدة الإيمان فان هذا الشرط فاسد لأن القتل من عدمه حين الخروج إلى الجهاد أمر يرد إلى ما قضى فيه الله، ولا يكون متسبباً عن سداد رأي صادر من هذا أو ذاك.

ويمكن القول بأن هذا الشرط مسوق على سبيل بيان سفاهة أحلام المنافقين، وذلك في تأسيسهم قتل البعض منهم على سببية عدم إشراك خاصتهم في الأمر والمشورة.

وهو وإن كان ظاهره صورة العتاب عن ترك مشورتهم فنيتهم منه تحطئة النبي في خروجه بالمسلمين إلى أخذ وأنهم أسد رأياً منه.¹

وهو المعنى التداولي الذي أرادوا إثباته في حق الرسول، كيما يثبوا الشك في قلوب أتباعه رغبة في أن يرتدوا عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ آل عمران: 167.

التركيبة التي جاء فعل الطلب فيها (الأمر) تعالوا: ... ليست من قبيل الطلب وجوابه؛ لأن الأمر هنا بمعنى أقبلوا، أو هلموا، والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما نقول: "تعال نفكر في هذه المسألة".
وثرک العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصودَ بهما واحد وهو الثاني، وذكرُ الأولِ توطئةً له وترغيبٌ فيه.²

1 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 4/137.

2 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 2/110.

وأما إذا كان الأمر بالفعل : تعال... يقصد به الإقبال و المجيء المحسوسين، فذلك طلب وجوابه.

وأقصد أن الأمر وجوابه هما من التراكيب الشبيهة بالتركيب الشرطي. ولكن قد يكون التركيب في ظاهره النحوي كأنه الطلب وجوابه، وأما دلالته فلا تكون مركبة، وإنما بسيطة لا تتعدى الأمر الواحد المدعوم بالتمهيد له بلفظ: "تعال".

يقول عز من قائل: ﴿ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال: 65-66.

أي: أيها النبي حث متبعيك ومصدقك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين، فإني يكن منكم عشرون رجلا صابرين عند لقاء العدو، ويحتسبوا أنفسهم ويثبتوا لعدوهم، يغلبوا مائتين من عدوهم ويقهروهم؛ بسبب أنهم قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم، وكثر عددهم. ودلت هذه الآية على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، وتقديره إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين فليشتغلوا بمقاومتهم¹.

وإذا كان ذكر التأسخ مقارناً للمنسوخ لا يجوز في علم الناسخ والمنسوخ، فإن العبرة فيهما بالنزول دون التلاوة. والنزول كثيرا ما يرتبط بالوقائع، ولذا أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة في زمن كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم. وتغير الحكم في القتال إلى ما أصبح عليه المسلمون وهم كثر، إلى أن يصبح الجهاد فرض عين في حق كل مسلم، وذلك إذا ما داهم العدو قرية المسلمين.

إن الشرط والجزاء الواردة بما الآية الخامسة والستون، هما على صورة التركيب الشرطي النمطي، وهما من حيث الدلالة يدلان على تعليق غلبة المائتين من الكافرين على قتل العشرين من

1 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 15/504.

المؤمنين الصابرين لهم. وهذا المعنى مرتبط بفترة وحالة ووضعية معينة مما كان عليه المؤمنون، وذلك حين غزوة بدر لما كان المؤمنون قلة وضعفاء أمام القوة المادية لقريش. ثم تغير هذا الحكم بالتخفيف مع وقوع كثرة المؤمنين.

ولهذا يمكن القول بأن هذا التركيب الشرطي قد نسخ وبالتالي خرج من بابه إلى مجال الدلالة على مجرد حكم خاص بفترة مضت، ولا يعمل به كنص في بقية الفترات اللاحقة. وهذه الفترات يصح لها العمل بالحكم المتضمن في الآيه 66، وغيره من النصوص كخبر أنه إذا داهم عدو قرية مسلمة، فإن الجهاد يصبح عينيا. والله أعلم.

الخاتمة

العدول ظاهرة لغوية فنية تحول الكلام من دلالاته الصفرية التبليغية المحضة إلى عوالم رحبة من الاتساع التعبيري والمغامرات الأسلوبية التي ترتفع بالكلام إلى مدارج الفن وعالم الجمال أو تتخلف به عن ذلك، بحسب ما يؤتى من القدرة على تمثل البنى العميقة للكلام، وإضافة اختياراته الفردية التي يكسر بها جدار المعتاد وسائر المؤلف من لغة الاستعمال.

إن البحث الأسلوبي المتجدد في مضمار العدول، لا يترتب عليه إلا التأكيد بأن الاستعمالات المعدول بها عن أنماطها الأصلية، هي عبارة عن إنشاءات مبدعة، تحمل القيم الإضافية الجمالية. وهي قيم اختارها المتكلم (الله) عن وعي وقصد، وشحن لغته بالكيفية الأسلوبية التي تحقق له تفرده. تظهر هذه الحقيقة الأسلوبية في جميع التصرفات التي لمست التركيب الشرطي في القرآن الكريم.

ويظهر من مراجعة الدراسات البلاغية والتفسيرية للقرآن الكريم أن علماء البلاغة والتفسير قد خبروا أسرار الأساليب بما فيها أسلوب الشرط، وتفقهوا في وضعيات تعترضه من ذكر وحذف وزيادة واستبدال، وما ينجر عنها من دلالات. وإن ذلك يدل على أن الدراسات الأسلوبية السياقية الحديثة تتقاطع مع البلاغة العربية قديما وحديثا.

ولا يسع الباحث أو الدارس في مجال أسلوبية التراكيب الجمالية إلا أن يسلك مسلك البلاغة العربية مستغلا ما توحى به موهبته وما تنضح به ثقافته أو بيئته العلمية، أو ما يلاحظه من ضرورة إضافة غفل عنها الدارسون.

وأشكال العدول التي تنتاب هذا الأسلوب متعددة وتماثل بتعدد محوري الاستبدال والتركيب. وتتنوع الانزياحات في هذا التركيب بما لا يعرف في غيره من تراكيب العربية.

ومن أهم ما في التركيب الشرطي المغامرات الدلالية التي يخرج إليها، وذلك حينما يتجاوز الدلالة على المجازاة ويقتحم مجالات دلالية مثل:

أن يكون الشرط مسوقا لأجل توكيد وإثبات المضمون الذي احتواه الجواب. وليس مسوقا لبناء الجواب عليه.

وأن يكون التركيب الشرطي قد بني على معنى أن الجواب يمثل أسمى وأؤكد ما قد يبلغه الشرط من درجات الكمال.

وأن يكون منصرفا إلى غير التعليق الدال على السببية إلى الاستدلال به على انتفاء وجود الشرط.

وقد يتعلق العدول في هذا التركيب بوظيفة "إن" التي تصير بمعنى "كما" التي تستعمل في الربط بين جملتين لأجل التسوية بين مضمونيهما حكما، بإلحاق الثانية بحكم الأول.

وكذا "لو" في هذا الاستعمال قد تدل على أن جوابها قار وثابت سواء أكان الشرط المتقدم ما ذكر أو خلافه.

والكثير فيما استعملت له "إن" في كتاب الله استعمالا معدولا به عن المؤلف، حينما يكون الكلام محكيا.

وأما إذا نظرنا إليها في موقعها في بيان الله تعالى، فما يكون لنا أن نقول إن الله تعالى لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه كما نقول في بيان الناس، ولكن يقصد بها حثه من يخاطبه على أن يفعل ما يغيره به، أو يحثه على أن يكف عما لا يليق به.

ويظهر من البحث أن التعامل مع التراكيب الشرطي - وهو كغيره من التراكيب النحوية- لا يمكن الوصول إلى المستوى الدلالي له عن طريق اعتبار السياق اللغوي فقط، ولكن لابد من اعتبار السياق الخارجي أيضا. وهو ما تؤكدته النظريات السياقية، وهو نفسه الأمر المطلوب في دارس النص القرآني. إنه يفترض فيه معرفة علوم العربية، إضافة إلى علوم القرآن ومنها الناسخ والمنسوخ ومناسبة النزول والمكي والمدني.

وقد تضافرت العلوم الدينية والعربية في تحديد المقاصد والأحكام، الشيء الذي يبرهن على ضرورة ربط النص بالجهة التي ارتبط بها، فلا مجال للقول بانغلاق النص على نفسه وموت المؤلف.

أتمنى أني أصبت ولو قليلا، وآخر دعائي أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- 1 إبراهيم مصطفى وآخرون، معجم الوسيط ، دار الدعوة، مصر، 1 .
- 2 ابن أبي الأصعب، بديع القرآن، أبي الأصعب ، تح: حفني محمد شرف، نخضة مصر للطباعة والنشر.
- 3 ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نخضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة، القاهرة، د.ت، د.ط.
- 4 أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط 12، 2003.
- 5 السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط 1، 1999.
- 6 أحمد بن فارس، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسُنن العرب في كلامها، تح: أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، ط 1، 1997.
- 7 أحمد خليل عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، 1984.
- 8 أحمد عثمان، الأدب الإغريقي تراثا انسابا وعالميا، دار المعارف، القاهرة، ط 2.
- 9 أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، مطبعة اتحاد الكتاب العرب:دمشق - سوريا، 2002.
- 10 الأحفش(أبو الحسن سعيد بن مسعدة-الأوسط)، معاني القرآن، تح:هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 1990.
- 11 الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: محمود شكري الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج 4، 26.
- 12 الأمدي (علي بن محمد أبو الحسن)، الإحكام في أصول الأحكام، تح: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1404، 2.
- 13 امرؤ القيس، الديوان ، تح: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 5، 2004.
- 14 الباقلائي (أبو بكر محمد بن الطيب) ، إعجاز القرآن تح:السيد أحمد صقر، دار المعارف

- بمصر، د.ط، د.ت.
- 15 الباقلافي (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المالكي) ، التقريب والإرشاد، تح: عبد الحميد بن علي أبو رنيد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- 16 بداش حنيفة، الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان. رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة باتنة، 2008
- 17 بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، دار ابن جزم، بيروت، لبنان، 1997.
- 18 أبو البركات بن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، تح: طه عبد الحميد طه الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980، 2.
- 19 أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 4، 1417 هـ / 1997 م، ج 4.
- 20 أبو البقاء العكبري (عبد الله بن الحسين بن عبد الله)، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2 .
- 21 البيضاوي، تفسير البيضاوي، مكتبة الحقيقة، دار الشفقة، استانبول، تركيا، 1993، ج 3.
- 22 تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزاري ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، تح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، ط 1، 1987.
- 23 تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، 2000.
- 24 الثعالبي أبو منصور(عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قمحية، ط 1: 1403هـ/1983م، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.
- 25 الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.7، 1998، ج 1.
- 26 جماعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، ط الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
- 27 ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت لبنان، ط 2. ج 1، 2، 3.
- 28 جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة:محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء، دار توبقال، 1986.
- 29 جون كوهن، بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1990.
- 30 الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسين)، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره،

- تح: محمد يوسف نجم، دار صادر ، بيروت، ط1، 1965.
- 31 حازم القرطاجني(أبو الحسن)، منهاج الأدباء وسراج البلغاء، تح:محمد الحبيب بن الخوجعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ط 2، 1981.
- 32 ابن حجر العسقلاني(أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، صيدر اباد، الهند، ط : 2، 1392هـ / 1972م، ج1.
- 33 ابن حزم الأندلسي(علي بن أحمد أبو محمد) ، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث ، القاهرة، ط 1، 1404، ج 4.
- 34 ابن الحسن البصري(صدر الدين علي بن أبي الفرج)، الحماسة البصرية، تح: عادل جمال سليمان، القاهرة، 1987، ج1.
- 35 أبو الحسين البصري (محمد بن علي بن الطيب) ، المعتمد في أصول الفقه، تح: خليل الميس، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1403هـ، ج1.
- 36 حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
- 37 أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين) ، تفسير البحر المحيط، تح: عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1993، ج2.
- 38 أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، تح: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1951.
- 39 الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنتره، تح:مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1993.
- 40 خالد الأزهرى، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج2.
- 41 ابن خلدون(عبد الرحمن) ، المقدمة، تح: عبد السلام الشدادى، بيت الفنون والعلوم والآداب، الاسكندرية، ج3.
- 42 ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج3.

- 43 الرازي، (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين)، مفاتيح الغيب ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 1981، ج 11 .
- 44 الرازي(محمد بن عمر بن الحسين)، المحصول في علم الأصول، تح: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، ط 1، 1400، ج3.
- 45 الراغب الأصفهاني(أبو القاسم الحسين بن محمد)، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج1.
- 46 رجاء عيد، لغة الشعر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1985.
- 47 ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويتية ودار القلم ، بيروت، د.ط، د.ت.
- 48 . ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محيي الدين بن عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981، ج1.
- 49 الرضي الأسترباذي ، شرح الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط 2، 1996، ج4.
- 50 الرضي الأسترباذي، شرح الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط2، 1996، ج4.
- 51 الرضي الأسترباذي، شرح الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، ط 2، 1996، ج4.
- 52 الرماني، النكت في إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3.
- 53 ريفاتير ميكل، معايير التحليل الأسلوبي، ضمن كتاب اتجاهات البحث الأسلوبي، شكري محمد عياد، دار العلوم،؟ الرياض، 1985.
- 54 الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح:مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1977، ج 17.
- 55 الزجاج(ابن اسحق إبراهيم السري)، معاني القرآن، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط 1، 1988، ج4.
- 56 الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق) كتاب حروف المعاني، تحقيق: علي توفيق الحمد، دار الأمل، إربد الأردن، ط2، 1986.
- 57 الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي)، البحر المحيط في أصول الفقه، تح: عمر سليمان الأشقر، دار الصفوة، الغردقة مصر، ط 2، 1992، ج3.

- 58 الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391، ج3.
- 59 الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: الشيخين عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، ج1.
- 60 الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله)، المفصل في صنعة الإعراب، تح: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993.
- 61 علي عبد الكافي السبكي، والإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للفاضل البيضاوي، تح: شعبان محمد إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1981، ج1.
- 62 ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي)، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج2.
- 63 أبو السعود، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ج2.
- 64 أبو السعود حسنين الشاذلي، الأدوات النحوية وتعدد معانيها الوظيفية، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1989.
- 65 سعيد حسن بحيري، التركيب الشرطي في مقابسات أبي حيان التوحيدي دراسة تركيبية دلالية، ضمن كتاب: تمام حسان رائدا لغويا، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2002.
- 66 السكاكي (أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- 67 السكّريّ (أبو سعيد الحسن بن الحسين)، شرح أشعار الهذليين، تح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة، د.ط، د.ت، 3.
- 68 السمين الحلبي، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج4.
- 69 سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1982، ج1، 4.
- 70 ابن سينا، الخطابة من كتاب الشفاء، تح: محمد سليم سالم، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، 1954.
- 71 السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين)، الإتيقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1974.
- 72 السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين)، الأشباه والنظائر، دار الكتاب العربي،

- بيروت، ط1، ج1.
- 73 السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،
تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ط2، 1979، ج1.
- 74 السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان،
تح: أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1976.
- 75 السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: محمد
البحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1988، ج1، ج2.
- 76 السيوطي(عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح:
أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1998، ج2.
- 77 الشريف الجرجاني(علي بن محمد بن علي السيد الزين أبو الحسن الحنفي)، كتاب التعريفات،
دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 1، 2005.
- 78 شكري محمد عياد، اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، القاهرة، انترناشيونال برس،
ط1، 1988.
- 79 الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد المختار الجكني)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، 1995، ج6.
- 80 الشوكاني(محمد بن علي بن محمد) إرشاد الفحول إلي تح: الحق من علم الأصول تح: :
الشيخ أحمد عزو عناية ، دار الكتاب العربي دمشق، ط 1، 1999، ج1.
- 81 الشيرازي، أبو اسحق إبراهيم بن علي بن يوسف، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب
الإسلامي، بيروت- لبنان، 1988، ج 1 .
- 82 الصاوي محمد، الفلسفة الإسلامية، دار النصر للتوزيع والنشر، القاهرة، 1998.
- 83 الصبان، حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: طه عبد الرؤوف سعد،
المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج4.
- 84 صلاح فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1998.
- 85 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة(164)، المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 86 طاهر سليمان حمودة، ابن القيم جهوده في الدرس اللغوي، دار الجامعات المصرية،
الإسكندرية، د ط، د.ت.
- 87 الطبري (أبو جعفر)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي،
دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، القاهرة، ط 1، 2003 ، ج2.

- 88 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وفنونها وعلومها، دار القلم، دمشق، ط 1، 1996، ج2.
- 89 عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3.
- 90 عبد العزيز علي الصالح المعيد، الشرط في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، إعداد: كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1976.
- 91 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004.
- 92 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدة.
- 93 عبد الله الفوزان، دليل السالك شرح ألفية ابن مالك، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط 1 ، 19981 .
- 94 عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط2، 2007.
- 95 عبد المنعم خفاجي وغيره، الأسلوبية والبيان العربي، ط 1، 1992، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- 96 عبده الراجحي، التطبيق النحوي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1999.
- 97 أبو عبيدة، مجاز القرآن ، تح: الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي القاهرة، د.ط، د.ت، ج1.
- 98 العسكري(أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986.
- 99 العسكري(أبو هلال) ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة محمود بك بالآستانة، ط1، 1320هـ.
- 100 ابن عقيل المصري بهاء الدين عبد الله ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط 2، ص1985، ج2.
- 101 أبو علي الفارسي(الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي)، كتاب الإيضاح، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط 2، 1996.
- 102 ابن العماد دمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 215/7، ج 7، 10.
- 103 عوض حمد القوزي، لمصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1،

- 1981.
- 104 الغزالي(أبو حامد محمد بن محمد)، المستصفى من علم أصول الفقه، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- 105 فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك اصناعة الكتاب، القاهرة، ج4.
- 106 فخر الدين قباوة، إعراب الجمل وأشباه الجمل، دار القلم العربي، حلب سورية، ط5،
- 1989.
- 107 الفراء(أبو زكريا يحيى بن زياد)، معاني القرآن، عالم الكتب ، بيروت، ط3، 1983، ج2
- 108 أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تح: سمير جابر، دار الفكر ، بيروت، ط2، ج4.
- 109 فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: علم المعاني، دار الفرقان، ط 4، الجامعة الأردنية، 1997.
- 110 الفيروزبادي(مجد الدين محمد بن يعقوب)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت لبنان، ج1، ج4.
- 111 الفيروزبادي(مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط ، دار الجيل، بيروت، د. ط، د. ت، ج 2.
- 112 القاضي الجرجاني(أبو الحسن علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبئ وخصومه، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البحايوي، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 2006.
- 113 القرابي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المصري)، نفائس الأصول في شرح المحصول، تحقيق: عادل أحمد عبد المودود وعلي محمد معوض، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ج 5.
- 114 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 3.
- 115 القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ج16.
- 116 القزويني (الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب)، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط5، 1980.
- 127 القزويني (الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب)، التلخيص في وجوه البلاغة، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1.
- 128 القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986.

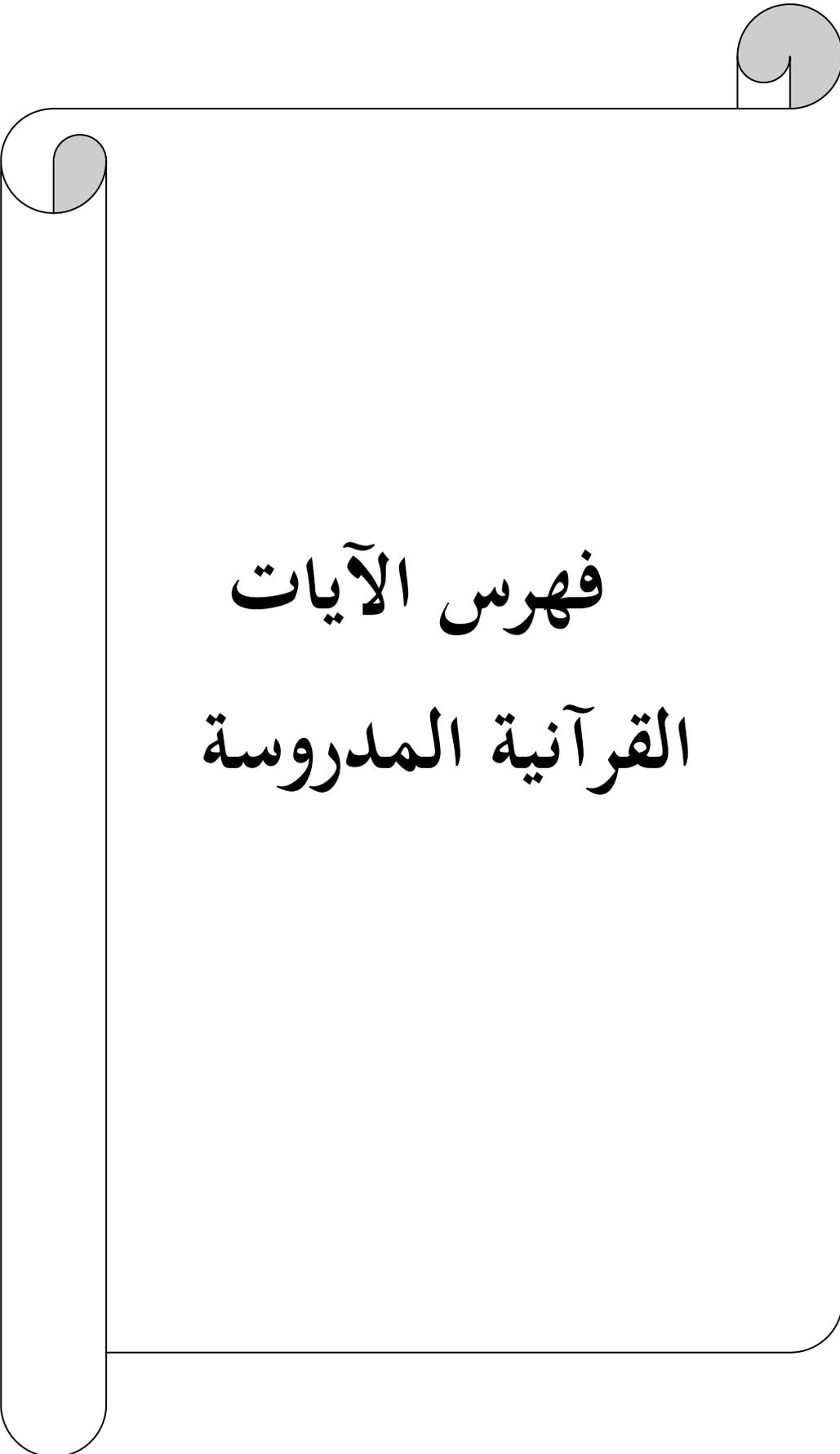
- 129 ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تح: محمد بدر الدين النعساني، طبع على نفقة محمد أمين الخانجي، مصر، ط1، 1327هـ
- 130 ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي)، تفسير القرآن العظيم، تح: مصطفى السيد محمد وغيره، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة، ط1، 2000 ، 10.
- 132 ابن مالك، شرح التسهيل، تح: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، الجيزة، مصر، ط 1، 1990، 4.
- 133 الماوردي ، النكت والعيون، تح: السيد عبد المعصوم بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج6.
- 134 المبرد(أبو العباس)، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت، ج 2.
- 135 المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، المقتضب، تحقيق عبد الخالق قميحة، القاهرة، 1994، ج2.
- 136 محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، ج25.
- 137 محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، 1999.
- 138 محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل 2003 .
- 139 محمد بن أحمد بن جزى الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 3، 1981، ج 2.
- 140 محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المحصول في علم الأصول، تح: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، ط 1، 1400، ج3.
- 141 محمد بنيس، الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، 1979.
- 142 محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1994.
- 143 محمود توفيق محمد سعد ، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، شبين الكوم ، ط 1، 1422.
- 144 محيي الدين الكافيجي، شرح قواعد الإعراب لابن هشام ، تح: فخر الدين قباوة، دار طلاس، دمشق، ط1 ، 1989.
- 145 المرادي (الحسن ابن أم قاسم) ، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تح:عبد

- الرحمان علي سليمان، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 2001، ج 4.
- 146 المرادي (الحسن ابن أم قاسم) ، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1، 1992.
- 147 المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، تح: ف. كزكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1982
- 148 المرزباني(أبو عبيد الله محمد بن عمران)، معجم الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1982.
- 149 مصطفى عبد السلام أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مطبعة القرآن، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 150 مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت لبنان.
- 151 مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط 28، 1993، ج2.
- 152 ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، 7، 11.
- 153 موسى بن مصطفى العبيدان، دلالة تركيب الجمل عند الأصوليين، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط 1، 2002.
- 154 موسى رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن، ط 1، 2003
- 155 موسى رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2003.
- 156 موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، الأردن، ط1، 2003.
- 157 ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، ص:693. وابن هشام، قطر الندى وبل الصدى، مطبعة السعادة، مصر، ط 1، 1963.
- 158 ابن النديم (محمد بن إسحاق أبو الفرج)، الفهرست، دار المعرفة ، بيروت ، 1978.
- 159 ابن هشام، شرح شذور الذهب ، دار الفكر ، بيروت لبنان، ط 1، 2003.
- 160 ابن هشام ، شرح قواعد الإعراب محيي الدين الكافيجي ، تح: فخر الدين قباوة.، ط. 1 ، دار طلاس ، دمشق، 1989 .
- 161 ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، التراث العربي، الكويت، ج 1، 2.

- 162 ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ج4.
- 163 يحيى بن حمزة العلوي، الطراز، دار الكتب الخديوية، القاهرة مصر، د.ط، 1332هـ، مقدمة الناشر، ج1.
- 164 ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح ، ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، 1.
- 165 ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي)، شرح مفصل الزمخشري، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة مصر، د.ط، د.ت، ج2.

مجلات وأطاريح ومواقع إلكترونية:

- 1 إبراهيم بن منصور التركي، البنية التركيبية: قراءة في التراث البلاغي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج19، ع40، ربيع الأول 1428هـ الموافق ل 2008م
- 2 بان موكاروفسكي، اللغة المعيارية واللغة الشعرية، ترجمة ألت كمال الروبيي، مجلة فصول(الأسلوبية)، مج 5، ع10، 1985.
- 3 حسن منديل حسن العقيلي، مقال: الأسلوبية العربية الإسلامية، <http://www.voiceofarabic.net>
- 4 حمد علي فالح مقابلة، الدلالة التركيبية لدى الأصوليين في ضوء اللسانيات(أطروحة دكتوراه)، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني 2006.
- 5 مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية دورية سنوية محكمة، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، الجماهيرية العظمى ، 1999، السنة الخامسة العدد الخامس
- 6 محمد محمود عوض الله، أثر الدلالة النحوية في مباحث التخصيص المتصل عند الأصوليين(رسالة ماجستير)، 2005.



فهرس الآيات
القرآنية المدروسة

فهرس الآيات القرآنية المدروسة، حسب ترتيب المصحف للسور والآيات

الصفحة	رقم الآية	السورة، ونص الآية
		البقرة.....
138	17	﴿ مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ البقرة.
191	17	﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة.
244	20	﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة.
231	24	﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة.
151	38	﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِثِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة.
179	80	﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ: أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة.
146	87	﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة.
224	97	﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة.
147	100	﴿ أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة.
201	103	﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة.
240	103	﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ البقرة.
239	115	﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة.
118	120	﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِجْيٍ ﴾ البقرة.

ولا نصير ﴿ البقرة.

- 201 145 ﴿ وَلَمَّا آتَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحَبْرِ وَقَالَتْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ الْقِسَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ. ذَلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن رَّبِّكَ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ البقرة.
- 213 145 ﴿ وَلَمَّا آتَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحَبْرِ وَقَالَتْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ الْقِسَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ. ذَلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن رَّبِّكَ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ البقرة.
- 184 152 ﴿ فَادْكُرُوا فِي آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ البقرة.
- 194 165 ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿ البقرة.
- 223 178 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ. ذَلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن رَّبِّكَ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ البقرة.
- 190 180 ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا لِّلْوَالِدَيْنِ ﴿ البقرة.
- 117 217 ﴿ وَمَنْ يَزِدْكَ مِّنْكَمَّ عَنْ دِينِهِ فَمَا لِيُكْفَرُ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴿ البقرة.
- 130 217 ﴿ وَمَنْ يَزِدْكَ مِّنْكَمَّ عَنْ دِينِهِ فَمَا لِيُكْفَرُ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ البقرة.
- 139 270 ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ البقرة.
- 161 271 ﴿ إِنَّ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿ البقرة.
- 119 283 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴿ البقرة.
- 142 284 ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴿ البقرة.

آل عمران....

- 236 19 ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ آل عمران.
- 252 20 ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿ آل عمران.
- 216 20 ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ

- تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿ آل عمران .
- ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ آل عمران .
- 232 28
- 235 28 ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ " آل عمران
- 182 31 ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران .
- 161 75 ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطْعَةٍ لِيُؤَدَّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدَّهُ إِلَيْكَ ﴾ آل عمران .
- 234 76 ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران .
- 202 81 ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ. ﴾ آل عمران .
- 238 92 ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران .
- 233 94 ﴿ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ آل عمران
- 238 97 ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران .
- 169 106 ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ آل عمران .
- 241 106 ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ آل عمران .
- 220 111 ﴿ وَإِنْ يُعَابِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ آل عمران .
- 150 14 ﴿ أَفَأِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران .
- 237 144 ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ آل عمران .
- 192 152 ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ مُحْسِنَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ آل عمران .
- 262 154 ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ آل عمران .

﴿ وَكُنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ 157 202
آل عمران.

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران. 160 215

﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران. 165 147

﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ ﴾ آل عمران. 167 227

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَاتَّبَعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ ﴾ آل عمران. 167 262

﴿ فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ آل عمران. 185 254

النساء...

﴿ وَإِنْ حِفْظُهُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ. فَإِنْ حِفْظُهُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ النساء. 3 257

﴿ وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ النساء. 9

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ النساء. 78 213

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ النساء. 78 239

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ . 112 129

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّبَتُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء. 139 179

﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا ﴾ النساء. 142 124

﴿ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خُفِّفُوا أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ النساء. 149 135

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ النساء. 153 186

المائدة....

- ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ المائدة. 116 6
- ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ المائدة 131 39
- ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ. وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ﴾ المائدة. 162 42
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة. 225 54
- ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَاتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ 246 67
- ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ 252
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا
فَعِزَاءٌ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ
كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ ﴾ المائدة. 203 73
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا
فَعِزَاءٌ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ
كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ ﴾ المائدة. 134 95
- ﴿ إِنْ كُنْتَ قَاتِلُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة. 218 116
- ﴿ إِنْ كُنْتَ قَاتِلُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة. 258 116

الأنعام....

- ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ الأنعام. 131 55
- ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ الأنعام. 188 157
- ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا أَمْثَلَهَا
وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ الأنعام. 159 160

الأعراف ...

- ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ الأعراف. 135 245
 قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا
 بَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا الأعراف. 143 256

الأنفال ...

- ﴿ فَلَم تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾
 الأنفال. 17 177
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ الأنفال. 29 133
 ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّي فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنفال. 56 178
 ﴿ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القتَالِ إِن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ
 يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
 يَفْقَهُونَ. الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
 صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِاللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
 الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال. 65-66 263

التوبة....

- وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة. 5 137
 ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التوبة. 39 228
 ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ التوبة. 40 237
 ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ التوبة. 40 265
 ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا
 إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ التوبة. 58 218
 ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ التوبة. 59 199
 ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُجَادِدِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ
 الحَزِيُّ العَظِيمُ ﴾ التوبة. 63 226

﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة. 219 96

يونس... .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ: "اللَّهُ" فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس. 183 31

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. ﴾ يونس. 160 86

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس. 259 94

هود... .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ هود. 189 31

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هود. 250 34

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ هود. 255 34

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ هود. 244 74

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هود. 193 80

يوسف... .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْحَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْنَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يوسف. 192 15

الرعد... .

﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ: أَئِنذًا كُنَّا تَرَابًا أَتَنَّا لَقِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ ﴾ الرعد. 144 5

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ ﴾ 195 31

لَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا ﴿ الرعد.

إبراهيم...

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾
إبراهيم. 224 7

النحل...

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل. 135 97

الإسراء...

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ الإسراء. 125 7
﴿ كُلَّمَا حَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ الإسراء. 247 97

الكهف...

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ
رَبِّي. وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ الكهف. 260 109

طه...

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ طه. 142 7
﴿ أَنْ أَفْذِيهِ فِي الثَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ
لِي وَعَدُوُّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ طه. 172 39
﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ طه. 119 112

الأنبياء...

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ
ظُهُورِهِمْ ﴾ الأنبياء. 208 39

﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ الأنبياء. 252 47

المؤمنون...

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾
المؤمنون. 188 91

النور...

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ النور. 200 10

﴿ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ مَحْصُنًا لَتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ 248 33

الدُّنْيَا ﴿النور.

248 33 ﴿وَمَنْ يُكْرِهْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور.

217 48 ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ النور.

الفرقان ...

250 42 ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان.

235 68 ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الفرقان.

125 72 ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُومِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ سورة الفرقان.

الشعراء ...

250 -41 ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ؟ قَالَ
42 نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِمِنَ الْمُفْرِيِّينَ﴾ الشعراء.

255 -41 ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ﴾
42 الشعراء.

123 130 ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الشعراء.

يس ...

194 -45 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَمَا تَأْتِيهِمْ
46 مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يس.

النمل ...

185 12 ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ النمل.

159 -89 ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ
90 بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النمل.

214 89 ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ النمل.

القصص ...

144 61 ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ القصص.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ القصص. 157 84

العنكبوت...

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ العنكبوت. 230 5

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ العنكبوت. 171 12

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت. 193 41

الروم...

﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ الروم. 120 36

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الروم. 180 56

لقمان...

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان. 196 27

السجدة...

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ السجدة. 202 12

الأحزاب...

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ... وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأحزاب. 204 50

سبأ...

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ. 243 39

فاطر...

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

159 2 الصافات... 18

﴿ إِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ قَوْمٍ مِمَّا تَشَاءُ فَأَبَتُوا لِآبَائِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِهِمْ لَا يَقْتُلُوا آبَاءَهُمْ أُولَٰئِكَ ذُنُوبُهُمْ بَدَلَتْ أَعْيُنُهُمْ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الَّتِي يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

252 4 الزمر... 18

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الزمر.

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الزمر.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ الزمر.

غافر...

182 60 ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر.

الشورى...

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الشورى.

الزخرف...

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَايَاتُنَا إِذًا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ الزخرف.

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ الزخرف.

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الزخرف.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ. سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الزخرف.

محمد....

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد.

الفتح...

﴿ لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِمَ لِيُذْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الفتح.

الحجرات...

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الحجرات.

الواقعة...

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَارْجُحْهُ وَرِجْحَانُ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ الواقعة.

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَارْجُحْهُ وَرِجْحَانُ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ الواقعة.

الصف...

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الصف.

التغابن....

﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن.

الطلاق...

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ الطلاق.

الملك...

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ الملك.

المطففين...

﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ المطففين.

الانشقاق...

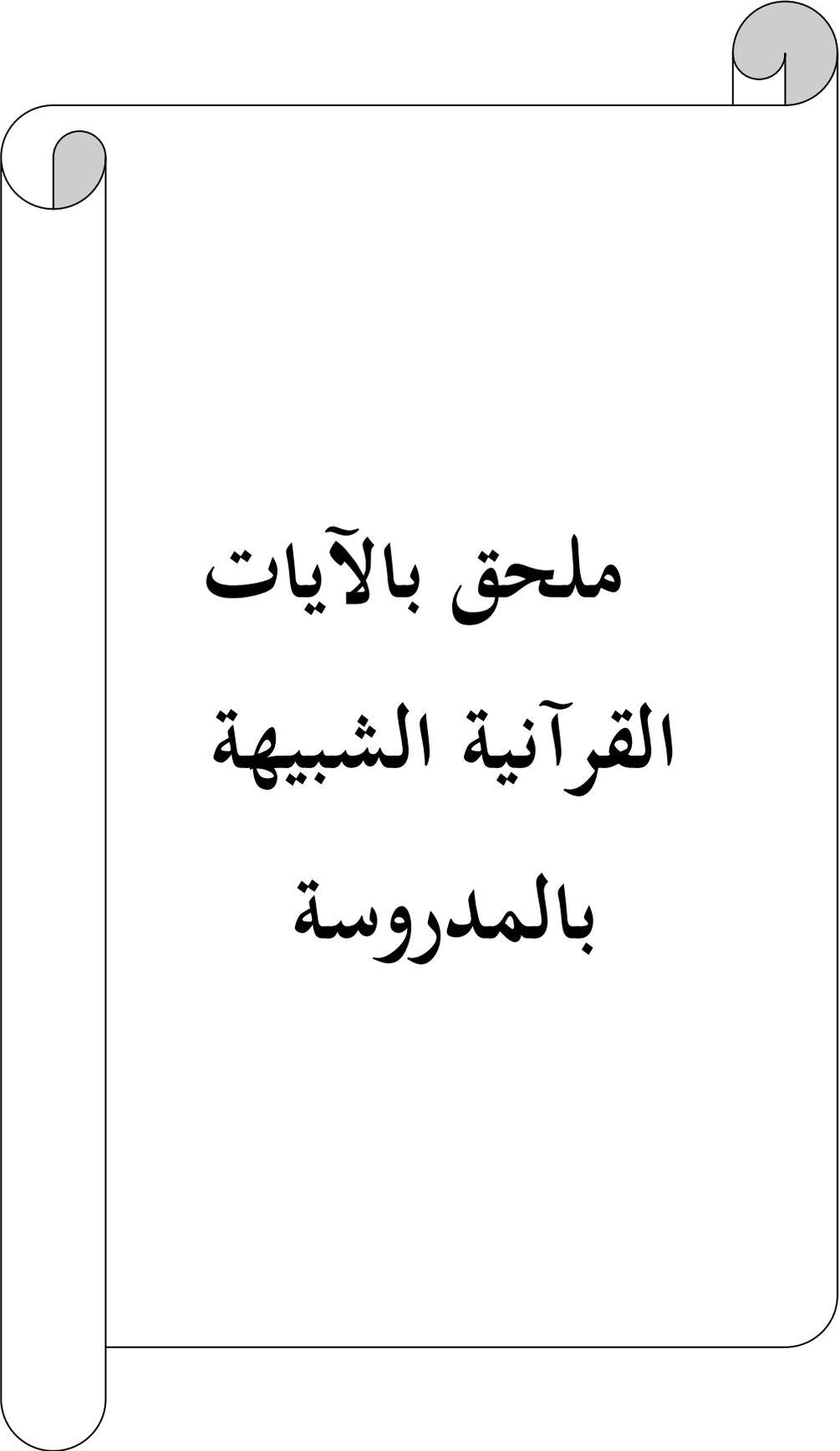
﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ الانشقاق. 1 206

الفجر...

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيُفْضِلُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الفجر. 15 242

الزلزلة...

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة. 6-7-8 160



ملحق بالآيات
القرآنية الشبيهة
بالمدرسة

ملحق بالآيات القرآنية الشبيهة بالنماذج المدروسة:

يجمع الملحق الآتي نماذج من الآيات القرآنية الشبيهة بالآيات المدروسة. وكان هدف الباحث منه هو مجرد إمداد القارئ بالمزيد من الآيات التي يرى أنها مطابقة لما سبق تحليله، أو تكاد تكون مطابقة لها. على أن المطابقة يقصد بها وجود قاسم مشترك مبین بالعنوان الذي تنتظم تحته كل مجموعة. وبطبيعة الحال، لم يقدم الباحث مسردا للنماذج القرآنية المحدودة العدد؛ لأنه تم حصرها وتحليلها جميعا، مثل الزيادة بتقييد جواب الشرط.

كما أن الباحث كان يهدف إلى تقديم نماذج إضافية من شأنها توسيع الفكرة الدلالية والجمالية التي توصل إليها في أثناء التحليل الأسلوبي. ولم يكن غرضه استقصاء جميع الحالات. بل جعل التحليل يتناول جميع الحالات إذا كانت لا تتجاوز الأربع في مدونة القرآن الكريم، وما تجاوز ذلك العدد تناول منه أكثر من أربع حالات بالتحليل والدراسة لكثرتة، وذكر في الملحق بعضا آخر من النماذج المماثلة على سبيل الاستزادة لا على سبيل الاستقصاء.

العدول بالزيادة:

1. الشرط المعضود:

﴿ وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: 120.
 ﴿ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ آل عمران: 94.
 ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ النساء: 30.
 ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ طه: 74-75.

2. الزيادة بذكر المقابل:

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ البقرة: 137.
 ﴿ إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران: 160

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ النساء
:13-14

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ النساء:79.

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ النساء:80.

﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ النساء:85.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ أَصْفَادَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ الروم: 14-15-16.

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ الروم: 44_45.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ السجدة: 18-20.

﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴾ النمل:40.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النمل: 89-90.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فاطر:2.

3. الزيادة بدخول القسم والاستفهام المعبر عنه بالسؤال:

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ العنكبوت:61.
وقوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ العنكبوت:
63.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَحُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ التوبة: 65.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ لقمان:25.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ سورة الزخرف: 87.

العدول بال حذف:

1. حذف الأداة والفعل الشرط:

﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ الكهف: 14.

الاستبدال:

1. استبدال الأداة:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ... ﴾ البقرة: 25.

﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ آل عمران:
﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ آل عمران:

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ الزخرف: 55.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فاطر: 2.

2. استبدال متعدد(الأداة والجواب):

﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران: 144.

3. استبدال الرابط:

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ الروم: 25.

4. استبدال الأداة و فعل الشرط وجوابه.

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ آل عمران: 28.

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: 76.

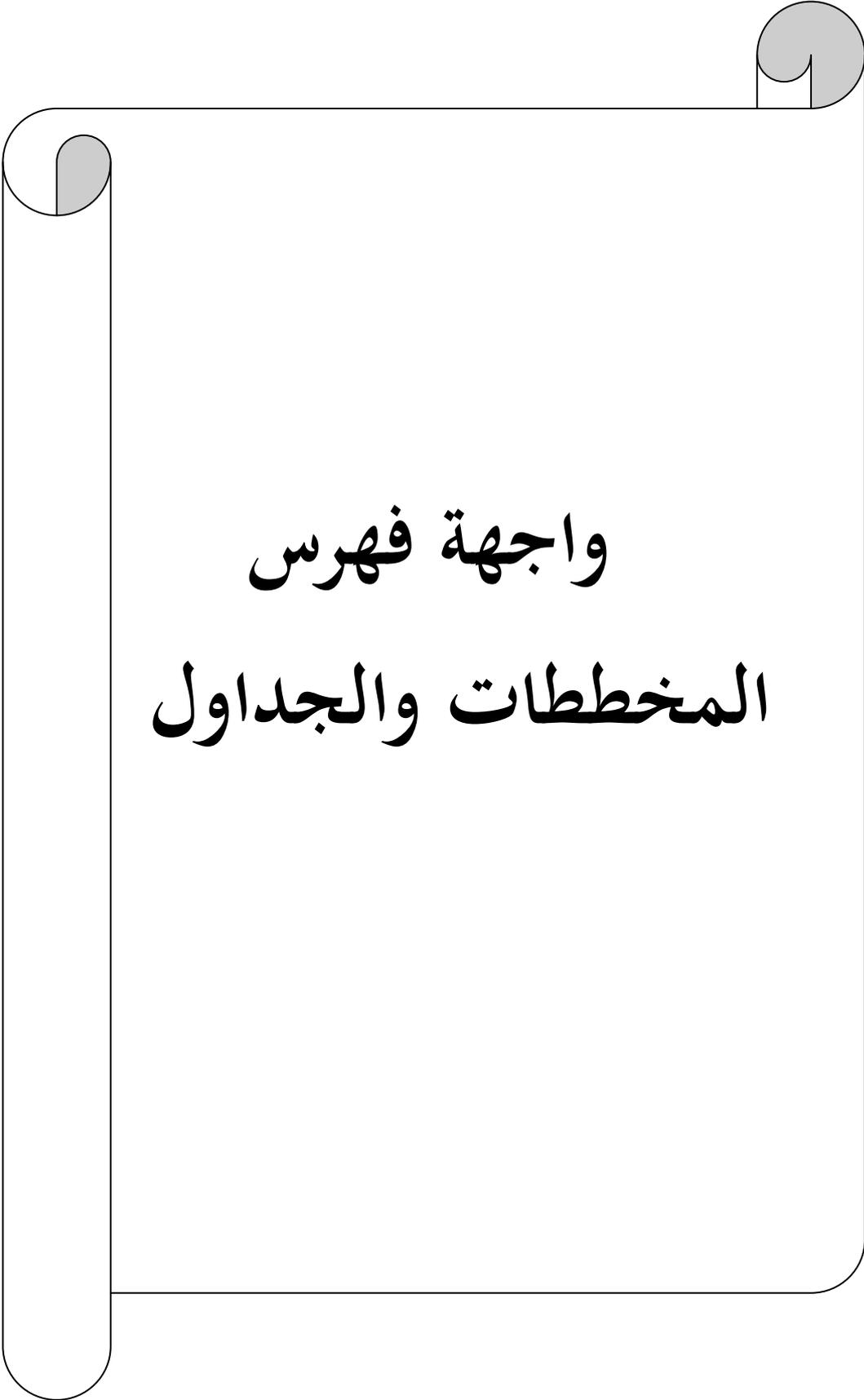
تقديم الجواب:

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ آل عمران: 93.

﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا ﴾ آل عمران: 112.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي ﴾

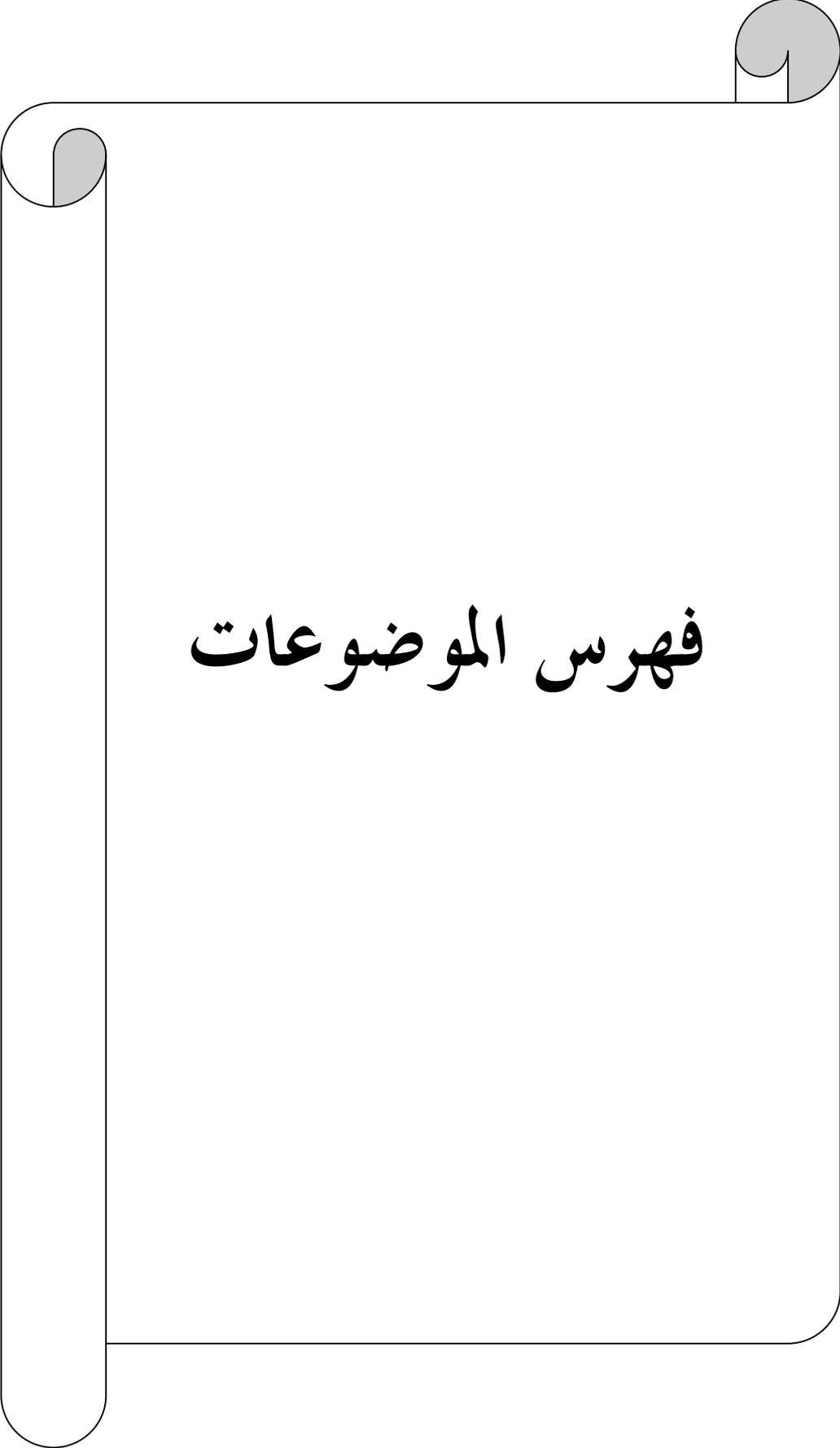
المتحنة: 1.



واجهه فهرس
المخططات والجداول

فهرس المخططات والجداول :

الصفحة	المخططات والجداول:
56	المخطط 1: عملية الاختيار في دائرة الاتصال
111	الجدول 1: استقصاء حالات الانفراد والتعدد في الشرط والجزاء
130	الجدول 2: كمية التخصيص في آية 12 من سورة النساء
132	الجدول 3: كمية التخصيص في آية 7 من سورة محمد
134	الجدول 4: كمية التخصيص في آية 29 من سورة الأنفال
137	الجدول 5: كمية التخصيص في آية 14 من سورة النساء
139	الجدول 6: كمية التخصيص في آية 17 من سورة البقرة
142-140	الجدول 7: جامع لأنماط تخصيص الشرط والجزاء مع أمثلتها
186	الجدول 8: العناصر المحذوفة في آية 12 من سورة النمل
199	جدول 9: التقديرات المحتملة للمحذوف في آية 73 من سورة الزمر
203	الجدول 10: تقدير الجواب المحذوف في آية 81 من سورة آل عمران
232	الجدول 11: مواقع الاستبدال في آية 24 من سورة البقرة



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

العنوان	الصفحة
المقدمة	ب - و
المدخل	14-8
الفصل الأول: العدول في الفكر البلاغي والنحوي عند العرب، وفي علم الأسلوب الحديث..15-60	
تمهيد	16
المبحث 1- العدول في الفكر البلاغي والنحوي عند العرب	16
المطلب 1- " العدول " في اللغة والاصطلاح	16
المطلب 2- العدول تغيير في الصياغة	17
المطلب 3- الألفاظ الرديفة للعدول في التراث العربي.	18
1. التغيير.	18
2. الانحراف	21
3. الإبداع، والاختراع	21
4. اللحن	24
5. الغرابة	25
المطلب 4- العدول في التراث العربي، إجراءاته وجمالياته	26
1. أهمية العدول عن المؤلف	40
2. الأصل والفرع عند علماء النحو والبلاغة	43
أ) العدول ضمن إطار الجملة عند النحاة العرب	43
ب) شروط العدول عن هذه الأصول	44
ج) طبيعة القواعد الأصلية والفرعية.	45
د) أسباب العدول عن الأصل إلى الفرع	45
هـ) المعيار لدى النقاد والبلاغيين العرب	47
المبحث 2- الانزياح والمعيار في الأسلوبية	50

50	المطلب 1- مفهوم الأسلوب.....
51	المطلب 2 - تعدد مفهوم الأسلوب
52	المطلب 3 - دعائم الأسلوب
57	المطلب 4 - التوافق بين مفهوم "العدول" العربي ومفهوم "الانزياح" الغربي
58	المطلب 5 - المعيار.....
60	المطلب 6 - المعيار المعمول به في البحث.....
110 - 64	الفصل الثاني: الشرط ، أدواته وأحكامه وقضاياها الدلالية.....
65	تمهيد.....
65	المبحث 1- مفهوم الشرط.....
65	المطلب 1- المفهوم المعجمي للشرط
66	المطلب 2 - الشرط لدى النحاة.....
68	المطلب 3- الشرط في مباحث أصول الفقه.....
69	المطلب 4 - أحكام في أدوات الشرط وبيئتها
69	المبحث 2- أدوات الشرط في المباحث اللغوية
70	المطلب 1- أدوات الشرط الجازمة
70	1. الأداة "إن".....
72	2. الأداة : "من".....
73	3. " ما " و" مهما "
74	4. الأداة: "أي".....
75	5. الأداة : "متى"
76	6. الأداة "أيان".....
76	7. الأداة " أين "
76	8. الأداة " أتى "
77	9. الأداة "حيثما".....

77	المطلب 2- أدوات الشرط غير الجازمة
77	1. الأداة : "إذا "
79	2. الأداة : " لو "
83	3. الأداة: لولا- لوما : معناهما وأحكامهما النحوية
84	4. الأداة لَمَّا :
84	5. الأداة "أمأ"
87	6. الأداة : " كلما "
88	7. الأداة : " كيف "
89	المطلب 3 - الشرط بلا أداة، أو الشرط الضمني.
90	المطلب 4 - أحكام عامة في طبيعة الشرط والجزاء
92	1. الربط في التركيب الشرطي
96	2. الحالات التي يجب فيها ربط الجواب بالشرط عن طريق الفاء
98	3. نغية "إذا" الفجائية الفاء
100	4. اللام في جواب لو ولولا
100	5. أحكام تخص بالشرط والجزاء من حيث الصورة.
101	المطلب 5 - الرتبة في التركيب الشرطي
102	1. تقدم الجواب عن الشرط
104	2. اتصال الشرط بالكلام وانفصاله عنه
105	المبحث 3- الشرط الحقيقي والشرط المطلق
105	المطلب 1- معنى الشرط على الحقيقة والإطلاق، وعلاقته ببنية التركيب
105	2. ركائز الشرط الحقيقي
106	3. التركيب الشرطي والحكم بالصدق أو الكذب
107	4. أحكام نحوية ودلالية ناجمة عن مطلق التعليق
108	المبحث 4- التركيب الشرطي والتخصيص

108	المطلب 1- دلالة الشرط على التخصيص
109	المطلب 2- الانفراد والتعدد في الشرط والجزاء
163 - 112	الفصل الثالث: دلالات العدول بالزيادة في التركيب الشرطي
113	تمهيد...
114	المبحث 1- الزيادة في التركيب الشرطي
116	المبحث 2 - الزيادة بعضد الشرط (أو الشرط المعضود)
121	المبحث 3- الزيادة بتقييد فعل الجواب
126	المبحث 4- الزيادة في التخصيص والرفع منه
143	المبحث 5- الزيادة بدخول الاستفهام
148	المبحث 6- الزيادة بدخول القسم
149	المبحث 7- الزيادة بدخول الشرط على الشرط
150	المبحث 8- الزيادة باعتراض الشرط على الشرط
151	المبحث 9- التراكيب الطلبية المجازة
153	المبحث 10- الزيادة بعطف المقابل للتركيب الشرطي
153	المطلب 1- الزيادة بعطف المقابل
154	المطلب 2- دلالة المفهوم في التركيب الشرطي
209-164	الفصل الرابع: دلالات العدول بالحذف في التركيب الشرطي
165	تمهيد
165	المبحث 1- الحذف لغة واصطلاحاً
165	المطلب 1- الحذف في اللغة
165	المطلب 2 - في الاصطلاح
170	المبحث 2- الحذف في التركيب الشرطي
170	المطلب 1- حذف الأداة
173	المطلب 2 - حذف فعل الشرط

177	المطلب 3 - حذف الأداة وفعل الشرط معا
190	المطلب 4 - حذف الفاء
191	المطلب 5 - حذف جواب الشرط
191	1. حذف الجواب المفهوم من السياق
201	2. حذف الجواب استغناء عنه بجواب غيره
208	المطلب 6 - حذف التركيب الشرطي بجميع عناصره
264 - 210	الفصل الخامس: العدول بالاستبدال وبالتقديم وبالخروج من المجازة
211	تمهيد
211	المبحث الأول - العدول بالاستبدال
212	المطلب 1- استبدال الأداة
214	المطلب 2- استبدال فعل الشرط
214	المطلب 3 - استبدال فعل الشرط، وجوابه
217	المطلب 4 - استبدال الفاء الرابطة بـ "إذا" الفجائية
220	المطلب 5 - استبدال فعل الجواب
230	المطلب 6 - الاستبدال في عناصر التركيب الشرطي الثلاثة
249	المبحث الثاني- العدول بتقدم الجواب
251	المبحث الثالث- خروج الشرط والجواب من باب المجازة
267-266	الخاتمة
280-268	قائمة المصادر والمراجع
294-281	فهرس الآيات المدروسة
298-295	ملحق بالآيات الشبيهة بالمدروسة
300-299	فهرس المخططات والجداول
306-301	فهرس الموضوعات